

شُعَيْب حَلِيفِي

الرحلة في الأدب العربي



مكتبة
الندب
المغربي

التجنس، آليات الكتابة، خطاب المتخيل



الهيئة العامة للصور الفوتوغرافية
كتابات نقدية - شهرية (121)

أبريل ٢٠٠٦

التدقيق اللغوي : ممدوح بدران

رئيس مجلس الإدارة

أنس القنقش

أمين عام النشر

محمد السيد عيد

الإشراف العام

فكري النقاش

كتابخانه نقدية

121

الرحلة في الأدب العربي

د. شعيب خليلي

رئيس التحرير

د. مجدى توفيق

مدير التحرير

رضا العسري

سكرتير التحرير

ناتمسى بسميز

مقدمة

عرفت البشرية الرحلة باعتبارها فعلا إنسانيا، في كل المراحل، وبأشكال مختلفة، حاملة لتجارب وخبرات اختلط فيها اليومي بالمتخيل بتلوينات وإشارات دالة.

ويمكن اعتبار القرن التاسع الميلادي ـ حسب ما هو متوفر الآن ـ بداية التاريخ للرحلات العربية المكتوبة مع اتساع دائرة التأليف في التصنيف وفي الرسائل المتصلة بالمسالك والمعالك وغير ذلك، فتعددت الكتابات الرحلية في مجالات ارتبطت بتخصصات مزلفيها في التاريخ والجغرافيا والأدب والخدمات السفارية وفي فروع أخرى مع أسماء واضحة وأخرى ملتبسة مازال الغموض يكتنفها سواء في شخصيتها أو في رحلتها.

وقد تميزت هذه البداية بكونها مرحلة أولى تمتد إلى حدود

القرن الثامن عشر أو قبله بقليل ، بما تضمنته من مستويات ونصوص متنوعة ذات منحى تاريخي وجغرافي وأثنوغرافي ، وما صاحب ذلك من آثار ذاتية ملفتة للنظر .

المرحلة الثانية تشكلت في اتصال مع المرحلة السابقة خلال القرنين الأخيرين ، لكن بخصوصيات أخرى ، وفي ظروف محددة بعلاقة العرب بالآخر غير العربي عبر نصوص رحلية سفارية أساسا وأخرى زيارية .

من ثم فإن الرحلة عموما هي من أولى الأشكال التعبيرية التي استعملت فيها الكتابة بضمير الأنا دون تخرج ، ومن الأشكال التي تطرح فيها ، باستمرار ، صورة الآخر ، مما يستتج معه أن الرحلات العربية قبل القرن الثامن عشر تهتم . في العموم . بالتوجه نحو الأراضي المقدسة والأماكن الزيارية ، فيما باقي النصوص السفارية أو السياحية التي زلزلت أراضى غير عربية شكلت صورا حاضرة للآخر الأجنبي ، ينظر إليها تودوروف في كتابه " اكتشاف أمريكا سؤال الآخر " (1) من خلال نصوص أوربية مشترطا أربع مراحل كبرى في تلاقى الأوربيين بساكنة العالم الجديد : الاكتشاف ، الغزو ، الحب ثم التواصل ؛ أما الآخر في الرحلات العربية ، فالمرحلة متداخلة باستمرار بين الاعتزاز بالذات والحذر والنظرة العجائبية . . . وهي مكونات مستخذة صورا أخرى في الرحلات التي سادت خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وفي كل مرحلة يتحكم المرجع الذاتي بكل مستوياته الثقافية والدينية والسياسية .

ويتضمن هذا المؤلف : " الرحلة في الأدب العربي " عدة مسارات ومنطلقات للبحث والتحصيل ؛ وقد اخترت بعض الجوانب للتنقيب فيها من قبيل كيفية تجنس الرحلة عبر مراحلها المتشابهة من جهة ؛ وآليات الكتابة فيها بمكوناتها من جهة ثانية ؛ ثم خطاب المتخيل وما يحفل به من معطيات أدبية من جهة ثالثة .

كل ذلك جعل الرحلة نصا مفتوحا على كافة الحقول بأشكال مكتملة أو جزئية . وخضع لتحويلات متتالية ، والرحلة . بتعبير فلاديمير كرزنسكي⁽²⁾ هي بتطبيقاتها متعايشة ومشاركة للتاريخ والميتولوجيا والأدب دون الحديث عن الأثنوغرافيا . . . إنها إحدى النماذج التيماتية والرمزية من الأدب الأكثر إنتاجا .

وسيجيب نفس الناقد أنها ثابت تيماتي يمر عبر سلسلة من المخططات المتحولة⁽³⁾ ، لذلك فربطها بالأدب العربي هو ربط للضرورة ، بحكم أن الأدب العربي الذي هو نسق عام شهد انصهار المخططات الرحلية وهي نص ينتمي للنسق الثقافي بكافة حقوله ، لكنه رغم امتداداته يظل مشدودا إلى دائرة الأدب لما يحمله من خطاب المتخيل والأمثلة المتجددة معه دوما .

إن الرحلة العربية في وجودها ونموها عنصرا ثم شكلا خالصا ضمن دائرة مفتوحة على أنواع صغرى وكبرى ، هي بناء يتناسل ويتشكل باستمرار ، وتكتسب بعض المميزات التي تلتقي مع بعض خصوصيات الرحلات الإنسانية ، لذلك فإن الرحلة العربية

يمكن النظر إليها بما تتوفر عليه من معطيات مكثفة بالمقارنة مع باقي الأشكال التعبيرية في التراث السردي العربي :

- **التخييل الذاتي** حيث استفاد النص الرحلي من أشكال أدبية وتاريخية (الرسائل - التراجم - الأخبار . . .) وطعم هذا بكل ما يجعل منه كتابة تتخذ من ضمير المتكلم وسيلة لإبراز الذات والهوية مقابل الآخر والغريبة ، فضلا عما لمكون السفر والانتقال من توليدات في الرؤية وزرع لعلامات دالة باستمرار .

- **التنوع في الأشكال** الرحلية وبالتالي في الأمثلة التي تجعل منها موجها إدراكيا ومتجا لخطابات وميتاخطابات كما هي متجة للمعارف .

- **التنوع في الهوية الشكافية والاجتماعية** للرحالة المؤلف ما بين أديب ومؤرخ وجغرافي ومصنف وسفير ، وغيرها من الصفات التي تطبع هويته وبالتالي النص الرحلي .

لذلك فإن تعاملات الذات بالشكل ، بالمرجع ثم بالمستوى الإدراكي في الرحلة تظل حاضرة ومتنوعة ؛ فعند أبي دلف ينبنى النص باعتباره محكيا وتقريراً عن سفارة تؤسس لفعل الحكاية جوار الخطاب ، وكذا الحقيقة جوار الكذب المتخيل ، حيث كثير من النقاد يبحثون في المحكيات الرحلية عن الحقائق لتقييمها من منظور الكذب والصدق ، دون احترام للشكل التعبيري خلال مروره عبر قنوات ما قبل الرحلة ، وما يتضمنه من تخیلات وصور وتقييمات ، ثم الفعل الرحلي الذي يبعث عكس ما تم تصوره ؛ وأخيرا الاختصار ثم الكتابة التي تصهر كل المراحل .

إن أسئلة النص الرحلي حينما يطرحها ناقد أدبي لا يتوخى منها التقييمات ومحاكمة النوايا والتخيلات ، وإنما يندمج في تحليل البناءات الخطائية في امتداداتها الأفقية والعمودية ، سواء مع أسئلة المرحلة الثقافية والسياسية أو الأسئلة الجديدة التي تحتوي على نباهة فريدة من مثل أسئلة الغيرية والهوية والمحمولات الشكافية والايديولوجية في النص الرحلي ، ثم بلاغة الوصفي وقدرته على التعجيب والتقييم الضمني والتكيف .

هذا التالي من الأسئلة التي يتضمنها النص الرحلي هو دائما مفتتح لعقاريات شتى في مستويات الدلالات وجمالية الشكل ، لكون الرحلة تأوي خطابات وطبقات قولية تتجه لأكثر من متلق مما يولد هذا الجدل الرمزي الذي يشري التأويل ويجعل من خصوصية الرحلة العربية مشهدا ينتمي إلى النسق الثقافي العربي ويختلف في بلاغة الأهداف المتوخاة في بعض المناسبات ، كما يحدد كريزنسكي ذلك وهو يدرس الرحلة والرواية ؛ و تودوروف في حديثه عن الرحلة الاستكشافية ومسألة الغيرية والمراحل الكبرى في تلاقي الأوربيين بساكنة العالم الجديد ، كذلك الأمر عند ماري لويس برايت في مؤلفها " العيون الامبريالية " وهي تقارب نصوصا رحلية استعمارية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، إذ خلصت في استنتاجاتها أن كتابة الرحلة تتأسس على مبادئ جمالية وإيديولوجية ، أما المبادئ الكبرى المتحكمة في هذا النوع الرحلي فهي جمالية المشهد وكثافة المعنى ثم العلاقة

الامتازية المسيطرة، وهي عناصر ثلاث تعمل كمحامل فني جمالي للإيديولوجية الفكرية.

لأشك أن العين الامبريالية التي طبعت رحلات غربية شتى تحولت إلى تقارير ومذكرات ورسائل مستقرينا كثيرا من العين المنتهشة الموجودة في النص الرحلي العربي.

إن هذا الانفتاح على النص الرحلي العربي من خلال مقارنة النص والخطاب أو مساءلته من منظور الصورولوجيا تحقيقا في صور الهوية والغيرية أو من منظور مقارن أو غير ذلك، لا يعني النقد الأدبي من مواصلة التنقيب والتفكيك في هذا الجزء من التراث السرد العربي، في التجنيس وفي الأشكال وفي الأنواع ثم في البعد الفني للمرجع الديني والسياسي والثقافي والجمالي كمحدد أساسي في فهم البعد التاريخي للنص الرحلي.

وقد سعت في هذا المؤلف إلى مقارنة نصوص ممتدة خلال ثمانية قرون (18.10 م) لكل من أبي دلف، ابن فضالان، الغرناطي، ابن جبير، ابن بطوطة، ابن الحاج النعمري، العبدري، ابن الجيعان، ابن قنفذ، أفوقاي، ابن أبي محلي والنبلسي وغيرها من النصوص التي وردت لتعزيز الامتياز، وذلك بتحليل متدرج بين الطرح النظري والتحليل النصي من خلال مستويات كبرى هي: تجنس الرحلة، آليات الكتابة ثم خطاب المتخيل.

في مدخل هذا الكتاب إضاءات حول التنوع في نسق الثقافة

العربية والتحولات التي رافقت سيروية السرد العربي في مراحلها الأولى، ثم المراحل المتفرعة وتأطيراتها ومرجعياتها وأيضا الأشكال البارزة المعهنة ومستوياتها الفنية، وصولا إلى الرحلة في شكلها الخالصين 'العنصر المدعم والحافز على الحكيم ثم النص الرحلي "الكامل" .

وفي القسم الأول : "تجنس الرحلة" ناقشت عبر ثلاثة فصول مسألة المفهوم والأسس من خلال بسط الإشكالية الأجاسية للرحلة في أربع محطات متصلة : هي الانسحاب المفتوح والوعي بالرحلة نصا وخطابا ثم دائرة التخصيب مع مجموعة من الأشكال التعبيرية من مختلف الحقول، وأخيرا الخلوصل إلى تنسيب مقترح بمفهوم الرحلة .

ويروم الفصل الثاني استكمال البحث في نفس المحور، وذلك بمقارنته لثنائية هامة في الشكل (من العنصر إلى البنية) هي لحظات نمو الرحلة وتطورها من كونها ظاهرة اجتماعية ثم هدفا مشتركا إلى مرحلة النضج داخل بنية الإرث الحكائي .

أما الفصل الثالث الذي هو بحث في أنواع الرحلات في الأدب العربي فينظر إلى مسألة التجنيس من زاوية انفتاحه وتعدديه ضمن مسار التنوع وفي إطار علاقة النص بالتنوع، وذلك بالوقوف عند ثلاثة أنواع كبرى : الحجيجة-الزيارية، رحلات المشافقة ثم الرحلات السفارية، وجميعها تستقطب أنواعا شتى فضلا عن جزء يستجلي الرحلة المتخيلة عبر حضورها الأدبي والفني .

القسم الثاني : 'آليات الكتابة في النص الرحلي' وهو واسطة هذا المؤلف ويتضمن خمسة فصول تقارب العتبات في جزء أساسي منها . العنوان ، المقدمة ثم البداية ، باعتبارها علامات ومسارات ومشاهد لتفكيك بنية موازية للنص الرحلي تشغل فضاء مرآتيا يوجه المثقفي ويقوده إلى خيالات الواقع .

الفصل الثاني : بهم السرد وبنية الجملة يدرس سرديّة الرحلة عبورا ووصولا ثم مميزات وأنماط الجملة السردية من قبيل الحبر التاريخي والاحتماعي والأدبي والديني ، وأيضا السند الحقيقي والخيالي ، المباشر وغير المباشر ثم أفعال الانطلاق والتجسير ثم المرجع الحقيقي والتمثيل وطبيعة الإدراك .

هذا إضافة إلى البحث في الاستراتيجية السردية وفي أنواع السرد والعناصر والأسس وهي خمسة : السفر ، العبور ، المعرفة ، الدائرة والمتعة .

الفصل الثالث البناء والخصوصية ويتضمن ثلاثة نقط رئيسية حول الصورة ، الراوي ثم الآخر ، وتعرض لتحول الرحلة وتحول قنوات الواقع والذهن إلى لغة تخيلية تستحضر ما ارتبط بالحنين والتذكر بتقديم صور ينقلها الراوي في ذهنه كما عاشها أو تخيلها إلى اللغة بين مبدأ الواقعي والمحتمل ، واستكشافا لخيالها اشتغال الصورة داخل البناء الرحلي وكيفية تمثيلها للرؤى والمسموعات والتمثيلات ، والراوي والآخر الممثل للغيرية بأشكالها كما رسمتها أقلام الرحالة العرب .

وبالمعنى الفصل الرابع المبدأ الواقعي في الرحلة بالصورة

النسبية التي تجعله متراوحاً بين التقريرية والاحتمالية ، حيث ينخرط هذا الفصل في مقارنة بنية الفضاء والزمن من داخل كثافة واقعية وأيضاً آليات تلقي الأخيلا .

ويأتي الفصل الخامس " شعيرية النص الرحلي " لاختبار نموذج تحليلي لرحلة ابن فضلان للاقترب من المكونات المعروضة آنفا .

القسم الثالث حول خطاب المتخيل من خلال تنوع حضور مظهراته خصوصاً في مهيمنين أساسيين هما الحلم والعجاني في تكسيرهما لعلاقة الراوي بواقعية الحكيم والأحداث ، وعمدهما إلى تضيد الحكيم وتفاعلاته بتطعيم الواقعي بالمحتمل لاستيلاد نص رحلي سردي مقترح .

ما هي الجوانب التي تلمسها وقاربها هذا الكتاب ؟ عبر ثلاثة أقسام سعت إلى تفكيك النص الرحلي انطلاقاً من تصورات تستجيب لقراءة النص السردى التراثي وخصوصاً ما تحفل به الرحلة العربية التي يتسم كل نص فيها بخصوصية وعلامة ماثرة ؛ وكذلك البحث من منظورات فنية في بنيات هذا الخطاب بأبعاده الشكلية والدلالية للاقترب من هوية النص الرحلي .

كما تم إتمام هذه الجوانب بتحليلات فرعية وموازية لنماذج رحلية في كل محطة من المحطات ، إذ مع كل نهاية جزء يتم إفراد جزء متمم للتحليل المفصل والاختباري لرحلة معينة فضلاً عن التحليلات الجزئية .

من غير شك أن التحليل الذي شمل الأقسام الثلاثة لم يكن

يسعى إلى إعطاء تقييمات بقدر ما انكب على تتبع الاجابة عن
 أسئلة من قبيل : كيف تشيد الرحلة باعتبارها كتابة ضمن الأشكال
 الأخرى ، وما صق انتماؤها للأدب أو للتاريخ أو للجغرافيا أو لعلم
 الاجتماع ؟ ما هي أسس التحويل في عناصرها ومكوناتها ؟ وما
 مدى تفاعلها مع الأشكال الأخرى القرية ؟

أمام كل هذا فإن ما توصلت إليه من نتائج نسبية هو جزء من
 أحلام كثيرة مازال تترأى لي في هذا المجال ، وهو أيضا خطوة لا
 تخلو من نقص ضروري يدعوني إلى المزيد من الحرص على
 البحث والتنقيب والتأمل ، والتسلح بطموح ورغبة في الفهم
 والتساؤل .

إحالات

1. Tzvetan Todorov - La conquête de l'Amérique la question de l'autre, . I
 Paris, Seuil, 1982.

2. Wladimir Krysinaki - Discours de voyage et sens de l'altérité in "A . 2
 viagem na literatura" . la littérature de voyage, N° 1, cursos de Ar-
 rabida, coordenação de Maria Alzira Seixo Publicações Europa-
 América, LDA, Portugal, 1997, p. 236.

3. Ibidem .

4. Pratt, Mary Louise - Imperial eyes, Travel writing and transcultura-
 tion, London, ed. Routledge, 1992, p. 204

مدخل عام

نهضت الثقافة العربية في نسقها المتنوع والمشكل باستمرار، وعلى امتداد كل العصور السابقة، بتحولاتها البارزة والخفية، على تشييدات متنوعة رسمت مسارات تجسدية ضمن تراث أدبي ثري ظلت عناصره ومفاهيمه تبلور وتبحث لها عن معنى يرتق كل الفراغات أو التمزقات المحتملة وسط مشاهد وتبدلات متنوعة ومتشابهة تطعم، وسَمَت التفكير والمنهج، ودفعت بمفهوم الأدب إلا أن لا يستقر داخل معنى واحد أو إيهام مسطح، وإنما نحت نحو مفهوم جديد يتخصب على الدوام بآثار متشعبة باختلافات فلسفية وكلامية أو معرفية أو سياسية ... مما أعطى للأدب العربي فرصة الانفتاح أكثر على الأنواع «غير المقيّدة»، ولورة معانٍ لرعية تشيد لمنظومة من الأشكال التعبيرية الأدبية

والفنية، بحيث رمرت الكلمة في القرن العاشر الميلادي إلى دلالات منها، مثلا أنها كانت «تطلق على المؤلفات المكتوبة في الشكل الخفيف والمستظرف، والمُعَدَّة لتربية الأديب المسلم المتعلم من شذلة الأدب وأهل المعرفة، وتزويده بما يلزمه وفق تصور عرب القرون الوسطى من المعارف ذات الطابع الديني وتلقينه محاسن السلوك والحكمة في القول والعمل»⁽¹⁾.

يُشكل السرد العربي صورة جلية لنمو الاشكال الشفوية المتحوّلة إلى نص مكتوب بنوجد في حقول شتى وسط كتب الأدب المتنوعة، ومؤلفات التراجم والسير والطبقات، ونصوص المقامات والأخبار، وكل التقييدات المحسوبة على التاريخ والجغرافيا الوصفية والرحلات، وأيضا في مؤلفات الفقه وعلم الحديث وعلم الكلام. ذلك أن عملية الانتقال من الشفوي إلى المكتوب سجلت بصمات أساسية في رسم تحول استراتيجي لبناءات مشتتة تحت مظف الشعر الدالي وأشكال صغرى لتاريخ الزمن، وبعض أحداثه ضمن نسق المكتوب؛ فدراسة تشكّل الأدب -بتعبير جان بيسير⁽²⁾- تنتمي إلى التاريخ، وتطرح مسألة التجانس والاستمرارية والطبيعة المشتركة، أي الانتقال من الشفوي إلى المكتوب، ومن المقدس إلى الديني، بحيث إن السرد العربي، في تشكلاته الطويلة والمعقدة، والطابع المحايت لبراغماتية الشر ووظيفته المتنامية، حقق الانتقال التدريجي، ومعه تحققت مسارات أخرى من التحول في مستويات شتى أبرزها

تحويل التجربة الذهنية أو المعيشية من أفعال وتخيلات إلى لغة شفوية و مكتوبة ضمن نسق جنسي معين . فالكتابة، مثل «التفكير ليست انعكاسا بسيطا للعالم»⁽³⁾، وإنما هي نسق من الرموز والعلامات لعناصر واقعية، أو عناصر من التجربة بنوعيتها، ومكونات أخرى لا محدودة، متداخلة، تشكل باعتبارها بنات أو عناصر مفردة، وذلك في إطار متخيل عام، حيث استطاعت «المخيلة الصاهرة» لكل العناصر «الثقافية» أن «تكتز الماضي الطويل، وأن تُبقي على الرغم من إحداثات الزمن الظرفية على الأسس المثبتة لاستمرارية (الأمة) الناقلة لثرائها»⁽⁴⁾.

وفي سياق التحولات التي قادت السرد العربي للانتقال من الشفاهية إلى المكتوب، كانت هناك عوامل محددة ساهمت في بناء نسق ثقافي مؤطر دينيا بظهور القرآن والإعجاز البلاغي، والقصص القرآني، وما أفرزته المرحلة، في ارتباطها بأيام العرب الجاهلية، من انفتاح مجموعة من الرواة والمفسرين على سرد ما جاء في القرآن وذكر المغازي، ومسيرة الرسول ﷺ ومسيرة الأنبياء والأولين، بالإضافة إلى كتب شروح الشعر المختلفة والأمثال والتراجم والطبقات، والتاريخ والبلدان، ومهام الرواة في استعادة حكي الأيام⁽⁵⁾.

هذه البنية الدينية المؤطرة بأهداف مرسومة ستعرف اتساعا يبروز أشكال محابطة تضيفي التنوع على هذا النسق الثقافي الذي يحضر فيه السرد جليا، بحيث اتسعت الدائرة لتشمل سير الملوك

الأوائل والحروب، وأيضا أدب المسامرات، والعودة إلى تقليد تواريخ ماضية حول بدء المخلوق والخلقة، ونشوء الإنسان وسط صراعه الذي لا ينتهي.

إن السرد الحكائي المدثر بأهداف دينية يتنهي الوجدان والتثبيت مُتخذاً متعة الحكيم سبيلا خرج من معطف الشموي، وأيضا التناقل الذي كان عملية دينامية تؤدي إلى آثار بالغة الأهمية في تكوين النص الشعبي شكلا ومضمونا، ذلك أن التناقل الشفوي يُحرر النص الشعبي من الأطر الثابتة والمنتهى منها نتيجة التقييد بالكتابة⁽⁶⁾؛ فجلّ التدوينات الأدبية في مختلف الأنواع المسبوقة بالشفوي وآثاره، والحضور القوي للمتلقى المتشبع بالحبس الحكائي لن تسلم من نفس الحكيم والإخبار عبر التقاط اللحظات الماضية في مستويات مختلفة متقاطعة ومرفودة بتأطير الحبس البطولي، ووسط ملتقى حافل بتقاطعات حيوية، فيها الثقافي والديني والتاريخي والجغرافي والسياسي.

ويوقف بناء هذه النصوص على عمق التحويل والتفاعل والتخصيب والتكيف والحيوية، فالداخل بين ما هو أدبي وتاريخي أتاح للسرد أن ينمو ويتنظم داخل نسق مأهول بتفاعلات وبنائات شتى. ويمكن ملاحظة هذه المسألة بجلاء في شكلين بارزين هيمنا طويلا وهما: المؤلفات التاريخية، والمؤلفات ذات العادة الأدبية المتنوعة، من أجل فهم عملية تفاعل البناءات داخل النص:

1- المؤلفات التاريخية ، ارتبط فيها التاريخ العربي
بنوعين من الوقائع :

- وقائع التاريخ القريب ، وهي عبارة عن سرد بخلفيات
دينية ، سعت إلى تأكيد ما جاء به الإسلام ، أو تقييد أخبار الحاكمين
والاحداث .

- وقائع التاريخ البعيد المخلوط بالخرافات والأساطير
الأولى بما فيها الحروب وأخبار الأولين من شعراء وملوك وغيرها
وذلك بالاعتماد على مصادر شفوية ، أو تقييدات مختصرة .

إن فهم التاريخ في هذه المرحلة الأولى لم يكن يستند على
قواعد علمية ، وإنما على جمع المعلومات والأخبار -كيفما كانت-
حول أحداث أو أفراد أو أماكن ، ويمكن تفسير المضامين في هذه
المؤلفات ، باعتبارها نوعاً من الإدراك للواقع ، ومحاولة لبناء
تصور منسجم حول العالم ، وتفسيراً للظواهر الطبيعية وفوق
الطبيعية . وقد تضمنت هذه المؤلفات أنواعاً سردية من بينها :

حكي حول الأشخاص : وفيه يتم تبشير شخص أو واقعة في
الوجود ، حقت أثراً فعلياً أو روحياً يعكس اعتقاداً معيناً . وعبر
مراحل الحكي الشفوي والمكتوب يتم إلbas هذه الشخصوس
أفعالاً أخرى . ويختلف الحكي حول هذه النقطة برواة يعملون
إلى التركيز على الجانب العلمي أو الإنساني أو الفعل الغريب ...
وهو تنوع ساهم في تناسل الحكي ، وإبراز الفات الفردية من
حيث عصاميته وقدرتها على اختراق المؤلف .

كما اشتهرت -ضمن كتب التاريخ- مؤلفات وفيات الأعيان والطبقات والأنساب والتراجم والوقائع ؛ يقول ابن حجر العسقلاني (ق 15م) في تقديمه : «هذا تعليق جمعت فيه حوادث الزمان الذي أدركته منذ مولدي سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة وهلم جرا، مفصلا في كل سنة [أحوال الدول] عن وفيات الأعيان مستوعبا لرواة الحديث نصوص من لقيته أو أجاز لي ؛ وغالب ما أورد فيه من شاهدته أو تلقفته ممن أرجع إليه أو وجدته بخط من أتى به من مشايخي ورفقتي كالإمام الكبير»⁽⁷⁾.

هناك أيضا حكمي يلتقط بعض الظواهر التاريخية والطبيعية سواء المفسرة أو غير المفسرة. يروي العسقلاني أنه «في سلخ جمادى الآخرة كسرت جرار الخمر بالرميلة، حملت من بيوت أسارى الأرمن التي بالكوم قرب الجامع الطولوني. وفي رجب جردت العساكر لودع عرب الشرقية الزهيرية [لكثرة] فسادهم. وفي أول يوم منه ادعى علي ابن سبع شيخ العرب بالزنتة بأشياء تنافي الشريعة، وشهدت عليه جماعة عند قاضي القضاة ابن خير المالكي، فسعى جماعة إلى أن يخلص وتقل إلى الشافعية فحكم بحرقه»⁽⁸⁾.

وقد تشكلت هذه الحكايات حول الظواهر بصيغات متعددة، مما أكسبها مساراً حكائياً - تاريخياً بشكل أكبر من الحكمي الذي جاء حول الفضائل، منظوراً إليها تاريخياً ورمياً وأسطورياً أيضا. ويروي المسعودي في هذا السياق، عن فضلاء الإسكندرية قائلا :

«ذكر جماعة من أهل العلم أن الإسكندر المقدوني لما استقام ملكه في بلاده سار يختار أرضاً صحيحة للهواء والترية والماء حتى انتهى إلى موضع الاسكندرية فأصاب في موضعها آثار بنيان عظيم وعمداً كثيرة من الرخام، وفي وسطها عمود عظيم، عليه مكتوب بالقلم المسند - وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد- «أنا شداد بن عاد بن شداد بن عاد شددت بساعدي البلاد وقطعت عظيم العماد، من الجبال والاطداد. أنا بيت إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، [. . .] ونزل الإسكندر متفكراً يتدبر هذا الكلام ويعتبره ثم بعث فحشر الصياع وحط الأساس وجعل طولها وعرضها أميالاً»⁽⁹⁾.

هذه الأنواع الثلاثة من السرد في المؤلفات التاريخية والاشكال المضروعة عنها، تفرز الحدث - الحكاية، والتي عادة ما تكون قصيرة ومحدودة، ولكنها تسج، في مجموعها، بناءً تاريخياً حول فترة زمنية أو فضاء (فضاءات) أو ظواهر ووقائع مرتبطة فيما بينها.

وتسرم طبيعة هذا البناء السردى باعتمادها بنية الخبر، وصياغات تقديمية لإدراك صادق عن طريق المشاهدة أو السماع أو مطالعة المؤلفات الكبرى في التاريخ. ولأن التاريخ يحفر في الماضي أو يؤسس له فهو يقف بالأساس على السند سواء المتعين المشهور، أو المجهول، أو بدون سند. وهي المرجعيات التي توظف الخبر في المؤلفات التاريخية، ذلك أن ارتباط الحكى بالمرجع

هو دعاية استراتيجية في تشكيل خبر مسنود يمكنه أن يتحول إلى مرجع يستند خبراً آخر .

فضلاً عن هذا، فالنصوص التاريخية وغيرها، وهي تعيد بناء «أبطال» كانوا في «الواقع» المادي ثم الدعني مقابل نصوص حكاية، ترسم أبطالاً في المشخيل الشعبي ووقائع تصاغ في سياقات جديدة نشترك في سمات تتكرر بنسب متواترة ذات حضور جلي :

أ - التشويق في الحكى، من حيث تبشير الشيء المراد إيراؤه، وجعل كل أوعية السرد والخبر تصب فيه، مع اتباع خطية مقصودة .

قال الطبري : «قال : وكانت امرأة شعراء الساقين ، فقالت الشياطين : ابنوا له بنيانا ليرى ذلك منها فلا يتزوجها ، فبنوا له صرحاً من قوارير أخضر ، وجعلوا له طوابيق من قوارير كأنه الماء وجعلوا في باطن الطوابيق كل شيء مكون من الدواب في البحر من السمك وغيره ثم أطبقوه ، ثم قالوا لسلیمان : ادخل الصرح»⁽¹⁰⁾ .

ب - الجنوح إلى الضاربة، وهي سمة مرتبطة بالأولى، لأن التشويق يتح إما بتأجيل الإخبار عن مسبب طبيعي أو غير طبيعي، أو ببروز غرابة وسط عالم مألوف، وهي خاصية ضرورية في جل المؤلفات التاريخية الأولى، والتي كانت تجمع أخباراً مختلطة بالخرافات وبالغيبات⁽¹¹⁾ على أساس أنها حقائق تُثبت بعض

المعطيات حول المحكي عنهم لدى القارئ، ووسيلة لإثارة انتباهه .

ج - عنصر الإرتحال والانتقال : ويتمظهر في الإطار العام لهذه النصوص دون أن يشكل تيمة رئيسية . ووجود هذا العنصر يضمن التنوع والربط بين التشويق والغرابة ، لأن الانتقال من مكان إلى آخر هو تحول من المعلوم إلى المجهول . وقد تجلّت عنصر الإرتحال في المؤلفات التاريخية عبر مستويين رئيسيين :

- ارتحال ذهني للمؤلف نحو أحداث ماضية يتم استقاؤها من الأسفار والتفديدات ، أو مما هو شفوي ، ويتجلى في استعادة سرمد بداية الخلق ، وأخبار الأولين وحروبهم ورحلاتهم المتنوعة .

- ارتحال فعلي للمؤلف نحو فضاءات متعددة ومتنوعة بحثا عن الأحداث من أفواء الرواة ، أو عن أماكن بها آثار شاهدة ، بقصد توثيق الأخبار وتقييد المشاهدات .

د - هذه السمات الثلاث وغيرها ، والتي رافقت البناء النصي لمؤلفات التاريخ شكلت استراتيجية في كتابة التاريخ داخل بنية ثقافية هامة مشدودة إلى عوامل دينية وفكرية وعصبية ، بخلفية مرآوية ، تأكدت في البحث عن التطابق والحقيقة أو بنائهما ، وتشكيل لغيرهما السابقة والرائعة من خلال ملء الثغوب الفارغة وتأكيد الاحتمالات المنسجمة . .

2- المؤلفات ذات المادة المتنوعة ، وهو النوع الذي ساد فترة طويلة مخلفاً مؤلفات تُعنى بالحديث في أبواب شتى ، تفصيلاً أو استطراداً كاللغة ، وأخبار الشعراء والمجالس الأدبية والتراجم ، وأيضاً وقائع حول الملوك والفرسان ، أو بعض الفرائب والطوائف والمسامرات والشروح ، إنها نوع من الكتابة المتنوعة التي تبرز تعدد اهتمامات المؤلف والرغبة في التأريخ للشتات السردى الباحث عن أفق أجناسي يترسم عبره وينمو .

ففي مؤلفات أدب الكاتب لا يبن قنينة والكامل للمبرد والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لأبي علي القالي⁽¹²⁾ ونشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للقاضي التنوخي ، نطق التقاء حول منطلقات عامة ، أجلاها أن هذه المؤلفات تتمحور حول الأدب ، وتتضمن الرغبة في الحكى المؤنث بالإنفتاح على استطرادات في أنواع أخرى .

وإذا كانت مؤلفات التاريخ والنصوص ذات البناءات المتنوعة قد تشرت - بطريقة أو بأخرى - النصوص الدينية ذات الإعجاز البلاغي وعلوم الفقه والتفسير ومحكميات المغازي وما تشعب عن كل هذا فباتها جمعت شتاتاً حكاثياً ثرياً يتأرجح بين تأريخ الوقائع والأخبار من جهة ، والتخييلات الناعمة والفاسية من جهة ثانية .

محكميان يتسبان إلى دائرة واحدة تتخصب وتوالد في أشكال أخرى وتلاوين مختلفة شأن مؤلفات التراجم والسير وغيرهما ومع نضج الوعي بالسرد باعتباره كتابة وسط تشكل الدولة ، وفي

إطار المشاقفة، أصبحت الحاجة ضرورية إلى توسيع إضافي في دائرة السرد حتى يسائر التحولات، ويلتقط الطارئ، بحثاً عن تفسيرات له، وأيضاً تدوين ما لم يكتبه الكلام الموزون المغفى، وعجته في نسج تخيلي، يربط الواقعي بفوق الطبيعي الطاعن في الغيب والمعجب.

وتدقيقاً، فابتداءً من القرن الرابع الهجري ظهرت أشكال سردية تخطيط الشئث وشفر التحول من القبيلة -بمصبيتها- إلى الدولة في شكلها المستعار حيناً، والناقص حيناً آخر بحثاً عن كمال مرعوم بضاهي الروم حضارة، والأغريق ثقافة، والعهد الراشدي عفيفة. إنه شكل زمن آخر يحمل نمزقاته المتخفية وسط لجأت كثيرة.

وقد جاءت الأشكال السردية جسوراً لتتواصل فيما بينها رغم اختلافها من حيث البناء والتيمات في قطبين كبيرين كان لهما حضور متبادل ومتواتر، هما الشكل الخالص والهجين.

- تضمنت الأشكال الخالصة : المقامة والسيرة والحكاية الشعبية، والرحلات ...

- أما الأشكال الهجينة، فيتدرج ضمنها الخبر والمحكيات الصغرى المتفرقة، ثم أدب القيامة والتراجم والطبقات وأخبار الشعراء. ولا تفصل هذه الأشكال الخالصة عن الهجينة إذ هما معاً نسيان يتفاعلان باستمرار مع المصنفات المدرجة ضمن ما أخضعه الفكر العربي للتصنيف، فصنعت

«أنماط الناس وكتب عن كل صنف فظهرت كتب في أخبار الظرفاء والأذكفاء، وفي أخبار العاجنين والمغفلين والحمقى والطفيليين، وعلى هذا النمط ظهرت الكتب في الحيوانات وعجائب المخلوقات وكتب في خصائص البلدان، إلى غير ذلك من الكتب التي تختص بظواهر الحياة كافة»⁽¹³⁾، بحيث تطورت وارتبطت بتقاليد المجتمع وعاداته وذاكرته؛ فالتقطت المقامة مادتها الخام من أخبار الشطار والمكدين في علاقتهم بلواتهم وبالمجتمع وبالأخرين. كما سعت السير والحكايات الشعبية والرحلات إلى رصد تفاصيل حيوات متخيل متحرك أفقيا وعموديا.

إن الأشكال الخالصة قائمة بذاتها، تمكنت من خلال النصوص المتوفرة ذات النضج الفني من التعبير عن مرحلتها، وإفراز مجموعة من الخواص المشتركة بينها، فضلا عن خصائصها النوعية المميزة لها وأسمائها، وحتى بعض أهدافها. هذه الخواص يمكن اختزالها في ثلاثة مستويات:

أ - اللغة والأسلوب : يحفل سرد الحكايات باللغة عبر الإنكاء على تخيلات من الشعر والأمثال والآيات القرآنية، وبعض الاستشهادات المتنوعة، ثم أسلوب التشويق والتسلسل الخطي المدحوم بالاسترجاعات والاستطرادات، لكن طريقة بناء الجملة وتقديمها يبقى في المقامة غيره في السيرة أو الرحلة أو المخازي أو التراجم.

ب - هيمنة الفرد البطل : وذلك من خلال حضور قوي

العنصر الفرد المهيمن في المقامة باعتباره المحور الذي تنتسج حوله الأحداث، وأيضاً السير الشعبية التي تُوسّط الفرد، وتجعل منه رمزاً وصورة «فروق طبيعية» للنموذج المطلوب. أما الحكاية الشعبية فهي لا تستقيم إلا عبر تبشير المفرد المتعدد.

وفي كل الحالات يمكن الحديث عن خلفية هذه الإضاءة الموجهة نحو الفرد وذلك بذاتية الكتابة عند جميع الشعوب وفي كل المراحل، والرغبة الدفينة للإنسان العربي في التماهي مع أحلامه وتحاويزاً لعجزه وتحقيقاً لكماله المفقود.

إن التفسيرات تتعدد في تأويل تشبع الحكاية العربية بهيمنة المرء، ولكنها تبقى خاصية ساهمت في بناء النصوص السردية.

ج - المتخيل : وهو خطاب يجد لنفسه قطباً واسعاً تتفاعل فيه العديد من المتغايرات، ولكنه، في العام، بتشكيل داخل قطب المواجهة والتصادم بين وعيين وإرادتين .

- وعي الساذج وعي الشاطر : (المقامات).

- وعي الكافر وعي المؤمن : (السير الشعبية).

- وعي الشر وعي الخير : (الحكايات الشعبية ...) (14).

كما يتوزع المتخيل بخطابه في هذه الأشكال وغيرها، انطلاقاً من بناء الحكاية على دعائم عجابية وغرائبية، تخلق لدى المتلقي نوعاً من الحيرة والتردد.

ورغم كل الخواص المشتركة، فقد نما المرء العربي مؤسساً

لاختلافه في البناء وطريقة عرض الأحداث، سواء بالنسبة للأشكال الكبرى أو الصغرى، المخالصة أو الهجينة، كما توضع ضمن محددات دينية وثقافية مؤطرة متنوعا يتلاقح وينحصب بعناصره المتحركة، فصلا عن كون السرود القديمة التي صيغت في أشكال تخيلية مختلفة، «تفسر رؤية أو تدعم شعيرة دينية»⁽¹⁵⁾، الأمر الذي يقود إلى النقاط خلاصات أولية بالنسبة للسرود العربي في جانب الحكائي :

- توضع السرود الحكائي العربي في بيئة ثقافية انفتحت على أشكال متنوعة نصص عن تجلذ الحكيم والخبر في الأدب العربي⁽¹⁶⁾، ابتدأت بالمغازي التي تمثل أولى أشكال الإبداع الشعبي، منذ بداية عهد الثقافة الإسلامية على أيدي ابن اسحق والواقدي وغيرهما⁽¹⁷⁾، وقصص الأنبياء وأخبار الأولين والسير . ثم تطورت مع الحكايات والمقامات والرحلات ... وهي نصوص يتقاطع فيها العربي المشاهد بالمسموع والمختلق والخيالي . وكل هذا يتصهر ضمن موروث ثقافي وديني وحضاري عام .

- حضور السمات التحولية في بناء الخبر المرتوي بأثار الشفوي، لكن سلطة التحويل نضع التجربة في مسار نسقي يصورها ويعيد إدراكها ذهنيا مرة أخرى، تهيئ لتدوينها .

- تموقع السرود بين التاريخ والتقليد، بين التجربة الفعلية والروحية، مما مهد لنوع من الإدراك الخاص للواقع (الماضي والحاضر والمستقبل من جهة، والدنيا والآخرة من جهة ثانية)،

ساهم في آلية كتابية تسعى إلى تخييل الحقائق وتحقيق الخيالات .

- تجذر خاصية التوالد بشكل كبير في السرد العربي باعتبارها النفس الذي سيرسم للحكاية رحمها العامر بالتشويق والغربة .

- مهمينات كثيرة شكلت خواصاً متواترة في النصوص السردية المجموعة في مؤلف واحد كالسير والليالي والمقامات ، أو النصوص الصغيرة الممثلة لحكاية واحدة حول موضوع واحد . ومن ضمن هذه المهمينات التي تكرر وتشكل جزءاً من البنية العامة في الحكاية : «مهيمن الرحلة» سواء أكان رحلة المؤلف الباحث عن الحكاية أم شخصيات المحكي ، لارتباط هذا المهيمن دائماً بالمفاجآت والجديد دلالياً . أما شكلياً فمن أجل توسيع دائرة المحكي ، وخلق نواهد تنفيسية داخل عنصر آخر هو «مهيمن السيرة» الذي تشكل ضمن آداب التراجم والمغازي والأخبار ، وهو مدغم «مهيمن الرحلة» ومثله بالقوة باعتبار «الارتحال سعة عربية قديمة»⁽¹⁸⁾ وإنسانية أيضاً .

ويرد مهيمن الرحلة في شكلين خالصين :

- عنصرًا مدغمًا للمحكي ، وحافزاً له ، رغم أنه يجبر ، رابطاً في لحظة معينة من السرد للإنتقال ، ورفع حرارة التشويق وإنفاذ الحكاية من الإختناق .

- شكلاً خالصاً ، وهو نص الرحلة بخصره ، وتنوعه في

أشكال متعددة تُبرز خصوصية الرحلة في الانفتاح والتفاعل ، وفي تراوحها بين كونها عنصراً تحفيزياً وسط عناصر أخرى ، أو «شكلاً كاملاً» . فهي فن من فنون القول العربي ، يصف مجالات الحياة عند الرحالة الذي سجل رحلته ، أو حكاها لغيره ثم سجلها»⁽¹⁹⁾ .

وقد تَعَتعت الرحلة بحيوات متعددة داخل الأشكال الأخرى ، وهي تخوض مغامراتها ، فتتوسع إلى أنواع اتسمت «بعدد من السمات المشتركة ، مثل الشمول والتنوع»⁽²⁰⁾ ، والأمثلة التي يمكن أن يفرزها نص ذاتي وصفي ، كونه بنية تتضمن نُصيبصات وبنيات متعابشة تلتقط عناصر وأشكال أخرى في بنائها العام . كما تخلّقت ثقافة موازية لها ، فوُجدت مؤلفات تهتمّ بمدلول السّفر وفوائده ومتعلقاته وأخباره ونوادره»⁽²¹⁾ .

ويشهد تاريخ الرحلة في الأدب العربي على مراحل محددة من نشوء ونمو وتطور هذه النصوص التي جاءت في ملتقى حقول معرفية تبدأ بالتاريخ ولا تنتهي عند الإثنولوجيا ، فنص الرحلة ومحكيها بتعبير تودوروف- وُجد قبل الرحلات⁽²²⁾ ؛ بمعنى أن المتخيل الذي شكل النص الرحلي «عنصراً» أو «نصاً» ، كان هو المادة التي انفتحت على المعطيات الواقعية والإحتمالية .

ورغم ذلك ، يسعى المؤرخون إلى الإشارة إلى الرحلات التي قام بها قدماء المصريين عام 1493 قبل الميلاد لغرض التجارة والأوصاف ، ثم الرحلات الجاهلية في الجزيرة العربية ، وبعدها المرحلة الأولى والأهم المدونة والممهدة لتجنس الرحلة والبادئة

مُنذ عصر ما بعد الفتوحات الإسلامية، وأيضا الرغبة في المعرفة، وربط العلاقات والحج والسياحة، في العالم الإسلامي أساساً. وقد امتدت هذه الفترة لأزيد من سبعة قرون : ما بين القرنين الثالث والعاشر الهجريين (9-16م)، حيث تناولت العديد من الرحلات ضمن تأليف كتب التاريخ والجغرافيا، إضافة إلى وجود نصوص أخرى في المرحلة اللاحقة والتي كانت تصب في الرحلات السفارية والحجبية. وتعرّو الباحثة رنا قباني ذلك إلى أن «العالم الإسلامي فيما بين القرنين السابع والرابع عشر، والذي كان يتألف من قوى عسكرية وسياسية يمتد سلطانها من إسبانيا حتى الصين، أرسل الرحالة مبعوثين ومستكشفين ليأتوه بالمعرفة ويثروا مستودع المعلومات السياسية لديه، ويزيدوا قوة العرب ازدادت كتب الرحلات في آدابهم»⁽²³⁾. أما المرحلة الثانية فانطلقت مع بداية هلامح النهوض العربي في القرن التاسع عشر حين استمرت بعض الكتابات الرحلية الحجبية بأساليب فقهية فاقدة لبريق الإبداع. ثم نوع آخر مهيم، وهو الرحلة المشجبة نحو الآخر «الأجنبي» المغاير بحشا عن تفكيك مأزق الذات، ورؤية هذا الآخر في لحظات قوته وتطلعاته، فتشكلت هذه النصوص، المشاهدات، باعتبارها رؤية للفهم خلال تلك المرحلة. ومع بداية القرن، وقبل أن يأخذ الشكل الروائي العربي مكانته، كان البحث عن شكل سردي أكثر رحابة يصهر التجارب الشخصية في سير ذاتية تستوعب الرحلة ضمن متخيل أكثر قدرة على الإبداع وتكسيير الضرورية التي كانت تفرضها المشاهدات والأوصاف المتلاحقة.

إحالات

- 1- غلشتسكي : نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوع، نموذج للحكاية العربية في القرون الوسطى (ق 10م) ص 49. (ضمن بحوث سوفييتية في الأدب العربي. مجموعة مقالات، الاتحاد السوفياتي، دار راندوفا، 1986، ترجمة محمد الطيار
 - 2- جان بيسير. تكون الآداب. ص 29 [ضمن كتاب جماعي مترجم. الآداب والأنواع الأدبية، دار طلاس، سوريا، ط 1، 1985، ترجمة طاهر حجار].
 - 3- Pius Ngandu Nkashama . *Ecriture et Discours Littéraires* - 3 (Etude sur le Roman Africain) ed, L'harmattan, Paris, 1989, P28.
 - 4- عبد الرحمن أيوب استمرارية الآداب الشعبية ومواكبتها للتحويلات الاجتماعية التاريخية الأساسية في الوطن العربي، النص العينة : مسيرة بني هلال، ص 366، [ضمن مؤلف جماعي : الأدب العربي : تصويره من الوحدة والتنوع، مركز دراسات الوحدة العربية، جامعة الأمم المتحدة، بيروت، ط 1، مارس 1987.
 - 5- انظر : أبو عبيدة معمر بن مثنى (209 هـ) : كتاب أهام العرب قبل الإسلام [جمع وتحقيق ودراسة : عادل السياني]، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط 1- 1987. وخصوصا صفحات التقديم 21-35.
 - 6- عبد الحميد حواس : الأدب الشعبي والفنية الإزاحة والإحلال في الثقافة الشعبية. ص 408، [ضمن مؤلف جماعي : الأدب العربي تصويره من الوحدة والتنوع، 1987، مرجع سابق].
 - 7- ابن حجر العسقلاني : إنباء الفهر بآباء العمر في التاريخ، دار الكتب العلمية. بيروت، ط 2، 1986، ص 2 [تحت مراقبة محمد عبد المفيد خان].
- ويقول أيضا حول إحدى الشخصيات : «أحمد بن علي عبد الرحمن العسقلاني الأصل، المصري الشهير بالبليسي الملقب ب: «سمكة».

كان عارفاً بالفقه والعربية والقراءات، وكان الأسنوي يعظمه وهو من أكابر من أخذ عنه وانتقل وبع واحد من علماء عصره، وسمع من المجلدومي وغيره؛ رافق شيخنا العراقي في سماع الحديث وفرا بالروايات وكان خيراً متواضعاً. مات في المحرم، ح 1، ص 244.

- انظر أيضاً : ابن خلكان : وفيات الأعيان وإنباء أنباء الزمان، تحقيق [حسان عباس].

- ابن مصور السمعاني (ق 6هـ) . الأنساب (5 أجزاء)، بيروت، دار المخيان، ط 1، 1988 [تقديم وتعليق عبد الله عمر البارودي].

- الذهبي تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (4 أجزاء)، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1988، [حققه وضبط نصه : بشار عواد معروف - الشيخ شعيب الأرنؤوط، صالح مهدي عباس].

8- ابن حجر العسقلاني، مرجع سابق، ص 329 (ج 2).

9- المسمودي . مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار الاندلس، بيروت (أربعة أجزاء) ط 6، 1984، ص 410-411، [تحقيق : يوسف أسعد داغر].

- انظر أيضاً : الخطيب البغدادي (483هـ) : تاريخ بغداد (4 ج). المدينة المنورة، المكتبة السلفية (د.ت).

- البلاذري : فتوح البلدان. بيروت، دار الكتب العلمية 1978 [راجعته وضوان محمد وضوان].

- المقرئزي (845هـ) . كتاب المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المنيرية)، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، (د.ت).

10- أبو جعفر الطبري (224-310هـ) . تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوكة) القاهرة، دار المعارف، ط 4، (د.ت) (1 ج)، سلسلة (ذخائر العرب 30) [تحقيق محمد أبو الغفل إبراهيم] ص 493 (ج 1).

11- انظر : المسمودي، مروج الذهب، ج 2، ص 139-160.

12- ابن خلدون : المقدمة، بيروت، دار البيان، (د.ت) ص 553 و 554. ذكر هذه المؤلفات باختيارها أصول فن الأدب.

- 13- نبيلة إبراهيم : الوحي العربي ونموذج البطل، ص 340 [ضمن مؤلف جماعي الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع .
- 14- يمكن أن توجد هذه المتغايرات كلها وغيرها في شكل واحد .
- 15- أحمد كمال زكي . الأساطير : دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، بيروت، ط2، 1979، ص26
- 16- انظر . وهب بن منبه . كتاب التيجان (سلسلة الآثار 10) أكتوبر 1996، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط3، (صص9-321) وتضمن فيما يلي من صفحات (323-501) اختيار عبيد بن شربة الجرهني في أخبار اليمن، والكتاب، عموماً، هو من أقدم النصوص المكتوبة بين أساطير الحلق والأحلام والسير .
- 17- محمد حافظ دياب : نشوء الآداب الشعبية العربية، ص 307 (ضمن كتاب جماعي : الأدب العربي تعبيره عن الوحدة والتنوع . مرجع سابق) نقل عن : يوسف هورولتشي : المغازي الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، القاهرة، مكتبة مصطفى الحلبي، 1949، صص3-10.
- 18- أسماء أبو بكر محمد : ابن بطوطة، الرجل والرحلة، بيروت دار الكتب العلمية، ط1، 1992، ص9.
- 19- أسماء أبو بكر محمد، (مرجع سابق) ص 11
- 20- سيد حامد النساج : رحلة التراث العربي [الجزء الخامس : مشوار كتب الرحلة، صص: 203-310] مصر، دار المعارف، ط4، 1990، ص206.
- 21- انظر : بدر الدين الزركشي : الفجر السوافر عما يحتاج إليه المسافر، بيروت، نشر المكتب الإسلامي، دار عصاف، الأردن، ط1، 1989.
- 22- T.Todorov . Les Morales de l'histoire, ed Grasset, 1991, P 95
- 23- رنا قباني أساطير أوروبا عن الشرق سوريا، دار طلائع ط1، 1988، صص13-14 [ترجمة صباح قباني].

القسم الأول

تجنس الرحلة

الفصل الأول

الرحلة : المفهوم والأسس

١- الانتساب المنفتح ، تشيد أشكال التعبير السردية العربية الكلاسيكية من حيث بناءاتها والقيمات التي تقاربها على عناصر لاحمة لبعضها البعض ، تراوح بين المهيم المحرك لعناصر أخرى ، والثانوي الذي لا بد منه في تفعيل وروبط وظائف النص ، وتحقيق وحدة حلقة سننية .

يستطيع كل عنصر النظام داخل بنية لغوية تنسب إلى ميثاق أفق انتظار الكاتب والقارئ ، حتى تسمح بخلق تراكم متجنس .
هكذا يمكن الحديث عن شكل تعبيرى - سردي من رؤية أنه جنس يحقق وحدته الداخلية الخاضعة للتنوع والانفتاح ، كما يحقق نسقاً تشترك بداخله مجموعة نصوص تشمل على إيراد نفس العناصر بلوجات محكومة بـ «التنوع والانفتاح» و «المهيم

والثانوي)، والتي ترسم إطارها ونسيجها الداخلي. وقد نمت الأشكال التعبيرية الكلاسيكية وسط أجواء تنصادي فيها الاجتماعي بالديني والثقافي. فتَحْتَم أن تكتب النصوص السردية تلك، وهي مشلولة إلى مرجعية وخطاب سياسيان في تأطير التجنيس، بحيث سعت الرحلة إلى تحصين كل ما راكمته منذ القرن الرابع للهجرة تدويناً، فقطع إشكال تجنيسها شوطاً أولياً عن طريق تأطيرها ضمن تصنيف عام سيعرف بـ «الرحلة».

وقد تراوحت نعوت التسمية وتعددت، فتحدث البعض عن «أدب الرحلة»، وهو قصد واضح بانتسابها إلى حقل السرد، باعتبارها كتابة أدبية تتوفر على مكونات سردية وآليات كتابية تسمح للتصنيف أن يأخذ مشروعيتها في خاتمة الأدبي، فيما هناك نعت آخر يكتفي بالحديث عن هذا الشكل باسم «الرحلة» فقط، بهدف فتح نافذة إضافية أخرى على التاريخ، واعتبار الرحلة مصدراً غنياً، وسجلاً إنثوغرافياً يعتبر الرجوع إليه أساسياً في حقل الأنثروبولوجيا، ومادة جغرافية يُجزم الجغرافيون بأن ولادتها كانت من رحم الحقل الجغرافي. وفي خضم هذا التراوح جاء نعت «الأدب الجغرافي» باعتبار الأوصاف التي رسمت عمران المدن والبلدان ...

إن هذا الوضع الذي يسمح لكل فريق بالتعامل مع الرحلة من منظور حقله الدراسي لم يُطرح لحله أو للبحث عن تدقيق خاتمة انتسابه، مادام التجنيس العام متفقاً عليه تحت اسم رحلة هذا

ذلك ، فإنه مؤشر على انفتاحها على خطابات يتم تضفيدها في إطار وعي مؤطر ببنية السفر ، وخلفية تغنيها محددات وصياغات مشروطة لا بد منها : سيرة الأنا ، وصورة الآخر ، باعتبارها كائناً وقضاءً ، ونتائج هذا التقاطع والتماس .

وقد تحدد صرامة التخييد ورسم خاتمة النسب من الثراء الذي يمكن للرحلة أن تقدمه . ويبقى تجنيسها قائماً من منظور البحث في العناصر والمكونات وآليات الكتابة المنتجة للتخييل ، فهي نص لغوي مُحَوَّل قائم بعناصره ورواؤه ، يقود إلى التعامل معه ، «نصاً» مفتوحاً على خطابات متعددة ، مما يجعل مفهوم الرحلة ، وهو علامة على نصوص عرفها الأدب العربي ، يظل بدوره ملتصباً وعماماً ، يضيق أحياناً عن لم تُشفر النص واتساعه ونسبه إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية ، مما يدعو ، بالضرورة ، إلى فهمه في تعددته من خلال النصوص ودرجات الوعي به بهدف صياغة مفهوم مقترح يتلمس انتشاره المشروع .

يتنسب النص الرحلي إلى التراث الشري بشكل عام باعتباره سرداً ووصفاً يعمدان إلى صياغات مشاهد رؤيوية أو مروية أو حُلُمية تنحدر من ذاكرة -في بعض الحالات- ذات جذور في الواقع المادي .

وانسحاب الرحلة إلى العلوم الإنسانية مسألة معقدة ، لأن الرحلة هي رحلات بحسب ثيماتها وأصناف رحالاتها ... تحوكت من المعيش المادي أو الحُلُمي -الامتسيهامي إلى نص تخيلي أساسه ، في الحاليتين ، التجربة «الخارجية» و «الباطنية» .

هذا التنوع يجعل الرحلة عصبية عن أي تأطير أولي . لكن النظر إليها من زاوية أخرى ، وتخصيصا الجانب البيوي ، يوضح أن العناصر المشتركة بين كل هذه الأنواع للأشكال تظل واحدة في نيتها ، تتعدل أسلوبيا ، وتتخذ أوضاعا شتى في السياقات الموضوعية لها . لهذا ، لا تخلو رحلة من سرد ووصف وتعليق من "الأنا" المحركة لكل هذه المشاهدات والمرويات والتخييلات والأحلام ، مما يجعل نص الرحلة : تسمية مفتوحة على احتمالات التنوع .

ورغم ذلك ، فإن البحث عن تحديد دقيق لمفهوم الرحلة مأزق لا بد منه لطرح الإشكال بطريقة جنرية . فالتراث لم يبرز إلا تنوعا في الأشكال والتشكيل الفني والتيمات «الموجهة» ، الأمر الذي يقود إلى الحديث عن الرحلة باعتبارها جنسا مؤطرا بعناصرها ومكوناتها من خلال الاشتراك بين الرحلات في مجموعة من القيود والمتغيرات التي تتلون بحسب العنصر التيماتي المهيمن . وهكذا تشييد نصية الرحلة لتأكيد نوعين من العناصر المؤطرة لها ، سواء أكانت رئيسية في البناء ، أم مساعدة داخل بنية ووحدة داخلية متماسكة ومقعدة .

والرحلة نص مفتوح لا يمكنه أن يتسبج في غلابة محددة تجنسه بصفة معينة تضيق من تحرره واتساعه وانتشاره وهجومه الضروري ، على حقول أخرى . لهذا ، فإن القول بنصيتها هو افتتاح على دينامية الرحلة ، وعلى خطاباتها المستندة على طرفي الذات والآخر ، وجسور التعبيرات المختلفة عنهما وحولهما .

كما تصبح الرحلة ، بمختلف أنواعها ، نصومها قابلة
لإتسابات مفتوحة تنطلق من كونها أشكالاً تعبيرية استطاعت ، من
خلال التراكم الذي استدعته الضرورات الثقافية والتاريخية -
الحضارية ، أن تؤسس لبناء وصوغ مستقلين ومتفاعلين داخل
منظومة النصوم السردية العربية ، استقلالاً إيجابياً مفتوحاً على
أشكال أخرى فنية وبعيدة ، وتؤسس ، أيضاً ، إدراكاً متنوعاً للواقع
والمتخيل ، فيتسع الإدراك في النص بين واقع مشاهد وآخر
متخيل ، مما يقود إلى توليد واقع ثانٍ ، يحمل خطابه ونسقه
الخاص والعام .

ونكتب النصوص الرحلية في وضعيتين : إما بشكل مُحايت
للرحلة ، وهو أمر قليل ، ولا يغطي كافة مراحلها ، كما هو الأمر
بالنسبة لرحلة العبدري ، أو أنها تدون كتابةً ، بعد انتهاء الرحلة ،
وحكيها شفويًا . مثال ذلك رحلة ابن بطوطة التي سردها بعد أزيد
من ربع قرن من الإرتحال . هذه الوضعية تجعل الإدراك الفني
للقائع موسوماً بأنار ومعطيات مترسبة في ذاكرة الرحالة/
المؤلف ، فينهض النص الرحلي على صورة واقع يُضمّر بنيات
متلونة ومتصادية ، وأصواتاً مشبعة بأسرار ذاتية وأخرى غيَّرية .

إن الرحلة تشكيل لنص ذاتي / شخصي بخصوص الأنأ
والآخر . . يتبنين تنكيفاً في شكل معين للتعبير عن رؤية معينة
انطلاقاً من خطاب مُفصح عنه في البداية ، أو مضمّر في تضاعف
السرد والوصف والتعليقات .

2- الوعي بالرحلة نصا وخطابا ، كيف تُشكّل الوعي

بالرحلة ، أقبلما أم بعدما تشيّدت نصيا ؟ هل هذا الوعي « يكتمل »
بكونها نصا ذاتيا متخيلا أم تجربة متفولة ؟

السؤال هنا خلاصة لأمشلة عدة وسابقة حول طبيعة هذا
الوعي عند الرحالة/المؤلف أو الناقد اللغوي ، لأن كل نص يكون
مستكونا ومسبوقا بتأمل وإدراك أهميته باعتباره شكلا أقدر على
استيعاب تجربة معيشة أو متخيلة . فحينما يختار الرحالة سكب
حصيلة تجربة شخصية في قالب سردي يروي مشاهد الانطلاق
والوصول فهو يؤكد تشبّه بأسلوب معين دون غيره .

1-2- وقد ترلّوح الوعي بالرحلة عند الرحّالة الذين نقلوا
تجارهم الرحلية بشكل فردي أو جماعي ، برغبة أم بدونها ، في
مهمة للتغير أم لحسابهم الخاص ، ضمن مؤلفات مُستقلة بين
الوضوح والإلتباس في المعرفة بالشكل والغالب الذي سيسجل
فيه رحلته ؛ ففيها « بصوغ الوقائع الاجتماعية راسما أشكالها ، معيّنًا
ملامحها . والرحلة -في أشكالها الأولى- واحدة من أبرز تلك
الوقائع »⁽¹⁾ . فابن بطوطة في مقدمته ، وعلى لسان الكاتب ابن
جزّي ، يقول : « ... ونقلت الإشارة الكريمة بأن يُعَلّي ما شاهدته في
رحلته من الأمصار وما علق بحفظه من نواتر الأخبار ، ويذكر من
لقيه من ملوك الاقطار ، وعلمائها الأخبار وأوليائها الأبرار ... »⁽²⁾ .
إنه إدراك يُفسر فهمه للرحلة نصّا يحمل مُشاهدات
الرحالة ومالقيه ويعزز هذا الفهم وما أن تضاعف النص تحوي

على استعمالات متعددة لمفردات الرحلة والارتحال و مرادفاتهما .

أما العبدري (ق13م) ، فيعي جيداً عناصر الرحلة ، وتقيداته تدرج في هذا السياق من خلال استهلاله : « .. وبعد ، فإنني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده ، ورسم ما تيسر رسمه وتسديده ، ممّا سمّا إليه الناظر المطرف في حين من الرحلة إلى بلاد المشرق من ذكر بعض أوصاف البلدان ، وأحوال من بها من القطان ، حسبما أدركه الحسّ والعيان ، وقام عليه بالمشاهدة شاهد البرهان من غير تورية ولا تلويح ، ولا تقييح حسن ولا تحسين قبيح .. » (3) .

يُذكر العبدري جيداً أنه يتوجه إلى قارئ سبطالع رحلة واقعية ، فيحدد تعريفه النظري للرحلة من خلال نصه ونصوص أخرى خلقية ؛ فالسرد هو التقييد والرسم ، ارتباطاً بأوصاف البلدان والأرض والناس ، كل هذا عن طريق النظر والمشاهدة ، دون مبالغة أو تحريف .

إنه وهي يسحث عن الرحلة المطابقة للواقع على غير ما يسجله ابن بطوطة الذي يرتق نسيج رحلته من المشاهدات والطرائف والنوادر ، وعلى حد تعبير ابن خلدون متحدثاً عن ابن بطوطة : « ... وكان يحدث في شأن رحلته وما رأى من العجائب بممالك الأرض » (4) .

وقد بقي هذا التفاوت في الوعي حاضراً بتأثير من النصوص

الاقدم، حيث يتم التأكيد على أن النص المكتوب هو رحلة : صفة
لفعل وقع . فصاحب " سلوة الغريب وأسوة الأريب " يشير
إلى ذلك بعبارة دقيقة : «فأزمنت على أن أجمع ما وقع لي من ذلك
رحلة تكون لأولي الأسباب من ذوي الآداب نحلة أثبت فيها
ما وقفت عليه وما سأقف إن شاء الله جانبا إليه»⁽⁵⁾ :

تأكيد صريح على ربط الرحلة بوحي فعلي وفائدة موجهة
لجمهور خاص . لكن ، في مقابل هذا نجد أبا عبد الله القيسي
يربط نضه بوحي المعامرة والتسجيل التاريخي مرتكزا على عامل
الامانة : «صرفت همتي وفكرتي إلى ضبط رحلتي ونقلتي ، وذكر
مبادئها ومنتهاها بالنص على عدد المراحل»⁽⁶⁾ .

إذا كان هذا النوع من الوحي يبدو واضحا بشكل نسبي فهناك
وحي ملتبس على مستوى النعت ، بحيث تتراوح تسمية الرحلة بين
الرسالة والتصنيف والكتاب والتقييد والتذكرة . ذلك ، أن رحلة
" ابن فضلان " سميت برسالة ابن فضلان من طرف المحقق الذي
نعتها في تقديمه بالرسالة⁽⁷⁾ . فيما أسماها ابن فضلان بالكتاب⁽⁸⁾ .
ويلجأ محقق "تحفة الألباب ونخبة الإعجاب" لأبي حامد
الأندلسي إلى وصف الرحلة مرة بأنها كتاب ، ومرة أخرى بأنها
تصنيف ورسالة⁽⁹⁾ .

وقد ظل هذا النوع في النعوت شاهداً على وضعيتين اثنتين :
الالتباس في التجنيس ، وغياب الوحي به ، ثم التداخل بين
الاشكال وغلبة بعض التسميات في عصر دون آخر . فابن قنفذ

(ق15م) يسمى رحلته الزيارية بالتنقييد⁽¹⁰⁾، فيما يلي ابن هطلال مفهوم الرحلة ويعرضه بالكتابة والتأريح والرسائل⁽¹¹⁾، أما أبودلف فيؤكد في تقديمه لرسالته على العنوان والمتمن، وهو المتأثر بالأساليب والأشكال المقامية حينما يقول «ورأيت تجريد رسالة شافية»⁽¹²⁾.

ويبدو اختلاف النظر وتعدد في تحديد نوع الكتابة بين الرحلة ومرادفات أخرى، رغم كونها تتظم نصيا في إطار مكونات النص الرحلي. ويكشف هذا التعدد عن وجود أشكال متقاطعة مع الرحلة في إطار التفاعل والتخصيب.

2-2- عُنِيَ اللغويون والنقاد القدامى في إطار ما أنتجوه من قواميس وكتب لغوية متنوعة بالحديث عن الأساليب والأشكال الشرية إلى جانب اهتمامهم المركزي بالشعر والتنظير له من أجل ضبط المعاني وتفسير محمولات تلك الأشكال، اهتمام باللغة العربية واكتشافا لقوانينها، لكن وقوفهم على التعبير النثري لم يشمل كافة الأشكال، وضمنها الرحلة التي لم نجد لغويا أو نائفا أفرد لها بابا يرصد فيه تاريخها وقوانين شكلها.

وهكذا فإن النثر القليل والعاير يأتي، في الأعم، بشكل غير مباشر، كما ورد في معجم ياقوت⁽¹³⁾ حينما يستشهد بمقتطفات من رحلة ابن فضلان، دون أن يتوقف عند التحليل، وإنما تضطرب نموته في وصفها بالكتاب والقصة والرسالة. أما ابن عبد ربه⁽¹⁴⁾ فيكتفي بالحديث عن دعاء المسافر من منظور ديني. فيما

بمخصص المقرئ الفصل الخامس لمن فرحل من الأندلسيين إلى المشرق، في رحلات علمية مؤكدة أن حصر أهل الإرتحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا اعلام الغيوب⁽¹⁵⁾، دون أن يقف على هذه الرحلات مثل نصوص أدبية حافلة بمعطياتها وأخصوصياتها؛ وهو نفس الإشكال الذي ستعكسه القواميس العربية القديمة التي ظل تحديدها ملتصقا وضيحا لم يرق إلى اعتبار الرحلة مفهوما ينهض إلى جانب المفاهيم الأدبية الأخرى. وعبر مجموعة من القواميس⁽¹⁶⁾ قوربت تعريفات من قبيل اعتبار الرحلة، أعم من السفر، وذلك بالانتقال من مكان لآخر، الاستعانة بمجموعة من اللوازم: منها الراحلة وغيرها.

إن هذه التعريفات، فضلا عن أخرى في معاجم غيرها، ترد بنفس المعنى أو أقل لم تجنس الرحلة أو تهتم بينياتها بقدر ما نظرت إليها مفردة تتحقق فعلا ماديا في الواقع، وليست نصا لغويا متخيلا ينطلق من التجربة. والأمر نفسه تقف عليه القواميس الغربية الكلاسيكية⁽¹⁷⁾ من خلال اعتبارها الرحلة انتقالا من مكان إلى آخر بعيد؛ مع إيراد مجموعة من المقاطع الأدبية المتضمنة لكلمة «رحلة» في سياقات متعلدة وأقلام كتاب من عصور مختلفة.

ولم تلتفت القواميس الأدبية المتخصصة وبذورها إلى تصنيف الرحلة ضمن المفاهيم، مما جعل الوعي النقدي، في هذا المستوى، مغيبا.

3-2- اتضحت معالم الاهتمام بالسرديات الكلامية قصد
رصد عناصرها وآليات اشتغالها، لكن نصيب الرحلة في هذه
الدراسات كان ضعيفا على عكس نصوص السير واللبالي
والمقامات (18).

ورغم تلاشي الرحلة في شكلها الفني وتحولها إلى عنصر
مركزي في القصة والرواية، فإن هذا الجانب لم يحظ أيضا
بالإهتمام الكافي، إلا في بعض الدراسات القليلة. لكن النقد
الغربي خص الرحلات بالعديد من الدراسات والتحقيقات (19)
المتنوعة بتنوع النصوص، حيث قاربها مرة باعتبارها نصوصا أدبية
ومرات أخرى وثائق وتقارير ذات معطيات اجتماعية وسياسية
حول فترة معينة.

إن الوعي النقدي الحديث لم يستطع تجذير الوعي بالرحلة،
فظل عائنا ملتبسا بين نعوت مستلهمة من حقول أخرى، مشدودا
إلى مرجعيات الأدب أو التاريخ أو الجغرافيا أو الإثنوغرافيا...
دون القدرة على النظر إلى الرحلة نصا مفتوحا، في كليته، على
أشكال وحقول تتفاعل لتُشيد إدراكا ورؤية وتعبرا.

وقد سعت بعض المنظورات الحديثة إلى رسم صورة
للرحلة، واعتبرتها تسجيلا للاتطاعات والمشاعر، وإحدى
الفنون الأدبية المتعددة، إلا أن هذا الأدب لم يتطور التطور
المناسب ليتحول إلى إحدى قطاعات الثقافة العربية الحديثة (20).
والوعي نفسه الذي يحصر الرحلة في باب الأدب، يقف على

تماساتها وتقاطعاتها مع ضروب المعرفة وصلتها بالثقافة العربية والفكر والعلوم ، ويتصل مباشرة مع الجغرافيا⁽²¹⁾ أو مع حقل آخر ، ذلك أن «الرحلة الأوائل القدماء كانوا من أدباء وغنائين ومؤرخين وجغرافيين ومكتشفين ومبشرين»⁽²²⁾ ، كما أن «أدب الرحلة» هو واحد من الأساليب الأدبية القديمة التي برزت في الشرق والغرب على السواء⁽²³⁾ . وبالمقابل هناك استمرار للإنبساط ظل حاضرا عند بعض محققي الرحلات الذين قصروا الرحلات في «مشاهدات المسافرين المدونة في الكتب»⁽²⁴⁾ إذ ربطوا الرحلة بنوع خاص يعني «تسجيل الحاج للمشاعر والحوادث والمشاهدات التي تقع له منذ خروجه من بلده إلى عودته إليها»⁽²⁵⁾ . أو هو «وسيلة لجمع المعلومات وتسجيلها»⁽²⁶⁾ أو محققين آخرين لم يفرقوا بين الرحلة والرسالة والتقييد والتأليف والمذكّرة والتصنيف⁽²⁷⁾ ، فيما بحث باحثون كثيرون في الرحلة من منظور جغرافي أو تاريخي⁽²⁸⁾ بقصد إثبات تقريريتها مهملين نصيتها وماتحتوي عليه من بنيات فنية وتخيلية .

وتأسيسا على ما سبق ، يرى أنه لا يمكن الخلو من صياغة مقترح تعريف حول نص الرحلة دون فهم علاقاتها وارتباطاتها ، في إطار التفاعل الذي اتسمت به مع أشكال أخرى أو ما نستخدمه عليه بدائرة التخصيب .

3 - دائرة التخصيب : يفتح النص الرحلي ضمن دائرة متعددة المنافذ على أشكال أدبية وغير أدبية يتفاعل معها منتصا

جوهرها لاستثماره في تعزيز نصيته، فتأتي قدرته على التكيف ونقل السرد من الرتبة إلى التجدد والمفاجأة بفضل الأشكال المحتضنة وتنوعها وماتشكله من أهمية في مسار البنية السردية، سواء في شكل متخللات أو مكونات. وضمن هذا التفاعل والتبادل المغذي تنصادي البنيات والأشكال داخل دائرة متحركة ومرنة تطبع النص بتلوينات منسجمة

وقد وجد النص الرحلي مع مجموعة من الأشكال السردية الأخرى في لحظة البحث عن خصوصية ثقافية وصوت يُعبر عن الذات، ويحرر خيالاتها، فتفاعلت السرد وتلاقحت في حُسن واحد. وهكذا يمكن رصد مجموعة أشكال⁽³⁹⁾ ذات تأثير وحضور في النص الرحلي تتحول إلى عناصر أساسية في نسج البناء النصي والدلالي، وذلك بدرجات متفاوتة من مؤلف لآخر بحيث يمكن تسجيل بروز «العنصر المهيمن» أو العناصر المهيمنة داخل النص الواحد، في إطار هذا التفاوت الأمر الذي رجع احتساب النص الرحلي لفائدة هذه الجهة أو تلك، وهو ما غلبَ - تمثيلاً - في نصوص محلية فُيمنت فيها عناصر جغرافية، فسُميت «رحلات جغرافية»⁴⁰، وصارت معتمدة لدى الباحثين العرب وغير العرب⁽⁴¹⁾. لكن السؤال الجوهرى الذي يوجه هذا المبحث هو رصد كيفية حضور وتمظهر هذه الأشكال داخل النص الرحلي، وتفاعلها بصفتها بنى صغرى تدعم البنية الرحلية.

3-1- السيرة : تروم السيرة الذاتية تحقيق نوع من الترجمة

والتأريخ لحياة الفرد/المؤلف عن طريق حكي استرجاعي يخص فترة السفر المحددة. ويتعلق الأمر بتدوين كتابة مذكّنة، و«وصف للنفس المتأججة»⁽³¹⁾ بشكل ملفت للإنتباه، تتحد فيها شخصية الرحالة بالمؤلف بالراوي، وهو ما يشجع على التأكيد بأن السير الذاتية هي رحلات حياتية وفكرية في الوجود المادي والروحي، مثلما هي الرحلات، في العمق، سير ذاتية محدودة، خصوصاً النصوص الحجازية ورحلات المغامرة؛ ذلك أن السيرة وهي شكل متطور يتخذ موقعه «المركزي» في النص الرحلي بشكل بارز، كما هو الأمر عند ابن خلدون⁽³²⁾، أو ضمنياً، وهو الأعم، في الرحلات العربية. لكن الأكد هو أن النص الرحلي يتضمن تذكّناً لجمل السرد والوصف والتعليق... حيث تحضر الذات من خلال الجهاز المعرفي للرحالة وطريقة فهمه وصياغته ومصادراته، وهي أشياء تذكّنت عباراته المتعلقة به مباشرة أو بما هو غيري خارجي عن الذات ظاهرياً فالأنا، سواء كانت مباشرة بضمير المتكلم (مفرداً أم جمعاً) أو مُقنّعة في ضمير الغائب أو المخاطب، تتوقع في مكثف مُنحنيات نفسية وتاريخية ومعرفية. إن السيرة، بهذا المعنى، تنمط في الكتابة لا تخضع لرغبة الفرد في الحديث عن نفسه رغم أنها كتابة لتأريخ شخصي بقدر ما تخضع لموقف ثقافي عام⁽³³⁾ هو الممارسة الثقافية. ويمكن ملاحظة الخلط بين السيرة وهي مفهوم وبين الترجمة التي اقترنت بنوع من السيرة الغريبة؛ فالترجمة هي خلاصات مركزة لحيوات

وسير فكرية خاصة بأعلام اشتهروا في الفقه والشعر والعلوم والثر. أما السيرة فقد عرفت معان شتى متدرجة وسعت من دلالتها عبر مراحل تاريخية، وظلت امتشودة إلى مبادئ ثقافية عامة، تتصل برؤية العربي قديما لنفسه وللكون وللإله⁽³⁴⁾، وتتغير بحسب العصور وتبدل المفاهيم، والحديث عن الذات على حد تعبير عبد الفتاح كيلطو⁽³⁵⁾ عرف عدة مظاهر حسب الثقافات والأساق، وهو ما يدعونا إلى التعامل مع مفهوم السيرة من منظور نسبي، وعدم قراءته بغض المقاييس والمعايير السائدة.

في بداية العصر الإسلامي افترن مفهوم السيرة بتدوين حياة وأفعال الرسول ﷺ، حيث كان النص السيري يشكل انطلاقا من وقائع وأقوال واستشهادات الرواة، ثم امتد المفهوم إلى دائرة التراجم بسرد سير بعض الشخصيات المشهورة، وتوسع أكثر حينما ارتبط بالخيال مع السير الشعبية التي لها تاريخ طويل ومعقد في النشوء والتكون⁽³⁶⁾. فيما كانت سير أخرى تسمى ذاتية كتبها مؤلفوها عن ذواتهم ومسارهم الفكري، فارتبطت بالفقهاء والعلماء والفلاسفة والمتصوفة وبعض المؤرخين... إذ يلجأ مؤلف السيرة إلى رصد مسارهم الفكري والروحي والكشف الذاتي بالتذكر والانتقاد كما فعل ابن سينا، والغزالي في «المعتمد من الضلال» حينما تخيل ساقلا يرد عليه بأسلوب استبطائي متضمن انتقادات للذات، قال الحياة عنده رحلة طويلة وشاقة للوصول إلى المعرفة والحقيقة.

ويؤكد أحد الباحثين أن «النقطة الرئيسية في التراجم الذاتية العربية هي في وصول الشخص إلى الإيمان بمذهب من المذاهب أو دين من الأديان»⁽³⁷⁾. ولا يختلف الأمر كثيراً مع ابن خلدون الذي يعلن سرده لوقائع وأسفار تضمنت حركية في أحداث صاغت «ذات» ابن خلدون وجعلتها «أنا تاريخية»⁽³⁸⁾ مشاركة في أحداث، وفاعلة في بعض منها، وهو ما يزي الت تصنيف الذي يُمحور السيرة الذاتية، في السرد القديم، في ثلاثة أصناف⁽³⁹⁾: السيرة الشهادة ومثالها ابن خلدون السيرة التربوية (الغزالي في المنقذ من الضلال)، والسيرة - المغامرة (كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ).

إن تاريخ السيرة تاريخ متطور بين سيرة غيرية عن آخرين فاعلين، كان ضروريا تاريخ أفعالهم وأقوالهم للتخليد والتعلم والاعتبار وسيرة ذاتية يكتبها المؤلف عن حياته الفكرية أو الروحية بقصد التواصل بينه وبين القارئ؛ فلا يخلو نص رحلي من حديث عن الذات والتأمل في سيرة، ضمناً، كما عند ابن فضلان وأبي دلف، أو صراحة، تظهر خلال تعابير واضحة بتذكرات تُحوّل الحديث عن الذات إلى مرآة شفافة وحميمية كما في تحفة ابن بطوطة:

«... فأقبل بعضهم على بعض بالسلام والسؤال، ولم يسلم عليّ أحد، لعدم معرفتي بهم، فوجدت من ذلك النفس مالم أملك معه سوابق العبرة وأشد بكائي فشر بحالي بعض الحجاج، فأقبل

علي بالسلام والإيثار، وما زال يؤنسني بحديثه حتى دخلت المدينة⁽⁴⁰⁾؛ وكذلك الأمر مع صاحب ملتقط الرحلة⁽⁴¹⁾، الذي هاجر من المغرب نحو المشرق للإجتماع بأقطاب الصوفية، ثم استقر به المقام وتزوج هناك بعد اشتغاله بالتدريس بحضر موت، وفي سنة 1627م أملى رحلته المتضمنة لسيرته الذاتية بعد مضي أزيد من أربعين عاماً.

إن وحود السيري في نسج الرحلة يظل حاضراً بكافة وجوهه داخل الساء العام وبين ثابا الدلالات في أي نوع من النصوص الرحلية، تتفاوت تعظهااته وهيمته باعتباره بنية متشعبة تتحقق على مستويات ودرجات متباينة من مص لآخر.

2-3- التراجيم : يعزو الباحثون وفرة مؤلفات التراجيم إلى بواعث دينية وفكرية في إطار الانشاف حول القرآن الكريم والحديث والتفسير. ويؤكد روزنتال⁽⁴²⁾ ذلك حينما يركز على أن اهتمامات المسلمين بالحديث والفقه دفعهم إلى شكل التراجيم والطبقات بقصد الدعم والتقوية، بحيث ارتبطت التراجيم بالطبقات⁽⁴³⁾ ارتباطاً غذته العوامل الثقافية والممارسة الفكرية التي ساهمت في رسم معالم سلوك متجذر في الوعي الثقافي، مما دفع بالباحثين في هذا التراث إلى التحري في مفهوم الترجمة (Biographie) التي هي «تاريخ الحياة الموجز للفرد»⁽⁴⁴⁾، وذلك به إثبات النسب قبل المستطاع ثم التحدث عن مكان الولادة وزمانها وظروف النشأة والتحصيل، ثم الأعمال التي تولاها

والوظائف التي شغلها والآثار التي خلفها مع كلمة عن أخلاقه وصلاته بأبناء عصره مختومة بمكان وفاته ورماتها⁽⁴³⁾.

فيما يلقي باحث آخر الفصل بين الترجمة الذاتية وما يسمى بالترجمة الغيرية، بدعوى أن «الطريقة التي تُرجم بها للغير هي الطريقة نفسها التي نجدتها في الترجمة الذاتية»⁽⁴⁶⁾، وهو في نفس الآن، يحدد الخطوط التي تتبعها الترجمة عند ابن خلكان ويقاوت، بحصرها في سبع نقاط شبه عامة.

أما عدوى مالطي فتدرس اثنين وعشرين مؤلفا في التراجم وردت فيها ترجمة للخطيب البغدادي، لتخلص إلى قسمين من التراجم :

- قسم يتضمن تقديم المعلومات الجوهرية الإسمية مصحوبة ببعض تواريخ الميلاد أو الوفاة، هذا بجانب ما قد يجده الإنسان في هذه التراجم من صفات التمجيد والثناء، ربما مع ذكر لأعماله، أو حتى أين توفي، ومن الذي حمل نعشه. ومن السمات العامة التي تميز هذه التراجم انعدام المادة الروائية⁽⁴⁷⁾؛

- وقسم آخر، نقول حوله عدوى إنه يحتوي على «مجموعة مختارة من البيانات السيرية أكثر دقة ومتضمنة للمادة الروائية»⁽⁴⁸⁾. وعبر هذين القسمين تقارب الباحثة الاختلافات في التراجم التي تناولت شخصية الخطيب البغدادي.

وترتبط التراجم بالنص الرحلي أكثر من أي شيء آخر، خصوصا في بعض الأنواع التي تستجيب لهذا الشكل، ففي

الرحلات الحجية والزيارية، تصبح بنية الترجمة حاضرة بقوة، بحيث يتحول الرحالة - المؤلف الى ترجمان للأعلام والفقهاء والمتصوفة والأولياء، والأموات الذين زارهم أو الأحياء الذين سمع عنهم أو صادقهم وناقشهم. وفي رحلة العبدري يتأث النص كله بتراجم لشخصيات وأعلام من العلماء والفقهاء والأدباء والفضلاء... في خطة تختلف عن خطط كتب التراجم، وذلك بعدم ذكر التفاصيل الكثيرة، وإنما الإهتمام بوصف الصورة الفكرية والثقافية والأخلاقية للمترجم له، وهو السبيل الذي سلكه، بامتياز، أبو سالم العياشي⁽⁴⁹⁾. كما خص ابن قنفذ رحلته لترجمة شيخه أبي مدين وبعض الشيوخ المتصوفة : «فحركني ذلك إلى ذكر هذا الشيخ والتعريف به وما وصل إليّ من خبره ونسبه مع مناسبة حالتي هنا بسببه قاصدا في ذلك الإختصار على العادة في ذكر الأمثال والأخبار»⁽⁵⁰⁾.

كما أن أنواعا من الرحلات اختصت بإيراد صيغة تجمع بين السيرة الغيرية والترجمة، وهي النصوص التي يكون فيها الرحالة مرافقا لموكب رسمي لتدوين سير الرحلة⁽⁵¹⁾ فتبدو ذات المؤلف غائبة ومقصية، «حضورها» من أجل خدمة الآخر على عكس النصوص الأخرى التي تلتفت فيها التراجم عن طريق أحكام وتقريرات ومواقف تجعل من العبارات المركبة جزءا من البنية الفكرية للرحالة؛ فالعبدري الفقيه الباحث عن الحقيقة العلمية في ما هو ديني وأخلاقي يلجأ إلى خلفياته ليقوم أحكاما

شبه قطعية في تراجم يؤت بها نصح الرحلي اضفاء للشرعية على وقائع رحلته :

«وملايت بمدينة تلمسان من ينتمي إلى العلم، ولا من يتعلق منه بسبب سوى صاحبنا ابن عبد الله محمد بن محمد بن خميس وهو فتي السن مولد عام خمسين وله عناية بالعلم مع قلة الراغب فيه والمعين عليه وحظ وافر من الأدب وطبع فاضل في قرض الشعر ...»⁽⁵²⁾. إن ورود أشكال التراجم في الرحلات بشكل متواتر في عدة نصوص يجعل منها مكونا في بنية الرحلة، وعنصراً لازماً لأنواع بناتها دون أخرى، وخطاباً محموله حقريات الرحالة عن الرجال المصدرة واللقاء بها بقصد دعم السيرة الفكرية للرحالة/المؤلف، وتحقيق مدى لقائه وجُلوسه مع/ إلى هؤلاء الاعلام والاعيان وزيارته لأخرين. بهذا يبدو حضور التراجم في الرحلة نفوسية لموقعها، وإسناداً للجانب السيري للرحالة/ المؤلف.

3.3- التاريخ : يفتتح أحمد بن هطل رحلته بالحديث عن التاريخ قائلا : «أما بعد، فإن علم التاريخ من أجل العلوم قدرا وأكملها محاسنا وفخرا»⁽⁵³⁾، وفي ذلك، إعلان صريح لارتباط الرحلة بالتاريخ، وارتباط التاريخ بالحكي⁽⁵⁴⁾، بل إن الرحلة وكادت في حُضن التاريخ والجغرافيا. وحينما صارت قائمة بذاتها، لم تفصل عن مصلوها، وإنما حوكتها إلى عنصر جوهري، حتى أنه يمكن اعتبار كل ما يكتب تاريخاً بشكل ما. فلم تسلم الرحلات

من اللجوء إلى التاريخ والإستشهاد بفقرات طويلة منه كما هو الحال في «سلوة الغريب وأسوة الأريب»⁽⁵⁵⁾، ورحلة للتجاني وهو يستشهد بفقرات من تاريخ ابن شداد والبكري⁽⁵⁶⁾، أو يلجأ إلى رواية أحداث عاصرها بأسلوب المؤرخ : . . . وكتبت عنه في ذلك كُتُبا إلى سائر الجهات من كتاب يقول في بعض فصوله : «وإن صاحب صقلية لج في طغيانه فيه واستمر على عدوانه وبغيه وحمله سوء تقديره وفساد تدبيره على اعتصام جانب الإسلام»⁽⁵⁷⁾.

إن تأثير وحضور التاريخ في الرحلة أمر طبيعي، ذلك أن العادة التاريخية قد عرفت مناحي عدة في تناول بين الطبري والمسعودي واهتمامهما بالسرد الإخباري المختلط بالأحلام والخرافات والتفسيرات الغيبية للوقائع . . . من جهة، وبين ابن خلدون ومن نحا نحوه والقواعد الدقيقة والمضبوطة لعلم التاريخ من جهة ثانية وهو ما أفاد السرد العربي والنص الرحلي، خصوصاً، حيث يصبح البناء النصي في أحبار ومشاهدات الرحلة «بصفة عامة، من أهم المصادر التي يمكن أن يستفيد منها المؤرخ والجغرافي والأديب والسياسي والإثنوغرافي وغيرهم»⁽⁵⁸⁾، واعتبارها مرآة للحضارة، ومصدراً معتمداً في الكشف عما عرفه العالم من حضارات قديمة⁽⁵⁹⁾ مثلاً، هذه الرحلات التي يهيمن عليها الجانب التاريخي تحفل بمعطيات أخرى معتزجة بالأخبار التاريخية والخرافات والتقاليد والأوعاء بكل أشكالها . وهو شيء

حاضر في رحلات المؤرخين الإغريق القدامى ، كما نجده عند الرحالة العرب الأوائل .

وتتضمن جل النصوص الرحلية بنيات كاملة يؤرخ فيها المرحّل للفترة التاريخية التي استغرقتها رحلته فضلا عن الأحداث التي عاصرها من منظور يعتمد المعاينة والقراءة والتأويل والسماع . فتتحوّل الرحلات في بعض مقاطعها إلى تاريخ خاص ، وحوليات⁽⁶⁰⁾ يتم فيها تبشير عين الرحالة ، المنطلقة من ذاته وأفكاره وتصوراته واستبهاماته . فيتحوّل التاريخي إلى مشاهدات تلتقط ما يعرّز الرحلة ويعطيها الطابع الذي يتوخى السارد إيصاله إلى القارئ .

هكذا ، يستقيم البناء الواقعي في الرحلة بوجود المشاهدات وتكيفها مع شروط التحول ، ونوعية الرحلة ، وانصهارها مع العناصر الأخرى المتداخلة انطلاقاً من الخير والحوليات وتتطور إلى الأنساب والتراجم والفلسفة والوثائق⁽⁶¹⁾ التاريخية والجغرافية والسجلات الاجتماعية .

3-4 الجغرافية : في الثقافة العربية نصوص جغرافية كثيرة ومتنوعة اندرج أغلبها في سياق تجاري أو علمي ، فدوّنت نصوص رحلية تهتم بالجانب الجغرافي البري أو البحري ، وذلك بوصف الطرق والمسالك ، ومعالم البلدان والمراكز والأثار ، بالإضافة إلى بعض المواقع والنواحي . وتمثل فترة القرن الرابع الهجري - كما يحدد ذلك نيقولا زيادة- دور النضج في الجغرافية العربية ، إذ هناك أربعة اتجاهات في التأليف الجغرافي العربي :

- العناية الشديدة بأقطار العالم الإسلامي (البلخي، الاصطخري، ابن حوقل، المقدسي).

- نوع تخصص في قطر واحد (البيروني : الهند، ابن فضلان : بلخار الفولغا).

- الاتجاه الثالث : اهتم بوضع المعاجم الجغرافية (الحموي).

- الاتجاه الرابع ويتجلى في الموسوعات الكبيرة (النويري في نهاية الأرب، صبح الأعشى للفلقشندي)⁽⁶²⁾.

كل هذا الغنى والانفتاح فسح المجال أمام تراكم الرحلات الجغرافية التي تم تصنيفها إلى صنفين : «صنف يطوف البلدان لهدف علمي، [من أجل] تسجيل المعلومات الجغرافية والاجتماعية [...] تسجيلاً أميناً، وينتمي لهذا الصنف الجغرافيون الرحالة. وصنف يسوح في الامصار لغرض تجاري أو سياسي أو ديني، ثم يدون مشاهداته وملاحظاته في كتاب، وهذا الضرب من كتب الرحلات يغلب عليه الطابع الوصفي البحث»⁽⁶³⁾.

ويعتبر عمل كراتشكوفسكي في هذا المجال إضافة «يلم [فيها] بأطراف الجغرافيا الرياضية والوصفية، كما جهد في الإحاطة بالجغرافيا العامة والإقليمية وهو لا يهمل فقط الرحلات حتى تلك التي تحمل طابعاً أدبياً صرفاً، بل وأسطوريا»⁽⁶⁴⁾، وقد ارتبطت الرحلة بالجغرافيا وتنوعت في إطار منظومة تجمع عدة

أشكال متنوعة منها اتجاهان أساسيان : الأول يولي وجهه شطر العلوم في حين يولي الثاني وجهه جهة الأدب الفني⁽⁶⁶⁵⁾ ، ويموازاة هذا الاتجاه ، اتجاه آخر تشكل معه في وقت واحد ، بل وربما تشكل قبله تبعاً لبعض المصادر وأعني منهما الجغرافيا الوصفية التي يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً بقصص الرحلات⁽⁶⁶⁶⁾ ، مما يؤكد التفاعل بين الجغرافية والنص الرحلي ؛ فحضور الجغرافي في الرحلي يتجلى من خلال اهتمام الرحالة/المؤلف بالوصف لما يرى ولمختلف الظواهر الطبيعية .

وقد اتفق عديد من الباحثين على متانة هذا الارتباط ، بل هناك من يعتبر أن الرحلات تفرعت عن الجغرافية الإسلامية⁽⁶⁶⁷⁾ ، مقابل رأي آخر يؤكد على أن الرحلات كانت منذ بداية التفكير الجغرافي من أهم وسائل المعرفة الجغرافية⁽⁶⁶⁸⁾ ، هذه الجغرافية التي سيشير شوقي ضيف إلى نقيضها ملتحماً إلى أن ماتتضمت الكتب الجغرافية من أساطير وخرافات -ويقصد الرحلات الجغرافية- هو الذي جعلها أدبية⁽⁶⁶⁹⁾ ؛ ورغم ذلك فقد أجمع أكثر من دارس على أن الرحلات الجغرافية عرفت ولادتها مع الرحالة ابن عربي المعافري⁽⁷⁰⁾ في كتابه ترتيب الرحلة للترغيب في العملة ، والذي يقول عنه حسين مؤنس إنه «رسالة كتبها ابن عربي لغرض معين هو الحديث عن رحلته المشرقية»⁽⁷¹⁾ . فيما جعل غيرهم ابن جبير الأب الشرعي لهذا النمط⁽⁷²⁾ . لكن المؤكد هو أن الذين تناولوا مسألة الرحلة والنص الجغرافي احتسبوا الرحلة

وسيلة لبناء المحرافية ، أما التمييز الضروري فهو وجود نصوص جغرافية محضة عبارة عن رحلات إلى أمكنة بقصد معاينتها ووصفها من كافة نواحيها⁽⁷³⁾ . فيما هلك رحلات استثمرت الجانب الجغرافي الوصفي لصوغ النص باعتبار الرحلة كانت «مجالاً رحباً ومشجعاً يشهد الاجتهاد الجغرافي وينشط ويُغفّر برؤية كاشفة»⁽⁷⁴⁾ ، تفرد إلى تحقيق التفاعل والتخصيب الذي استطاع جعل الوصف والسرد وسيلتين إلى جانب فعل الرحلة لاستقطاب مشاهد متقاطعة بين الجغرافي والتاريخي لخدمة التزيين في الرحلة .

5-3- السجلات الاجتماعية . تشكل السجلات

الاجتماعية في النصوص الرحلية رافداً أساسياً لإغناء النص وتوسيع أبعاده وتوثيقها ، خصوصاً وأن جل الرحلات لا تحلو من وصف طبائع الناس وعاداتهم وتقاليدهم وبعض خصوصيات ثقافتهم . والأمر هنا ليس بالدقة التي يتصف بها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيون حيث «الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة والتقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين خلال فترة محددة»⁽⁷⁵⁾ ، وإنما يجيء الجانب الاجتماعي في النصوص الرحلية سجلاً يرصد بعض أخبار السكان وطبائعهم وتقاليدهم وثقافتهم ومذاهبهم وكل ما يثير انتباه الرحالة في إطار المقاربة مع ما يحترزونه مما يسهل الاصطدام بمشاهد غير مألوفة ، وأساليب حياتية لم يتعود عليها ،

ويتضح ذلك على الخصوص في الرحلات المتجهة لغير العالم الإسلامي كرحلة ابن بطوطة الحافلة بسجلات مرجعية، ورسالة أبي دلف في وسط آسيا، وابن فضلان عند الصقالبة، بقول هذا الأخير: «وأكلنا كل واحد من مائتته لا يشركه فيها أحد، ولا يتناول من مائدة غيره شيئا، فإذا فرغ من الطعام حمل كل واحد منهم ما بقي على مائدته إلى منزله. فلما أكلنا دعا بشراب العسل وهم يسمونه «السجو» ليومه وليته فشرب قدحا، ثم قام قائما فقال: «هذا سروري بمولاي أمير المؤمنين -أطال الله بقاءه-» وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه، وقمنا نحن أيضا حتى إذا فعل ذلك ثلاث مرات، ثم انصرفنا من عنده»⁽⁷⁶⁾.

أما الرحلات التي جابت العالم الإسلامي فقد اهتمت بهذا الجانب من مختلف مناحيه، حيث وقف الرحالة «بن حمادوش»⁽⁷⁷⁾ في رحلته على تسجيل الآثار الاجتماعية والدينية والتقاليد، وأيضا نوعيات التطبيب (الطب الشعبي) والأوعاء والخرافات.

وتجسم ثقافة وخلفيات الرحالة في عمق أو سطحية ملامسته للسجلات الاجتماعية للمناطق المرحل إليها؛ كما أن وجود هذا العنصر داخل الرحلة شكّل بؤرة اشتهرت بها العديد من النصوص، ولغث انبثاء الانثروبولوجيين والاثنوغرافيين وأيضا المهتمين إلى صفحات ثرية ومغرية في آن.

6-3- الخانة الفارضة : الخانة الفارغة شكل مفتوح يضم

مجموعة من العناصر المتخللة والعتايرات التي تحضر بلرجات متفاوتة، أو تختفي وقد تتحول بعض العناصر فيها إلى مكونات ذات حضور قوي أو متخفية فلا تؤثر في البناء العام.

3-6-1- الحكيم والمخبر : يتمظهر الحكيم الإخباري في النص الرحلي ضمن وحدات مهيمنة تستعين بالوصف والمقارنة والتعليق في جمل سرديّة يتم تقديمها عبر مراحل الرحلة، وقد يغلب طابع الحكيم الذاتي فتتراجع الأخبار لصالح الذات، مثلما يمكن للحكيم أن يترك مكانه للإخبار الذي يضيء الأشياء والآخرى وفي الحالتين يشجلى التأثير الذي مارسته الحفول الأخرى (التاريخ، الجغرافيا، الحكايات) على الرحلة في استدعاء الحكيم والخبر وتوظيفهما بنفس قريب من أنفاس الاستعمال في التاريخ، مثلاً.

إن طبيعة النص الرحلي تتطلب، بالضرورة، هذين المكونين في بناء النص ككل، وإعطائه الطابع الرحلي المنسجم مع التصور العام، ومع الأشكال والحفول الأخرى.

3-6-2- الشعر : ويحضر تعبيراً عن ثقافة الرحالة، وسعة علمه أو مقلدته على النظم، فهو يشجلى عبر مستويين : إما أن يكون من نظم الرحالة نفسه، أو مستشهداً به من محفوظات الرحالة.

وإذا كان الشعر يعتبر عنصراً ضمن بنية الرحلة فإنه لا يحضر في بعض الرحلات مثل رحلة ابن فضلان أو رحلة أنوفاي أو بعض الرحلات الجغرافية والسفارية ... ولكنه يحضر في

الرحلات الحجاجية الزيارية، والعلمية وغيرها. ففي نص العبدري نوحان من التضمين الشعري. نوع من الأشعار التي ينقلها ويعلق عليها، ولارتباط ذلك بشخصية قائل الشعر، حتى إن النص الرحلي يبدو بكامله مرصعا بنصوص شعرية ترتق نثره بأبيات متفرقة، أو قصائد طويلة. وهناك نصوص شعرية من تأليف تراوح بين القصير والطول⁽⁷⁸⁾، إضافة إلى الاجتهاد والتنوع في استشعار النص الشعري لخدمة أهداف الرحلة، وذلك على سبيل ما فعله أبو سالم العياشي في إيراده لقصائد ومراسلات شعرية تتضمن أسئلة وأجوبة⁽⁷⁹⁾، وهو الأسلوب نفسه الذي انتحاه عبيد الله التجاني⁽⁸⁰⁾ بصيغة أخرى تضمينية للحوار

إن حضور الشعر بهذا الشكل أو ذاك في النص الرحلي يبدو مجرد حلية في أحواض النثر لتأكيد معرفة الرحالة بالنظم، وأيضا لاستيضاح بعض القضايا التي يصعب التعبير عنها نثرا، كما يلجأ إليه الرحالة للتفيس عن غريبته ومناجاة ذاته وأحبابه.

3-6-3- الرسالة : وُسِّمَت نصوص رحلية وأدبية عامة بكونها رسائل، مثلما برع أدباء -ومنهج رحالة- في الأساليب الرسائلية باعتبارها صنعة محددة المعالم مارسها أدباء في الدواوين⁽⁸¹⁾، ومن خلالها كتبوا في مواضيع الإخوانيات والمفاكهات والمناظرات والأوصاف والحكايات ..⁽⁸²⁾

وتطرح مسألة علاقة الرحلة بالرسالة نقطتين للنقاش تتعلقان بإشكال تفاعل الأشكال وتداخلها :

- النقطة الأولى وتحصن التداخل في التسمية بين الرحلة والرسالة، فـ«رحلات أبي دلف» و«ابن فضلان»، تسم عنوانيهما باسم رسالة، كما في الرحلتين الخياليتين للمعري وابن شهيد نظرا لانتشار وازدهار هذا اللون في الأدب العربي، كما أن مفردة «رسالة» من جملة معانيها «الكتاب»، أي أن اختيار عنوان باسم رسالة يثوي رغبة تواصلية حوارية ذات مدلول ثقافي واجتماعي.

- النقطة الثانية وتعلق بكون العديد من احتياجات النصوص الرحلية يشبه بدايات الرسائل لتضمنها لصيغة «أما بعد»، وأسلوب الخطاب المتوجه إلى قارئ محتمل، فضلا عما تتضمنه الرحلات من رسائل ومراسلات؛ فالتجاني يدرج بعض مكاتباته ورسائله الإخوانية في رحلته، وكلها محررة على النمط المسجع. مثلما نجد ذلك عند أبي سالم الذي يورد مراسلاته مع شيوخ مكة.. الشيء الذي أعطى للرحلات فرصة تنوع خطاباتها، وتعدد أساليبها، وتجليات صور «ذوات» مؤلفيها. وفي هذا السياق، يمكن الحديث عن التأثيرات التي يصبغ بها كل رحلة نصه سواء الأسلوب الرسائلي كما عند ابن الحاج النميري، أو الأسلوب المقامي في «الرسالة الثانية» لأبي دلف⁽⁸³⁾.

3-4-6- اليوميات : الرحلة في عُصفها هي مذكرات ويوميات يدونها الرحالة حول رحلة قام بها في الواقع، وتكون ذات أسلوب متقاطع ومتنمج مع أساليب اليوميات والمذكرات والاعترافات.

يلوّن عبد الغني النابلسي (ق17م) رحلته كلها⁽⁸⁴⁾ بالتواريخ المنفصلة في شكل يوميات تصل إلى تسعة وتسعين يوماً، أما العبدري فهو يقيّد ماجرى له في شكل مذكرات عن الأشخاص والأمكنة مثلما فعل ابن بطوطة وهو يذكّر الأحداث التي عايشها منذ أزيد من ربع قرن. هكذا يمكن الحديث عن بثية تتفاعل داخلها اليوميات مع المذكرات بالبروح، فهي رحلة التجاني يحضر أسلوب اليوميات ممزوجاً بالخبر التاريخي واستصدار الاحكام والتأملات: «فلما كان اليوم الثالث تمكن النصاري من القصر المعروف بقصر الديماس وحصل به زهاء مائة منهم بإعانة بعض الأعراب لهم... فلما كان اليوم الرابع اجتمع المسلمون وخرجوا من المدينة وكبروا تكبيرة رامت من في الجزيرة»⁽⁸⁵⁾. وإذا كانت الرحلة، في بعض أوجهها، بوحاً وتنفيساً، فإن شكل اليوميات المتسلسلة اعتراف مُقنّع ومزدوج، إذ يعترف الرحالة بما رأى عند الآخر ويوح بتعليقاته ومقارباته، حيث نجد عند ابن جبير، في رحلته⁽⁸⁶⁾، شكل مذكرات يومية تفلّ فيها الإنطباعات الثانية إذا قورنت برحلات أخرى⁽⁸⁷⁾ حيث يعتبر بعض الدارسين «أن أياً دلف كتب ذكرياته عن رحلته بعد عودته من الرحلة»⁽⁸⁸⁾. من ثمة، فإن لجوء السارد إلى استعمال اليوميات ضرورة فنية وبنسوية تكسر رنابة الحكّي الكرونولوجي العسادي من جهة، وتعطي للذات فرصة تتبع أثرها الملموس من جهة أخرى.

5-6-3- تحليلات أخرى: تميز، باستمرار، الخانة

الفارغة بعناصر أخرى ومستويات تبرز وتتجدد أو تتلاشى وتخفي وتحول بحسب الشكل الذي يحكم نوع الرحلة ؛ فبالإضافة إلى العناصر والأشكال السابقة تظل هذه الخانة مفتوحة على أشكال محتملة كالخطبة والأحلام والاستيهامات والتخيلات والحكي الاستبطاني والمقامة ... وكلها تعتمل ، ظاهرة أو خفية ، في البنية العميقة للنص الرحلي :



إن هذه الدائرة التي يتألف فيها النص الرحلي تتخصب بنيتها وتشكل بالعناصر الأولية الرئيسية ، بالإضافة إلى أشكال أخرى تندمج في بنية النص وتنتشر فيه ثم تسم الخطاب وترسم حدوده وأفاقه ، وتؤسس لدلالات مفتوحة تخلق نوافذ أخرى تكسر ما

يجعل الدائرة منغلقة أو ذات تفاعل أحادي أو ثنائي، فيستمع مستوى التلاقح والتخصيب، وهو ما سمح بصعوبة القبض على تعريف بجمع، في حده، زخم الخصوصيات والتنويعات في النصوص الرحلية العربية.

4 - مقترح مفهوم للرحلة

«الرحلة هي إحدى الأشكال الكبرى الأهم للأدب»⁽⁹⁹⁾.
لا شك أن خصوصيات شتى تتضح بخصوص مقارنة النص الرحلي⁽¹⁰⁰⁾، ومن أبرزها النسب المنفتح الذي يرتبط مع عناصر وبنيات أخرى تتلمج وتتفاعل معه ثم تلونه وتعطيه إمكان توسيع صور الشكل والدلالة، واستمرار التلاقح مع العناصر الأخرى، وتخصيب البنية الرحلية العامة لتطورها، باعتبار أن النص الرحلي داخل علاقات وفي حوار مع الأجناس التي تبحث عن حل للمشاكل التي تطرحها نتائج المؤرخين المتجددة⁽¹⁰¹⁾، وكل الأشكال السردية المتداولة بسماتها وخصائصها داخل النسق الثقافي العام.

ونأتي صعوبة تحديد وصياغة مفهوم للرحلة من عدة اعتبارات أساسية منها :

- غياب تعاريف دقيقة، فقد خلصنا أثناء الحديث عن الوعي بالرحلة إلى غياب تعميد واضح للمفهوم، سواء عند الرحالة أو عند اللغويين العرب.

- وجود نصوص رحلية كثيرة وثيرة ومتنوعة، الأمر الذي

يصعب معه تحديد مفهوم جامع تلثفي حوله كل الأنواع
الرحلية.

- انفتاح النص الرحلي على عناصر أخرى متحركة تحضر أو
تختفي بدرجات متفاوتة بين النصوص

لكن الصعوبات النابعة من غنى الرحلة، والتي هي جزء من
تراث سردي متفاعل وغني، تُغري دوماً بالبحث عن أفاق للقبض
على تحديد يلم كل السيج المكون لتلك النصوص، ويصهر
هجاتها وكليتها بعناصرها المركبة في إطار دينامية الدائرة/ملتقى
العلامات المتفاعلة.

من هنا المنظور لتحديد الرحلة عند "أنور لوقا" بكونها «تتجزع
التسجيلات الوصفية والإنشائية التعليمية بالحكاية
والتسجيلية»⁽⁹²⁾، لتحقيق إدراكنا بالعالم ومقارنته؛ فالرحلة هي
«النوع الأدبي الذي يفسح المجال أمام ترسيخ تقليد الموازنة بين
فضاءين وقيمتين وصورتين، حتى في الحالات التي تقتصر فيها
الرحلة على مجرد الوصف للعالم الجديد. لأن هذا الوصف
يخضع، عن وعي أو لاوعي، لمنظور وثقافة الواصف الذي يعمل
على تحويل لغوي ومفهومي للمنظورات»⁽⁹³⁾، فتحقق الرحلة
نصاً سردياً يتراوح بين قطبي الواقعي والخيالي بأسلوب يسجل
ويصف رحلة انتقال السارد/المؤلف من فضاء لآخر داخلي أو
خارجي على المستوى الفعلي، أو انتقال ذهني متخيل في الماضي
أو المستقبل، ذنبوا أو أغروا⁽⁹⁴⁾. وهي في كل الحالات تجربة

يخياها الرحالة من أجل هدف فردي أو جمعي لغاية تحقيق منفعة مادية أو روحية.

ويتم السرد في الرحلة بضمير المتكلم بتنوعات متفاوتة الحركة، إلى جانب عناصر الوصف والإخبار والتعليق، إضافة، إلى التذكير والحلم، واستعمالات أسلوبية تختلف من رحالة لآخر، وأيضاً بحسب النيمة المهيمنة في إطار التعدد النوعي للذي يرصد التجربة ويحول الرحلة إلى شكل نصي يعكس تجربة وجودية⁽⁹⁵⁾ وفي سياق يركز تعريف شعرية الرحلة على وصف ظاهراتي للتجربة⁽⁹⁶⁾، أو بتعبير دانييل هنري باجو هي إحدى التجارب المباشرة والمعقدة⁽⁹⁷⁾.

تأطرت الرحلة⁽⁹⁸⁾، مثلها مثل النصوص السردية الطويلة، التي شكلت الإرث التراثي الممتلئ بالخيال وبصمات الواقع، وبشفافة العين، ووجهات نظر مشتتة حول الآخر، وبإضاءات للأنا/ الذات والنحن. ونسجت وشائج متعاقبة مع أشكال دينامية تُلَمِّع سرود التجربة وتحفزها وتطعمها من أجل "معرفة الذات"⁽⁹⁹⁾ باعتبارها وسيلة للمعرفة والافتتاح على العالم⁽¹⁰⁰⁾.

إن أسئلة الرحلة، نصاً وكتابة، مأزق في تصنيف بؤرة جامعة ومشحولة لا تنف عند أجوبة شافية بقليل ما تفرش أرضية موسعة لأسئلة مقلقة.

إحالات

- 1- وهب دومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية، بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط3، 1982، ص20.
- 2- ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت، لبنان، ط2، 1992، ص32. (تحقيق وتقديم: الشيخ محمد عبد المنعم العربي).
- 3- العبدري. رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية الرباط، المغرب، جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات 4، حجازية 1، 1968، ص1 (حققه وقدم له وعلق عليه محمد القاسي).
- 4- ابن بطوطة : مرجع سابق، ص25 (من التقديم).
- 5- ابن معصوم المدني : سلوة الغرب وأسوة الأريب، بيروت، لبنان، مكتبة النهضة العربية عالم الكتب، 1988، ص19.
- 6- أبو عبد الله محمد القيسي . أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأحاجم والأحارب، فاس، المغرب، سلسلة الرحلات 5، حجازية 2، 1968، ص. (ص، ل) ، (حققه وقدم له محمد القاسي).
- 7- ابن فضلان . رحلة ابن فضلان، بيروت، لبنان، مكتبة الثقافة العالمية، ط2، 1987، ص ص 25-34 [تحقيق سامي الدعاع]
- 8- م. س. . هذا كتاب أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حماد مولى محمد بن سليمان ورسول المقتدر إلى ملك الصقالية يذكر فيه ما شاهد في بلد الترك والخزر والروس والصقالية والبلغار وغيرهم من اختلاف ملابهم وأخبار ملوكهم وأحوالهم في كثير من أمورهم ص65.
- 9- أبو حامد الأنديسي : تحفة الألياب ونخبة الإحجاب الدار البيضاء، المغرب، دار الأفاق الجديدة، ط1، 1983، ص12.
- 10- ابن قنبل : أنس الفقير وعز الحقيير الرباط، المغرب،

منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965، ص 2 [اعتنى بنشره ونصحيحه محمد القاسي وأدولف فور].

11- أحمد بن مطال . رحلة محمد الكبير (باني الغرب البحراني)، القاهرة، مصر، عالم الكتب، ط 1، 1969، ص 35 [تحقيق وتقديم: محمد بن عبد الكريم].

نفس الحلط يقع فيه المحقق حينما يقدم الرحلة على أنها رسالة حيناً، ثم نألفها ومذكرة حيناً آخر : فومهما يكن من الأمر فإن هذه الرسالة ذات أهمية كبرى من ناحية الحقائق التاريخية (...) وقد أجبنا أن نقدم هذا التأليف وبالأحرى هذه المذكرة إلى جمهور المتقنين ولأسيما منهم المؤرخين، ص 13

12- أسودلف . الرسالة الثانية، القاهرة، مصر، عالم الكتب، 1970، ص 30 [نشر وتحقيق بطرس بولعاكوف، أس حالدوف، ترجمة وتعليق محمد منير مرسي].

لا يفتح مفهوم الرحلة عند المحققين على أسس متية، فهما يخلطان بين اعتبارها رسالة مرة، ورحلة مرة أخرى، لكنهما يستلزمان ذلك في الهامش رقم 1، الصفحة 29 يقولها : «كانت كلمة الرسالة في تلك الفترة (ق 10م) تسمى أيضاً لونا فيا خاصاً من صون الأدب» .

13- أثناطيوس كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي . بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1987، ص 28 [نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم].

14- ابن عديويه : العقد الفريد . بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط 1، 1983، ص ص 178-179، [المجلد III]، [تحقيق: عبد الحميد الترحيني].

15- أحمد بن محمد المقرئ . نفع الطيب في فطن الأندلس الرطيب، بيروت، لبنان دار الفكر، ط 1، 1986، ص 217 [المجلد 2] [تحقيق: يوسف الشيخ بقاعي].

16- ابن منظور . لسان العرب، بيروت، لبنان، دار صادر، د. ت، ص. ص: 274-280.

- أبو بكر بن دريد . جمهرة اللغة العربية، بيروت، لبنان،

دار العلم للملايين، ط 1، 1987، ص 521، [تحقيق رمزي
عليكي].

- مجمع اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم، القاهرة،
مصر، دار الشروق، د ت، ص 242.

- الشيخ أحمد رضا: معجم اللغة، بيروت، لبنان، دار مكتبة
الحيات 1958، صفحات . 562، 563، 564.

- Littre, Paris, France, ed. Hachette, (tome7), 1985, PP 1897- 17
1900

- Dictionnaire quillet, de la langue Française (Q-Z), Paris,
France, ed. quillet, 1975.

- Dictionnaire des littératures de la langue Française
(P-Z) Paris, France, ed Bordas, 1984 PP2503-2511.

- Dictionnaire des lettres (sous la direction de Jacques De-
monin) Paris, France, ed Larousse. 1986, P.1764 (L.Z. N9).

18- يزرر هذا أيضا في المؤلفات والمقررات التعليمية التي تعتمد
على التفسير بالأساليب النثرية القديمة، حيث يغفل الحديث عن
الرحلات، ونادراً ما تذكر على سبيل المثال و«الترف» ابن بطوطة وابن
جبير.

19- تنقسم هذه الدراسات في تقدير عام- إلى ثلاثة أقسام : الأول يتعلق
بالنصوص الرحلية المتجهة إلى الشرق أو أفريقيا في إطار ثقافي أو
العنثات التي سادت في القرون الثلاثة الأخيرة

القسم الثاني، عني فيه بالدارسون الأجانب بدراسة وتحقيق الرحلات
العربية التي توجهت إلى البلاد غير الإسلامية ؛ أما القسم الثالث فهو
الدراسات التي تخص نصوصا رحلية غير عربية أو إسلامية.

20- الفكر العربي - (مجلة) العدد9، السنة . يونيو 1988، معهد الانماء
العربي، بيروت لبنان، ص 5 [عدد خاص . الرحلات العربية
والرحالات : الأنواع، الأغراض والتأثيرات].

21- نفس المرجع السابق، ص 7.

- 22- عالم الفكر - الكويت، عدد4، يناير، فبراير، مارس 1983 ص10
(من التمهيد) [عدد خاص حول "أدب الرحلات"].
- 23- جبريل أبي حيدر . رحلات أندلسيون ثلاثة ؛ في (الفكر العربي)
مرجع سابق، ص: 102.
- 24- أبو العباس أحمد بن محمد الكردودي : التحفة السنية للحاضرة
الحسنية بالمملكة الإشبيلية، الرباط، المغرب، المطبعة
الملكية، 1963 ص5 [من التصدير].
- 25- أبو القاسم سعد الله : تجارب في الأدب والرحلة، الجزائر،
المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983، ص268.
- 26- رنا قباني : أساطير أوروبا عن الشرق، دمشق، سوريا، دار
طلاس، ط1، 1988 و ص: 13 [ترجمة صباح قباي].
- 27- انظر : رحلة محمد الكبير لأحمد بن هطل، (م. س.)،
(الثقلم)، ص13 و 33.
- 28- انظر . - شاكر خضباك : في الجغرافية العربية، بيروت، لبنان،
دار الحديث، ط1، 1988.
- حسين مؤنس . تاريخ الجغرافية والجغرافيين في
الأندلس، مدريد، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط2،
1986.
- محمد محمود محمدين (تصنيف) : التراث الجغرافي
الإسلامي، الرياض، دار العلوم للطباعة والنشر، ط2، 1984
- 29- السيرة، التراجم، التاريخ، الجغرافيا، السجل الاجتماعي، الخانة
الفارغة . (الحكي والخبر، الثمر، الرسالة، اليوميات، تخريلات
أخرى ...).
- 30- انظر مثلاً : أبو دلف، الرسالة الثانية (م. س.) ؛ وقد صنف
المحققان الرحلة ضمن الأدب الجغرافي، رغم ما يحتوي عليه من
معلومات تاريخية وما تتضمنه من عناصر أدبية وتناص مع الشكل
المقامي.

- 31- لبون إدال : فن السيرة الأدبية، بيروت، لبنان، دار العودة، 1988، ص 17 [ترجمة صفدي خطاب].
- 32- ابن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، القاهرة 1951 [تحقيق : محمد بن تايوت].
- 33- شكري المبخوت، سيرة الغائب، سيرة الأثني، تونس، دار الجنوب للنشر، 1982، ص 23.
- 34- شكري المبخوت (مرجع سابق) ص 26.
- 35- عبد الفتاح كليطو : الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي، الدار البيضاء، دار نوبال للنشر، ط 1، 1988، ص 69.
- 36- بحوث صوفية عربية جملة في الأدب العربي : مجموعة مقالات، موسكو، دار رادوغا، 1986 [ترجمة محمد الطيار، جمع المقالات فاليري أكبر ينشكو، الكساندر كوديلين] ص 96.
- 37- عبد الله إبراهيم : السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1992، ص 133.
- 38- عبد الفتاح كليطو : (نفس المرجع السابق) ص 75.
- 39- شكري المبخوت : (نفس المرجع السابق) ص 25.
- 40- ابن بطوطة : (نفس المرجع السابق) ص 35.
- 41- يوسف الفاسي الحسني : ملتقط الرحلة من المغرب إلى حفسر موت، الدار البيضاء، المغرب، شركة النشر والتوزيع، 1988، (تحقيق وتقديم وتعليق أمين توفيق الطيبي).
- 42- عبد الله إبراهيم (مرجع سابق) ص 130 [استشهاد عن روزنتال : مناهج العلماء، ص 115].
- 43- مصطفى الشكعة : مناهج التأليف عند العلماء العرب، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، ط 3، 1979، ص 539. يتحدث الباحث عن هذا الارتباط موضحا أن :
- كتب التراجم : لا تحتص بفتة واحدة معينة متفقة المشارب، مشتركة

- أسباب المعرفة، وإنما تترجم لكل الأعيان من ملوك وصلاطين ووزراء وقواد وعلماء وفلاسفة وشعراء وأدباء وفقهاء وظرافاء.
- كتب الطبقات : تترجم لجامعات من الأعيان اتحدت في الغالب مشاريعهم وثلاث ثقافتهم وتوحدت تخصصاتهم.
- 44- يحيى إبراهيم عبد الداهم : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1975، ص 31
- 45- كمال اليازجي الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم، لبنان، دار الجيل، ط 1، 1986، ص 100.
- 46- عبد العناح كليطو : 1988، ص 76
- 47- فتوى مطلق دوجلاس . بناء النص التراثي، دراسات في الأدب والتراجم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، ص 127.
- 48- نفس المرجع والصفحة.
- 49- أبو سالم العياشي : الرحلة العياشية، صاء الموالي (في حرايين)، الرباط، المغرب، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر (سلسلة الرحلات 1-1) ط 2 (مصورة بالأوميسط) 1977، ص 2 [وضع فهارسها محمد حجي]
- 50- ابن تيمية (مرجع سابق) ص 2، كما يبدو، أيضا، حمل الرحلة لعلاماتها في عنايتها الفرعي المكمل : «في رجال أهل التصوف أبي ملين وأصحابه»
- 51- انظر : ابن الحاج التيمري . فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب. دون معلومات مرجعية، الإيداع القانوني رقم 85-1984 [إعداد : محمد بن شقرون].
- ابن الجيعة - القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف أو رحلة قاييتاي إلى بلاد الشام، 1477م، ليبيا، مشهورات جروس - برس، ط 1، 1984، [تحقيق عبد السلام تدمري].
- 52- العبدري (مرجع سابق) ص 13.

- 53- أحمد بن مطال : (مرجع سابق) ص 35
- 54- أحمد محمد الشحاذ : الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة، بغداد، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة، ط 2، 1986، صفحات : 15، 16، 17.
- 55- ابن معصوم المدني : سلوة الغريب وأسوة الأريب، بيروت، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، 1988، (تحقيق شاطر هادي)
- 56- عبد الله التجاني : رحلة التجاني، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1981، صص 346-347 وأيضاً صص 89-90.
- 57- عبد الله التجاني : (مرجع سابق) ص 337.
- 58- سمير علوي لمراي : الرحلة كوثيقة من أقدم الوثائق المكتوبة في تاريخ المغرب القديم. مؤلف جماعي : أدب الرحلة والتواصل الحضاري، 1993، سلسلة الفتاوى، 5، مطبعة فضالة، جامعة المولى إسماعيل، مكتاس، ص 14.
- 59- علي المشاقق . دور الرحلات في الكشف عن حضارة الشرق القديم والعراق، (ضمن مؤلف جماعي) أدب الرحلة والتواصل الحضاري (مرجع سابق) ص 24.
- 60- دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، دار الفكر، بيروت (د.ت) ص 469، تُعرف التاريخ العام بأنه تسجيل لأهم حوادث الأمم ؛ أما الحوادث فتدون الحوادث عاماً بعام.
- 61- محمد أحمد ترحيني : المؤرخون والتاريخ عند العرب، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ط 1، 1991، صفحات : 131، 161. . وأيضاً 165، 180.
- 62- نيسفولا زيادة : الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، لبنان، الشركة العالمية للكتاب، 1987، صص 12-13.
- 63- شاطر خصباك : ابن بطوطة ورحلاته، بيروت، لبنان، دار الآداب، (د.ت) ص 5.
- 64- كراتشكوفسكي (مرجع سابق) ص 6، [من المقدمة]

- 65- نفس المرجع السابق، ص 20.
- 66- نفس المرجع والصفحة.
- 67- حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين، (مرجع سابق) ص 9، نفس الرأي يقول به محقق رحلة «فيض العباب لابن الحاج النميري» (م. س. - م. س.) حيث يرجع أصل الرحلة إلى الإطار الجغرافي ص 6.
- 68- شاعر غصباك : في الجغرافية العربية (مرجع سابق) ص 181.
- 69- شوقي ضيف : الرحلات، القاهرة، دار المعارف، د.ت، ص 12.
- 70- انظر : حسين مؤنس، ص 395، شاعر غصباك، ص 182، كراتشكوفسكي، ص 298، محمود محمد محمد، ص 147.
- 71- حسين مؤنس : (مرجع سابق)، ص 408.
- 72- شاعر غصباك، (مرجع سابق) ص 182.
- 73- مسالك وممالك ابن حوقل : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للبلدسي : نزهة المشتاق في اختراق الأفاق للإدريسي : كتاب البلدان لليعقوبي : البلدان لابن العقيبة : تقويم البلدان لأبي الفداء ...
- 74- صلاح الدين الشامي : الرحلة العربية في المحيط الهندي ودورها في خدمة المعرفة الجغرافية [ضمن مجلة] : عالم الفكر، الكويت، المجلد الثالث عشر، العدد الرابع، مارس 1983، ص 15.
- 75- حسين فهم : أدب الرحلات، دراسة من منظور اتنوغرافي، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، مطابع الرسالة، عدد 138، يونيو 1989، ص 49 [انظر : الفصل الثاني].
- 76- رحلة ابن فضلان . (مرجع سابق) صص 116-117.
- 77- عبد الرزاق بن حammadوش الجزائري : رحلة ابن حammadوش المسموعة : لسان العقال في النبأ عن النسب والمهاسب والحال، الجزائر، إصدارات المكتبة الوطنية، (رحلات ومذكرات - 1)، 1983 [تقديم وتحقيق وتعليق : أبو القاسم سعد الله].

- 78- انظر . رحلة العبدري (مرجع سابق)، انظر صفحات : 45، 49-279-280، 284 .
- 79- أبو سالم العياشي : (رحلة، مرجع سابق) صص 129-131
- 80- عبد الله المتجاني : (رحلة، مرجع سابق) صص 147-153 .
- 81- مارس ابن الحاج النعمري صاحب رحلة فيض الغياب العمل في البلاط السلطاني، وكانت مهمته هي إنشاء الرسائل .
- 82- أنيس المقدسي : تطور الأساليب الشعرية في الأدب العربي، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، ط8، 1989، صص 222، 224 صص 323-324 .
- 83- انظر - علي عبد المتعم عبد الحميد - النموذج الإنساني في أدب المقامة، بيروت، لوندجان، ط1، 1994 صص 54-55، 58 و 61 .
- يوسف الشبخاني : أصحاب الكنية الساسانيون، دمشق، سوريا، دار البصائر، ط1، 1984 صص : 32-85 .
- 84- عبد الغني التابلسي : الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز . دمشق، سوريا، دار المعرفة، ط1، 1989 .
- 85- رحلة التجاني : (مرجع سابق) ص 336 .
- 86- ابن جبير - رحلة ابن جبير، بيروت، لبنان، دار صادر، د.ت .
- 87- نوال محمد عبد الله : العمران في المشرق العربي في القرن السادس الهجري، قراءة في رحلة ابن جبير . (ضمن مؤلف جماعي) بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول [المجلد الثالث]، الرياض، تحت إشراف إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود، 1984، ص 375 .
- 88- محمد السيد غلاب : الجغرافيون المسلمون ودورهم في تطور الفكر الجغرافي [نفس المرجع السابق]، ص 139 .
- 89 - Dictionnaire universel des littératures, Paris, P.U.F. - 1er ed, 1994, (P2) P.4070 (F.Moureau).
- 90- الرحلة خطاب يتضمن محكياً شخصياً، من ثمة نسميها -دوماً-

للإلتباس مع نعوت أخرى- نصا رحليا يحقق تواصله مع عدة حقول.

- Normand Douzon . L'art de voyager (Pour une Définition du-91
récit de voyage à l'époque Classique) in Revue Poétique, Paris,
N°73, Fev.1988, P87.

92- سميد علوش : الصورة الغربية في الذاكرة الشرقية،
الصورة الشرقية في الذاكرة الغربية [ضمن مجلة] الثقافة
الأجنبية (محرور : أدب الرحلات) بغداد، العراق، السنة التاسعة،
العدد الثالث، 1989، ص15.

93- المرجع السابق، ص19.

94- انظر : بطرس البستاني : دائرة المعارف، بيروت، دار المعرفة،
يقول عن كلمة «سمر» : المسافر من فاروق وعرج من بيروت بلدة
وعصاراته... وعند الصوفية « السمر هو توجه القلب الى الحق»
ص626.

95- Dictionnaire universel des littératures, P4074

Norman Douzon, P88

97- Daniel Henri Pageaux la littérature Générale comparée,
Paris, Armand Colin, 1994, P30.

98- مازال الحلق قائما عند عدد من الباحثين المعاصرين، فتازك سابايارد
-مثلا- تحت النص الرحلي بأدب الرحلة دون الإعتداد إلى أسس صلبة
لتدعيم هذا الربط، كما تعتبر الرحلة فنا أدبيا جديدا ظهر في القرن
التاسع عشر!!

انظر : تازك سابايارد : الرحالون العرب وحضارة الغرب في
النهضة العربية الحديثة، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1979،
ص9.

99- T.Todorov : Les Morales de l'histoire. Paris, France, ed.
Grasset, 1981, P102 (Voir) chap.VI . Le voyage et son récit p.93.

108

- Daniel Henri Pageaux, P34.

-100

الفصل الثاني

من العنصر إلى البنية

١- **حركة الفصل والإنجاز** : يصوغ نص الرحلة أسئلة التي نستولد دائما أفاقا أخرى خاصة وعامة ضمن إشكالات الكتابة في التراث السردي العربي وما تطرحه من مآزق في التصنيف والتجسيم . ولا شك أن فرضية تشكّل الرحلة في إطار نص له بداية ونهاية ، أو عنصر مكون ضمن مكونات النصوص السردية الأخرى التي كانت ضمن البنية الثقافية ، تعيد للإنفتاح النصي القدرة على التفاعل والتلاقح ، ويضمن بنية متماسكة ذات نسج متلون أفرز ، في العموم ، قطبين ظلا يتجاوبان النص الرحلي بأشكال متفاوتة ضمن دائرة مركبة :

قطب الحكيم ، وما يتضمنه من أساليب تهم تقديم خبر المشاهدات ، وقطب التاريخ ، المتصل بأوردة عناصر

الجغرافيا والإثنوغرافيا وغيرهما وسط مُعامل القصد التخيلي أو القصد التلويحي.

إن تكون النص يستلزم حركتين : حركة الفعل المنتهية، وحركة التحويل والإنجاز المفتوحة في مجال الإبداع.

وتتجسد حركة الفعل المنتهية في الأحداث التي تقع ويتشكل عبرها نسيج علائق متعددة، فيها المختلف والمؤلف، تتأطر بالواقعي والمحتمل، فتشكل فعلا لامستقلا عن أفعال الذات بكل أطرافها العقلية المنطقية، واللاشعورية، ثم العاطفية، وكذا المنظورات المختلفة التي تتدخل لترسم لهذا الفعل سؤاله. ويمكن للفعل أن يتمظهر في التخيل المحض، كما هو الشأن في النص الرحلي للمعري (رسالة الغفران)، والذي يتضمن حركتين : حركة الفعل وتجلياتها في التفكير والتهيء، وإنجاز التخيل ذهنيا وقبليا، ثم حركة الصوغ.

ويتحقق الفعل في الواقع المألوف العياني، كما يمكن أن يتحقق في الواقع المحتمل اللامرئي، وهو فعل مُتته في حلقة تولد تفاعلات تخلق دوائر أخرى وتعبير آخر نقول إن الفعل هنا هو حركة رؤية العين المبصرة خارجيا أو داخليا لمشهدا، لأنها، أساسا، تجربة ذاتية تبحث عن الإشارة والتحدي والإفتتان اللامحدود بالمجهول⁽¹⁾.

أما الحركة الثانية فهي حركة الإنجاز المفتوحة حينما ينحول الفعل إلى تذكرات وانفعالات شعورية ولا شعورية، نصير

إنجازا في شكل قديم من الشفوي إلى المكتوب ، أو العكس وهو تحويل للتجربة إلى نوع من المعرفة والمثمة ، وتخضع هذه الحركة الانجازية التحويلية لسمة الانفتاح الذي يطال دائرة التذكرات فيوسعها مهنلا ، أو مضمرا منها جزءا أو أجزاء على اقتنحات أخرى في التأويل والمغطور مؤسسا وظائفه المختزلة في إدراك الذات المنجزة ، وإدراك الذات المطلقية ، وأيضا الوظيفة التنفسية التي من خلالها يتم التخلص من توليدات التذكرات أو تلاشيتها أو ما تنتجه ، وهي في الذهن ، من مضاعفات .

بين هاتين الحركتين تتأطر الرحلة : فرسالة الغفران -تمثيلا- تخشرق الواقع والزمن والمألوف ، وتتحوّل من فعل ذهني استيهامي تخيلي إلى حركة إنجازية في نص خيالي يترك العالم ويستشرقه بطريقته . كما يجري الحكيم في 'الامتاع والمؤانسة' عند أبي حيان التوحّيدي⁽²⁾ شفويا ثم يتحول إلى التدوين مشكلا حركة واحدة تنقسم إلى الحكيم ثم الإنجاز : «هنا وأنا أفعل ما طلبتني به من سرد جميع ذلك إلا أن الخوض فيه على البديهة في هذه الساحة يشق ويصعب بعقب ماجري من التفاوض ، فإن أفتت جمعه كله في رسالة تشمل على الدقيق والجميل ، والحلو والمر ، والطري والعاسي والمحبيب والمكروه ؛ فإن كان جوابك لي : افعل ، ونعم ما قلت ، وهو أحب إليّ وأقرب إلى إرادتي ...»⁽³⁾ ؛ كذلك الأمر في 'تحفة النظار' لابن بطوطة حيث حركة الفعل التي دامت حوالي ثلاثة عقود

تتحول إلى حركة منجزة عبر مراحل المحكي الشفوي، ثم التدوين الأول والتدوين الثاني النهائي ؛ لحظتها تفتح حركات إنجازية أخرى للقارئ والمحقق والمترجم الذي يعيد إنجاز النص مرة أخرى.

فبالإضافة إلى الأقطاب والحركات التي تربط بنص الرحلة، وما تفرزه من أسئلة محايثة أثناء امتحان ذلك على النصوص فإن عوامل عديدة ومعقدة تحكم في تكون النص الرحلي⁽⁴⁾ : منها التاريخي والسياسي والثقافي وكانت النصوص الشربة خلالها تسند بعضها البعض، فتنمو وسط التفاعل والخطابات المحيطة.

بالنسبة للعامل التاريخي والسياسي، فإن سياق الانفتاح على اللغات في المحيط العربي والإسلامي وعلى الآخر في المحيطات المجاورة جغرافيا أو سياسيا كان ضرورة لترتيب هذه الذات في تظافر مع العامل الديني الذي هو عنصر بؤري. أما العامل الثقافي فتأثيره مرتبط بالأشكال التعبيرية الأخرى التي تشكل ملتقى لغويا يرفد الكتابة الشربة، عموما، بحيث استطاع النص الرحلي أن يجسد نقطة التماس ودائرة الانصهار التي تلتقي فيها عناصر تخيلية، وأخرى واقعية تبلور بصوغ مغاير في أشكال أخرى.

إن حركة إنجاز نص رحلي تبقى معتمة، بالضرورة، عن تبرير انبثاقه، لكن رؤية المسألة من زاوية لا تجزئية بإمكانها إضاءة المشهد، ذلك أن محور الصراع في تشعباته الفردية والجمعية كان عاملا حاسما في الرحلة باعتبارها فعلا تم إنجازَه بفضل العوامل

النفسية ، والثقافية والسياسية والتاريخية حيث سيتخذ هذا الصراع أشكالاً متداخلة لحفز الرحلة من خلال :

- الصراع العام : الحضاري المؤسس على معرفة الآخر بحضارته (الدين والعلم) في ظرفية الإحساس العربي خلال لحظة تحول عالية بضرورة تركيز النفوذ والوعي بالذات المستحوطة عن طريق الآخر ؛ فابن فضلان في رسالته يؤكد أن رحلته هي نتيجة لوصول كتاب ألمش بن بلطوار ملك الصفالة إلى الخليفة المقتدر بالله ، يسأله فيه أن يبعث إليه بمن يفقه في الدين ويعرفه شرائع الإسلام⁽⁵⁾ . وهو إحساس بمصدرية العرب في المجال الديني والمعرفي ، يعطي للرحلة شعوراً بالعزة في هذا الصراع الحضاري العام⁽⁶⁾ .

- الصراع الداخلي - الذاتي لدى الرحالة بحثاً عن التطهير من خلال التوجه إلى الحج وزيارة الأماكن المباركة والمقدسة من جهة أو العقامرة من جهة أخرى للتنفيس عن الذات والروح .

في هذين النوعين من الصراع الجمعي والفردى تلتقي دائماً ثنائية تمثل التقابل الذي يخفي عدم التوازن ، وهو صراع الأنا مقابل الآخر . وبعد انتهاء حركة الرحلة - الفعل يتوضح الصراع ، وتختزل الأنا في وعي وحمولة فكرية ودينية وتاريخية ، كما يتحدد الآخر في صورة ترتسم بدون حياد ، وتتأسس سبل البحث عن التوازن الروحي والفكري .

إن التاريخ بتسيجه الحضاري والديني والنفسي يحضر عاملاً

قويا في التكوين استطاعت اللغة أن تعيد تلوين المشاهد المرئية بالتخيلات في إطار الرحلة ، ملتقطة تشققات الأنا والآخر بصوغ يوهم بالإثبات ويؤكد الخبر .

هذا ، فضلا عن عوامل التفاعل الثقافي الممثلة في التأثيرات المتبادلة بين الأشكال التعبيرية المفتوحة على أدب التراجم ، والنصوص الحكائية المبثوثة في كتب التاريخ واللغة والأدب وأيام العرب وغيرها ، مما يشكل المشهد الحكائي العربي المشدود إلى أنفاس المتخيل بوجوهه وتجلياته وآفاته الجائحة نحو أبعاد طبع الفكر العربي .

يبدو عنصر التفاعل في الرحلة مزدوجا ومتباينا ؛ فهناك ثقافة ما قبل الرحلة الفعلية وهي الثقافة الموجهة ، المهيئة للإستقبال ، تحوّل بمجموعة من الانطباعات المرفودة بصور وأحلام وتخيلات ، أو بمعارف سماعية أو مستقاة من رحلات سابقة تخضع للتحويل والتأويل . . إنها ثقافة ما قبل الرحلة الموجهة ، مقابل ثقافة ما بعد الرحلة حيث تصطبغ الانطباعات والمعارف القبلية/المسبقة مع المشاهدات التي تكونت إدراكا جديدا يضاف إلى الانطباعات ، أو يمتصها ويهضمها ، أو تخضع ، دائما ، للمرور عبر قناة المعطيات الأولى فتؤسس تجربة بأبعادها ، قُطبها البؤري هو الرحالة لأنه يروي ما شهد وسمع ، وما اكتسب من معلومات وتجارب تعمل على بلورة وتصحيح وتعديل وخلخلة العسقات ، أو تفعيلها وتطعيمها في إطار تحديد وضعيات الأنا والآخر .

إن نص الرحلة، ضمن كل حركاته وتفاعلاته، يظل عصيا على القبض؛ إذ المسألة ليست بالتبسيط المغربي، وإنما يأتي فهمها في شروط استيعاب العلاقات الأفقية والعمودية للاشكال السردية القديمة - وضمنها الرحلة - مع النصوص التاريخية والمعاجم والأخبار والتدوينات من ناحية، ثم مع بناعات ومكونات هذه الاشكال ومتخيلها من ناحية أخرى مع حضور التأطير الديني.

ويمكن في هذا السياق الوقوف عند ثلاث لحظات تفسر نص الرحلة في الأدب العربي من حيث نشوؤه وتجنسه ومراحل تكون البناء المتراوح بين العنصر والبنية.

2 - اللحظة الأولى: الرحلة ظاهرة اجتماعية، وهي اللحظة التي تجلت فيها الرحلة الفعلية وقد استدعتها الظروف والحاجة دون اللجوء إلى التدوين أو إبداع التجربة في قالب «حكائي»، لكن الأكيد أن الفترة التي سبقت الإسلام عرفت رحلات متعددة فرضها طابع الحياة المجتمعية المعتمدة على التنقل بين أماكن متعددة بحثا عن الكلا والماء والاستقرار.

أولى اللحظات التي تشكلت فيها الرحلة، فعليا، كانت ضرورة للاستمرار في الحياة، وفي نمط عيش معين. وهذا الفعل المتولد هو ردة فعل لخلق التوازي بين الإنسان والطبيعة، ويصبح الصراع قاعدة هذه العلاقة التي شكلت، نائما، هاجسا سيكون حاضرا بشكل ملفت في الموروث الثقافي الذي كان يستجيب لمؤثرات الصراع الموجه للحياة.

إن الصراع، من هذا المنظور، صراع مألوف، وركن حياتي طبيعي، سيخلق بالضرورة ثقافته المعبرة عنه في الأراجيز والفصائد والأحاديث والمسامرات الشفوية، وما يطبع سرده هذه الرحلات من إضافات وتحويرات تعمل على توسيع المتخيل وإغصابه والتعميد بتراث رحلي شفوي لمرحلة تدوين الرحلات. وقد أفرزت هذه المرحلة صيغتين مشهورتين من الرحلات ارتبطتا بالزمن، وبأحداثه، والفضاء بكل عناصره، والمتخيل الذي يلحم هذين المكونين، والإمتدادات الذاتية والكلية للفرد والجماعة، وعنصر العصبية، المحرك العام للصراع. كما كانت حافزا لإخضاع المحكي الشفوي إلى تحوير وتوسيع في الدلالات النصية، بحيث يتم تشكيل المتخيل باعتباره بناءً يضحى بعناصره البنائية لصالح مقول الخطاب.

1-2- رحلات مرتبطة بالصراع مع الطبيعة والآخر، جسدت فعليا الانتقال من مكان إلى آخر بحثا عن الحياة، وعن هوية جديدة أكثر قوة، كرحلات هجرة⁽⁷⁾ ونزوح عرب الجنوب إلى الشمال، ورحلات انتقال الفسامة إلى شمال الجزيرة في الشام، وارتحال العمالقة إلى مصر، ورحلتي قريش إلى الشام صيفا وإلى اليمن شتاء.

1-1-2- الانتقال من مكان جسد إلى آخر خصب ضمانا للإستمرارية. وفي هذا النوع من الرحلات يتحقق بناء النص الشفوي على تذكرات ووقائع وأحداث في علاقة ثلاثية بالفضاء

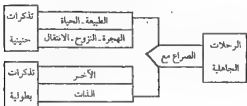
المنتقل منه (الذكرى - الجذب)، وبالطريق نحو المجهول (الصراع الداخلي بين الأمل في إيجاد الخصب وما يتولد عنه من حديث عن الجن والغيلان والسحالي، والحروب مع قطاع الطرق...)، ثم المكان المنتقل إليه المشدود إلى الغربة والألفة.

هذه الرحلات ذات شكلين . بناء دائري تتم خلاله العودة إلى نقطة الانطلاق، ولو بعد مدة، وهو ما تجلّى في الرحلات التجارية وبعض رحلات البحث عن الكلا والحروب. في حين هناك شكل آخر لرحلات مفتوحة لا ترجع إلى نقطة الإنطلاق، وهي هجرات ونزوح. وفي هذا الشكل تُشكّل التذكريات المترابطة نصاً حنيئاً وتأريخياً المنعطف في حياة الإنسان. أما الرحلات التجارية التي كانت تعتمد لشهور عدة فتخضع بدورها لمنطق المغامرة، كما تتضمن بناءً حكايتياً يروي الأحداث والوقائع في أسلوب علاقة الأنا بالآخر، وتختلط معه البتغيلات والاستيهامات، وما تولده من خوارق وأعاجيب.

2-1-2. رحلات الحروب : وهي الأكثر تداولاً لقيامها على العصبية في إبراز الهوية والإختلاف في القيم والخصال المرتبطة بالقوة والحكمة في استعمال الحيلة. كل هذا يشكل رحلة مليئة بالأحداث التي تتوسع، وتتحور نحو تبشير الفرد أولاً ثم الجماعة⁽⁸⁾.

إنها رحلات لتأريخ البطولات إلى جانب تراث متفاعل غني بالإدراك والأفعال الواقعية المسجدة في ما يحرك النص من

حكايات وأحداث وسرود محمولة على مبدأ الصراع والتشويق وتأثيرات من الشعر والخطب والذكريات وكل العناصر الناصجة للبناء .



إن الرحلة في هذه المرحلة ، وكما تجسدت في الواقع ، وخضعت لامتحانات في المتخيل ، كانت عنصرا حياتيا باعتبارها جزءا من النمط وعنصرا ثقافيا لأنها الموازي الذي به يتم إعادة إدراك العالم بوقائمه وأحداثه وتذكراته ، والتطهر الداخلي من الفراغ الذي لم يكن ليولد غير الخوف الدائم من المجهول والمعلوم والاستيهامات . فكان ضرورة ملء الظلام بالمساعرات ، واستعادة نثر الحياة المعزج بالاختلال إلى نثر حكايتي ينزع إلى تأريخ هذا الاختلال والتوازن .

2-2 رحلات الشاعر العربي في الجاهلية وهي ذات طبيعة خاصة تختلف عن الرحلات الأخرى ، لأنها نص شعري ذو نظام خاص وبناء يخضع لمواضع استنبطها النقاد من القصائد . وقد

قسمها أحد الباحثين إلى ضربين . رحلة الشاعر على ناقته ، ورحلة
الظلمات^(٩) ، فالشاعر المرتحل من فضائه^(١٠) على راحلته في
طريق الرحلة الشاقة والصراع مع الطبيعة يوجد بين الوحش
والصيد والكلاب وغير ذلك من المتغيرات التي ينوع بها الشعراء ،
وأخيرا الوصول إلى المكان - الهدف .

إن تصوير الرحلة هو وصف للصراع والمعاناة من أجل
قارئ/ مستمع ، وهدف محدد جعل الارتباط حميميا بين الأدب
والواقع ، وفي ضوئه يمكن للمرء أن يعطل أمورا كثيرة أحدها
انتشار الرحلة بلوتيسها (..) في أدبنا العربي القديم انتشارا
واسعا^(١١) مما يفضي إلى الحديث عن الرحلة في تلك الفترة قبل
الإسلامية ، وحضور الفضاء بوجهين : وجه الجذب الطبيعي
والمعاطفي/الروحي وهو ممثل في الأمكنة التي أصابها الجفاف
فارتحل كل من فيها ، أو في الفضاءات التي لا تستطيع شد الإنسان
إليها فتتفني تلك الأمصرة التي تربط الإنسان بالأرض . وعلاقة
الرحالة بهذا ... علاقة متوترة ، تجعل المكان المرتحل إليه ،
دائما ، ملاذاً لتجديد العهد مع الأمكنة ، ورسم هوية أخرى وذلك
بترك خيوط مستمرة وحنينية مع الفضاء المتنقل منه .

في هذا الوجه خط العودة مقطوع على المستوى المادي ،
ولكنه مستمر من الناحية الخيالية ، حتى أصبحت الرحلة تقليدا
شعريا أمدهم بشروة عريضة من معاني الفرقة والبعد ، يجمعونها بإحساس
الخيال واتفقوا بهقله^(١٢) .

الوجه الآخر للخصب الطبيعي والروحي والعطاء المادي والنفسي تمثله الرحلات الحسية والتجارية ، وأيضا رحلات الشعراء إلى الممدوحين ، وفي هذا الوجه يكون الفضاء المرتحل إليه ، بدوره ، ملاذاً للغنى والتطهر الروحيين .

3-1- إن الفضاء بمظهره ، وهو فضاء متلون بوجهي الجذب/الخصب ، والصراع الذي يشد هذين الوجهين إلى بعضهما ، هو القطب في الرحلة مثله مثل حركات نمطية أخرى تشكل قطبا في النصوص الشعرية أو الشرية الحكائية ، وخصوصيات تختلف عن النص الرحلي وهو ما عرفه الأدب العربي منذ القرن الرابع للهجرة (العاشر الميلادي) .

ونسجل بخصوص الرحلات الجاهلية الميثوقة ضمن أبام العرب⁽¹³⁾ مايلي :

أ- لم يتم تدوينها في أوانها ، وإنما تم ذلك في عصر التدوين
ب- الرحلة الجاهلية لا تحدث عن رحلة الفرد ، وإنما عن رحلة الجماعة .

ج- الراوي غير المشارك ، ذلك أن الرحلات المدونة في مؤلفات اللغة والأدب والجغرافيا والتاريخ ... خلال فترة التدوين ، تروى باسم مؤلف لم يعاصر الأحداث ، وإنما ينقل الشفوي الذي تناقلته السنة مختلفة بتعديلات وتحويرات تطرأ من لسان لآخر ومن وعي لغيره ، وعبر رواية مشهورين⁽¹⁴⁾ .

د- كل الرحلات التي وصلتنا قصيرة في صفحات معدودة ،

وتغيب عنها التفاصيل، وتكتفي بذكر الحدث ضمن بنيات محدودة.

• من ثمة، يمكن الحديث عن عنصر الرحلة وتراكماته والذي سيفهم امتدادا متجلرا في السرد العربي.
ذكر هذه المؤلفات باعتبارها أصول في الأدب.

3- اللحظة الثانية، الرحلة هدف مشترك، اتخذ النص الرحلي في العصر الإسلامي حركة أخرى مميزة على مستوى الانتقال من الشعوي إلى التدوين، حيث جسد القرآن الكريم مجموعة من الرحلات التاريخية المستعادة، وسجلها تحت إسم القصص القرآني، إضافة إلى نوع آخر متزامن تجسد في الواقع، وهو رحلات الرسول ﷺ، مما ألهم العديد من الباحثين إلى ربط الرحلة بالدين.

وينسحب هذا النوع من الرحلات المستعادة على النصوص الرحلية المدونة ضمن كتب الأخباريين المعروفة بأهام العرب باستعادتها من الزمن الماضي عن طريق الرواية والإسناد بتضارب متفاوت حول بعض التفاصيل الجزئية.

3-1- تشكل هذه الرحلات ضمن بنيتين عامتين : بنية رئيسية هي النص القرآني، وبنية القصص القرآني الصغرى، وفي هذه الأخيرة تتأطر تنميطات وعناصر وخلاصات، بحيث أن صياغة السؤال⁽¹⁵⁾ تقود إلى أن أسباب نزول القصص القرآني هي من أجل هدف «يخلص إلى العظة من الخبر الذي يفصه، وإلى

العلم الذي يستخلصه من الخبر»⁽¹⁶⁾ للاعتبار وتسلية الرسول في محتته ، كما استعيدت كل القصص بقصد إبراز حدود العلاقة بين الإنسان والله بين المرمي والغيبى . وهي علاقة تتفاوت في إظهار الإختلال والانسجام ، إذ انصبت على تبشير عنصر الفرد أو الجماعة ومن هذه الزاوية انشطرت التيمات إلى شطرين :

- قصص حول الفرد في علاقته بالجماعة : بالله

- قصص حول الجماعة في علاقتها بالفرد : بالله

طبيعة هذه العلاقات تلمع صورة الإشكال ، وتحدد مستوى القص في القرآن باعتباره تنبعا للخبر والحدث على وجه الحق والصدق فيه ، وهو تتبع لا مجال فيه للخيال أو المبالغة ، كما أنه تتبع لا تقصر حكيمته على الصدق البياني للخبر والصدق التاريخي⁽¹⁷⁾ .

تصبح الرحلة عنصراً مركزياً في أية نبوة ، ومنعطفاً تحولياً من لحظة الضعف إلى لحظة القوة ، من النفي إلى الإثبات ، من الستر إلى الكشف والجهر بها ؛ إنها الجسر الذي عبره يتم الانتقال⁽¹⁸⁾ والتطور ، حتى أصبحت الهجرة مفهوماً دينياً يدللنا عن الرحلة والسفر⁽¹⁹⁾ ، خصوصاً ما تعلق بالرحلات النبوية واقترانها بالمعاناة والفرج مما يجعل عنصر الرحلة بؤراً لأنه يجسد التحول ، أو تأكيداً لإبراز الخارق عبر اختراق الغيبى لما يشيره ذلك من انفعالات قوية تملك على الإنسان أحاسيسه ووجدانه⁽²⁰⁾ .

إن تكون الرحلة/ الهجرة في النص القرآني شكلاً عنصراً

ضمن بنية عامة تستحكمها عناصر أخرى توجهها نحو أهداف محددة ترتبط بالتحول والبناء .

2-3 حَسَمَ عامل المنين في توسيع مبادرات الاسفار، كما أصبح الإرتحال في طلب العلم منذ القرن الأول للهجرة ضرورة لازمة لاستكمال «دورة الدراسة» وهي رحلات فعلية يقوم بها رحالة مهياً لذلك انطلاقاً من أداء مهمة تتمثل في : جمع الحديث من أفواه الثقات ، وجمع اللغة والأشعار وأيام العرب من البوادي والمراكز العلمية ، بالإضافة إلى التجارة .

هذه الرحلات تبقي قليلة التأثير ، لا ترقى إلى التنوير ، لأن أهدافها مرسومة ونقطتها محددة سلفاً ، وعنصر الإحتمال فيها محسوب ، والرحالة فيها محلّث أو محارب أو عالم أو تاجر . وهكذا فإن طلب الحديث كان مبكراً⁽²¹⁾ . وهناك خبر عن رحلتين مبكورتين في هذا الصدد : الأولى لجابر عبد الله الأنصاري من الحجاز إلى الشام والثانية ، رحلة أبو أيوب الأنصاري من الحجاز إلى مصر . وقد اهتم الدارسون بهذا النوع من الرحلات المفقنة⁽²²⁾ ، وذات الشروط الخاصة بالذين يطلبونها ، ومن المعلوم أنه طوال القرون الأولى للهجرة كان اكتساب العلم مرادفاً للسفر ، وضمن حمى تنافسية كان يتم الانطلاق واختراق القلوات لجمع أحاديث الرسول والشعر الجاهلي ولغة البدو⁽²³⁾ .

إن النص الرحلي في القرآن الكريم سواء منه النصوص المستعانة ، أو المعترضة خلال تلك الفترة ... شكلت لها امتدادات

خارج النص، يتكون نصوص أخرى في كتب الاحبار ومرويات أيام العرب والسير والمغازي ؛ ذلك أن نص الرحلة يصبح نصين : نص مقدس، مطبوع بالتلميح والإشارة والتكثيف والإيجاز، دون الخوض في التفاصيل التي لا تخدم الهدف، ونص ثانٍ شارح - مواز يعيد تفصيل الإشارات والامتداد في التفاصيل والمقارنة. كل هذا شكل تراكما آخر عضد الحقل السردي القديم، وساهم في رسم المعالم العامة للرحلات العربية.

4- اللحظة الثالثة: الإرث الحكائي والرحلة : بدأ تشكل هذه اللحظة الثالثة من تراث اللحظتين المتفاعلتين، والافتتاح على أشكال أخرى للتعبير السردى بمظاهر جديدة على مستوى البناء أو صيغة عرض الأحداث. وقد ظهرت عدة أشكال متفاعلة أمرزت وجوها رئيسية⁽²⁴⁾ ذات قيمة أدبية وفنية عالية : المقامات، ونص قليلة ودمنة، والسير الشعبية (عترة)، سيف بن ذي يزن، الأميرة ذات الهممة، حمزة البهلوان، الظاهر بيبرس ..)، ثم الحكاية الشعبية (ألف ليلة وليلة) .. وتقوم هذه الأشكال السابقة على بناء تحكمه سلطتان سرديتان : سلطة الحكيم، وسلطة المنعة التخيلية. وضمنهما بشكل «مختصر الرحلة» حافظاً متحركاً في بنية الكتابة ذات الحضور المكثف نظراً لوظيفته التي تعمل على توسيع حقول المعنى، وإضفاء طابع الحركية على الأحداث من أجل تجديد أنفاس الحكيم وإمكان خلق إغرابية تطبع هذه النصوص.

وقد اتخذ عنصر الرحلة وضعيته داخل بنية الكتابة السردية العربية القديمة ابتداء من التلوين بطابعين يسمانه :

أ- بنية رحلية في الزمان والمكان تتعين بالانتقال الفيزيقي من مكان إلى آخر ، تتخللها أحداث هي امتداد للفضاء الأول ، أو أحداث عارضة دخيلة تصبح هي الحافز والمهيمن في الحكى .

ب- بنية رحلية في الذاكرة تجنح نحو الخيالي ، فيرتبط الزمان والمكان والاحداث بأبعاد فوق طبيعية خارقة تكسر مألوفية تلك المكونات .

4-1- الرحلة عنصر في بنية حكاية : تشيد الرحلة في النصوص السردية الكلاسيكية عنصرا يعمل على تحقيق الحكاية ، فيندمج بنائيا ليصير جزءا ملتصقا في النص ضمن المكونات الأخرى التي طبعت هذه النصوص ؛ والحديث عن الرحلة باعتبارها مكونا مجاورا العناصر أخرى في بنات كبرى هو استجلاء لطبيعة هذا العنصر ، وكيفية حضوره واشتغاله .

4-1-1- حركة الرحلة في المقامة : تقوم الحكاية في المقامات على بناء لغوي مقولب وفق مجموعة من القوانين والقواعد التي تم استكناها من النصوص المقامية ؛ نظرا لوجود عناصر مشتركة بين الرحلة والمقامة ؛ فالرحالة أبو دلف (ق 4 هـ) صاحب رحلتين ، كان أدبيا متمكنا في فن المقامة ، تأثر به بديع الزمان الهمداني⁽²⁵⁾ ، حتى أن هناك من أقر بأن شخصية أبي الفتح الاسكندراني هي نفسها شخصية أبي دلف⁽²⁶⁾ ، وهو ما يفيد أن

الارتباط ليس على مستوى الأدباء في ما بينهم من مختلف الحفول، بل أيضا لوجود عنصر التفاعل بين المقامة وأشكال تعبيرية أخرى⁽²⁷⁾ مثل التلاحق بين المقامة والرسائل من جهة، ثم المقامة والرحلات المتخيلة⁽²⁸⁾ من جهة أخرى، والتقارب بين المقامة ومؤلفات الجغرافيين العرب في القرن الرابع للهجرة مع الأصبخري والمقدسي وابن حوقل⁽²⁹⁾.

وإذا كانت هذه المقامات تلجأ إلى تيمات تعتمد الإستجداء والكلية، فإن ذلك، بالإضافة إلى التأثيرات الأخرى يُحتم نوعا من الإرتحال والتنقل⁽³⁰⁾، فيتحول مكون السفر في كل مقامة إلى مصير مشترك يفتح على باقي المكونات، ووسيلة بتعبير كليطو- للحضر عن كنوز الماضي ولملاحظة حاضره العالم⁽³¹⁾ بتعبير عبد الفتاح كليطو.

في مقامات الهمذاني يعكس حضور الكدية والتكرر والحيلة الوجه الرمزي للأحلام المجتمعية والثقافية المنحسرة في أفق محدد، ويغذي الماضي الحكيم بالحيلة والتكرر، وهو زمن قريب يتخسرط في الحاضر، ومن خلاله يتم رسم الحكاية بالحوار وبالخطبة والدعاء، وبالتأثيت الشعري. كما أن حضور الثقافة والاستعمالات البديعية واللعب اللفظي هو وسيلة لبناء الحيلة، وإبراز الإلحاح العميق والذكي باللغة من طرف البطل.

لكن الذي يمكن تلمسه في البحث عن عنصر الرحلة في النص المقامي هو حضور السفر، بكل أشكاله، في مقامات

الهمذاني⁽³²⁾، وارتباط كل مقامة برحلة/سفر من المكان الأم إلى أمكنة للتجارة، أو الحج، أو الهروب... أو رجوعاً من أمكنة أخرى إلى المكان الأصلي. فبجل المقامات الهمذانية تبدأ بوصف الذهاب أو الإياب، فردياً أو جماعياً. بحيث يبرز عنصر المفاجأة المشدود إلى قطبي الغموض والظهور. وإذا كان عيسى بن هشام هو الراوي الذي يفتح كل المقامات، ويشكل طرفاً لازماً فيها فإن الطرف الآخر المحرك للمفاجآت هو أبو الفتح الاسكندري⁽³³⁾. وهكذا يصبح عنصر الرحلة في النص المقامي مؤلفاً للمفاجأة، لأن الإنسفال يخلق إمكان المصادفة، ويجعل الارتباط بين الارتحال والصدفة المولدة للمفاجأة والعجيب ارتباطاً ضرورياً لبناء المقامة وهو ما يمكن ملاحظته في كل جمل البداية من مقامات بلديع الزمان الهمذاني :

1	طرحتي التوى مطارحها ...
2	كنت ببغداد وقت الأزد ...
3	نهضت بي إلى بلخ تجارة ..
4	حداني سحستان أرب ...
5	كنت وأنا في السن أشد رحلي لكل صماية ...
6	كان يبلغني من مقامات الإسكندري ...
7	بينما نحن بجر جان ...
8	لما نظفني الغنى بفاضل ذيلة . اتهمت ...

9	بينما نحن بجرجان في مجمع لنا نتحدث ...
10	كنت بأصفهان ...
11	كنت بالأهواز ...
12	اشتبهت الأزد وأنا ببغداد ...
13	دخلت البصرة وأنا من متني في فناء ...
14	كنت في بلاد بعض فزارة مرتحلا نجية ...
15	أثارتني ورفقة وليمة ، فأجيت إليها ...
16	كنت أجتاز في بعض بلاد الأهواز ...
17	أحطني جامع بخارى ...
18	غزوت الثغر بقزوين ...
19	أحطني دمشق بعض أسفاري ...
20	بينما أنا بمدينة السلام ...
21	لما قلنا من الموصل ، وهمنا بالمنزل ...
22	كنت بالبصرة ...
23	لما بلغت بي الغربة باب الأبواب ...
24	دخلت مارستان البصرة ...
25	كنت ببغداد هام مجاعة ...
26	بينما أنا بالبصرة أميس ...
27	كنت اتهم بما أصبته فهمت على وجهي هاريا ...
28	طقتُ الأفاق حتى بلغت العراق ...
29	حضرنا مجلس سيف الدولة ..
30	خرجت من الرصافة ، أريد دار الخلافة ...

دخلت البصرة ..	31
لما قفلت من اليمن وهممت بالوطن ..	32
لما قفلت من الحج فيمن قفل ..	33
ملتُ مع نفر من أصحابي إلى فناء خيمة ...	34
أضللت إبلا لي فخرجت في طلبها ..	35
لما قفلنا من تجارة أرمينية ...	36
بت ذات ليلة في كنية ..	37
لما وليت أحكام البصرة ...	38
كنت بنيسابور ...	39
كنت في بعض مطارح الغربة مجتازا ...	40
لما جهز أبو الفتح الاسكندري ولده للتجارة ...	41
قال محمد [...] . إن مما نزل بي من إخواني ..	42
اتفق لي نذر نذرته ..	43
كنت ببلاد الشام ...	44
كنت في مصر في من اليمن ...	45
لما أردت القفول من الحج ...	46
بينما نحن بسارية ...	47
وليت بعض الولايات ..	48
اتفق لي من عصفوان الشيبية ..	49
اجتمعت يوما بجماعة ...	50
كان بشر بن عوانة صعلوكا فأغار على ركب ..	51

انطلاقاً من هذه الخطاطة يمكن القول إن عنصر الرحلة في بنية المقامة يتأسس على الارتحال «رجوعاً من» أو «ذهاباً إلى»، وذلك من أجل أداء فريضة الحج، أو التجارة، أو الهرب، أو البحث عن شيء آخر⁽³⁴⁾.

ينبغي نص المقامة الشيرازية⁽³⁵⁾ على حركتين تتأسسان وتفتحان بسفر:

- الحركة الأولى تتأطر بالغموض، وذلك حين يصف الراوي عودته من اليمن إلى وطنه، فينضم إلى ركبهم رفيق يفارقهم بعد ثلاثة أيام، يترك في نفس الراوي حسرة بليغة.

- الحركة الثانية وهي التي ستفسر غموض الحركة الأولى والثانية أيضاً، بحيث أن الراوي حينما كان بشيراز (فارص) التقى بكهل فاكتشف أنه نفسه الشاب اليافع الذي انضم إليهم في طريق اليمن، وقد تحول من حال إلى حال لأنه تزوج من خضراء الدمن التي حرم الإسلام الاتصال بها.

إن الجامع بين حركتي الرحلتين هو أبو العتصم الإسكندري المتحول من شاب في كامل قوته وبناعته إلى سقيم، وأيضاً قانون يحكم العلاقة بين الارتحال الأول الذي كان رجوعاً، والارتحال الثاني نحو شيراز، وهو الصدفة والتحول والمفاجأة والغموض ثم الظهور، بالإضافة إلى العناصر الأخرى الملحمة لبعضها البعض.

لمعصر الرحلة داخل بنية النص المقامي حافظ على الحكيم وجسر لتوليد الحكاية وتشكلها في رحم ماسمي بأندب

الكلية . وهو أمر لم يقتصر على المقامة فقط وإنما كانت له امتدادات ضرورية سواء في النصوص القصيرة ذات البنيات المنشابه والشكل النثري ، أو النصوص الطويلة بيناتها الحلقي المتوالد .

4-1-2- السفر والحكاية المتجددة : ماذا لو اختار رواة ألف ليلة وليلة الاستغناء عن توظيف السفر في حكاياتهم ؟ هنا السؤال كاف لمعرفة مدى تحلُّو السفر في نص الليالي ، باعتباره موضوعاً ومُوسيلة لتوليد الحكايات ؟ فمَنذ البداية تشكل الرحلة عنصراً إطارياً ضمن الوحدات القصصية التي تفتح بها الليالي الحكيم⁽³⁶⁾ ، لأنها تؤسس لبناء واستيلاد وتقوية عناصر استراتيجية أخرى في الحكايات ، وهي المفاجأة والتحول والعجائبي ...

وهكذا تضمن كتاب الليالي رحلات عادية وطبيعية في ظاهرها ، ولكن نتائجها على الحكيم أساسية . ورحلات خارقة فوق طبيعية وغير عادية تخلق الإدهاش وتشكل نقلة أخرى على مستوى الكتابة والقراءة ، وهو ما دعا أحد الباحثين⁽³⁷⁾ إلى محاولة تحديد أسباب ودواعي سفر الشخصيات في ألف ليلة وليلة ، متحدثاً عن الجواب الاختياري والاضطرابية . ولعل التشكيل الذي يطبع مكون الرحلة في ألف ليلة وليلة يتجلى أيضاً في تنوع أشكال الرحلات البرية والبحرية والجوية الخارقة ، وارتباطها ، دائماً ، بالمفاجأة والعجائبي ، سواء في المكان المتفعل إليه (البحر ، مدينة النحاس ، فضاءات مسحورة . .) أو بواسطة

الأفعال المتولدة وما يستترتب عن ذلك الانتقال من مصادقات غريبة .

إن عنصر الرحلة في " الليلي " ليس حلية أو شكلا ثانويا وإنما هو نسيج بؤري تتظم عبسه ومن خلاله جل حكايات النص في إطار من الدينامية التي يخلقها ، والحركية في توالي الأحداث وتوالدها مُشبعة بالإغرابية والعجيب .⁽³⁸⁾

تفتح جملة بداية السفرة الأولى⁽³⁸⁾ للسندباد بقوله «اعلموا بإسادة ياكram أنه كان ... » . ويحتل فعل الأمر «اعلم» موقعا مأكرا لأنه يتضمن حكايات ممثلة بالتعجيب تستغرق سبعا وعشرين سنة من المغامرات . وفي أول السفرات يقدم تبريرا دينيا وشعريا واجتماعيا للرحلة ، فيفاجأ وهو في جزيرة ثانية ، بأنها ليست بجزيرة وإنما سمكة كبيرة رست وسط البحر فبنى عليها الرمل فصارت مثل الجزيرة وقد بنيت عليها الأشجار من قديم الزمان ، فلما أوقدتم النار عليها أحست بالسخونة فتحركت ، السندباد هنا يروي خبرته حتى يعلمها لـ«السادة الكرام» ، ويمثلونها ، فالمعرفة تتكون من تقديم المجهول والعجيب والمفاجئ والرحلة إلى المجاهيل في سفرات «ليست وقفا على الإغريق» ، فقد سبقهم المصريون القدماء ، مثل رحلة سنوحي وغيرها⁽³⁹⁾ . وقد قارن بعض الباحثين بين رحلتي السندباد وأوديس ، أحد أبطال أسطورة اللذين لاقيا كثيرا من العجائب والمصائب في سفرتيهما البحريتين⁽⁴⁰⁾ ، وهذا ما يؤكد تجذر عنصر السفر في الحكيم

القديم، وتوظيفه المركزي في البنية الحكائية، حافظاً على استخراج العجيب والمدهش، بحيث يصبح البناء السردي في سفرات السندباد كما في حكايات أخرى وسيلة للوصول إلى نقطة الارتحال فلم يعد عنصر السفر هو الذي يخدم الحكاية والخطاب بل صار مخدوماً، تضافر باقي المكونات الأخرى لإبرازه وتنفيذه حتى تتمكن الحكاية من مفاجأة القارئ وإدهاشه.

تشكل جدلية الخير السردى التقديمي والرحلة ثم المفاجأة، ثلاث بنيات متفاعلة في رحلات السندباد، السفر فيها يشكل عنصراً استراتيجياً في تفعيل الأحداث، وحفز الحكاية واستيلاد الشويق.

2-4- الرحلات مكوناً رئيسياً : تأتي أهمية اللحظة الثالثة أثناء الحديث عن الرحلة بناء وتشكيلاً يكونها مرفودة بالتنوع والتراكم الذي يعطي للرحلة أبعاداً كثيرة، سواء أكانت عنصراً ضمن مجموعة من العناصر النصية التي تعمل على توسيع حقل المعنى، وخلق امتدادات له في الحكى والخطاب ؛ أم بناء مستقلاً بذاته، الرحلة فيه هي النص المتجنس، والذي يشذّر إلى متخيلين اثنين، يتكاملان ويتداخلان في رسم صورة الرحلة في الأدب العربي كما رسمتها أيضاً في الآداب الأجنبية الكلاسيكية، فيما يتعلق بالنصوص الرحلية الواقعية بأحاديثها الغيبوية، والمتخيلة ذات قلبها الأخرى.

1-2-4- المتخيل الدنيوي : إن مرحلة وجود نصوص

رحلية تمتد لفترة طويلة منذ حوالي القرن التاسع الميلادي حتى القرن التاسع عشر بين أهمية المتخيل الدنيوي فيها، وارتباطه بشخصيات تم صوغها إلى جانب تذكارات وتقييدات تتماس والنصوص الإخبارية، والتاريخية والجغرافية والإثنوغرافية، لهذا شكلت الرحلة في لحظات طويلة -قديما وحديثا- مرجعاً لا بد منه لاستيفاء أو تصحيح بعض المعلومات عن أمكنة ومسالك وحول أحداث ووقائع.

يستند للنص الرحلي ذو المتخيل الدنيوي إلى هدف يسر الرحلة التي تجسدت تجربة فعلية محمولة على قدرات وعناصر، فتعمل الكتابة على نقل وتحويل التجربة إلى تشخيص أدبي تسقط منه التفاصيل والتكرارات وكل ما ينافي الأعراف والأخلاق المحلية، وتسجل فيها ما يلحم عناصرها ويجدد دعاءها لرسم الأنا والآخر بالشكل الذي يعطي للنص طابعاً مسيرياً وترجمة غيرية برؤى وأحكام وتعليقات وأوصاف معينة.

2-2-4- المتخيل الأخرى : رسم التأثير السائد من جراء

الثقافة الجانحة إلى الخيال وإلى تصوير فوق الطبيعي، من جهة، وإلى التفسيرات الثنائية التي حكمت المنطق الثقافي طويلاً (دنيا/ آخر) (جنة/جحيم) من جهة أخرى، رسم الطريق ومَهْدَ لتدوين رحلات ذهنية متخيلة تجري وقائعها في العالم الأخرى بصوغ أدبي يشيد عوالمه كما هو الشأن في الحكايات الخرافية

حيث البحث عن العوالم الأخرى «فيواجه الأشخاص الذين يجتوون في البحث فيما وراء عالمنا [...] كثيراً من التجارب، ويصل الإنسان إلى السماء [...] عن طريق حيلة أو عن طريق نبات ينمو إلى أعلى في سرعة»⁽⁴¹⁾. وهكذا فإن الرحلات ذات المشاهد فوق الطبيعية والمتنوعة ترتبط بالغيبى وفوق الطبيعي استناداً إلى خلفية فلسفية، يستند إليها المؤلف تتمحور حول الرغبة في التعبير عن أحلام فردية أو كلية لتغيير الحاضر بواقع معلوم به يكون مدينة عجائبية⁽⁴²⁾ أو عالماً علوياً أو آخروياً يَرْهَبُ في الدنيا؛ ذلك أن «الأسفار إلى عالم آخر يسمي إلى أقدم الأجزاء الرئيسية في الحكاية الخرافية وقد تغنى بها هوميروس كما تغنت بها ملحمة جلجامش البابلية وقد حكى عنها تجارب الأسكندر العجيبة، بل حكى عنها كذلك الأدب الجرماني القديم وملاحم الفروسية في العصور الوسطى، تلك التي تدّين بالكثير إلى الحيال الكلاسيكي، وقد احتفظت بهذا الملمح كذلك حكاية الشخص الذي رحل لكي يعرف ما الخوف، إذ كثيراً ما تتحول الأسفار إلى العالم السفلي أو إلى ما وراء عالمنا من الحصون المهجورة»⁽⁴³⁾.

إن أشكال تناول المتخيل الأخرى في صوغ رحلي تتعدد في البناء وأيضاً في الأهداف والخلفيات، وهو ما يعطي لهذا الشكل وجوداً منفرداً في الأدب العربي، وفي التراث السردي على الخصوص.

5- أفانق أخرى، تَفُذَّت الرحلة في الأدب العربي، في

لحفظاتها الثلاث، من بعضها البعض، في مسيرة أدبية مفتوحة على
النثر الأدبي والفني بنصوصه التخيلية التي كان عنصر السفر داخلها
رثة تتسج متنفسات أخرى لتمديد وتوليد الحكاية ورسم حلقات
جديدة لها، وذلك بالحفز على خلق المتعة من خلال المساهمة
في إفرار عناصر مثل الصنعة، والمفاجأة، والعجائبي... وهي
عناصر ترتبط بضرورة- بالسفر. وقد شكل نص الرحلة هاجسا
حاضرا في النصوص السردية القديمة التي مرت من مرحلتين
أساسيتين :

- الرحلة باعتبارها فعلا متجسدا في الرمان، عبر الانتقال من
مكان لآخر مع حدوث أفعال ووقائع.

- الرحلة باعتبارها محكيا يختزل تجربة الفعل السابق ويدونها
في شكل سرود بضمير المتكلم.

ودخل هاتين المرحلتين سمعت نصوص أخرى إلى قلب
المعادلة، فقد كتبت رحلات لا تستند إلى تجربة فعلية، الذات
مرجعية مادية في الزمان والمكان بقدر ما تستند إلى التخيل الديني
والأدبي والفلسفي والصوفي لثناء عالم آخر بقوانينه ومكوناته
وأحلامه.

إن الرحلة في الأدب العربي زاجت بين بنية صغرى وأخرى
كبيرة نجلتا في المرور من العنصر إلى البنية ثم التلاحق الذي كان
حاضرا باستمرار في التراث السردى العربى بشكل هدام، وبين
العنصر والبنية بشكل خاص.

5-1. النص الرحلي عنصر في البنية الثقافية :

تؤسس تيمة السفر عنصرا خلقيا في الملاحم في أشكالها الكلامية الأولى : الإلياذة والأوديسة وملحمة جلجامش والإنيادة والشاهنامة... والملاحم التي جاءت في العصور الوسطى فُجِّلَ إنساح المجال للراوية . وهكذا تكون الميثولوجيا قد حفلت بحكايات توضع فيها تيمة السفر بشكل أساسي داخل الخارق والمعجيب⁽⁴⁴⁾، كما وجدت الرحلة عند لوكيوس أبوليوس⁽⁴⁵⁾ ذريعة لسرد الحكايات المختلفة ، أما في الإلياذة⁽⁴⁶⁾ فإن البطل يخوض مغامرات الإرتحال في البحر ليحقق استمراره واستمرارية البطولة، فيما تعني 'الأوديسة' في اللغات الأوربية الآن : سلسلة طويلة من الرحلات أو رحلة يمتد بها الأمد وتدخلها المخاطر والأهوال⁽⁴⁷⁾، كما تحكي إنيادة فرجيل سفرا ملحيميا مرتبطا بملحمتي هوميروس، حيث يروي ما وقع للأمير الطروادي إيناس، وما جرى له بعد سقوط طروادة وإبحاره مع طرواديين آخرين، وبعد سفر ومعاناة دامت سنين طويلة يستقرون في غربي إيطاليا⁽⁴⁸⁾، أما ملحمة جلجامش فتبني، بدورها، على سفر جلجامش بحثا عن نبتة الخلود، مما يوضع عنصر الرحلة، ضمن إطار عام ومركزي في بناء الملحمة وتسلسل أحداثها⁽⁴⁹⁾، وهو أمر يمكن تعميمه على النص الملحمي الذي له نفس المستوى في تقييدات 'أيام العرب' والليالي والسير الشعبية، حيث يمكن استكناه بلمحين وظيفيين لعنصر الرحلة في

السروود القديمة، سواء في التراث الإفريقي والأوروبي أو التراث العربي والتفاعل المتقاطع باستمرار⁽⁵⁰⁾، مما يُعطي لوظيفة الرحلة أساساً تعمل على :

- توسيع الحكاية بخلق مغامرات ومفاجآت، وحياة أخرى للنص الحكائي باتباع شكل دائري انتقالي - دينامي .
- زرع النفس التعجبي والافغرافية وتمير ما هو فوق الطبيعي .
وحينما تلاشت الملحمة لصالح الرواية في القرن السادس عشر بقي عنصر الرحلة من العناصر والعلامات الرئيسية في دون كيشوت، وتيل، ولازاريو وروينسون كروزوي⁽⁵¹⁾... لكن، مع تطهير هذا العنصر من فوق الطبيعي واحتفاظه بالوظيفة في حدود تخيلة الأبدخ فيها .

وقد استمر عنصر الرحلة أيضاً في السروود الروائية الحديثة بأشكال مختلفة وطرائق مغايرة للتعبير والتنوع في التشكيل ، باعتبار هذا العنصر رنة يتنفس منها المتخيل ويجدد في الصوغ ما لمكن .

2-5- **النص المضطوح** : تشكلت الرحلة ، باعتبارها نصاً كاملاً بمقوماته ومكوناته ، عبر كل المراحل التاريخية ، وخصوصاً في لحظات البناء ، والانتقال من مجتمع القبيلة إلى مجتمع الدولة ، والذي عرف إرهاباته الأولى مع الأمويين ، وتوطد مع الدولة العباسية في المشرق ، والدولة المرابطية في المغرب ...
وارتبط السرد تاريخياً بالتحولات البنيوية في المجتمعات ،

خلال لحظات حاسمة من التاريخ، فترعرع في حضنه متبادلا
 التأثير والتفاعل وسط المتغيرات، الأمر الذي جعل النص
 الرحلي، بدوره، يؤكد وجوده ويحقق أديته التي تمتع من
 مختلف الاشكال الموجودة آنذاك، فعرف شكله انطلاقا من
 تأثيرات أدب التراجم، والتقييد التاريخي والحكاوي، والسرود
 المشبعة بإبراز العجائبي، والتوصيف التفصيلي المصاحب،
 فصارت الرحلة نصا مستقلا في شكله، له مرجعيتان تحكمان
 بناءه : المرجعية التيماتية المرتبطة بتجربة واقعية أو ذهنية
 متحوّلة من تذكّرات إلى موضوع للرحلة والمرجعية النصية
 المتصلة بالسرد الأدبي القريب من نفس الحكاية الشعبية،
 وللصياغات التاريخية والتوصيفات الجغرافية .

إحالات

- 1- جيان جوليس فورتيش : الشغب بالترحال [ترجمة : سمير عبد الرحيم] ص 69 [خسمن مجلة] الثقافة الأجنبية، محور : أدب الرحلات، بغداد، السنة 9، العدد 3، 1989.
- 2- أبو حيان التوحيدي : كتاب الإمتاع والمؤانسة. (المجموعة الكاملة)، بيروت، لبنان، دار مكتبة الحياة، (د،ت) (صححه وفسطه وشرح غريبه : أحمد أمين وأحمد الزين). يقول أحمد أمين : فوالله أبا حيان لهذا الكتاب قصة مستعرة، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيان وللوزير ابن عبد الله العارضي فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير ووصله به ومدحه عنه حتى جعل الوزير أبا حيان من سماره فسامره نحو أربعين ليلة كان يحدثه فيها ويشرح الوزير عليه أمثلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان. ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ماخبره وبين الوزير من حديث وذكره ينعمه عليه من وصله بالوزير (...) فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء ونزل على حكمه وفضل أن يدون ذلك في كتاب يشمل على كل ماخبر به وبين الوزير ص : د، هـ.
- 3- أبو حيان التوحيدي : (المراجع السابق) ص 8.
- 4- إن تجنس النص في إطار جنس معين لا يتحكم في ذلك التراكب، والعناصر المكونة لهذه النصوص، والبناء العام، بل هناك عوامل أخرى أعقد من أي استنتاج تبسيطي كما يقع في تحديد جذور المصطلحات وتحولاتها المعقدة، من الاعتباري التوافقي إلى المصطلح.
- 5- ابن فضالان : رسالة ابن فضالان، بيروت، لبنان، مكتبة الثقافة العالمية، ط 2، 1987، [تحقيق وتعليق وتقديم : سامي الدخان] انظر فاتحة الكتاب صص 67-69.

- 6- انظر : نازك سايابيارد - الرحالون العرب وحضارة الغرب في الهضبة العربية الحديثة، بيروت، مؤسسة نوفل، ط 1، 1979.
- 7- انظر : محمود عبد الحميد أحمد - الهجرات العربية القديمة، دمشق، سوريا، دار طلاس، ط 1، 1988 [الفصل الثالث].
- عبد الرحمن زكي - الجغرافيون والرحالة العرب [الجزء الخاص بالهجرات العربية، صص 359-361] (غرس مؤلف جماعي) - بحوث المؤتمر الجغرافي الاسلامي الاول، المجلد الثالث، تحت اشراف دار الثقافة والنشر بجامعة الامام محمد بن سعود، 1984.
- 8- انظر : محمد أحمد جاد المولى وآخرون : أيام العرب في الجاهلية، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، (د.ت.)
- 9- وهب رومية - الرحلة في القصيدة الجاهلية. بيروت، لبنان، مؤسسة الرسالة، ط 3، 1982، ص 18.
- 10- كيمن كروملي هولاند - مقدمة في شعر الرحلات (ترجمة شاكز حسن راضي)، (صمن مجلة) الثقافة الايجابية عدد 3-1989 (مرجع سابق) صص 79-85 - في هذه المختارات التي جمعها كروملي في كتابه مقدمة في شعر الرحلات يدرس تحول الشعراء الانجليز إلى رحالة وتلويين رحلاتهم شعرا.
- 11- وهب رومية : (مرجع سابق) ص 19.
- 12- وهب رومية : ص 20
- 13- قطر - أبو عبيدة التميمي - كتاب أيام العرب قبل الإسلام، عالم الكتب، مكتبة الهضبة العربية، ط 1، 1987 [جمع وتحقيق ودراسة : عادل جاسم البياتي]. وقد حدد المحقق خمسة أنواع من المؤلفات ألّفت بأيام العرب .
- كتب شروح الشعر : شرح المفضليات لابن الأباري وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي
- كتب الأدب . العهد الفردي لابن عبيدويه، الأغاني لأي الفرج الإصبهاني، والأمالى للقالبي ونهاية الأرب للنويري.

- كتب الأمثال . أمثال العرب للمفصل الفيدي ، جمع الأمثال للميداني .. .
- كتب التراجم : الموشح للمزني ، المؤلف والمختلف للأمدى ، ومعجم الأدياء لياقوت .
- كتب التاريخ والسير والبلدان : تاريخ الطبري ، الكامل لابن الأثير ، سيرة ابن هشام ، كتاب التيجان لوهب بن منبه ، ومعجم ما استعجم للبكري ، المسالك والممالك للأصطخري ... صص . 24-25 .
- 14- أبو عمرو بن العلاء ، ت 154 هـ ، المفصل الصبي 168 هـ ، يونس بن حنين 183 هـ ، ابن الكلبي 204 هـ ، أبو عبيدة 209 هـ ، الأصمعي 216 هـ .
- 15- يُقَيَّب هذا السؤال أسئلة أخرى تناقش هذه القصص القرآنية من منظور لعوي وصروح أدبي بغض النظر عما قد يطرحه النص الديني . . باعتباره نصاً منزلاً له خصائص وشروط لا يمكنه معها أن يتساوى في التحليل - مع النصوص الوضعية .
- 16- أحمد موسى سالم . قصص القرآن في مواجهة أدب الرواية والمسرح ، بيروت ، لبنان ، دار الجيل ، 1978 ، ص: 235 .
- 17- أحمد موسى سالم : (مرجع سابق) ، ص 211 .
- انظر أيضا : محمود زهران : قصص من القرآن ، مصر ، دار الكتاب العربي ، ط 1 ، 1956 ، ص 3 .
- الشيخ أحمد عساف : قصص من التثليل ، بيروت ، بنان ، دار لبنان للطباعة والنشر ، ط 1 ، 1981 ، ص 7 .
- 18- بالنسبة للرسول الكريم ، فإن الرحلات شكلت محطات تحول أساسية في حياته وفي حياة المسلمين ، على سبيل المثال ، رحلات التجارة في شبابه ، رحلاته إلى الغار ، رحلة الإسراء والمعراج ، ثم الهجرة .
- 19- أحمد الشرباصي . من أدب القرآن ، مصر ، دار المعارف ، ط 2 ، (د ، ت) [انظر الفصل الخاص بالهجرة بين القرآن والسنة صص 56-71] .

20- عبد الحافظ عبد ربه - بحوث في قصص القرآن، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، 1972، ص178

21- محمد صفلي حسيني : الرحلة عند المحدثين ودورها في توثيق السنة، [ضمن مؤلف جماعي، ندوة] محور : أدب الرحلة والتواصل الحضاري، منشورات جامعة المولى إسماعيل، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكاس، سلسلة الندوات، 5- سنة 1993، صص 287-307.

22- في الشروط انظر : المرجع السابق، صص 295-306 للمزيد من التفصيل انظر أيضا : الخطيب المدادي : الرحلة في طلب الحديث، بيروت، دار الكتب العلمية، لبنان، ص 118 [تحقيق نور الدين عتر].

23- عبد الفتاح كليطو: المقامات، السرد والأنساق الثقافية، الدار البيضاء، المغرب، دار توفيق للنشر، ط 1، 1983، ص 15 [ترجمة عبد الكبير الشرفاوي].

24- من أجل إبراز عنصر الرحلة في هذه الأشكال، سقتصر على نماذج تحليلية من المقامة وألف ليلة وليلة للتمثيل فقط.

25- علي عبد المنعم عبد الحميد : النموذج الإنساني في أدب المقامة، القاهرة، مكتبة لبنان، لونجمان، ط 1، 1994، ص 58.

26- نفس المرجع السابق، ص 61. (وهو رأي مثبت لعبد المنعم شعاعي ومحمود الزهيري).

27- إبراهيم السباعين : أصول المقامات، بيروت، لبنان، دار المناهل، ط 1، 1987، ص، ص 77، 112. ويقول أيضا «إن سطورة الموروث الشعبي كانت واضحة جدا سواء في الأصول أو المقامات. إذ استمدت هذه كلها من تعبيرات العامة ومن القصص الشعبية والحكايات النافذة، من قصص الشطار وحكايات المكنكين والبخلاء والعيارين والطفيليين والممرورين والمصوص والطرفاء والمجان والحشاش والمجانين ...» ص 77

28- انظر للمقارنة : المقامة الإلمبية للهملتي ودراسة التوايح والزوايح
لاين شهيد.

للمزيد من التفصيلات : عبد الفتاح كليطو : المقامات 1983 ،
ص. ص 91-92 ؛ شوقي خيف ص ص 30-31.

29- عبد الفتاح كليطو : المقامات (مرجع سابق) ص 11

30- أحمد الحسين : أدب الكندية في العصر العباسي ، اللاديقية ،
سوريا ، دار الحوار ، ط 1 ، 1986 .

31- عبد الفتاح كليطو : المقامات [مرجع سابق] ص 15

32- عبد الفتاح كليطو . المرجع السابق ، ص 11 .

33- إن بناء المقامة على مستوى الشخصيات ، شكل عام ، ينبي كالتالي :

المؤلف الحقيقي	يتخذ رواية	الراوي	الملح والتوايح	البطل
خارج الحكاية	تحدث باسم	داخل الحكاية ، ملتحم بضمير المتكلم	حول شخصية	داخل الحكاية ، ملتحم بضمير الغائب

بديع الزمان الهملتي ← عيسى بن هشام ← أبو الفتح الأسكتلري

34- من الملاحظات الأخرى أن عيسى بن هشام يروي كل مقاماته بضمير

المتكلم باستثناء المقامات : 7 ، 9 ، 21 ، 29 ، 47 المروية بضمير

النحن ، أما المقامات : 41 ، 42 ، 51 فإنه لم يشارك فيها ، لهذا جاءت

بضمير الغائب ؛ أما الفضايات المتطرق إليها فهي . جرجان ، بغداد ،

بلخ ، سجنان ، الكوفة ، حمص ، انزيجان ، اصفهان ، الأهواز ...

35- بديع الزمان الهملتي : شرح مقامات بديع الزمان الهملتي ،

بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 2 ، د 1 ، [تحقيق محمد محي الدين

عبد الحميد] المقامة الشيرازية ص ص 227-231 .

36- هريال جيبوري غزول : البنية والدلالة في ألف ليلة وليلة

[ضمن مجلة .] فصول، محور ألف ليلة وليلة، الجزء I، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد الثاني عشر، العدد 4، 1994، ص 79.

37- حسين حمود : مدينة الجغرافيا ... مدينة الخيال (قراءة في ألف ليلة وليلة)، نفس مرجع المجلة السابق، ص 175.

38- ألف ليلة وليلة : المطبعة الكاثوليكية، بيروت، دار المشرق، ط 2، 1994، الكتاب الرابع، [حكايات السندباد، السمرة الأولى ص. ص. 191-197].

39- فاروق خورشيد . الليالي والحضارة العربية. مناقشة وولية، ضمن مجلة فصول، خاص عن ألف ليلة وليلة، الجزء II ربيع 1994، المجلد الثالث عشر، العدد الأول ص 16.

40- عبد الغني الملاخ . رحلة في ألف ليلة وليلة، بيروت، لبنان، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط 1، 1981 ص 14

41- فريد ريش فون دير لايس : الحكاية والخرافة، بيروت، لبنان، دار الفلم، ط 1، 1973، ص 104، [ترجمة . نبيلة ابراهيم، مراجعة عز الدين اسماعيل].

42- تمثيلا لهذا النمط من المدن العجائبية، انظر . مدينة النحاس في ألف ليلة وليلة :

- أندرياس حاصوري : مدينة النحاس، قصة رمزية من ألف ليلة وليلة [ترجمة وقعت سلام] ص. ص 261، 270 (ضمن مجلة) فصول، الجزء الثاني (مرجع سابق).

- أندرياس حاصوري : موسيقى الأملاك، الحمار والبنات الثلاث في بغداد. ص. ص 122 . 131 [ضمن مجلة فصول الجزء II مرجع سابق].

43- فريد ريش فون دير لاين . (مرجع السابق)، ص 105.

44- إدث هاملتون : الميثولوجيا، دمشق، سوريا، منشورات اتحاد كتاب العرب، ط 1، 1990 [ترجمة : جنا عبود].

- 45- لوكيوس أبوليوس : تحولات الجحش الذهبي، طرابلس، ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط2، 1984 [ترجمة : علي فهمي خشيم]
- 46- هوميروس . الإلياذة، القاعرة، مصر، دار الفكر العربي، ط2، 1981 [ترجمة : أمين سلامة].
- 47- هوميروس : الأوديسة، بيروت، لبنان، دار العلم للملايين، ط2، 1977 [ترجمة . عبدة سلام الخالدي].
- 48- فرجيل : الإنليدة، بيروت، دار العلم للملايين، ط3، 1980، ص5 [ترجمة : عبدة سلام الخالدي].
- 49- فراس السواح . كنوز الأحماق، قراءة في ملحمة جلجامش، دمشق، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1987، ص87 .
«هو الذي رأى كل شيء» إلى تخوم الدنيا الذي عرف كل شيء وتضلع بكل شيء / . معاً سيد الحكمة الذي بكل شيء تعميق / رأى أسراراً خافية، وكشف أموراً خبيثة / وجاءنا بأخبار ما قبل الطوفان / مضى في سفر طويل وحل به القنى والمياء / وحفر في لوح من الحجر كل أسفاره».
- 50- إحسان سركريس : الآداب القديمة وعلاقتها بتطور المجتمعات، بيروت، لبنان، دار الطبيعة، ط1، 1988.
- 51- مجموعة من الباحثين السويث : نظرية الأدب، بغداد، العراق، منشورات وزارة الثقافة والإعلام (سلسلة 92)، 1980، القسم الثاني، ف. ف. كوزيوق : الرواية ملحمة العصر الحديث، [ترجمة : نصيف جميل التكريتي].

الفصل الثالث

الأنواع والمرجع

أ- الرحلة، مسار التنوع، تمتع النصوص السرديّة الكلاسيكية بخاصية قلوتها على تمثّل عصرها بشكل من الأشكال. وقد مدّ هذا التمثّل النصّ الرحلي بالتنوع الذي حفظ له تعدده في أفق بناء رؤية شخصية للمؤلف، ثم لغات تشترك معه، نسبياً، في نفس التصور. فالنص الأدبي عموماً، حينما لا يفتح كوي أخرى أنواعية من صميم حقله بقصد فسح المجال أمام التعديل والتحويل والتخصيب، يتعرض للانكماش واليباس والتلاشي، لهذا كانت ضرورة المرونة والانفتاح للاستمرار والبحث عن صيغ متعددة للتعبير من داخل الجنس الواحد، نظراً لاختلاف الرؤى والتجارب، وحتى التعبيرات والأفلاق المجسدة لها.

كل هذا دفع النص الرحلي في الأدب العربي إلى الانفتاح على التنوع، انطلاقاً من الجانب التيماتى، حيث إن اختلاف المرجع وبنائاته الذهنية والتخيلية جعل طابع التنوع هو المعجس الأسمى لوحدة النص الرحلي، ثم الجانب الرؤيوى لهذا المرجع، وطريقة الإسناد. مما جعل الرحلة في الأدب العربي تنقسم، في إطار التنوع، وعلى مستوى كل الآداب، إلى نوعين عامين هما النواة الكبرى المنشطرة إلى نواتين مستحضتان أنوية نوعية صفري، ذلك أن تفصيل الحديث عن أنواع الرحلات لا يستقيم إلا بتناول المسألة من منظور التقسيم المعطى أساساً :

أ - نصوص رحلية في الوجود الفيزيقي تستند إلى مرجعية ملموسة في الزمان والمكان، وأحداث في الواقع مصبوبة بخصوصيات تشترك فيها، بالإضافة إلى أنها تفرز أنواعاً تتحدد انطلاقاً من الحافز الذي وجه أحداث النص قبل تدوينها.

ب - نصوص رحلية مستخيلة واستيهامية ذات مرجع أخروي أو دنيوي-يوتوبي، وهي بهذا تخلق تعددها الأنواعى الذي يستقي دلالاته من التحييل، في شروطه المحكومة بالديني والتصوفي والفلسفي والاجتماعي.

وضمن هذين النوعين الكبيرين يسجل المستخيل حضوره المتحرك كونه محطة ضرورية لتقاطع الأجناس الأدبية والفنية : شكل جلي في النوع الثاني، وخفي بتلوناته الغامضة في الأول.

لكن المشترك الذي يمكن التمهيد به لهذين النوعين هو أن مكوناتهما تفي واحدة في التشكيل تفتح على التنوع الذي يفرز أنماطا من الكتابة تشكل المدخل لرصد النص وخطابه ؛ فالنمط يتحدد انطلاقا من وضعيات متشابكة يشترك فيها الرحالة والهدف الموجه للرحلة وكذلك العتقلي بشكل أساسي .

يكتب النص الرحلي نشرا، كما يكتب شعرا، فقد تضمنت القصائد الجاهلية، وماتلاها في العصرين الأموي والعباسي رحلات قائمة في السياق الشعري. وعمد مؤلفو بعض الرحلات إلى سردها شعرا، شأن العبدري الذي ختم رحلته المدونة نشرا، بكتابتها شعرا مستعرضا فيها، بتكليف، أهم مراحل رحلته⁽¹⁾.

كما عرف التراث الرحلي رحلات شعرية خالصة التقطت موضوعة السفر والتعبير عنه شعرا، فقد دون أحد الملاحين المعروف بماجد فتجاريه البحرية في مصنف ضخم سماه "الأرجوزة الحجازية" وقد ضم أكثر من ألف بيت، وصف فيها الملاحة على سواحل البحر في القرن التاسع الهجري.

أما ابنه أحمد بن ماجد فقد صنف ألفية أخرى، ومجموعة من المنظومات غيرها، دعاها بالأراجيز⁽²⁾. وهناك أيضا قصيدة في وصف الحج مدونة باللغة الإسمانية بحروف عربية لأحد الموريسكيين عثر عليها مخطوطة بأمبابيا (أواخر القرن 16م) وهي بعنوان "قصيدة الحاج القادم من بوي منشون"⁽³⁾.

أما الرحلات النثرية، وهي الأعم، فإنها تجيء مُدَوَّنة بأسلوب يغلب عليه الطابع المحدد للرحلة، وتتخذ صفة الرحلة انطلاقاً من اعتمادها على مجموعة من المكونات والعناصر، وفق صياغات أدبية وفنية وجمالية. وهذا النوع من الرحلات هو الغالب، فيما توجد أنماط أخرى تستلهم شكل الرسائل، كأن يقيد الرحالة رحلته في شكل رسالة موجهة إلى مخاطب محدد ينضوي من خلالها إخباره بتفاصيل معينة وطمأنته، أو يلجأ إلى نظام اليوميات، أو أي شكل أدبي آخر.

وإذا كان أسلوب الرحلة المكتوبة في شكل رسالة لم يشع، فلأنه يقصي أحد أهم مكونات النص الرحلي : الوصف والتدقيق في التفاصيل، وإيرادها بصيغ مختلفة، رؤية وسامعاً، أو توهُماً وحلماً. . وغير ذلك مما تحفل به الرحلة. لكن الاستثناءات في هذا المجال تشكل محطة خصبة للتحليل، تشهد على ذلك رسالتان لهما حضور خاص : رسالة التوابيع والزوابع لابن شهيد، ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري.

وسواء في الرحلات الرسائلية، ذات الطابع الأدبي أو غير ذلك من الرسائل الأدبية، فإن أهم عنصر يحضر أثناء استعراض النص وبنياته الخطابية هو الطبيعة الجوابية الظاهرة أو المضمرة عن سؤال حقيقي أو محتمل ؛ فرسالة الغفران تأتي جواباً عن المعري عن رسالة ابن القارح . ويتخيل أبو حامد الغزالي في "المنقذ من الضلال" ، وهو يدون سيرته الفكرية ورحلته

لاكتشاف طريق البحث عن الذات للظفر باليقين ، أنه يخاطب شخصا وهما يجب عن أسئلة .

نمط آخر قريب هو الرحلات المدونة في شكل تقرير رسمي أو شبه رسمي ؛ حتى أنه يمكن النظر إلى كل الرحلات من منظور أنها تقارير رسمية أو ذاتية كتبت ودونت بناءً على أمر أو رغبة ذاتية ، رغم أن كلمة التقرير تضيق عن استيعاب رحلة يتقاطع فيها الذاتي بالوصفي مع المعلومات الإثنوغرافية والجغرافية وغيرها . لكن القول بالرحلة - التقرير مسألة واردة باختلاف في صوغ الوقائع .

وإذا كان أبو دلف في رسالته الثانية يتوجه بالخطاب إلى "عالميه" فإن رسالة ابن فضلان هي بأمر من الخليفة ، فكتبت أشبه ما تكتب التقارير الرسمية التي يكتبها السفراء ، اليوم ، عن بلاد عجيبة غريبة⁽⁴⁾ ، كما يتحدث عنها المستشرق كراتشكوفسكي ، باعتبارها تقريراً عن سفارة شارك فيها ابن فضلان . . الذي يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية في العالم الإسلامي والعلاقات بين بلاد الإسلام والبلاد المتاخمة لها في آسيا الوسطى أو الاصفاع النائية التي كانت تمثل أطراف العالم المعتمد⁽⁵⁾ .

وتعتبر رحلة سلام الترجمان (ق 3 هـ) إلى الاصفاع الشمالية توجيهاً من حلم إيهامي للخليفة الواثق ، حول سد ياجوج وماجوج ، فجماعت رحلة - تقريراً ، بقول عنها ابن خردادبة بأنه "سمعها في بداية الأمر من سلام ثم أمليت عليه من التقرير الذي

ورفعه سلام إلى الخليفة»⁽⁶⁾؛ حيث تتفق باقي الدراسات التي قاربت الموضوع إذ يرى عالم البزنطيات فاسيلييف أنه من الممكن القول إن سلاما قد نقل إلى الخليفة الروايات المحلية التي سمعها في الأماكن التي زارها»⁽⁷⁾.

إن الرحلة - التقرير شكل لا ينفي عن النصوص الرحلية أديتها، وإنما يؤكد مروتها في الانفتاح على تنوع الأشكال وقابليتها للجمع بين التقرير والرسالة والترجمة والسيرة ...

2- **النص والتوقع**، من هذا المنظور يمكن النظر إلى أنواع الرحلات من حيث رصنها للفضاء المرئى إليه، لأن الخلاصات التي تقدمها الملاحظة حول المكان في فترة زمنية ذات دلالات قد تفسر بعضها من طبيعة الرحلة في الأدب العربي، ويمكن تحديد خمسة أشكال بحسب اتجاهاتها إلى المكان المرتحل إليه :

- رحلات داخلية في نفس بلد الرحالة .
- رحلات خارجية في المحيط الإسلامي .
- رحلات خارجية في المحيط غير الإسلامي (المسيحي ...).
- رحلات استهلامية دنيوية .
- رحلات استهلامية أخروية .

وتبقى النصوص الرحلية الداخلية، محدودة جدا، رغم أهميتها واختلافيتها. وقد تم العثور على مخطوطة بقيتنا⁽⁸⁾ تضم

مذكرات أحمد من حسن المتيوي (ق17م) عن رحلة داخلية بالمغرب من فاس إلى تيفلت استغرقت أحد عشر يوما كما تشكل رحلة ابن قنفذ جولة داخلية بحثا عن حقائق صوفية.

أما الرحلات الخارجية إلى المحيط الإسلامي (دار الإسلام) فهي النوع الأكثر شيوعا، وذلك لعوامل عدة منها : الإرتباط بكل ما هو ديني من أماكن مقدسة، ومزارات، وشيوخ وعلماء، بالإضافة إلى الحس والرابطة الدينية، وازدهار التجارة والإستقرار ويمكن إدراج النصوص الحجية والزيارية في هذا السياق.

الرحلات الخارجية للبلدان غير الإسلامية قليلة ومحددة الأهداف، إما في التجارة أو السفارة أو المعرفة، كما هو الشأن في رحلات ابن فضلان، وأبو دلف، وسلام الترحمان، وغيرهم من الرحالة العرب الذين «وصلوا أوروبا ليس من الشرق، فقط، بل من الغرب أيضا. وقد حفظ لنا البكري الجغرافي الأندلسي والقزويني كثيرا من مشاهدات الرحالة إبراهيم يعقوب الإسرائيلي الطرطوسي، وكان عالما أندلسيا يهوديا يشتغل بتجارة الرقيق، وقد أخذته رحلاته إلى جنوب ألمانيا في القرن الرابع الهجري»⁽⁹⁾.

وسيعرف هذا النوع من الرحلات توسعا كبيرا ابتداء من القرن التاسع عشر، وذلك في إطار العلاقة الجفيدة التي ربطت المجتمعات العربية - الإسلامية بالمجتمعات المسيحية.

أما بخصوص الرحلات الإستهامية الدنيوية فهي النصوص التخيلية التي تنبئ فنهيا، وترسم عالما يوتوبيا بدلا عن الواقع.

أما الرحلات الإستبهامية الأخرى فهي الشكل الذي تكتب به رحلة تحكي عن عالم الآخرة .

وفي هذا السياق يتشعب النص الرحلي إلى أنواع صغرى متفاعلة . لكن التقسيم المركزي يظل متراوحيًا بين نص ذي مرجعية " حقيقية " وآخر تستند وقائعه إلى حقائق أخرى . وكل نص ينتمي لهاتين المرجعتين تلازمه مجموعة من العوامل الحافزة على استمراره وتطوره فعلا وإنجازا، مكتوبا أو مرويا شفويا ويتضح وجود أربعة عوامل أساسية تجذب الرحلة إليها، وتدور في فضاء محورين اثنين : داخلي وخارجي ؛ بمعنى ارتباط الإرتحال بالجانب النفسي والديني والاجتماعي والسياسي . أما العوامل فهي الحج وطلب العلم والتجارة والرغبة في معرفة الآخر .

هذه العوامل قد يتداخل، بعضها أو كلها، في رحلة واحدة، مما يسهم فعليا في تعدد المحفزات والنصوص ، وأيضا في تعدد الرحالين من حيث التصنيف إلى فئات ترتبط بعواملها . وهكذا يمكن اعتبار فئة الرحالين التجار أو الباحثين عن الرزق ، سواء من خلال التجارة أو الرعي وتربية المواشي هي الفئة الأقدم تاريخيا، يليها الرحالون الحجاج إلى مكة والمدينة أو بيت المقدس أو الأماكن المقدسة، وهم فئة كبيرة تضاف إليها فئة المتصوفة وبعض أصحاب الطرق والزوايا المعنبيين بزيارات متعددة للمزارات والأماكن الرمزية، ثم الرحالة المكتشفون، وطلاب

العلم ، ومنهم الباحثون في المسالك والممالك ، وهم فئة قديمة مهدت للنص الرحلي المكتوب . كما هناك السفراء ، ممن ذهبوا في مهمة رسمية معلومة ، أو من ذهب بطرق متسترة لأداء مهمة سفارية - تكليفية من أجل جمع المعلومات ورسم الخرائط . فضلا عن فئات أخرى قليلة من الرحالين الهاربين من وضع سياسي واجتماعي ونفسي متأزم ، أو من المحالوين المنتقلين من مكان لآخر ، أو من الباحثين عن الشفاء من مرض ما .

وقد اختلف الباحثون في تصنيف أنواع الرحالة من منظورات حقول اشتغالهم ؛ فهناك من ميز بين نوعين : الرحالة الأدبي ، والرحالة الجغرافي ،⁽¹⁰⁾ فيما توقف باحث آخر⁽¹¹⁾ عند صنفين : الأول يطوف لغرض علمي ، والآخر لأغراض سياسية وتجارية ودينية وهناك من يرى في الرحالة ثلاثة أصناف⁽¹²⁾ :

- صنف يجتهد في الحصول على أكثر ما يمكن من الإجازات والتعريف برجال العلم والدين .

- صنف انصرفت عنايته إلى الأدب والتراجم .

- صنف يعتمد إلى الإتيان بمشاهدات متنوعة .

وهذا ما شجع البعض على المزيد من التدقيق في أصناف الرحالة حيث قسمهم حسين مؤنس⁽¹³⁾ إلى : الرسول ، وصاحب البريد ، والجاموس ، والرافب ، والمغامر ، والسفير ، والملاح ، والتاجر ، والعالم . مما يوضح أن تنوع الرحالة يفضي بالضرورة ، إلى تنوع في الرحلات .

ويستمد النص الرحلي مادته التحليلية من استذكارات أو تقييدات لوقائع وتجارب عاشها السارد، أو الذي تروي الرحلة على لسانه، فتسجي نصا شخوصيا يكتب للذات وللآخر تاريخا/ حكايا عن سفر معين.

والنجربة التي تتحول إلى صوغ معرفي تحكمه الأنا وانعكاساتها الفنية في مقارنات ضمنية أو صريحة مع الآخر هي نفسها المخدّد لمحفزات الرحلة التي تكون انتقالا من مكان لآخر.

والكتابة السردية القديمة تجد لها مبرراتها، كما ترسم أسباب تدوينها، مع الخضوع لحجم التطور الذي يلزمه الجدل والتراكم، ومدى مطاوعة عناصر النص وقدرتها على الصمود والإخصاب؛ فالنص الرحلي هو من النصوص الأكثر قابلية لوجود عنصري العوامل الحافظة - المحفزة الداعية إلى قيام الرحلة باعتبارها فعلا من جهة، ثم تدوينها نصا من جهة ثانية. الأمر الذي يؤهل كل رحلة تحمل حكاياتها الموازية القبلية والبعدية عن الفعل والنص، ويجعلها قريبة من نصوص سردية عديدة.

ارتبط مسار تكوّن النص الرحلي بمسألة التعدد، معا أفرز سمات وخصوصيات ضمن كم هائل من النصوص تنوعت حسب أسباب قيامها وأهدافها المرسومة، وهو الشيء الذي انتحاء محمد الفاسي حينما قسم الرحلات إلى خمسة عشر نوعا⁽¹⁴⁾ يمكن النظر إليها من زاوية أخرى وحصرها في نوعين كبيرين: هما الرحلة الفعلية والرحلة الخيالية.

وتتضمن الرحلة الفعلية المتجسدة في الواقع ثلاث خانات :
- الرحلة الدينية والرحلات القريبة منها : (الزيارية ،
الفهرمية ...) ؛

- الرحلة العلمية أو الأدبية أو النصوص القرية منها :
(الاستكشافية ، الدراسية ، المحقافية ، الأثرية ...) ؛
- الرحلة السفارية والسياسية .

أما الرحلة الخيالية فتتنوع بدورها إلى رحلات متخيلة تجري
وقائعها في العالم الدنيوي ، وأخرى مسرحها العالم الأخروي .

1. الرحلة الضمنية

1 - الرحلات الحسية ، الزيارية : تحفل النصوص
الرحلية الحسية بوفرة في التنوع ، تأتي كما لو أنها سير ذاتية أو
مذكرات شخصية محدودة في الزمان والمكان ، تكتب في
وضعية مختلفة بأساليب تتأرجح بين التقرير الجاف ،
والإنسياب الرومانسي المتدفق بالمعاناة وخلالات من المعاناة
والبعد عن الوطن والاصحاب .

هذا النوع من الرحلة الموسومة بالحسية أو بالزيارية المدونة
صورة عن نشاط إنساني مكثف عرف تناميا لارتباطه بالدين الذي
حث على السفر والحج للتطهر من الآثام ، والشعور بالارتياح لبدء
حياة جديدة تكون عتبة للحياة الأخرى أو لتزكية الحياة السابقة
وتتوحيدها ، والتبرك بالأمكن المقدسة ، وإتمام فرض ديني وهو
حتمية تلزمها الأخلاق والتعاليم الدينية . كما أن التعالق بين

الرحلي والذهبي دفع بالعديد ممن يمتلكون حساً أدبياً إلى تدوين رحلاتهم باعتبارها هجرة ومرحلة حاسمة في حياتهم . وتشمل هذه الرحلات الحجية إلى أنواع أخرى من جنسها نفسه ، يوجهها العنصر المهيمن الموازي للقصد الحجّي ، وكلها تتداخل وتندرج في إطار التنوع الذي يُخصّصها . وما يميزها عن باقي الرحلات هو التعدد ، لكونها ذات خصائص محددة ، وعناصر تحكم بنيتها على المستويين الشكلي والدلالي . وهكذا يمكن مقارنة الرحلة الحجية من خلال ثلاث محطات تتحول إلى مشاهد لفهم عملية اشتغال النص الحجّي وتفكيكه .

هذه المشاهد هي : مشهد الخروج ، مشهد المسير ثم مشهد الوصول⁽¹³⁾ . وهي محطات متماسكة تحكمها عدة وشائج وتخللها تفاصيل ومفاجآت .

1-1- مشهد الخروج : إن السفر في الرحلة الحجية لا يكون فردياً وإنما ضمن ركب منظم يرأسه شخص عارف بالطريق يوصف بالثقوى والأمانة والحنكة في التفاوض وحسم الأمور ... وكلها تفاصيل تبرز في مشهد الخروج الذي يقترن بلحظتين أساسيتين تعلقان بلحظة كتابة هذا المشهد : هل دون أثناء أو بعد الخروج أم بعد انتهاء الرحلة ؟ . وهي أسئلة رئيسية في فهم العديد من المعطيات ، لأن هذا المشهد تآنى أهميته من تضمنه لعناصر تخيلية ترفلها رؤية الرحالة/الراوي التي تسبق مشهد الوصول . من هنا تآنى أهمية النص الذي يكتب أثناء الإرتحال ، فهو

يسجل اطباء عات حول المعلوم متوغلا لحظة لحظة في المجهول، حال النصوص العديدة التي كان الرحالة فيها يستثمر فرصة استراحته لتدوين التفاصيل قبل امتداد المسافة بين لحظة الحدث وبين فعل التدوين.

وتُعبّر اللحظة الموائية حافز الرحلة، ففيها يعمد الراوي إلى ترصيع نصه بسرد الحافز الذي دفعه للخروج إلى الحج والزيارة من أجل إتمام الفرائض الدينية والتطهر والتكفير عن الأخطاء والبحث عن الخلاص من الضيق والأزمات⁽¹⁶⁾.

وتأتي الاحلام حافزا وسبيلا آخر للإرتحال من منظور أنها نداء باطني للتحويل من طريق العبث واللامبالاة إلى الرشد، كما هو الأمر بالنسبة لناصر خسرو (ق ٥٥) الذي ظهرت له رؤيا شيخ يأمره بالكف عن حياة اللهو والشرب⁽¹⁷⁾، آنذاك جهز نفسه للقيام برحلات طويلة زار فيها الحج أربع مرات بعدما «اعتراه تحول نفسي عميق دفعه إلى التجوال سبع سنوات، وأنهى أيامه داعية للإسماعيلية بمنطقة بدخشان الجبلية»⁽¹⁸⁾ حيث دون رحلته الوصفية في كتاب باللغة الفارسية أسماء «مفر نامة».

وكان الحلم أيضا سبيلا للإيهام، فهذا الخليفة المقتدر يدهي رؤيا رآها في المنام بانفتاح السد الذي بناه الإسكندر ذو القرنين حول ياجوج وماجوج، فبعث سلام الترجمان في رحلة طويلة غرضها هو الامتشاف والاستخبار⁽¹⁹⁾.

تؤسس كل رحلة مشهدها الإقناعي بين أداء القريضة والشوق

والتطهر والحلم ... في ارتباط بمشهد الخروج الذي يجيء حافلا
بعدة معطيات، كما أنه يحفل بعناصر أخرى تأتي في شكل حكاية
أو خير افتتاحي لا بد للقارئ من استحضاره .

يعلن المبدي، في رحلته، خلال التقديم أنه بدأ في تقييد
الرحلة وهو بتلمسان (ص 6) . أما بداية مشهد الخروج فيقيده
بالفعل الماضي «كان»، ويفعل جله على صيغة الجمع، ثم يورخ
للزمن ولمكان الخروج (الإنطلاق) مع تغييب العديد من الأشياء
الأخرى كالاستعدادات القبلية التي تسبق الخروج، وذلك رغبة
منه في تثير عناصر أخرى أساسية، وهي بعض التجهيزات النفسية
المُرتبطة بالفعل الحسن الذي يسر للرحلة انطلاقها وهو التبرك
بولي صالح قوي الرجاء في نيل بركته ... «وفي أول سفرنا دخلنا
مسجدا لصلاة الظهر فوجدنا به ألواح صبيان العكب فنظرنا فيها
تبركا بها فوجدنا في أول لوح منها (ومن يتوكل على الله فهو
حسيه) وفي الثاني : (ومن يتق الله يجعل له مخرجا) وفي الثالث
(فلولا فضل الله عليكم ورحمته لكتتم من الخاسرين) وفي الرابع
(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا) فسررنا باتفاقاتها على
الإشارات إلى البشارات وحمدنا الله على ذلك»⁽²⁰⁾ . والعلامة
الثالثة في هذا المشهد، هي أنه «بعد ليّتين أو ثلاث، رأيت في
المنام الفقيه القاضي الإمام أبا الوليد الباجي رحمه الله فخطر لي
أن أقرأ عليه شيئا من كلامه»⁽²¹⁾ .

إنها ثلاثة عناصر (التبرك بالولي الصالح، الألواح، المنام)

تبشيرية تحفيزية على غرار القدماء الذين كانوا يتفادون من ظهور علامات معينة أثناء خروجهم للسفر، أو يتطهرون من رؤية علامات أخرى.

ومشهد الخروج بعناصره الثلاثة الأولية، فضلا عن التطمين النفسي يفصح عن انشغال عميق بالرحلة. وهو موقف يوطر النص الرحلي، ويعدد رؤاه وأفاقه خصوصا في المشاهد الأخرى.

مشهد آخر يفصح عن أن كل رحلة يمكن أن تتفرد بتنوعية مشهد خروجها، نجد عند ابن قنبل: «فكان مبدأ الانفصال عن حضرة مراکش أقصى حواجز المغرب أدامها الله للإسلام»⁽²²⁾.

إن حضور فعل "انفصل" في المصدر يتموضع نفسيا في موقع حثيني يعبر عن مشاعر دفينة أعمق من النفي وأقرب إلى الإجتناب، تفصح عن بوح، وتحتفظ به في الغالب مشاهد الخروج باعتبارها لحظة مزدوجة مشلوبة إلى رغبات متناقضة بين الرغبة في الخروج لتحقيق أهداف مادية أو معنوية، والضميم الذي يلحق النفس جراء فراقها للأحباب و"انفصالها" عن الأرض الأم.

2-1- مشهد المصير: ويتضمن وجهين للسفر، ذهابا وإيابا، مع اختلاف يُميزهما؛ فالأول يكون مُسهباً وتفصيلياً، والثاني مختصراً وسريعاً، دوماً لأي تكرار؛ لا يروي فيه إلا ما يكمل الأول.

ويشكل مشهد المصير بؤرة النص الرحلي، ونسيج الحكيم وجامعة، لأن السارد يصف ويروي انطلاقاً من عين متحركة تسير

من نقطة إلى أخرى ، من المعلوم إلى المجهول . وعادة ما يتضمن هذا المشهد معظم أحداث الرحلة بما فيها معاناة الرحيل والمشاهدات ، والمروى عن طريق السماع والحوار . ذلك أنه يمكن وصف هذه اللحظة بأنها مشهد العين المتحركة المرفودة برؤى وتخيلات ترسم فضاءات الوصول ، تُسند بالدهشة ، فتجيء سرود وأوصاف هذا المشهد مبطنة بالاحلام وبالأحكام التي تتكى على المقارنة بين معطيات الراوي والواقع المرئي والمسموع ، فتتبدى مجموعة من العناصر التي تحكم في رؤية الراوي للأشياء كلها .

في رحلة العبدري ، داخل مشهد المسير ، هناك مشهذان : الأول افتحاشي داخلي يتطلق من آخر بلاد السوس ، فيحكم عليها بعد وصف طبيعتها بموت العلم فيها ، كما يصف ماضيها الموسوم بالخطوب والرغبة ، وحاضرها المليء بالحروب .

المشهد الثاني ويتمثل في لحظة المسير الخارجي بعدما يواصل الرحالة إلى تلمسان ، فيصف تيهه وتعبه في العبارة الخطيرة ، لأن تلمسان هي أول نقط مسيره ، والفضاء الذي سيدون فيه بداية رحلته . لكن شيئين غريبين سيشتدان انتباهه هما : مشهد الحجاج الذين يطلبون العطاء ، وبعض خصوصيات تلمسان حيث يتسم أهلها بالبخل وعدم إقراء الضيف ، وضعف العلم والقضاء ، وتحايل الناس وتقليسهم . إنها أحكام يبحث عن تدعيمها بإيراد الإستثناء الذي يؤكد ما من خلال لغاته بعض الشعراء والعلماء .

وتواصل رحيله عبر الجزائر، ثم بجاية وقسنطينة وباجة وتونس والفيروان وقابس، ثم طرابلس والإسكندرية والقاهرة قبل أن يبادر هانحو الحجاز (مكة). وغير هذه المشاهد تبدي عناصر رؤية الرحالة أو الأسس التي يرسم وفقها أحكامه ويضبط مقارناته، وهي خمس فقط :

أ - التاريخ : يعود إلى تاريخ الأمكنة بذكر ماضيها المشرق أو الشوائب التي حلت بها قديما.

ب - الحضارة : من خلال إبرازه للعمران والطبخ بالإضافة إلى وصف الطبيعة وجمالها.

ج - العلم : وهو نقطة أساسية يركز عليها الرحالة في كل لحظة توقف ؛ بحيث يستنتج غياب العلم أو وجوده واصفا لقاءاته مع أدباء وعلماء تلك النقطة وثمرة ذلك اللقاء.

د - الدين : يحكم على نقطة الوصول بضعف التدين أو شدته.

هـ - طبائع الناس : يصفهم من زاوية الأخلاق والإستقامة، أو الفساد والانحراف، ومايستتبع ذلك من ذم لهم بالبغض والبخل.

وتراوح أهمية هذه الأحكام وتنوعها بين ما هو روحي ومادي ومعرفي، تكشف عن حمولة الرحالة ووعيه الفقهي الإسلامي الذي يؤثر كل مشاهداته، دون أن يبحث عن تبريرات، أو يلجأ إلى مقارنات صريحة ؛ فعشهد المسير مليء بسرود وأوصاف غنية

عن أسكنة بأهلها، تمخلها أحكام قاسية حيناً، كأن يصف الطبيعة بالجذب، والناس بالجهل والعفاء والطباع الغليظة والبخل والبغض والهجر. وحيناً آخر يصدر أحكاماً مدحية قليلة تمجد ناسها وطبيعتها وعمرانها.

أحكام وتقريرات لو جُمعت لتبين أن الرحالة/ الراوي يسعى إلى ترميم السرد بأخبار تاريخية وانطباعات وتأملات ترتبط بأول نقطة مسيره من «آخر بلاد السوس» إلى القاهرة متوقفاً من حين لآخر لوصف مناخ الطريق ودرجة قطاع الطرق وتدنيس بعض الناس وخداعهم.

إن مشهد المسير هو لوحات مُدَوَّنة ملائ بأوصاف بلغت حد التشريح، تعبر عن رؤية عالم وعقيد يرى في البلاد الإسلامية تفهراً سيئه ترك الدين ومقوماته وهجر الإنسان العربي للأخلاق النبيلة، وكل القيم الأسامية. لهذا كان يجد العزاء والمتنفس في لقاءاته بالشيوخ والعلماء والشعراء وزيارة قبور الأولياء.

أما مشهد المسير إياباً فينطلق من القاهرة، ويتم ما كان قد ابتدأه في الذهاب، لكن ما أضافه في الإياب الداخلي هو أن دخوله إلى المغرب عن طريق تازة وفأس ثم مكناس فأزمور... ارتبط بلقاءات أخرى مع الفقهاء وزيارة قبور الصالحين.

وتنويت الكتابة في هذا المشهد المتضمن لبيات مشهدية صغرى متتالية هو عمق الكتابة، لاحتوائه على عناصر أولية تلتبس وتضارب أحياناً، تكشف عن المعاناة والدهشة والتهيب

للووصول . . إنها مرحلة أساسية في استكمال تكوين الصورة عن المكان المرتحل إليه وإدخال بعض التعديلات عنه . من ثمة يظل مشهد المسير الأكثر غنى والأهم باعتباره يأخذ الحيز الأوفر في النص الرحلي ، ويتوفر على دينامية سرديّة تهيئ للمشهد القادم .

3-1- مشهد الوصول : يشكل مشهد الوصول اللحظة التي تصطدم فيها عين الرحّالة المحملة بمشاهد تخيلية عن ذلك الفضاء بالواقع المرئي ، فيُعاد تأسيس رؤية ثالثة تبني على انطباعات جنيّة .

وقد اعتنى النقاد بمشاهد الوصول ، وعلى الخصوص 'ماري برايت' التي اعتبرتها ذات دلالات في النص الرحلي عامة ، بحيث يبرز اصطدام المجرّد بالملّوس ، كما أن الصور الذهنية -حسباً هنري جيمس- تنمو في عقل المسافرين 'طبقاً لمطقتها الخاص بها' ، وأن الأفكار المسبقة كثيراً ما يجد المرء أنها تخالف الواقع إلى حد كبير⁽²³⁾ ، فينجا به حيال الرحالة واحتمالاته السابقة مع معطيات العالم الواقعي لبحث عن التعديل والمقارنة والفهم .

وانطلاقاً من هذه الاعتبارات ، ومن اعتبار أن مشهد الوصول المتضمن لخيالات واحتمالات وحسوس من جهة ، ومن واقع يروح بانطباعات أولية ، من جهة أخرى ، هو نقطة تماس بين شيئين ينبغي أحدهما الآخر أو يؤكدهما أو يصهرهما ليفرز عنصراً ثالثاً خليطاً ، فإنه يمكن افتراض أن مشاهد المسير هي حلقات من مشاهد صغرى للوصول أو العبور ؛ ذلك أن كل نص رحلي

يتضمن كرونولوجية تؤرخ لمحطاته الزمنية ، وفضاءات العبور التي نستولد سرودا مفتوحة كما «يمكن أن تكون الإنطباعات الأولى مهمة وأحيانا ذات قيمة أكثر منها في أي ميدان آخر» (24) .

بالنسبة للمبصري ، في الرحلة المغربية ، فإن وصوله إلى مكة جاء بعد محطات عبور كثيرة انتقلها إلى حد التجريح ، كما أفاض في توصيف معاناته والمشاق التي تحملها . لكن مشهد الوصول سينيل عنه كل مآرأت عينه وتحمل قلبه ، لأن الاصطدام مؤطر دينيا بالشوق والإيمان الروحاني العميق وهو يعبر عن كل هذا بالتمجيد وتعداد مفاخر ومعالم مكة مفصلا الحديث عنها وعن الكعبة والمسجد الحرام والمدينة وكل المآثر الدينية ، كما يستعرض معلوماته التاريخية عن بناء مسجد الرسول الكريم .

إن هذا المشهد لا ينحصر في الوصول الأول ، بل يتشمل ويتوسع فيصبح كل وصول إلى أي مكان مقدس أو أثري جزءا من الوصول العام سواء تعلق الأمر بمكة والمدينة ، أو بالخیل وقبور الأنبياء ، أو بالمسجد الأقصى وكل الأماكن المقدسة .

وهذه المحطة هي نقطة التماس التي تفسر العديد من الدلالات الولودة في مشهد المسير ، والمتعلقة برؤية الراوي . المقدمة في شكل اختبار لكل نقط العبور حول الدين والعلم وال عمران والأخلاق ، وهي نفسها العناصر - أثناء دخوله مكة - التي سنشكل الجزء الحكمل لمشاهداته المشبعة بشعور الرضى والشكر وبامتلاء ديني مطمئن . إن المحطات الثلاث باعتبارها

مشاهد تَظَر النص الرحلي الحجي هي نفسها الإطارات الكبرى لأي نص رحلي كیفما كان وهي إطارات قابلة لتحويلات داخلية تتعلق برؤية الراوي ومدى أسلته لنقط العبور والوصول .

وفي إطار هذا النوع من الرحلات الحجية تندرج النصوص الزيارية سواء الداخلية أو الخارجية ، وتركز حول الرحلات الصوفية التي يقوم بها فقيه رحالة سواء أكان طريقاً أم لا هذا النوع من الرحلات الزيارية «التي يقصد صاحبها من سفره زيارة أضرحة الأنبياء والأولياء ومشاهدهم وذكر فضائلهم وكراماتهم ، والرحلات المؤلفة في هذا الموضوع من أهم المصادر عن الحياة الدينية والحركة الصوفية»⁽²⁵⁾ ، وتنقسم هذه الأشكال من النصوص إلى رحلات زيارية لمكان واحد (عند شيخ الطريقة) ، وأيضا رحلات زيارية إلى أمكنة عدة تضم قبور أولياء وصلحاء ، أو أمكنة زيارة للتبرك .

وفي كلتا الحالتين تتم زيارات أخرى للتزود بالعلم في هذا المجال على يد شيوخ وعلماء وفقهاء ، وتكون مشاهد المسير وحلقات الوصول مغايرة للرحلة الحجية ، لأن هذه الرحلات الزيارية والتصوفية المتجهة نحو القبور والروايا والمرارات تتخذ من الفضاء الواحد والمحدود هدفها ، ومن الطقوس والعادات وبعض الخصوصيات ، بالإضافة إلى ترحمة سير الأولياء ، ومرد كرامتهم وخوارقهم ، والأحاديث المتصلة بهم ، مادة للكتابة وعصيا للرحلة⁽²⁶⁾ .

2- رحلات المثاقفة ، انصرفت جهود العديد من الرحالة

إلى تلوين نصوص رحلية تندرج ضمن خزانة الرحلات الوصفية التي يدونها الرحالة عقب رحلة سافر فيها إلى مكان آخر بقصد التحصيل العلمي ، وتلاقح التجارب الثقافية ، والإحتكاك بمكونات معرفية وثقافية أخرى .

ولعل الرحلة الموصومة بالعلمية والأدبية نص استكشافي يسجل ويؤرخ للمرحلة تحول المعرفة الفردية للرحالة الذي يكتشف ويصطدم ويعرف ثم يقارن ويركب ؛ فعلى مر تاريخ كامل للرحلة فعلا ثم نصا كانت الرحلات الاستكشافية حاضرة على مستويات مترابطة يصب فيها هو علمي وأدبي دون حدود توضع بين صفة العلمي والأدبي ؛ ذلك أن الرحلات العلمية إلى أوروبا زلوجت بين ما هو أدبي وعلمي من خلال دراسات ، ارتباط فضاءها بإفريقيا أو بالشرق العربي أو بالدول العربية والإسلامية عامة . وقد تركزت النصوص العلمية - الأدبية حول مجال العلوم الإنسانية دون العلوم الحقة كالطب والهندسة ... فقد غلبت إلى حدود القرن التاسع عشر الرحلات الأدبية التي تسعى إلى استكمال المعرفة ، عن طريق التصحيح والتوثيق والإجازة ، خصوصا في مجال الفقه والحديث ، وقد تجلّى ذلك في البحث عن أسهات الكتب ، والتقرب من العلماء والفقهاء ، والجلوس إليهم في المجالس العلمية حيث تتسع دائرة الحوار .

إن هذا الجانب ذا الأسس الدينية يستحضر ، بالضرورة ، عند

الرحالة ثقافة أدبية مُمارَسَة، وتُتعلّق الأمر بالشعر والثر الفني والنقد ... عما يستدعي محفزات وثوابت مركزية تشكل السمة البارزة لنصوص عدة في الأدب العربي أساسها دعوة المسلمين وأتباع الديانات الأخرى إلى ضرورة التسلّح بالعلم إرتحالاً، وتملك الثقافة الصحيحة ؛ كما أن المغامرة الفردية للإستكشاف في ظروف اجتماعية وسياسية متوازنة عادة ما تنفع بالرحالة، وهم مستغرون نفسياً، إلى البحث عن نوافذ أخرى للإطلاع على اللذات والأخر ... وهذا النوع يتيح للرحالة تطوير نصه بأسماء شيوخ وعلماء حادثهم واستمع إليهم .

هذه المعطيات التحفيزية تجعل الرحالة في خانتين : إما أن يكون ذا ثقافة موسوعية، ويسمى إلى إغناء الآخر بها، وصقلها عبر التثاقف والاحتكاك والتلاقح، وجمع مؤلفات أخرى .

وإما أن الرحالة (وهو النوع النقيض) يفتقر إلى ثقافة مكتملة ويطلع، بالتالي، إلى تطويرها وضبط معلوماته، لِمَا لُتتلمذ ومصاحبة العلماء من فضل في إكسابه المعرفة الصحيحة وأساليب النقاش ومنهجية الحوار والإقناع .

إنها محفزات عامة كانت وراء الرحلة في الأدب العربي، فضلاً عن محفزات أخرى ترتبط بالطرف السياسي والاجتماعي والثقافي الذي ينطبع بالإنفتاح . وهذه العناصر الثلاثة تنعكس، بالتأكيد، على اتجاه ونوعية وطبيعة الرحلات العلمية والأدبية .

وهناك أيضاً دوافع ذاتية - موضوعية ترسم الرغبة الفردية في

تحقيق هدف مادي أو نفسي، وهو ما ينطبع، حتماً، في العمق الأدبي والعلمي للنص الرحلي.

وهكذا، يتضح أن هناك أربع نقاط محورية لاستكمال فهم طبيعة هذه النوعية من النصوص، نوردتها في الاستنتاج التالي :

أ - طابع الاختلاف والتعدد الذي يفتدي النص الرحلي - العلمي والأدبي انطلاقاً من حملة لصفة مركبة بين شيتين يتكاملان ويؤسان لشأبة طالما ظلت محط نقاش في التراث النقدي القديم والحديث . كما أن هذا النص يتحقق، عملياً، على مستوى داخلي (في إطار بلد الرحالة) وهو النادر، وأيضاً على المستوى الخارجي - كما جرت العادة . وفي الحالتين هو استكشاف يتوقف على طبيعة وعي ومعرفة الرحالة الذي يخضع إلى صدمات تنتهي بالدعشة والإستيعاب المحقق للتلاقح أو التأثير المتبادل، أو من طرف واحد، أو النكوص والإنتقاء ابتعاداً عن كل معرفة غيرية تخلخل البديهيات .

ب - غنى هذا النوع ، يكمن في تشلوه إلى مجالات غير محصورة أو مقيدة كالجغرافيا والاجتماع وعلوم الطبيعة والأدب، في كونه يأتي طافحاً بالطرائف والشعر والمحكيات والرسائل والخطب ... وكلها عناصر تضيء على النص الرحلي مسة الانفتاح وطابع المتعة والمعرفة وهما صفتان للرحلات عامة .

ج - انشداد هذا النوع وارتباطه بطبيعة المعطيات الثقافية والسياسية والاجتماعية للفضائين (المربل

والمستقبل)، وأيضا طبيعة الرغبة الحافزة والاستعدادات النفسية والفكرية للرحلة.

2- يوجد شكل الرحلة العلمية - الأدبية في كل النصوص الرحلية عبر مستويين :

- مستوى بنية صُغرى داخل الرحلات باعتبار أن كل رحلة تدرج أيضا للأفكار والشفافات عن طريق الحوار والحديث والإنصات والتأمل.

- مستوى بنية كبرى، وهي النصوص الرحلية الاستكشافية، والتي تعلن عن قصدها الاستكشافي منذ البداية.

3 - رحلات النحن إلى الآخر، تبرز الأنا/النحن في علاقتها المباشرة بالغير/الآخر في هذا النوع للهجين، والذي يلخص وجود نص رحلي يتوفر على مقومات الرحلة بعناصرها الأدبية مع اختلافات يفرضها الموضوع. والأمر يتعلق بحمل خطاب النحن الرسمي، إلى جانب آراء ومعطيات الأنا عن الآخر، إلى الغير. وبالتالي فإن النصوص المدونة في هذا المجال تكشف عن جزئها المكسب - الأساسي في هذه العملية، وهو خطاب النحن، وحسولة الأنا، أي ماعرف ظاهري وباطني، ثابت ومتحرك في أفق تعديل المتحرك وتلقي الجواب عن الثابت.

وقد ارتبطت هذه النصوص، بدورها، بالوضع السياسي للبلد المرسل والبلد المستقبل، في حالتَي الاستقرار أو الإختلال. لهذا كثيرا ما يتم اختيار العلماء والأدباء والأعيان المتمرسين لمهمة

السفارة، وماتقضييه من حنكة في التفاوض والدقة في الملاحظة والبدية. لأن الأمر، غالبا ما يتعلق بتحسين العلاقات، وإقناع الآخر بما يخدم مصالح النحن، وجمع معلومات كافية عن الغير. إنها مهام متفرعة الأبعاد تختلف أحيانا عن المهمات المحدودة بإبصال خطاب أو رسالة، أو التفاوض حول مسألة معينة.

والنصوص الرحلية العربية، في هذا السياق، قليلة لأن العديد من السفارات، نظرا لما تحتوي عليه من أسرار، لم يؤمر بكتابتها، أو أنها كتبت في شكل تقارير جافة تعكسها بعض النصوص المنشورة كرحلات ابن فضلان وأفوقاي وأبي دلف. وهي نصوص تطرح أسئلة عن طبيعة موقع الذات في مثل هذه النصوص باعتبارها وثائق تتعلق بسفارة حول علاقات بين بلدين، أو أحداث تجممها، أي لا مكان للذات، ولكن الأمر في النصوص الرحلية الموجودة يختلف، إذ تحضر فيه الذات كما لو أن الأمر يتعلق بسفارة الأنا لحسابها الخاص.

في عموم التفاصيل الموجودة عادة، لا يمكن الجزم بوجود معلومات سرية، ولكن الاعتقاد، في هذه الحالة، هو أن تدوين الرحلة السفارية هو اختيار الرحالة المؤهل أدبيا لإنجاز مهمته، أو بتوكيل غيره بتفويض ما يعليه عليه، تقييدا مباشرا أو صوغا. كما أن أمر الحاكم يجيء حالة مشجعة على ذلك.

وفي كل الحالات المرتبطة بالدوافع، وهو أمر قليل الأهمية، يبقى العنصر الحلفت للإلتجاء هو تدوين النص السفاري بشكل

كبير ، وتحويل البنى الثغيرية إلى تخيلات مفتوحة على سجلات أخرى وأوعية الغير وأصواتهم وملامح تفكيرهم ؛ ففي "رسالة ابن فضلان" يقف الرحالة طويلا على هذه العناصر من منظور ذاتي بالتقاطه جوانب الاختلاف واللامألوف باعتبارها بدعا وعناصر سلبية في هذا الآخر .

ويمكن -بال تأكيد- تلمس مثل هذه المنظورات أو نقيضها في رحلات سفارية أخرى تشي بمعطيات جديدة تبعا للوعي الذاتي عند الرحالة وصرح مقارناته ، ولعل نص أفوقاي : "ناصر الدين على القوم الكافرين" حافل بسجلات لغوية هامة ؛ ذلك أن الرحالة لم يتأخر في إيذاء ألفاظ عامية أو مترجمة أو أخرى أخضعها للنظام الصوتي والصرفي الإسباني على الطريقة الموريسكية .

في كل رحلة من هذا النوع السفاري يتقاطع خطان يتماثلان ويتفاعلان ، هما اللغوي والموضوعي على محور الأما والآخر ، وضمنهما تعمل حركات الثقافية بالسياسي بالرسمي وتختلف ممارسة وتدوين ؛ ففي "ناصر الدين ... " يصور أفوقاي لغة وعادات المسلمين المورسكيين بالأندلس ومحتهم ، كما يعرض لمناظراته مع المسيحيين واليهود بشيء من الحرية والانفتاح ؛ فهو يجادل الآخر انطلاقا من خلفية دينية واعتبارات ذاتية يؤطرها السياسي والسوسيوثقافي ، فيحاكم السلوك عن طريق القرآن والإنجيل والتوراة . أما ابن فضلان الذي يحتاج إلى ترجمان للتجاوز فتحي انتقاداته ومحاكمته للواقع عن طريق مشاهداته .

وفي هذا السياق تندرج نصوص أخرى قديمة من النص
السفاري، وهي تلك التي يصاحب فيها الرحالة أميراً أو قائداً أو
شخصية بارزة إلى مكان آخر لغرض من الأغراض، فيدون
مشاهداته أثناء رحلة لم يختر توقيتها أو مكانها أو طريق سيرها،
كما هو الشأن مع أحمد بن هلال، وابن الحاج النميري، وابن
الجبعة⁽²⁷⁾، إذ يتضح مع كل هؤلاء كتاب نص سفاري بصيغة غير
تلك التي قيد بها ابن فضلان أو أبو دلف رحلتيهما.

II - الرحلة المتخيلة

يقترّب الفيلسوف العربي "الكندي" من التخيل عبر مفردة
أخرى اصطلاح عليها بالثوهم، وعرفه بأنه "الفانتاسيا" وهو
قوة نفسانية ومدركة للصور الحسية مع غيبة طبيعتها، ويقال
الفانتاسيا هي التخيل وهو حضور صور الأشياء المحسوسة مع
غيبه طبيعتها⁽²⁸⁾.

هذا التعريف يقود إلى الحديث عن الرحلة المتخيلة التي لا
تتأسس فعليا في الوجود الفيزيقي، أو تتطلب تجربة معيشة على
المستوى الواقعي، وأخرى ذهنية تؤسس لعالم متخيل يجنح إلى
صوغ أفكار وتأملات معينة تتماشى مع المثالية والعديد من
المفولات والتصورات الصوفية والفلسفية والدينية التي ترسم
رحلة النفس في بحثها عن عالم آخر يكون بديلا عن الواقع،
وصولا إلى المطلق واليقين والحقيقة والمعرفة الخالصة للتطهر.
لهذا تعتبر النصوص التخيلية رحلات استكشافية تقف فيها

الأنما مقابل صورتها (الباطن) عن طريق إسقاط ما هو مادي والالتفات نحو ما هو روحي، فارتبط هذا النوع من التوهم المدون في شكل رحلات بحقول الفلسفة والتصوف والأدب. وقد تخلصت عن طريق التفاعل الثلاثي من جهة، ثم التفاعل، من جهة ثانية، مع النقاشات الدينية والمساجلات التي أفرزت مفاهيم وتصورات ذات قدرة على التحاور والتصادم والنمو. وأخيرا المشهد الثقافي - الفكري والسياسي الذي كان له دور مشهود في توجيه وتلوين التصورات التي منتحول -إبداعيا- إلى أشكال أدبية وفنية، من بينها شكل الرحلة المتخيلة التي عرفت تراكما مهما في الأدب العربي وثراء في التنوع داخل الشكل الواحد، بأساليب تراوحت بين فنية مرهفة وشبكة رمزية مناسكة وعميقة.

لم يكن هذا النوع طارئا، في فترة معينة، أو حكرا على بيئة أو شعب معينين، وإنما وجد منذ القديم بدءا من جمهورية افلاطون إلى ابن طفيل والوهراني وابن شهيد والمُحاسبي وابن عربي والمعري؛ كما عرفت في الآداب الأوربية وغيرها انتشارا سمي بأسماء مختلفة. فبعد الكوميديا الإلهية للناثي جاءت نصوص البيوتوبيا، ثم القصص الفلسفي، والخيال العلمي...

وتبقى السرد الرحلية التخيلية في الأدب العربي إرثا متعدد المنطلقات والأبعاد، غنيا بالمعطيات التي تفسح للنسأويل والقراءات منافذ عدة، الشيء الذي يلزم، بدءا، بتحديد وتصنيف هذا النوع حتى تتبين أفاقه.

في مستوى أول هناك نوعان من الرحلات المتخيلة وجدًا في الأدب العربي ويستندان في تغايرهما إلى مكون الفضاء أسامًا ، ثم مكون الزمن ، إضافة إلى عناصر أخرى حيث توجد رحلات دنيوية وأخرى أخروية تتخلق عن طريق منام/حلم أو حكاية للإعجاز ، أو تخيل يوهم بواقعية الرحلة ، وهو تشكيل يوجد في النوعين معا .

1 - **رحلات دنيوية** ، الرحلات الدنيوية هي النصوص الرحلية التي يتم رسم أحداثها ووقائعها في الدنيا داخل فضاء يكون معروفًا أو مرمرًا إليه في العالم الواقعي الأرضي في الأزمنة الثلاثة ؛ بحيث ينصب التركيز في الرحلات الدنيوية الزمنية (في الماضي والحاضر) على مكون الزمن باعتباره البؤرة التي تحرك النص الرحلي في إطار تقابل المتناقضات ، وإضاءة منطقة الحلم/المثال الذي تتحقق فيه القيم المفتوحة ، ونسمو الأخلاق وتعود العدالة . . وكلها تقديرات تابعة من الحلم المثالي بواقع آخر يظهر الحاضر الفاسد . أما الرحلات الدنيوية ذات الزمن المستقبلي فإنها تقوم على تخيل الأحداث في المستقبل داخل إطار إبراز عناصر معينة من الحياة المغايرة للحياة الراهن على مستوى التقدم الحضاري أو الإنشكاس ؛ وفي الحالتين يصبح هذا النوع من النصوص الرحلية المزمّنة في الاستقبال ناقوس خطر ، وقد سميت بشكل عام بالخيال العلمي . ولا يمكن بأي حال-المجازفة ونعت النص الرحلي في الأدب العربي بهذه التسمية ، لأن الرحلات الدنيوية التي تعاملت مع الزمن الإمتقبالي بهذا الوعي غير موجودة

إلا على مستوى التخيل بالنسبة للعالم الآخرى. لكن هذا الوعي الذي له شروط المركبة عرف بواحد الأولى في بعض النصوص السردية العربية مع توفيق الحكيم، موسى صيري، طالب عمران، فتحي غانم، نهاد شريف، أحمد رائف، طالب الخفاجي، يوسف عز الدين عيسى...

إن النص الرحلي النبوي في التراث العربي - السردى وجد داخل حقول متقاربة، لم تكن ثابتة بل متفاعلة في إطار صراع الأفكار والتصورات. لهذا فقد جاء مستلذا على خلفيات دينية واجتماعية وسياسية، وأخرى صوفية - فلسفية أو فنية. فصدمات الحاضر والوعي به أفرزت ثنائيات تتحكم في الطبيعة والإنسان: الخير والشر، الفساد والصلاح... فكان لابد من رسم الأحلام، وانتقاد الحاضر مع التركيز على القيم والحكمة والعدل.

وتحديد فضاء متعين أو لا متعين هو لغاية التعميم، مع التنوع في شخصية الرحالة الإنسان، عارفا أو جاهلا، فكلاهما يبحث للكشف والوصول إلى اليقين.

كما تجيء شخصية الرحالة حيوانا أو طائرا أو ما شابه ذلك في رحلات بدونها الفلاسفة أو الشعراء أو المنصوفة، للرمز إلى معادلات في الواقع وفي دواخلهم الروحية؛ فإذا كانت "الرحلات الواقعية" تهدف إلى استكشاف الواقع العياني بعاداته وتقاليده فإن الرحلة المتخيلة تسمى، بدورها، إلى استكشاف وضعية الروح والباطن الإنساني عبر تأملات عميقة.

ففي منطق الطير لفريد الدين العطار⁽²⁹⁾ ليست هناك بداية أو نهاية للزمن . . لأنها تحكي عن مائة ألف قرن هي زمن رحلة جماعة الطير إلى ملكها السيمرغ بحثا عن الخلاص واليقين والإطمئنان . وهناك رحلات أخرى في نفس السياق للإمام الغزالي وابن سينا حول " رسالة الطير " من منظور فلسفي - ديني تصوفي .

2- **رحلات أخروية** : تضم الرحلات إلى الآخرة عوالم تخيلية مرتبطة بجنوح نحو رسم عوالم الغيب ، وتخيل وقائع يوم القيامة وتصوير ما يحدث في الجنة والجحيم بأسلوب ترويعي وترغيبي ، وهذا ما قام به العديد من الفقهاء في إطار ما سمي بأدب القيامة . ولعل " كتاب التوهم " للمحاسبي يبقى النص الذي يمكن اعتباره أنضج من غيره من النصوص التي تناولت الآخرة . أما الجانب الآخر من النصوص التي تناولت الآخرة ارتحالا تخيليا إليها فقد اختارت نعمة مغايرة تميزها عن كل ما كتب ، وهي تخيل مايقع يوم الآخرة من محاكمات للشعراء والأدباء ، وهذا ما نجده عند أبي العلاء المعري في رده على رسالة ابن القارح⁽³⁰⁾ .

إن خلفية المحاسبي⁽³¹⁾ ومن سار على دبه تحكمها نوازع دينية محضة مشلوبة إلى فكر إصلاحية يسعى تقويم الناس وهذايتهم من طريق ترويعهم بتصوير يوم الآخرة .

أما خلفية المعري في رسالته فهي أدبية تتوخى تخيل قسم من الأدباء في الجنة والقسم الآخر في النار مع إيراد شواهد وحكايات تبرر وجودهم .

يشيد المحاسني نص التوهم على محاسبة النفس ، فيقوم بتخييل المراحل التي تأتي بعد الموت : وهي القبر والحشر ثم الصراط فالمرور إلى الجنة ونعيمها ، أو إلى جهنم وعذابها . والمحاسني في نصه هذا ، كما يقول أحمد أمين : «لم يقتصر على ماورد من الأخبار في الخوف والرجاء كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه ، وبعبارة أخرى خياله في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار وما يلقون من سعادة وشقاء وعذاب ، وقد أسلس لخياله القباد فتخيّل ما تخيّل» (32) .

والحقيقة أن المحاسني لم يلجأ إلى أسلوب الإيهام والكتابة بطريقة وثوقية تجعل كل الأخبار الواردة وكأنها حقائق ثابتة لأرب في مجيئها ، بل يؤسس لكتابة منهجية مُغايَرة لما كتب في هذا المضمار من طرف الفقهاء والمتصوفة ، وذلك لأنه يني كل نصه على التوهم ، فلا تخلو بداية جملة تجلّد المعنى -في الأعم- من كلمة (توهم) ، مع عرض كافة الاحتمالات والإختيارات التي يمكن أن تكون ، وهو ما يدعو إلى الحديث عن خطاب التوهم والمحتمل ، وعن رحلات متخيلة متعددة في آن واحد .

« ... فتوهم جوابك باليقين أو بالتحجير أو بالتلذذ والشك . وتوهم إقبالها عليك إن ثبتك الله عز وجل بالسرور وضربها بأرجلها جوابك قبرك بامتراج القبر عن النار بضعفك . ثم توهم وهي تتأجج بحريقها . » (33) .

ويستمر المحاسني بنفس الأسلوب والنهج مشيداً بذلك صورة مشدودة إلى خطابي التهيب والترغيب ، اللذين يتضمنان

إشباعاً بالإحتمال في التوهم الذي يعطي للخطابين فرصة التناوب على وصف عالمين نقيضين كل التناقض .

أما "رسالة الغفران" فهي نص تخيلي يتأسس على مراسلة بين المعري وابن القارح ، وهو نص يجنح إلى أسلوب طريف في تخيل الأدياء والشعراء في الآخرة . ويقلد ما تزخر رسالة الغفران بهذا التوهم فإنها نص أدبي يحمل العديد من المعارف التي يؤكدتها أو يدحضها ، فتجيء "رسائله" نصاً يرتحل بالقارئ - كما في كتاب التوهم - إلى عوالم أخرى يستعيد خلالها وقائع وأحلاماً تستند إلى نصوص شعرية مفسرة ، أو تخيلات حكاية موثقة بالإبداع .

تبنى النصوص الرحلية المتخيلة عالماً خصباً ومتوعاً يقوم على نسج نصي ذي تلاوين تمهد لبناء أفكار ، أو تشكيل تأملات تتخذ أشكالاً متعددة للتعبير ، منها الحلم والجنوح إلى الماضي أو المستقبل من منطلقات مذهبية عقائدية (المنصوفة أو الفلاسفة) أو فنية أدبية (الأدياء أو الشعراء) .

ويتم التركيز في هذه الرحلات على عنصرين مكونين لصياغة الأفكار هما الفضاء والزمن مع التنوع في أساليب التناول الفني للمعالجة ، وأيضاً في طرق السرد وزواياه ، ومدونات الحفز التعجيبية عند كل كاتب على حدة .

وتبقى كل رحلة متخيلة جزءاً من نصوص الرحلة عموماً ، يسمها طابع البحث عن الأنا في الآخر والغير ، والبحث عن التطهر والخلاص للوصول إلى بديل هو يقين ما استحال وجوده في الواقع المعيني ، فتم طلبه واللجوء إليه في الحلم والتوهم .

إحالات

- 1- العبدري . رحلة العبدري المسماة "الرحلة المغربية" ،
الرياض، جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات 4، حجازية 1،
1968، ص 280 [حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي].
" ... وهذه قصيدة نظمها في الرحلة، رأيت، أن أعتم بها هذا التقييد
مستعينا بالله على ذلك".
- 2- حسين نصار : أدب الرحلة، القاهرة، مكتبة لبنان : لونجمان،
ط 1، 1991 ص. ص 101-102.
- 3- كراشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، بيروت،
لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط 2، 1987 [نقله عن الروسية صلاح
الدين عثمان هاشم] للمزيد من التفصيل انظر : ص 505، 506.
- 4- ابن فضلان : رسالة ابن فضلان، بيروت، لبنان، مكتبة الثقافة
العالمية، ط 2، 1987، [تحقيق وتعليق وتقديم : سامي النمان]
ص 40 [من كلام المحقق].
- 5- كراشكوفسكي، ص 202.
- 6- نفس المرجع السابق، ص 157.
- 7- كراشكوفسكي، ص 157.
- 8- كراشكوفسكي مرجع سابق : ص 846
- 9- محمد السيد غلاب : الجغرافيون المسلمون ودورهم في
تطوير الفكر الجغرافي، ص 139 [مقال ضمن] مؤلف جماعي :
بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول، المجلد الثالث، تحت
إشراف إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،
1984.
- 10- شاكر خصباك : في الجغرافية العربية، بيروت، لبنان، دار
الحدائق، ط 1، 1988، ص 182
- 11- محمد رشيد الفيل : أثر التجاوة في تطوير المعرفة

الجغرافية عند العرب، [مقال ضمن] (م.س) ص. ص 443-444.

12- عبد الله التيجاني : رحلة التيجاني، ليبيا، تونس، الدار العربية للكتاب، 1981 ص. ص (ح-ط)، [قدم لها : حسني عبد الوهاب].

13- حسين مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، اسبانيا، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط2، 1986، ص. ص 10-11.

14- ابن عثمان المكناسي : الإكسير في فكك الأسير، الرباط، المغرب، المركز الجامعي للبحث العلمي، سلسلة الرحلات 1، سفارة 1، 1965 :

- يورد محمد القاسي ثلاثة احتمالات أولية عن كيفية تقسيم الرحلة، سواء بالترتيب حسب العصور أو النواحي التي قصدتها أو بحسب الرحلات السرية والبحرية، أما الأنواع كما حصرها فهي 'الحجازية'، 'السياحية'، 'الرسمية'، 'الدراسية'، 'الأثرية'، 'الاستكشافية'، 'الزارية'، 'السياسية'، 'العلمية'، 'المقامية'، 'الدليلية'، 'الخيالية'، 'الفهرسية'، 'العامة'، 'السفارية' ص. ص : ح. د. د.

ومن جهة أخرى سنجده من يورد أربعين نوعا -تقريبا- : انظر تقديم محمد ابن شقرون في تحقيقه 'ابن الحاج التيمري (ق8هـ) : فيض العباب وإغاضة قلع الأداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب . (دون معلومات مرجعية) دراسة وإعداد : محمد ابن شقرون .

فيما تحول غيرهما من الباحثين إلى تصنيفات عامة ومعروفة : انظر : - أحمد الكردودي : التحفة الننية للحاضرة الحسنية بالمملكة الصنهاجية، الرباط المطبعة الملكية 1963 (في التصدير، ص5: الحجازي، السياحي، العلمي، السفاري).

- إسماعيل العربي : تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1986، ص. ص 6-7 [الرحلات الاستكشافية، العمارة، المحية].

- محمد محمددين (تصنيف) : التراث الجغرافي الإسلامي ،
الرباط، دار العلوم للطباعة والنشر، ط2، 1984، ص. ص141-
146 [الحجبة، العلمية، الإدارية والسياسية، التجارية].
- شوقي خفيف : الرحلات، القاهرة، دار المعارف، ط3-1979،
[رحلات جغرافية، بحرية، برية، رحلات الأمم والبلدان].
- المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول [م.س.] انظر المقال ضمنه :
محمد رشيد الفيل : أثر التجارة والرحلة في تطوير المعرفة
الجغرافية عند العرب ص[44]، [الحجبة، العلمية، التجارية،
الرسولية، المغامرة].
- 15- استفدنا في هذا الصدد من كتاب -
- Mary-Louise Pratt . Imperial eyes Travel writing and trans-
culturation, Routledge, London, 1992
- 16- حسين نصار : مرجع سابق، ص20.
- 17- نفس المرجع والصفحة.
- 18- كراشكوفسكي، ص284.
- 19- نفس المرجع السابق، ص158، حسين مؤنس، ص10.
- 20- رحلة العبدوي، ص7.
- 21- نفس المرجع والصفحة.
- 22- ابن قنفذ : أنس الفقير وهز الحظير، الرباط، مشورات المركز
الاجتماعي للبحث العلمي، سلسلة الرحلات2، زيارة1، 1965
[اعتني نشره وتصحيحه . محمد الفاسي، ادولف فور] ص2.
- 23- كارل سميت : أدب السفر عند هنري جيمس وأثره في فته
[ضمن مجلة الثقافة الأجنبية، معجم أدب الرحلات، بغداد، العراق،
السنة 9، العدد 3، 1989، ص90، [ترجمة بلأثيل يوسف عزيز].
- 24- جان جوليس نوديتش : الشغف بالترحال [ترجمة سمير عبد الرحيم]
ص69، نفس التمرجع السابق.
- 25- ابن هشمان المكتاسي - الإكسبر، (م.س.)، الصفحة "دال" من
التقديم.
- 26- انظر : ابن قنفذ : مرجع سابق.

وأيضاً : الهروي (ت 1166هـ، 1214م) الملقب بالسائح الهروي، له كتاب رحلي بعنوان : الإشارات في معرفة الزيارات، عنيت بنشره وتحقيقه جانت سورديل طومين، منشورات المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية، 1953، [ضمن : شاكرو خصبك : في الجغرافية العربية، مرجع سابق، يرد فيه نقلاً عن الهروي] :

«أما بعد فإنه سألي بعض الإخوان الصالحين والخلان الناصحين أن أفكر له مأزونه من الزيارات وماشاهدته من العجائب» ص 228.

27- انظر : - أحمد بن هلال التلمساني : رحلة محمد الكبير (باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الصحراوي الجزائري، القاهرة، مصر، عالم الكتب، ط 1، 1969 [تحقيق : محمد بن عبد الكريم].
- ابن الحاج التلمزي : فيض العباب وإفاحة قنابح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، (دون معلومات مرجعية) دراسة وإعداد محمد بن شقرون.

- ابن الجيعان : القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف أبو رحلة فاباي إلى بلاد الشام 1477م، ليبيا، منشورات جروس، ط 1، 1984، [تحقيق عبد السلام تلمزي].

28- انظر : عاطف جودة نصر : الخيال : مفهوماته ووظائفه. مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 1، 1984.

29- فريد الدين العطار النيسابوري : منطق الطير، بيروت، لبنان، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، ط 3، 1984 [دراسة وترجمة : بلنج محمد جمة].

30- أبو العلاء المعري : رسالة الغفران، بيروت، الشركة اللبنانية للكتاب، د.ت، [تحقيق فوزي عطوي].

31- الحارث المحاسبي (ق 3هـ) : كتاب التوهم، حلب، دار الوحي.

32- نفس المرجع السابق (ورد الاستشهاد في التقديم، ص : 10).

33- المحاسبي : التوهم، م.س. م.س. ص 3.

القسم الثاني

آليات الكتابة في
النص الرحلي

الفصل الأول

عتبات النص الرحلي

تستمد الرحلة سرديتها من عناصرها التكوينية ومن تلاحقها مع نصوص أخرى، بالإضافة إلى أنها تتضمن النص، وخارج النص أو النص الرئيسي (المتن)، ثم النص الموازي (Paratexte) الذي يتم وظيفته ويفسر ويوجه ؛ بحيث يستلهم النص الرحلي عتباته من خلال تقاطعه مع شكلين في آن واحد : التقاطع الأول مع النص السردي (السير، المقامات، الحكاية الشعبية ...) وذلك حين اختيار العنوان وبداية الحكى ؛ أما التقاطع الثاني مع كتب التاريخ والجغرافيا في تأطير النص فيحدث حين يتم تقديم الدوافع والأسباب ، وهو ما تقتقر إليه بعض النصوص السردية التخيلية .

وضمن هذا الاستلهام المزدوج تبرز مسألة تأريخ الرحلة بين قطبي الانتماء للتخييل وللقاعدة المرجعية الواقعية ، باعتبار أن

النص الموازي هو عتبة لفهم آليات أخرى في الكتابة له جسور وشرطين متصلين بالنص /المحتن، وبالوعي النقدي عند القدماء كما يحدد ذلك المفريزي وهو يتحدث عن الرؤوس الثمانية الضرورية لكل كتابة : «اعلم أن عادة القدماء من المعلمين قد جرت أن يأتوا بالرؤوس الثمانية قبل افتتاح كل كتاب وهي الغرض والعنوان والمنفعة والمرتبة وصحة الكتاب ومن أي صناعة هو وكم فيه من إجراء وأي أنحاء التعاليم المستعملة فيه»⁽⁴⁾.

عناصر ثلاثة في سياق العتبات إذن، هي العنوان والمقدمة والبداية . وباعتبارها علامات ومسارات ومشاهد لتفكيك بنية موازية للنص الرحلي وتشغل فضاءً مرئياً . وإذا كانت العتبة الأولى هي علامة تختزل دلالات النص، وتحيل على جنسه، فإن المقدمة تكون أشد ارتباطاً بالنص باعتبارها بياناً يوضح خلفيات الرحلة، وبعض الأشياء التي لا ييوح بها النص .

أما البداية، وهي الجملة الأولى في النص الرحلي، ف رغم ارتباطها العضوي بالنص، يمكن المجازفة بالقول إنها عتبة لكونها مدخل ونقطة بدء الحكيم وذات تأثير كبير على السرد في باقي النص .

إن عتبات النص الرحلي كونها علامات ومفاتيح ... فهي جمل سردية متعلقة أساساً بالبنية الدلالية للمحتن، تؤسس لمعانيه وتبحث فيها، وهي أيضاً مرآة أو مرآيا ثلاث متجاورة توجه المتلقي وتقوده إلى خيالات الواقع .

1 - **العنوان⁽¹⁾ في السرد** ، يتخذ "العنوان" في أي مؤلف وضعية أولى ضمن النص الموازي مُشكلاً ضرورية أساسية وضرورية كتابية⁽²⁾، انطلاقاً من أهمية تسمية المؤلف وتمييزه بعلامة لغوية عن غيره من المؤلفات، حتى أن كل نص -بتعبير ليو هوك- يحمل علامته التي لا تمحي⁽³⁾ ضمن اسنطيقا الشكل الذي يسمي إليه ، وقوانين العصر ، فيتشرب آثار نصوص أخرى (من نفس جنسه وغير جنسه) كما يؤسس مظهرها ووضعية خاصة به .

وإذا كانت مسألة العنوان تزداد أهميتها في الدراسات التي تنطلق من تحليلات النص الموازي فإن البحث في العنوان من خلال المحاور التاريخية يشهد رؤية مكاملة ، لأن كل نص مكتوب ، كان يحمل عنوانه ، سواء في القصائد الشعرية والمقتطفة من جملة شعرية أو مقطع معين عنواناً لها ، أو في النصوص الشعرية أو آيات القرآن الكريم ، بمعنى أن الوعي بالكتابة كان مقترناً بحركة أخرى يمكن تسميتها بالوعي التنظيمي (حركة تنظيمية) . وقد تجلّى في وضع علامة مميزة درماً لكل التباس مع نصوص أخرى⁽⁴⁾ . وينتجج العنوان في النص الرحلي ضمن عناوين السرد القديمة ؛ فكل دراسة للمتن الرحلي أو غيره لابد أن تنطلق من العنوان ، لما له من أولوية على كفاية العناصر المكونة الأخرى⁽⁵⁾ ، وباعتباره العتبة الأولى التي تحاور المتلقي ونشور إلى جنس المؤلف⁽⁶⁾ ، خصوصاً وأن عنوانه كل شكل تعبيري تشكل مدونة تضممر بوحاً بجنس ذلك الشكل ، كما

تؤسس عينا ذات شبكة مرتبطة بكل أسرار النص وعلاماته، تختزن مقصدية المؤلف ونواياه ثم وعيه الأجناسي، ومدى إدراكه للكتابة التي حررها، كما تضم نداء للقارئ¹⁷ ومرشداً له في آن.

في «رسالة ابن فضلان» تتحدد مقصدية المؤلف الذي سجل مجموع التفاصيل الكبرى لرحلته عند العقاب لتسجيلاً يبنى بأنها رسالة وتقرير رسمي لمهمة رسمية. والأكيد أن مفهوم الرسالة الذي كان قريبا من التعبير عن الرحلة وتقييداتها يرسم في ذهن المؤلف إطارا وشكلا أدبيين يتضمنان الحديث عن قضايا ومعارف من مرسل إلى مرسل إليه

يشكل العنوان، إذن، شبكة متجذرة في قطبين: الأول لغوي يجسده النص ودلالاته، والثاني نفسي تأويلي للمؤلف. كما يشكل خطابها مكتفا في جملة سردية مؤطرة للنص السرد، هي نقطة البدء بالنسبة لمسار السرد.

ومن خلال هذه الأهمية يؤسس العنوان الرحلي خصوصياته وقوانينه عبر مكوناته البنوية الكاشفة عن طبيعة بنائه، مثل علامة سردية، وتظاهراته ضمن سياقات ومستويات غير قارة.

2- أشكال وأنواع: يفتح العنوان الرحلي على مجموعة من الخصائص الضابطة التي ترسم هويته وتؤكد احتكام النص وموازياته لقوانين ومكونات ساهمت في تشكيله، وقد ساهم السرد العربي القديم في توجيه التفكير إلى أسلوب خاص في

العنوان⁽⁸⁾ يخضع إلى الثابت والمتغير ، حيث يقود البحث في الخصوصيات إلى رصد أربع حركات تحكم العنوان الرحلي :

1-2- الحركة الأولى ، وتمثلها نصوص عنونت باسم «رحلة» مضافاً إليها اسم صاحبها ، أو الجهة المتجه نحوها ، أو نوعية تلك الرحلة وصفتها .

وفي هذا السياق يلجأ الناشر والباحث إلى هذه العناوين نظراً لمباشرتها وخفتها في النطق والتداول ، فعنوان مثل «تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لابن بطوطة يتحول إلى «رحلة ابن بطوطة» على سبيل الاختصار والتواصل . أما ما يتعلق من نصوص وضعت عناوينها أصلاً بهذا الشكل فذلك بقصد تمييز المؤلف ، وتخصيص رحلته ، حتى لا تلتبس مع نصوص أخرى ذات المنطلق نفسه وأيضاً لأن إحدى وظائف العنوان هي «تسهيل القراءة وتبسيط القارئ للنص الذي يعينه العنوان»⁽⁹⁾ . وغالباً ما يلجأ الناشر إلى مثل هذه العناوين المختزلة والمباشرة عوض العنوان الأصلي المعقد ، وذلك بنسبة الرحلة إلى أصحابها الذين سافروا ودوتوا زيارتهم الحجة المفردة والوحيدة أو رحلاتهم المتعددة .

هناك أيضاً اسم الرحلة والصفة المحددة لها ، والمشكلة لمقول بتغيير الرحالة من خلاله وسم مؤلفه به ، وتوجيه القارئ إليه ، وتحقيق معنى قبل القراءة . وتقتصر هذه العناوين عادة برحلات زيارية إلى أماكن مقدسة أو أضرحة أولياء بقصد التبرك أو الاستشفاء . كما تكون أيضاً إلى الحج ، شأن عناوين للرحلات

التالية : الرحلة المقدمة لمحمد بن محمد الدلائي الفاسي (1099هـ) والرحلة الشافعية لأبي العياشي الدرعي (1144هـ) والرحلة الكبرى لمحمد بن عبد السلام الناصري (1196هـ) والرحلة المباركة لأحمد بن الحسن (1310هـ) . . وغيرها من النصوص التي تحتوي على الإغراء، والتطمين النفسي .

ومن العناوين المتداولة ارتباط اسم الرحلة بالمكان، سواء المتقلة منه أو المتوجهة نحوه، وهو عنوان مكاني، فرحلة العبدري توحى بأنها رحلة داخل المغرب، والتأويل أنها رحلة مغربي إلى الحج، مروراً بعدة مناطق إسلامية، فأسمائها «بالرحلة المغربية»، وكأنه يتوجه بخطابها عبر العنوان- إلى غير أهل المغرب ؛ أما رحلة عبد الغني النابلسي : «الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز» فإنها واضحة، لكونها توطئ اتجاه السفر، شأن رحلات علي غرار : رحلة إلى إنجلترا (1320هـ) لمحمد الغسال والرحلة إلى باريس (1262هـ) لمحمد بن عبد الله الصفار، ورحلة إلى المشرق لأحمد الشيخ الهلالي (1175هـ) .

هذا النوع من الرحلات يقترب بنوع آخر من نصوص رحلية تشير إلى النوع مباشرة، كالعديد من النصوص المعنونة بالرحلة الحجازية، أو الرحلة السفارية، أو رحلات تجمع بين الصفة والمكان مثل رحلة أبي الجمال محمد الطاهر : الرحلة الإبريزية إلى الديار البارسية (1276) .

عموماً، في هذه الحركة الأولى من العناوين، والتي تحمل
 تجنسها من اقتران العنوان بكلمة «الرحلة»، تشكل جزء كبير من
 عناوين النصوص سواء الموضوعية من طرف الرحالة أو الناسخ
 من جهة أو من طرف الناشر والقراء من جهة أخرى.
 كما تعددت في هذا الصدد، التراكيب التي تدل على غنى
 التبشيرات المقصودة:

اللازمة التجنسية	النشء العبار
رحلة	اسم المؤلف/ الرحالة
	صفة الرحلة
	اسم المكان (المنطق أو الهدف)
	الصفة والمكان
	النوع

بالإضافة إلى متغيرات أخرى تجليها نصوص مفردة.
 وتداخل كل هذه العناصر المباشرة في النص الواحد وتفاعلها،
 بصفتها عناصر أساسية ضمن مكونات الرحلة باعتبار العنوان،
 يشكل معرفة أولية توجه وترشد نحو معرفة قائمة في النص.

2-2- الحركة الثانية، وتسم عناوين بعض الرحلات التي
 تصدرتها مفردة «الرسالة»، خصوصاً في النصوص الأولى مثل:
 «الرسالة الثانية» لأبي دلف «ورسالة ابن فضلان» لأحمد ابن

فضلان. ولعل ذلك راجع إلى عدم انتشار جنس الرحلة وقتذاك، وأيضا لتداخل الأشكال الأدبية، وذيع أدب الرسائل الذي يتضمن أخبارا بوقائع بين متكلم وقارئ تباعدا في المكان. بالإضافة إلى أن الرسالة تتضمن خطابا انتقاليا من مرسل إلى مرسل إليه، بمعنى أن العنوان هو أصلا رسالة وجسر بين عالمي الحقيقة والنص⁽¹⁰⁾.

يحيل مفهوم الرسالة أيضا على التقرير، كما تكشف عن ذلك الرسالة ابن فضلان، فهي تصف رحلة رسمية في شكل تقرير وخطاب، تتناول خطوات المهمة التي تكلف بها الرحالة - الراوي. وإذا كان هذا هو المعنى الذي يمكن استشفافه من خلال نصين مشهورين فإن تقيضه، في مستوى آخر، تبوح به رحلات متخيلة، كرسالة ابن القارح ورسالة الغفران للمعري حيث تبني عوالم الرحلة في الغيب الذي يبدو مألوفا في العملية السردية، كما تقدم تقريرا عن مدى مقدرة المخيلة في إنجاز وقائع عجيبة.

3-2. الحركة الثالثة، وهي صفة «التحفة» المتداولة في عناوين رحلية شتى تعكس جنس النص، كما تحيل على دلالات متعددة يحيل بها هذا النص «فمفردة «التحفة» ترد في عناوين مؤلفات غير رحلية، لكنها ضمن الرحلات بشكل كبير. ومرد هذا أن فاعلية العنوان الذي وضعه ابن بطوطة لنصه كان تأثيره فاعلا في حقول ومعارف أخرى وامتدت في الرحلة كما توضح ذلك العناوين المسرودة تحت اسم «تحفة» في (كشف

الظنون⁽¹¹⁾، وتجليها في الأدب والرحلة والفقه والاسماء والحساب والحكم والأمثال والنحو والتفسير والقراءات والتاريخ والتصوف ...

وفي كل العناوين البادئة باسم "التحفة"، سواء المدرجة في كشف الظنون أو في المعاجم الأخرى، تظل المرجعية محيلة على المعنى العام للإتحاف والإمتاع. من تم، فإن المفردة تحصل معناها الأولي، وكلما اقترن هذا المعنى بلفظة أخرى في سياق التركيب إلا وتضاعف المعنى وتجدد؛ فالإتحاف في عنوان نص ابن بطوطة يرتبط بالمُشاهد باعتباره فاعلا، وبالمشاهدات التي ستتحفه بالغريب والعجيب وغيرهما. وهذه الملاحظة الأخيرة، تستعم على جل النصوص ذات العنوان المحيل على مايفيد الإتحاف بشكل صريح كما هو الأمر عند ابن بطوطة، أو بشكل ضمني كما هو الأمر عند المعراوي والكردودي.

إن الإتحاف وهو تسليّة للنفس لا بد له من الاقتران بحكي يتجاوز التقرير والإخبار الجافين إلى الامتاع والتعجيب إغراء للمتلقي والغناء للحدود الوهمية بين الخيالي والواقعي.

4-2 الحركة الرابعة، وتمثل في اختيار المؤلفين لعناوين بعيدة عن الاختيارات الثلاثة المشهورة (الرحلة، الرسالة، التحفة)، وذلك بالجوء إلى مفردات قريبة من معنى الرحلة، أو مرادفات يفهم منها -عبر القرائن- ما يفيد السفر، كعنوان نص ابن جبير «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»، حيث نرد كل

الكلمات تقريبا لتحيل على جنس الرحلة . أما عنوان ابن رُشيد الفهري «ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجهية إلى مكة وطيبة» ، أو رحلة ابن مليح السراج «أنس الساري والمسابر من أقطار المغارب» ، فإن مفرداتها تشكل قرائن بينة تفيد الرحلة .

وقريبا من هذه النوعية وجدت عناوين أخرى من قبيل : «ناصر الدين على القوم للكافرين» لأفوقاي ، وهي لا تحمل إشارة صريحة إلى كون الكتاب نص رحلي ، وإنما يلتقي مع عناوين عامة تتحدث عن الموضوع الذي يلمح إليه العنوان مباشرة .

وهكذا ، فإن خصوصية عناوين الرحلات ، في الأعم ، يتجلى في اعتمادها على العناوين الحاملة لقوائن جنس النص ، وهو ما يحيل على مرجعية العنوان الرحلي المؤطرة في مرجعيتين اثنتين : الأولى يستمدّها من جنس الرحلة والتناص بين النصوص ، وما تبادلته من تأثير على مستوى الشكل الفني . ومن مرجعية ثانية في النسق الثقافي العام الذي ساهم في توجيه العناوين إلى ما كانت عليه .

3- الخصائص والقوانين : تتدرج هذه العناوين بخصائصها ضمن أقسام ذات مستويين ، وذلك على غرار العنوان العربي القديم .

عناوين صفري وبسيطة وهي ما تُكوّن من كلمتين ، كالرحلة المعفرية للمعفري أو ترتيب الرحلة للمعافري . وهي مرحلة تعبر عن الوعي بأهمية العنوان البسيط ، على عكس ما قرره م . عويس

في قوله : «إن العنوان في مراحل النشأة الأولى كان بسيطاً، ثم أخذ في تجاوز البساطة الاجتماعية بعد انتشار المدونات والإتساع في التصنيف في العلوم والفنون والآداب»⁽¹²⁾.

ففي كل مرحلة كانت العناوين تتراوح بين البسيط والمركب، وليس التطور هو الذي دعا إلى التركيب، وإنما الرغبة في إعطاء عنوان مضموني مسجع ومكتمل على غرار العناوين الأدبية. ثم إن العناوين البسيطة والصغرى كانت أكثر ذيوفاً، بل إن العديد من النصوص ذات العناوين الكبير والمركب لجأ أصحابها، أو القراء، إلى اختصارها، مثلما وقع مع نص ابن بطوطة الذي يُشار إليه برحلة ابن بطوطة حيناً، وبالحففة حيناً آخر.

ومن مميزات العنوان التقليدي وقوانينه الطول والمضمونية والتسجيع، وهي عناصر كانت لها شروطها التاريخية والثقافية؛ ذلك أن حضور المضمون والسجع في العنوان يستدعي ضرورة- عنصر الطول، من أجل الوضوح والإغراء، واستيعاباً لاتساع مضمون الكتاب وقد «أصبح يدور في أكثر من مضمون في عنوان واحد حتى يكون العنوان دالاً على ما عنون»⁽¹³⁾. ففي عنوان نص ابن بطوطة : «تحفة النظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، والمتكون من ست كلمات، تشكل فيها الكلمة البداية النول الذي يقف على دعامتين هما : الغرائب والعجائب، ثم الشخص «الناظر» المتوجه إليه بهذا التسجيع السردى، فضلاً عن جرس الجمل الثلاث المسجعة على حرف الراء. والشيء نفسه

في جُمُعَتَي عنوان رحلة ابن جبير : «تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار»، حيث المضمون هو التذكير بمعلومات إخبارية معلومة ومجهولة (تاريخ وجغرافيا) تتمثل في مشاهدات المارد أما الشطر الثاني فهو يماثل كلمة الأخبار في الجمع ومزج مضمونها الذي هو حول اتفاقات الأسفار ، أي أن النص هو عبارة عن مجموعة من الأسفار يقع التذكير بأخبارها . على أن مثل هذا العنوان يمتح مفرداته بدقة شديدة، حتى أن كل مفردة لها مدلولها المرجعي في الفقه أو الاجتماع أو الأدب (تذكرة . الخبر . اتفاقات . السفر) .

وترد للعنوان، أيضا، بنية معقدة نتيجة إيراد مجموعة من المفردات في سياق تركيبي طويل واختياري كما هو الشأن في نص رحلة ابن أبي محلي : «الإصليت الخريت» إذ يشير إلى عنوان رحلته قائلا : «قد سميتها عذراء الوسائل ، وهودج الرسائل ، في مرج الأرج ، ونقحة الفرج ، إلى سادة مصر وقادة العصر أو اصليت الخريت في قطع بلعوم العفريت النفريت»⁽¹⁴⁾ .

إن العنوان في الرحلة هو علامة إخبارية تقدم تلميحا لمضمون المؤلف في جملة أو جمل متعددة مرتبطة فيما بينها ، وقد تتضمن صيغة أخرى غير الصيغ المألوفة ، وذلك بوجود عنوان رئيسي وآخر فرعي شارح ، مثلما هو الأمر بالنسبة لعدد كبير من النصوص السردية القديمة التي تستعين بعنوان فرعي في شكل فقرة مفسرة «تعمل على إتمام وتدقيق أو تصحيح المعلومة»⁽¹⁵⁾ ، ويمكن حصر انتظام هذه العناوين في أربعة أنواع مهمة :

أ- العنوان الذي يحيل على اسم المؤلف، ومن خصائصه أن يكون جملة واحدة تتكون من كلمتين : رحلة + اسم المؤلف : رحلة العبدري، الرحلة العياشية، رحلة ابن جبير ...

ب- العنوان الذي يحيل على اسم المكان، وهو شائع في تعيين أماكن الانطلاق أو أماكن التوجه، والتي غالباً ما تقتصر بالرحلات الحجية، فيما يلاحظ غياب عناوين ذات البنية الزمنية .

ج- العنوان الذي يحيل على الحدث، وفي هذا الجانب يتم التركيز على ما سيقدمه النص من متعة وتخيل (تحفة النظر...)، وهو إذ يحيل على الحدث يمارس نوعاً من التلخيص والإغراء.

د- نوع آخر من العناوين التي لا تنتظم في المخانات الثلاث السابقة وتمارس نوعاً من الغموض : «إصليت الخريت» ، أو التعقيد الذي يقصد من ورائه دلالة معينة كامنة في النص . وهناك عناوين أخرى هادئة، وفي هذا السياق يمكن التعليق على عناوين هذه المخانة بأنها غير متأثرة بعناوين الرحلات، ولا تحمل، في أول قراءة، الإيحاء بأن النص رحلة، ويمكن أن تكون متناصدة مع عناوين المرحلة مثل رحلة : «ناحصر الدين على القوم الكافرين» التي تحيل، في البدء على مؤلف ديني بحث على الجهاد، على غرار عناوين أخرى تحيل على حقول كانت مهمة لحفظها:

تتحقق، إذن، ثلاث وظائف يحددها شارل كريفيل في (16) : التسميائية والتعينية والإشهارية، بهذه الصورة أو تلك، وتحقق بالدرجة الأولى الوظيفة الإخبارية رغم كون أغلب العناوين اسمية وذات تركيب متراوح بين البساطة والتعصم .

والعنوان الرحلي بحمولاته المرتبطة بالنسق الثقافي محكوم بوظيفة توجيهية وتأطيرية ، وخصائص متقاطعة مع بنية العنوان في السرد الكلاسيكي عامة ، فهو «ضمنيا يستدعي مجموعة معارف يفترض أن يمتلكها القارئ»⁽¹⁷⁾ من خلال تعايشه الثقافي المتنوع .

II . خطاب التقديم وتأطير النص

1- المقدمة والنص : يشكل خطاب التقديم داخل النص الرحلي عنصرا بنائيا ، لما يتضمنه من أسس وعناصر تمهيدية لتأطير النص ، إضافة إلى أسئلته الخاصة المتعلقة بالجنس ، وبعض قضايا الكتابة عند المؤلف ، بما فيها رؤيته وطبيعة فهمه للعديد من آليات الإبداع .

إن التقديم ، بهذا المعنى ، جهاز ووثيقة حول الجنس⁽¹⁸⁾ مرتبطة بالنص ، لا توجد إلا بعد الانتهاء منه ، وتضمن عناصر قبل تدوين النص ، وأخرى بعد كتابته ؛ أي ما يتعلق بالشكل التعبيري عامة ، ونصه الذي يندرج ضمن نفس الإطار والتصنيف .

وقد اعتبر التقديم في النصوص الرحلية ضرورة واجبة أكثر منها في أشكال أخرى⁽¹⁹⁾ نظرا لطبيعة النص الذي يحتاج إلى تقديم بعض المعلومات والافتصاحات حول الرحلة وأحيانا لتبريرات معينة . ومن زاوية ثانية ، التفاعل بين الرحلة بوصفها شكلا ضمن حقول متعددة ، أقربها إليها : المدونات الجغرافية والتاريخية التي لا يمكن أن توجد دون تقديم . من ثمة ، فإنه يندر وجود نص رحلي دون تقديم أو تمهيد ، لأنه قطعة أساسية من النص السردى الرحلي ، يقرب طبيعة الجنس من المثلي . وقد

يتدمج التقديم في الصفحات الأولى من النص كما هو الشأن في الإلياذة والأوديسة⁽²⁰⁾، وفي رحلات أخرى على غرار نص ابن جبير الذي تندمج فيه المقدمة بالنص، بحيث يشير إلى تاريخ التقييد والمكان والقصص، ثم إلى الرحلة بشكل مباشر وكل ذلك متصل ومختزل يجعل عنصر الاختزال والتدقيق في التواريخ عبر المراحل مهيما على مجموع النص.

إن التقديم خطاب حول نص⁽²¹⁾ يتشكل من عناصر تتوجه إلى المتلقي لتهيئته و«توجيهه» سواء بتمهيد أو مقدمة تخبره بجوهر المؤلف وظروف تحريره ومراحل تكونه⁽²²⁾. كما تقدم طريقة عمل الكتاب بتعبير نوناليس. وفي كل الحالات لا يمكن العثور على أكثر من ثلاثة أشكال مقدماتية تصوغ خطابها :

أ- مقدمات مرتبطة بالنص الرحلي تذكر أسباب ودواعي الرحلة، بعض المواضيع أو الموضوع المهيمن، وهو نوع مرتبط بخارج النص، وظروف تكونه أكثر من ارتباطه بداخل النص. وفي هذا الإطار تجيء رحلات العبدري وابن بطوطة والفوقاي للتعبير عن مثل هذه المقدمات. وتحدث ابن معصوم المدني عن هذه الأسباب قائلا : «فأزمنت على أن أجمع ما وقع لي من ذلك رحلة تكون لأولي الأسباب من ذوي الآداب نحلة وأثبت فيها ما وقفت إليه إلى أن يمن الله سبحانه بالعمود إلى الوطن والأوب إلى العطن وأورد خلال ذلك من الطرائف المستطرفة والظرائف المستطرفة وما يروق النواظر، ويجلو صدى الخواطر وتقرط به

المسامع ويضطرب له الناظر والسامع فإذا أشرق من أفق الكمال
بلورها المنير وتفتق عن حجب الكمام زهرها النضير سمعتها سلوة
الغريب وأسوة الأريب»⁽²³⁾.

ب- مقدمات تقدم ملخصا للرحلة، بالإضافة إلى أقسامها
على غرار ما فعله عبد الغني النابلسي في رحلته «الحقيقة والمجاز
في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز».

وترتبط هذه المقدمات بالنص بشكل مباشر من حيث عرض
مضامينه وفصوله. يقول صاحب 'ملتقط الرحلة من المغرب إلى
حضر موت'، بعد عرضه لمقدمة من سبع وعشرين صفحة عن
سيرة الإمام إدريس الأكبر وخروجه إلى المغرب أيام هارون الرشيد
وقيام الأدارسة في المغرب وانتسابه إليهم: «وهذه المقدمة ذكرتها
توطئة لما بعدنا من أسباب نقلتي من بلاد المغرب إلى الجهات
اليمانية والجهات الحضرية وذلك لطول سفري، وخفت فجأة
العوت بغتة فأردت أن أذكر في سبب مسيري من بلاد المغرب إلى
بلاد المشرق»⁽²⁴⁾.

ج- مقدمات تبسط لموضوعها بالبسملة، ونترك المقدمة
للجواب عن سؤال أو الدفاع عن فكرة يتوخى المقدم من ورائها
توجيه المتلقي إلى قراءة معينة باعتقاد معين، كما فعل ابن جبير في
بسملة التي جعلها جزءا ملتصقا مع النص بتكثيف العديد من
الأحداث المرتبطة بصلب الرحلة، دون حاجة منه إلى مقدمة.
أما أبو حامد الغرناطي فيجعل البسملة تمهيدا أوليا للرحلة التي
تضم مقدمة اعتبرها ضرورية للنص حيث سيعرض في بسملة.

أسباب التأليف ومضامين مؤلفه وترتيب كل ذلك، أعلى مقدمة وأربعة أبواب، المقدمة للبيان والتمهيد، والأبواب لتسعة المقصود⁽²⁵⁾.

فضلا عن كل هذا، فإن خطاب التقديم وما ينضمه من عناصر يمكنها تأطير النص، وإضاءة بعض جوانبه ومساراته لفهم قضايا مرتبطة بالكتابة والتخييل في الرحلة يحبل بأسئلة لا متتهية من قبيل المسافة بين التقديم والنص، ووظيفة الخطاب، ثم حدود اشتغال المتخيل.

2- مظهرات الوصي بالكتابة الرحلية، باستثناء

الخطاب المقدماتي الذي اشترك في كتابته المؤلف الرحالة ابن بطوطة والكاظم ابن جزري في «تحفة النظائر» فإن كل المقدمات الأخرى تكون على لسان المؤلف - الرحالة الذي يحتاجها تمهيدا للأحداث، وتأطيرا للقارئ المفترض، وسيرا على سنة ضرورية في الكتابة الثرية. والمسافة بين المقدمة والنص الرحلي مسألة بالغة التعقيد لأن تواجدها بين دفتي كتاب يشكل جزءا كلياً ومتكاملاً، لكنه، رغم ذلك، تبقى بعض الفروقات الدقيقة التي تؤسس للمسافة بينهما. فالمؤلف في النص يتخذ وضعية الراوي والفاعل: أي ذاكرة تستعيد ما التقطته من مشاهدات وسماع وتخيلات. أما المؤلف في المقدمة فإنه يتحول إلى «ناقد» وعارض يتحدث عن صناعة الكتابة والفعل المحقق لها (الرحلة)، وأسباب كل ذلك.

والمؤلف في النص الرحلي يقدم رؤيته ويبي صرحها، أما في

المقدمة فهو يغري بها ويدافع عنها لإقناع المتلقي . وفي
الوضعيتين معا يتحدث المؤلف عن فعل وعن خطاب حول حكمي
الفعل ، مما يحقق مسافة بين الخطاب والنص يكون التفاعل
بينهما قويا ومستمرًا .

وإذا كانت وظيفة الخطاب المقنعائي هي إضاعة النص
الرحلي فإن فعل الإضاعة يتجلى في البحث عن إغراء وإقناع
المتلقي بالنص من خلال البيان والتوضيح .

في خطاب الغرناطي ، يؤكد على أن «المقدمة للبيان
والتمهيد»⁽²⁶⁾ ، أما جانب الإغراء فيتحقق بأسلوب إقناعي عبر
التركيز على عجائب المخلوقات محور أسفاره وموضوع مؤلفه
من منظور ديني : «وأظهر في الأفاق من عجائب المخلوقات ما
تكمل الأفهام عن إحصائه وتقديره وكل بالتماسه من خصه بتأنيده
وتسديده»⁽²⁷⁾ ، كما يستشهد لرأيه بآيات قرآنية وآيات شعرية في
الموضوع . الوجه الثاني لهذا الإغراء بالإقناع ، هو الحجاج مع
مُتلِق مفترض يكرر هذه المعجائب ، فيقطع بتفنيد إنكاره وتحقيره :
«فالمعاقل إذا سمع عجبا جائزا استحسنته ولم يكذب قائله ولا
هجته ، والجاهل إذا سأل ما لم يشاهد ، قطع بتكذيبه وتزييف ناقله
وذلك لقلة بضاعة عقله ، وضيق باع فضله»⁽²⁸⁾ .

وتأسيسا على هذا البناء الخطابي الذي يعمل على رسم مسار
الإغراء والإقناع فإن مسألة الدفاع عن بنيات النص وخطابه تبقى
حقيقية بالفحص . خصوصا حينما تؤسس جل الخطابات
المقدمائية لواقعية الرحلة ، والدفاع عن العجائبي وكل

المشاهدات الغريبة . فإذا كان أبو حامد الخرناطي يكتب خطاباً من جزأين يرد فيه على غير المصدقين بالعجائب التي يوردها فإن ابن بطوطة وعبد الغني النابلسي قد سعيوا إلى تثبيت ذلك في العنوان بالإعلان عن قصدهما منذ أول جملة سردية .

هل يعني المؤلف/الرحالة في خطابه المقدماتي النوع الأدبي الذي يكتب فيه ؟ .

إنها مسألة بالغة التعقيد ، مرتبطة بالوعي النقدي للمؤلف . ولكن الواضح أن جل الرحلات تستلهم أهم مكونات الرحلة بوعي أو بدون وعي ، وهو استثناء في أشكال التعبير ، لأن " الرحلة " هي مفهوم يجد تحققه في الواقع ، أي أن الرحلة توجد ، نسبياً ، ولو بدون تدوين . لأنها فعل وتجربة ، إضافة إلى الاحتمالات عكس اليوتوبيا ، أو أي نص تخييلي حيث الفعل كامن يتخلق من الاحتمال ، وهي تقديرات نسبية تتفاوت من نص لآخر .

من هذه الزاوية فلأن مسألة إنكسار الجنس الذي يكتب فيه النص أمر بديهي ، لأن المؤلف يلجأ إلى تدوين رحلة قام بها (أو سمع عنها) في تقييد كرونولوجي يسرد المشاهدات بطرق وصيغ معينة .

لهذا فإن ورود كلمة (رحلة) أو (سفر) أو (مشاهدات) في المقدمات من الأشياء المسلمة ضمن البناء العام للخطاب حيث تخضع المقدمة في أنواعها المرتبطة بالنص الرحلي إلى مجموعة من القوانين الداخلية التي توطرها ، شأنها شأن المؤلفات الأخرى حيث تبدأ معظم الكتب الإسلامية بافتتاحية تأتي بعد البسملة والحمدلة ، وفي بعض الأحيان بدون عنوان كما هو الشأن بالنسبة

للطبري . وأحيانا يعنون لها المؤلف كما فعل المسعودي : «باب ذكر جوامع أغراض الكتاب» . أما ابن خلدون فلم يعنون لها بعد البسملة .

وقد عرفت هذه الافتتاحية بخطبة الكتاب ، والخطبة كما جاء في التهذيب ، مثل الرسالة التي لها أول وآخر ، فهي في صدر الكتاب رسالة يوجهها المتكلم إلى المخاطب ، ليقدّم لها ويشرح الغرض من تأليفه الكتاب والسبب في وضعه⁽²⁹⁾ ، في حين تلجأ الرحلة في بدايتها إلى البسملة والتركيز على الحمد لله وإبراز عظمت⁽³⁰⁾ في صنع الكون وإبداعه ، وكشف أسرارهِ الكثيرة ، وذلك لإرباط المؤلف الرحلة برحلة ميكتشف من خلالها بعض خفايا الكون .

- «الحمد لله الذي أبدع العالم علما على توحيده ، فشهد كل موجود بوجوده ، ودلت كل نعمة على كرمه وجوده ، وسخر السموات بأصناف جنوده وأمرهم تسبيحه وتقديسه وتمجيده ، وأمكن الأرض من شاء من عبادهِ»⁽³¹⁾ .

- «الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها مسبلا فجاجا ، وجعل منها وإليها قاراتهم الثلاث نباتا وإعادة وإخراجا . دحاها بقدرته فكانت مهادا للعباد ، وأرسلها بالأعلام الراسيات والأطوار»⁽³²⁾ .

وتتنوع هذه التقديسات بشكل آخر عند عبد الغني النابلسي الذي يقف بعد البسملة والحمدلة ثم الصلاة على النبي ، فيورد مجموعة من الآيات والأحاديث الشريفة حول السفر والسير في

الأرض، وهو شكل من أشكال تبشير الأرض، والاهتمام الإلهي بها. وبالتالي فالسير فيها سفرًا تلبيةً لنداء مقدس وتطهير للنفس والذاكرة.

نوع آخر يتمثل في الدعاء الذي يفتتح به قبل مباشرة الحديث عن الذات والرحلة، وذلك بتقديم الأسباب المتعددة بحسب تعدد الرحلات، أو تقديم تلخيص عنها، أو أفكار أولية عن محاورها. إن الأسباب الداعية لإشهاد «بؤطر القارئ للتصديق على النص والإشارة إلى نوعيته؛ فالرحلة السفارية الرسمية من أسبابها - أنها انتداب وأمر، كما الأمر عند ابن فضلان وأفوقاي :

- «وكان السفير له تلخير المحرمي فتدبت أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدى إليه، والإشراف على الفقهاء والمعلمين»⁽³³⁾.

- «... وأسفر نظرم أن نمشي بأصحابهم وأعطانا للسلطان كتابه وذهبنا إلى أسف : هي مدينة على البحر المحيط وفيها ركبتنا، وبلغنا إلى بلاد الفرنج، ووقع لي كثير مع علمائهم من القسيسين والرهبان والقضاة في شأن الأديان»⁽³⁴⁾.

أما الرحلات الأخرى الحجية أو الزيارية أو السياحية فإنها تجيء هرباً، أو تصديقاً لرؤية، أو حلم من جهة، أو رغبة في التطهر والتنفيس من جهة أخرى.

وإذا كان العبدري ممن لم يورد سبباً واضحاً في ذهنه غير الرغبة في حج بيت الله الحرام فإن ابن بطوطة يتحدث عن سببه على لسان ابن جزى موضحاً : «وهو الذي طاف الأرض معتبراً، وطوى الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم وسير سير العرب

والعجم⁽³⁵⁾. وواضح أن هذا الكلام لا يُدقق في استعراض النوافع التي يمكن استشفافها عند أفوقاي أو عند العبدري بشكل صريح من النمط الرحلي.

وقد عرض الرحالة عبد الغني النابلسي، لنوافعه بوضوح تام، قائلا: لقد كنت فيما تقدم من الزمان، مع جملة من الأصحاب والإخوان، أتمنى الاستيعاب في زيارة الصالحين من الأحياء والأموات، والتجرك بنفحات مجالسهم وهاتيك الحضرات ويكون ختم ذلك بالحج الشريف وزيارة النبي []، في ذلك البلد المنيف، إلى أن هيا الله تعالى لنا الأسباب وقطع عنا العوائق وفتح علينا الباب⁽³⁶⁾.

يتضمن خطاب التقديم مستوى النوافع التي تتنوع بنوع المقدمات، وأنواع الرحلات، بين سبب خارجي، وعادة ما يكون سفاريا، وسبب ذاتي ديني كما هو الحال في زيارة الأولياء والصالحين، ثم سبب خارجي وذاتي هو الهروب من مكان إلى آخر نتيجة أوضاع سياسية محددة أو غير سياسية.

وتشمل المقدمات، فضلا عن كل ما سبق، تأثيرًا بلاغيا، واعتناء بالأسلوب الذي قد لا يشبه أسلوب كتابة النصوص باعتبار أن المقدمة فاتحة الكتاب. من ثمة جاء الاعتناء بإيراد مجموعة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، وبعض الأشعار المدعومة للموقف. كما أن بعض الرحالة يعتمدون إلى التقديم المسجع على غرار مقدمة ابن بطوطة، وعبد الغني النابلسي، والعبدري. فيما خلت رحلة أفوقاي من السجع والأشعار.

3- هوية الخطاب المضمرة : تشكل هوية الخطاب

المقدماتي من عناصر أخرى ، من بينها ثلاثة مستويات مضمرة يرى هنري متران في دراسته للخطاب المقدماتي⁽³⁷⁾ أنها تتربط في حلقة واحدة .

3-1- المستوى الأول : بنية الضمير : ترسم بنية

الضمائر في الخطاب المقدماتي الرحلي مرآة أولية لفهم طبيعة اشتغال الذات/الأنأ في النص ، خصوصا حينما يتعلق الأمر بنص شخصي ينبنى على فعل وسلوك واستيهامات ذاتية .

وهذه البنية بنية بسيطة وغير معقدة ، تحكمها بعض الثوابت ، فيما نجد مقدمات يختفي منها ضمير المتكلم متواريا لصالح ضمير الغائب الذي يخبر عنه وهي مسألة لا تقتصر على نوع دون آخر ؛ ففي (رسالة ابن فضلان) لم يرد ضمير المتكلم إلا في فقرتين اثنتين :

- فقلتُ أنا لقراءة الكتاب عليه وتسليم ما أهدي إليه والإشراف على الفقهاء والمعلمين» (ص 68) .

1- ... وأنا معهم -على ما ذكرت- فسلمت إليه الهدايا ، له ولا مرأته ولا ولاده وإخوته وقواده ، وأدوية كان كتب إلى "نلير" يطلبها» (ص 69) .

ينما يشغل ضمير الأنأ في خطاب "ناصر الدين" جل الفقرات . لكن المسألة في مقدمة (التحفة) لابن بطوطة مختلفة ، لأن الحديث عن ذات المؤلف/الرحالة غائبة في ضمير الغائب ، ربما للالتباس الذي جعل العديد يعتقد أن ابن جزري هو الذي قام

بصياغة التقديم والنص ، فجاء الحديث عن الذات من منظور شخص آخر يحكي .

ويمكن تمحيص بنية الضمائر في خطاب النابلسي بشكل مدقق ، لأن المخاطب الذي يتوجه إليه الخطاب ليس واحدا متجانسا ، بل متعدد الأطراف ، وفي كل لحظة تتخذ الأنا تموضعها مع شكل التلقي .

بالنسبة للبسملة والحمدلة والدعاء فإن الخطاب فيها يتوجه إلى الله ، وتكون الأنا فيه غائبة نهائيا ، متخفية وبمعية ، إنه خطاب تقليدي للإستغفار ، عبره يتم تنبيه الذات إما بالدعاء أو بالآيات القرآنية التي تتوجه إلى الإنسان لوعظه وتقويمه .

ويتضمن هذا الخطاب التقليدي الموروث نية عميقة تتويج الذات فيها متكلمة ومستقبلة ، ويكون الله فيها قطبا عاما . كما يتم اللجوء إلى صيغة مشهورة في المفاحات الكلاسيكية وهي أن تتحدث الذات بضمير الغائب لتقديم نفسها وصفاتها العلمية وبعد ذلك يتابع بضمير المتكلم .

- «وبعد فيقول العبد الفقير الى الله تعالى - الراجي عفوهِ وخفرانه ورحمته ، بشفاعه نبيه المذكور في كُتبه ، وأفضلها كلامه العزيز في قرآنه : من نعم الله تعالى أن جعلني مسلما في بلد الكفار»⁽³⁶⁾ .

- «يقول العبد المذنب المستغفر الفقير إلى الله تعالى محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدوري عفا الله عنه .

أحمد الله حمد معترف بالتقصير عائد بوجهه الأكرم وجلاله
الأعظم من سوء المصير ...» (39).

- «أما بعد، فيقول شيخنا وأستاذنا بركة الأنام وعمده الخاص
والعام [...] لقد كنت فيما تقدم من الزمان من جملة الأصحاب
والإخوان أتمنى الإستيعاب في زيارة الصالحين من الأحياء
والأموات» (40).

هذه الصيغة - الطريقة، والتي قد تأتي في بداية المقدمة أو في
وسطها تكشف عن تهويل الذات للخروج من تخفيها والتعبير عن
وجودها ثم أسبابها.

عند النابلسي يبدو الفرق واضحاً بين الذات من خلال
تعبيرين: تعبیر "نحن" الممثلة للآخرين عن الأنا، ثم
تعبير المتكلم؛ ففي الأول يتم الإفصاح عن رصيد اللات من
الإكبار والإجماع والعلم، وذكر أصول الذات الممثلة في
جلود مشهورة.

لكن، مع تحول الخطاب من صيغة "نحن" التي تُعبر عن
الأنا إلى المتكلم تنقلص الإضاءة حول الذات لتشتت نحو قضايا
أخرى، مع العلم أن الفقرة الأولى هي جلد ماسيأتي من كلام.

في "الحقيقة والمجاز في رحلة الحجاز ... " تصوير بنية
الضمائر معقدة لأنها لا تتضمن غير فعلين بضمير المتكلم المفرد:
«لقد كنت فيما تقدم من الزمان» (ص 37). أما الضمائر الأخرى
فجاءت بنفس الضمير الجمعي تعبيراً عن "نحن" معينة في أفعال
كثيرة ومختلفة تعبر عن وضعيات شتى. وهي مسألة تؤشر على

التناوب بين الأنا والنحن ؛ ذلك أن المتكلم الجمعي الذي يتحدث عن ذات المؤلف متقمصاً أصواتاً أخرى لتبشير هوية المؤلف/ذاته هو من حرك الخطاب إلى الصوت المتكلم المفرد في حركتي الكينونة والتمني (كنت، أتمنى) ؛ ثم تحول ثالث إلى المتكلم الجمعي في صورة مهيمنة ذات خطاب يتجاوز التقديم والإخبار كما يحدث في الضمير الأول . ويتخطى الكينونة والتمني ، كما يحدث في الضمير الثاني ، وذلك للمخلص إلى متكلم جامع للثنتين (النحن والأنا) يعبر عن الفعل من خلال سرد الأسباب وخلاصة الرحلة .

تفاعل التناوب الثلاثي دائرياً بين ضمائر بمتكلم واحد في وضعيات مختلفة ، ومخاطب متعدد يتحول إلى مرآة بثلاث زوايا تضيء الذات وفعلها ، وتعمل بالتالي على تشكيل رؤية خلفية تتوجه إلى متلقي النص . ويبقى السؤال مطروحاً بخصوص مدى انعكاس هذه التحولات في الأنا داخل النص ؟

بليهي أن المتكلم في المقدمة الرحلية هو نفسه الذي يتحكم في السرد بنفس الضمير وينفس التناوب كما في رحلة ابن بطوطة ، أو بالإقتصار على ضميري المتكلم والغائب على غرار ما في «ناصر الدين على القوم الكافرين» ، أو الجنوح إلى ضمير المخاطب في الأعم في (تحفة الألباب) للفرناطي .

هذا التنوع في الضمائر تستتبعه ضرورات النوع والكتابة . لكن الأمر في (الحقيقة والمجاز) أن الضمير في النص الرحلي يبدأ وينتهي بالمتكلم الجمع ، مما يفيد أنه يقصد ذاته

بأسلوب الاحترام، ثم الابتعاد عن حرج الأنا المفرد، مما يفسر أن "النحن" التي استعملها في خطاب التقديم هي "الأنا" المعقنة في الجمع.

لا تخلق بنية الضمير الزمني في الخطاب المقدماتي أجوبة بخصوص النص الرحلي بقدر ما تؤسس لتأويلات حول طبيعة المتلقي والساود وما يفرزه من تناوب بين الضمائر وامتدادها في النص، لكن بتكس أحر متحول إلى وضعية أولى بعد أن احتل الضمير في المقدمة وضعية ثانية، لأنه خطاب حول النص.

ويكشف هذا التحول أن ضمير التقديم هو ضمير «وعي نقدي» يحقق بينه وبين «أنا» الساود الذي هو «وعي إبلاعي» مسافة متحركة تبعد وتتناخل، إنها مثل مسافة المرأة التي تقف عن بعد من الشيء الذي تعكسه، ولكنها في الآن ذاته تتضمنه.

2-3- المستوى الثاني: بنية الزمن: يصعب وجود زمن خالص، كما يصعب تحديده والنفاد إليه، ذلك أن الماضي ليس ماضيا كلياً، والحاضر نسبي، وأيضاً المستقبل؛ فكل واحد يحتوي الآخر بنسب متفاوتة.

وفي النص الرحلي يبدو، ظاهراً، أن الزمن الماضي الذي «انتهت» أفعاله هو المهيمن... ولكن المسألة في العمق أبعد من هذا، لأن تأثير فعل السفر لم «يته»، وإنما دينامية الفعل هي التي جعلته يخلق ويحقق رهيباً متحولاً إلى الحاضر والمستقبل. من ثمة، فإن الحكيم عن الماضي في رحلة حجية هو نفسه حكيم عن الحاضر في ذات الوقت، لأن هذا الماضي أعاد تشكيل وصوغ تفكير ورؤية المؤلف الرحالة.

تحكم بنية الزمن في الرحلة ثلاث لحظات أساسية :
 - وقوع الرحلة في زمن معين (الزمن الأول).
 - التفكير في تقييدها أو روايتها (الزمن الثاني).
 - كتابتها، أو روايتها عبر عمليتي التذكر والتخيل (الزمن الثالث).

بعد ذلك يأتي الخطاب التقديمي، وهو آخر ما يكتب، فيجمع هذه الأزمنة الثلاثة في زمن واحد هو الماضي الذي يحتوي ثلاث طبقات زمنية متداخلة تشكل طرماً⁽⁴¹⁾ مرآياً تقرأ فيه ومن خلاله كل الأزمنة والأفعال.

وإذا كان هنري متران قد أكد على أن الزمن الحاضر هو المهيمن في المقدمة بخصوص النصوص الحديثة فإن هذا الحكم لا ينطبق على مقدمة النص الرحلي، أو النصوص السردية الكلاسيكية لأن بنية الماضي تبقى متجذرة في الوعي والوجدان، حتى يبدو أن كل رحيل معين هو سفر إلى ما مضى ما مفقود يراود التواصل معه والدخول فيه.

في نص «ناصر الدين على القوم الكافرين» ينسج الماضي في الخطاب التقديمي لوحة إيهامية سرعان ما تتبدل إلى تحيين للراهن، فيبدو الماضي جزءاً من اللوحة :

«هنا أسرع بعون الله أكتب في هذه الورقات ما وقع لي من المناظرات وكل مسألة ألهمني الله تعالى بالجواب عليها في الحين على البديهة، وأذكر نصوصاً من الكتب»⁽⁴²⁾.

يعمل أفوقاي على الجمع بين حاضري التلوين (الكتابة) لوقائع

مضت، بحيث يصبح الحاضر متضمنا لماض متحكم فيه عن طريق التذكر، وهي خاصية في جل مقدمات النص الرحلي مع تفاوت قليل في "الرحلة المغربية" للمبدري، حيث ترد عنده جملة تكسر القاعدة: «ويعد، فإني قاصد بعد استخارة الله سبحانه إلى تقييد ما أمكن تقييده- ورسم ما تيسر رسمه وتسليده»⁽⁴³⁾. إنه يشير إلى أنه لم يكتب رحلته بعد، وإنما سيأثر تلويثها بعد إنهاء تقليده، وهي إشارة لن تصمد أمام قوة زمن خاص يعتقد ويدافع عنه في المقدمة والنص، لأنه بالإضافة إلى تلميحنا إلى الحاضر في إشارة عابرة يؤسس لزمين مركزيين متناقضين، من جهة هناك الزمن الماضي-المضيء الذي تجسده العهود الأولى من الإسلام حيث شد رخاله للدخول فيه وفي آثاره، والانتفاء بمن يجسدونه، ومن جهة ثانية هناك الزمن الحاضر المعلوم في رأيه وعلى حد تعبيره: «وقد تعطل من هذا العصر موسم الأفاضل وتبدد في كل قطر نظام الأفاضل»،⁽⁴⁴⁾ أو قوله شعرا في موقع آخر:

قل لأهل الزمان حاشاك أصبحوا فيه من مساو وسواء⁽⁴⁵⁾

إنه تعبير عن الارتباط بالماضي الذي يحتوي المستقبل، ويدفع بالحاضر إلى أحد الطرفين، وكأن الرحلة هي بحث 'أسطوري' عن الزمن الآخر المفقود في الزمان، وهو ما يؤكد وجود بنية زمنية مطلقة، أو غيبية في الخطاب المقدماتي تتمثل في الحديث- أثناء البسملة والدعاء- عن قدرة الله، ويدفع صنع الكون⁽⁴⁶⁾ في زمن محقق غير محدد في الماضي، مقابل زمن

محقق آخر غير محدد في المستقبل لحظة الحديث عن القيامة والعاقبة، خصوصاً في النصوص الخيالية.

تستطيع بنية الماضي أن تستولد أشكالاً زمنية مرتبطة لها ما يفسرها ويدعمها في النص الرحلي؛ فعند ابن بطوطة يحضر الزمن التاريخي في الماضي القريب والحاضر، ويربطهما من خلال استعراضه لقوة زمن أبي عنان (ص 30)، كما يحضر ماضٍ آخر يتضمن حاضره الشخصي والمجتمعي، مما يجعل الاستنتاج قائماً على أن بنية الزمن في الخطاب المقدماتي الرحلي متنوعة ومختلفة تتخذ شكلاً ظاهرياً عاماً هو الماضي المتضمن لأكثر من ماضٍ واحد وأكثر من حاضر أو مستقبل، وذلك بين أزمنة سياسية وثقافية واجتماعية وتاريخية وأسطورية وغيبية وشخصية ...

3-2-1- الزمن المرآوي في "الحقيقة والمجاز":
تتميز مقدمة رحلة "الحقيقة والمجاز". لعبد الغني النابلسي ببنية زمنية متنوعة مفتوحة، تتيح التمييز بين مستويين:

مستوى لازمني وآخر زمني في الصيغة الأولى يخفت الزمن ويتبدد في اللامحدد واللامتعيين، ماضياً أو مستقبلاً. وهو ما تجلي في الفقرات الخاصة بالدعاء واستعراض ما قيل عن المقر فاعتباره توجيهاً دينياً، من خلال الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية، وأيضاً في خاتمة المقدمة من دعاء يفيد المستقبل (ص 40).

هذه الفقرات اللازمة هي التي تُؤطر البنية الزمنية الواضحة والمترابحة بين الإشارة إلى الماضي والحاضر:

«لقد كنت فيما تقدم من الزمن مع جملة من الأصحاب

والإخوان [...] إلى أن هيا الله تعالى لنا الأسباب [...] ولمعت
بيننا بوارق التيسير، وصفت عندنا نمارق التيسير» (ص 37).

في هذه الفقرة الباذلة بافتتاح الحديث عن الرحلة، يتجلى
التعميم في الزمن، على عكس الزمن في النص، والذي جاء في
صيغة يوميات بالأيام والشهور والسنوات.

كما تفسح بنية زمن هذا الخطاب في الماضي اللامحدد :
«كنت فيما تقدم من الزمان»، ثم الماضي القريب : «إلى أن هيا
الله تعالى لنا الأسباب»، وأخيرا الماضي الحاضر : «ولمعت بيننا
بوارق التيسير». ثلاثة أنواع من اشتغال الماضي الذي يصبح خطابا
مرجعيا للنص الرحلي يتضمن الإحالات التالية :

- ماض يحيل على فترة لا محددة من الماضي أو المستقبل .
- ماض يحيل على وقائع مسترجعة (هي الرحلة الكبرى).
- ماض تضميني يحيل بالإشارة على رحلتين سابقتين هما
الرحلة الصغرى والرحلة الوسطى.
- ماض بعد بالإحالة على قيم ومعتقدات وأشخاص .

وفي كل الحالات حيث الماضي يتأثر بعينا وقريبا ومتحدا مع
الحاضر فإنه يهيء لزمان النص الرحلي الذي هو ماض مشبع بأزمنة
مختلفة ومتفاعلة.

3-3- المستوى الثالث : الإشاريات، مسار الرغبة :

ضمن هذا المستوى الثالث تبدى هوية البناء في الخطاب
المقدماتي الرحلي لارتباط بنية الإشاريات بأهم مكونات الرحلة
وهو الفضاء، وتحديد المكان المتقل منه والمتقل عبره وإليه .

فالنظام الإشاري الذي يحكم الجهاز المقدماتي يتكون من ظروف المكان والزمان والمعرفات، وتكمن أهميته أيضا في احتوائه على شحنة وجدانية قوية تجعل الذات تتماس مع هذه الإشارات فتبصمها.

ويشكل هذا النظام، من منظور آخر، جينات أولية لرؤية حاملة للذات المؤلف مستنخصب داخل النص بشكل أكثر وضوحا. لهذا، فالإشارات لا تتحدد في الخطاب المقدماتي إلا حين يتم عرض أسباب السفر، وتقديم تلخيص عن الرحلة، فمع العبدوي مثلا- نجد أن شبكة الإشارات تتضمن في مقدمته ألفاظا تقنية متعارفا عليها (بلاد المشرق، البلدان، العصر، موسم، الدنيا، الأرض...)، مقابل / أسماء محددة تعيينية (الديار المصرية، فاس، الإسكندرية، مصر، تلمسان...) . إضافة إلى ندرة المعرفات وأسماء الإشارة وظروف الزمان، إذ تبقى الأسماء التقنية والتعينية علامات حية ذات مرجعية وجودية، وهي مسألة مرتبطة بطبيعة شكل الرحلة عموما، وعلاقتها بالمراجع⁽⁴⁷⁾ والمسافة الإبداعية التي تحققها، فتتحقق بذلك نصية النص الرحلي. لكن المسألة في نص مثل "رسالة الغفران" تتخذ وضعية أخرى، لأن النص الرحلي هو رسالة جوابية على رسالة رحلية أخرى لابن الفارح، وهذه الأخيرة هي خطاب تمهيدي لفهم خطاب المعري والذي قدم لرحلته بمدخل متصل لافرق فيه بين الخطاب والنص ولكن مسار الرغبة في التواصل يتحقق ويتوضح في التقديم الذي ينسج منذ البداية ملامح الحكيم في الرسالة⁽⁴⁸⁾.

تندرج في مقدمة " الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز " ظروف المكان والزمان ، وتحضر مكانها الإشارة إلى أسماء الأماكن ، وكأنما جاءت المقدمة توسيعا للعنوان المتضمن لأسماء ثلاثة بلدان ؛ فقد وردت الإشارة إلى اسم الأرض بشكل عام أربع مرات مرتبطة بالدعوة إلى السير فيها وذلك من خلال أربع آيات قرآنية ، ووردت أيضا في آيتين كريميتين مفردتا " البحر والبر " بنفس المعنى ، مع ورود تكرار مفردات عمامة تدل على كل المكان ، من أجل تبرير الرغبة في زيارة " البلاد الحجازية "

وقد تعرض عبد الغني النابلسي إلى ذكر أسماء الأماكن المعروفة تاريخيا : (البلاد الشامية ، البلاد المصرية ، البلاد الحجازية ، بلادنا دمشق والشام) ، وهي إشارات ارتبطت بنوعين من الامكنة المتفرعة عن هذه البلدان :

- أمكنة مقدسة للتبرك والزيارة : حج قبر النبي وقبور الأولياء .
- أمكنة للتنزه والترويح عن النفس : التزهات والخيوطان وسواحل القصبات والفلوات الأنيقة .

وجميع هذه الإشارات هي علامات ذات مرجعيات في الوجود وفي وجدان المؤلف ، مما يؤكد أن الخطاب التقديمي جاء توسيعا للعنوان وإضافة له ، وهما معا ، يعملان على تأطير النص ، وتمكين المثالي من بعض المفاتيح في الفهم والتأويل .

يتأطر الخطاب التقديمي الرحلي بمجموعة من العناصر التي نكتعمل وتنتقص من نص لأخر ، في أفق تشكيل خطاب متماسك في الإقناع والإغراء والتشجيع لقراءة النص الرحلي ، إذ اعتبرت

المقدمة بناء قادرا على إبراز هوية الجنس الأدبي لما تتضمنه من ملامح وعي نقدي وتعليقي للمؤلف، ثم خصائصها وهوية خطابها المضمر حيث تتفاعل ثلاث بنيات للضمائر والزمن والإشارات.

II. البداية والمشهد الجذري

1- «البداية» هي السرد، تحدث النقاد العرب القدامى عن «براعة الاستهلال» وضرورة «كون ابتداء الكلام مناسبا المقصود»⁽⁴⁹⁾، وأهميته في خلق الانطباع الأولي العام عن النص وعند انتباه القارئ إلى الدلالات.

وإذا كانت جهود القدامى قد تركزت بشكل خاص، في تحليلاتها وأبحاثها، على جنس الشعر⁽⁵⁰⁾ فإن الشروط نفسها، وكل ما يتعلق بتخير اللفظ تصلح للحديث عن النثر، وإن كان إغفاله أمرا محققا لأن بنية الجملة - البداية في السرد العربي غنية وذات دلالة، خصوصا ونحن نتحدث عن المقامة وعن كليلة ودمنة وعن ألف ليلة وليلة⁽⁵¹⁾ وغيرها من النصوص التي جاءت بداياتها متميزة بخصوصيات وقواعد.

أما النص الرحلي فإنه لا يشذ عن القاعدة، بخصوصياته، لأن «كل بداية نصية تختلف بلاغيا عن بدايات أخرى»⁽⁵²⁾، حيث تتحقق قيمة البداية - المعتبر إلى النص، انطلاقا من تحققاتها الاستراتيجية - البلاغية، وفنوتها على ربط حوار تواصل مع النص والقارئ. وتأتي أهمية البداية باعتبارها جسرا بين النص والقارئ؛ فقد تعددت الأسئلة المطروحة حولها لفهم بنيتها وآليات تركيبها واشتغالها.

تتجسد أولى الإشكالات التقنية في البحث عن المتكلم في البداية : هل هو الراوي أم الرحالة؟ رغم أنهما واحد. فالتحقق من طبيعة المتكلم يستلزم التحقق في شكل الرغبة ومسار الحكمي. إضافة إلى بعض الاختلافات التقنية حول تحديد جمل البداية. هل هي الجملة الأولى شكلاً أم دلالة؟
تحاول أ.د. لونكو حلّ هذا الإشكال⁽⁵³⁾ عن طريق اقتراح ثمان نقط تحليلية :

- الإشارة من المؤلف .
 - نهاية السرد الأولى والانتقال إلى سرد آخر .
 - الانتقال من السرد إلى الوصف أو العكس .
 - الانتقال من الخطاب إلى السرد والعكس .
 - تغيير في الصوت ، أو على مستوى السرد .
 - تغيير في التبثير .
 - نهاية الحوار أو المونولوج ، أو الانتقال إليهما .
 - تغيير في زمنية النص وفضائه .
- كل هذه التحديدات تصب في تحليل الباحث حتى يأخذ بالجملة الدالة ذات السياق المرتبط بباقي الجمل ، لأن دور البداية هو البحث عن افتتاح السرد ، وعقد ميثاق القراءة مع المتلقي . وإذا كان النص السردي الحديث يسعى من خلال بدايته إلى طرح الأسئلة مع زرع الإيهام في المتلقي ، فإن بداية النص الكلاسيكي على عكس ذلك ، تؤسس لأسئلة سيتم الجواب عنها ، فهي (كليلة ودمنة) تخصص البداية الأولى في سؤال ديشليم ، أما البداية

الثانية فتتضمن جواب يبدأ . بالإضافة إلى بداية الرحلة التي تنفي الإجابة في بدايتها عن أربعة أسئلة جوهرية : من ؟ لماذا ؟ متى وأين ؟ يقول عبد الغني النابلسي : «لما تحركت فينا دواعي الغرام ، وتوجهت الهمة إلى المسير في جهات بلاد الشام ، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة الشهر الحرام ونحن إذ ذلك في بلادنا دمشق المحروسة ذات الربوع العائوسة» (ص 41) .

يجمع السارد في بدايته التي جاءت بضمير المتكلم الجمعي أسباب الارتحال للجهة المقصودة ، والزمان ، ثم الجهة المنطلق منها ، وهي بداية تدفع بكل هذه المعلومات دفعة واحدة إلى المتلقي قبل التفصيل فيها داخل النص .

والبداية في الرحلة عتبة تربط بين مشهد سردي مكثف وبين تفاصيل مشهدية أخرى ، وهي أيضا عتبة لربط مخزون الذاكرة بعرضه ببعض بصيغة ذات مصداقية تأكيداً المرجعية واقعية موجهة عن طريق الانتقال والتواصل ؛ ذلك «أن تطور البدايات السردية عبر التاريخ والمجموعات الإنسانية يبدو دالاً على التبدلات العميقة ، ليس فقط في علاقة القراء والمستمعين مع الأدب أو النصوص ، ولكن ، بعمق ، في علاقة الإنسان مع العالم . التصور المفتاح من هذا المنظور هو بدون شك الانتقال»⁽⁵⁴⁾ . من هنا الأساس ، تعبر البداية انطلاقاً تشكل الحكيم ، ونأسس جسر التواصل بين النص والقارئ أو المستمع ، لأن النص ، منذ بدايته ، يتموقع بالنسبة لجنسه وشكله⁽⁵⁵⁾ ، كما يعمل على توليد شعور معين من خلال تبليغ المعلومة والتكشيف الذي هو بوابة

التفاصيل . وتعمل البداية على تأطير النص والدخول إلى عالم التخييل⁽⁵⁶⁾ في ربطها بين معطيات الخارج وعملية التحويل إلى نص لغوي ، لأن البداية هي الفاصل بين عالم الخيال وعالم الحياة اليومية⁽⁵⁷⁾ . وتشكل هذه النقطة محورا جوهريا لفهم البداية باعتبارها العتبة-الجسر ، والعتبة-المسافة بين عالمين . وكأن البداية هي بناء جسر الانتقال من «تجربة معيشة» إلى تحويلات هذه التجربة في لغة تحتفظ بمسافتها الضرورية . وإذا كان جان لوى مورانج يدرس البداية السردية في أكثر من موقع ، والانتقال عبر البداية من الواقع المعيش ، المادي ، إلى الخيال ، فإن المسألة في بداية النص الرحلي تتخذ وضعية مغايرة ، نسيبا ، وتطرح مسألة معاودة النظر في النقاش من جديد ، وهو الانتقال من أفكار شفوية (واقعية أو خيالية) متداخلة قد تكون محرفة غير ثابتة إلى جسر يفترض كونه يصهر الأفكار والتجربة في صوغ جديد .

إن الراوي - وهو المؤلف الرحالة عادة - يشغل في البداية الرحلية دور الوسيط المشارك الذي يملأ فراغا بين عالمين يفترقان ويلتقيان في العتبة-الجسر ، والمُعبر بين الرحلة في كليتها ، بصفتها تجربة ، وبين تقييدها تجربة أخرى . وهنا تكمن بلاغة الوساطة في الانتقال بالقارئ بين عالمين مفترضين ، إذ يشغل الراوي الوسيط دور المرشد خطوة بخطوة بالسرد⁽⁵⁸⁾ ، ليحقق وساطة بين ذاته ورحلته أولا ، ثم بينه وبين العوالم التي رآها والقارئ ثانيا .

وتعبر بعض معيزات البداية الرحلية ، في إطار اندراجها ضمن سياق التفاعل مع السرود الأخرى ، بداية إحيائية محددة للمرسل

الراوي، وذلك بذكر اسمه : (قال الشيخ أبو عبد الله) وتشير البداية في (التحفة) إلى ابن بطوطة، أو ضمير المتكلم المرتبط بفعل السفر والإرتحال (فرحلنا من مدينة السلام) (ابن فضلان. ص73) ؛ (كان سفرنا) (العبدري. ص7)، أو بصياغة أخرى غير بعيدة عن السابقتين. وفي كل الحالات يكون حضور المرسل إليه ضمناً عند العبدري، وابن بطوطة، وابن جبير وابن أبي محلي، أو صريحاً عند أبي حامد الغرناطي : «اعلم وفقك الله أن الدنيا...» ص73 ؛ أو عند أفوقاي «اعلم - رحمك الله أن في عام ست وتسعين...» ص23. وهو أسلوب فقهي كان تأثيره جلياً على العديد من الكتابات في حقول شتى.

ولا يمكن التمييز في البدايات الرحلية بين بداية مكانية خالصة، وأخرى زمنية أو شخصية خالصة أيضاً، لأن المهم هو حضور كل العناصر الزمنية والمكانية، بالإضافة إلى شخص السارد، وهي ضرورة تبشيرية لتحقيق المشهد الأولي الجامع كما في بداية رحلة النابلسي وغيرها⁽⁵⁹⁾.

هذا الأسلوب التوثيقي الإخباري هو تثبيت المعلومات وواقعيتها على حد تعبير جان رايمون : "إن بدايات الأدب الواقعي والتاريخي هي بدايات زمنية بامتياز"⁽⁶⁰⁾ تُجسّد واقعية النص/ الرحلة باعتبارها فعلاً جرت أحداثه في الواقع، ويتم تحويلها إلى عملية سردية ؛ فالتأسيس لسياق مرجعي معين هو إرساء لقواعد التواصل والتوجيه، وإنتاج خطاب يعمل على توجيه الإدراك. وإذا كان خطاب البداية في ألف ليلة وليلة أو كليله ودمنة يفسح

عن مرجعيته التخيلية فهو يوجه إدراك المرسل إليه لشكل هذا التلقي. أما النص الرحلي فإن خطاب بدايته يعلن عن مفصلية سياقه المرجعي الواقعي باعتباره خطاباً من الفاعلة/العين إلى الأذن/الخيال ؛ من عين مشاهدة إلى أذن تتخيل .

2- **دينامية البداية** : إحدى علامات دينامية البداية في النص الرحلي تتحدد في أنواعها ووظائفها ، ذلك أن بدايات النص الرحلي لا تتفقد الإشارة ، أو تجنب نحو الغموض ، وإنما تنو إلى الوضوح لأداء وظيفة دلالية عادية ومباشرة تحفيزية لتضمينها شحنة معلوماتية بكافة عناصرها الأولية . لهذا فإن نوعية البدايات إخبارية ، تفتح السرد للحكي عن وقائع وتأملات . وفي بنائها التركيبي والجمالي بتحقيق الانشغال بالتحفيز الواقعي الذي يشوي خلقه سمات المحتمل :

«كان سفرنا ، تقبله الله تعالى ، في الخامس والعشرين من ذي القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة ، مبلوّه من حاجة صانها الله ، وكان طريقنا على بلاد القبلة فزونا بموضع اتسا من أعلى بلاد السوس الأقصى قبر الشيخ الصالح أبي حفص عمر بن هارون ، وهو من كبار الأولياء ومن عظماء الصالحين نعمنا الله بهم ، ذكره صاحب التشوف وبالف في الثناء عليه»⁽⁶¹⁾.

تحيل هذه البداية على تحفيز واقعي ، انطلاقاً من علامات ومرجعيات تشير إلى التراوح بين بداية اسمية تتضام فيها الحركة السردية وتنتج نحو الوصف ، وبداية فعلية ذات وظيفة إخبارية حركية . ففي نص الرحلة المغربية للعبادي تتجه البداية نحو

الحركة الفعلية، شأن جل البدايات الرحلية التي هي بدايات فعلية بمضمونها الإخباري والتحفيزي ؛ فالعبدري يبنى بدايته على ثلاث جمل فعلية بؤرية ماضية : (كان سفرنا، كان طريقنا، فزورنا) تحيل على حركة السفر وحركة السير وتحديده ثم الزيارة، وهي حركات ولدت إخبارات مكملة محكومة بأفعال أخرى دعائية ونعتية واستطردية : (تقبله، صاتها، نفعنا، ذكره، بالغ). أفعال متعلقة بالجمل الثلاث الدالة، تضيء خبرها وتدعمه، وتضفي على البداية مسحة أسلوبية قريبة من أسلوب الكتابات الفقهية، وبعض كتب تواريخ البلدان وأدب التراجم والمناقب.

3- **الوظائف** : بداية النص الرحلي⁽⁶²⁾ عنصر وفي كرونولوجية الحكى في إطار البناء العام ؛ فالسرد يتدنى مع ابتداء فعل السفر لهذا فهي بداية متزامنة غير بعيدة أو قبلية، وهو الشكل الأهم في الرحلات، فيما اتجهت بوابات أخرى إلى التمهيد للبداية الرئيسية، كما لجأ إلى ذلك صاحب 'رحلة السودان'⁽⁶³⁾ الذي مهد بالحديث عن تلقيه العلم وحبّه للسفر.

ويقدم تنوع البداية ودلالاتها إمكانيات أخرى للحديث عن بدايات سرية تتعجل إدماج القارئ في الحكى، فيما تجيء بدايات أخرى وصفية تمهيدية بما سيأتي من سرود تبسط أوصافا للفضاء التنقالي ولوائمه. أما النوع الحوارى للبداية فيمكن تلسمه ضمينا في كل الأنواع الأخرى التي تفرّض مخاطبة تفتتح الحكى لأجله، وتحلوه. أما الجانب الصريح في البداية الحوارية، والتي تفتتح بحوار، فذلك نادر، لأن وظيفة

البداية تنفي الإخبار والتأسيس لجسور وروابط في الجمل الأولى.

قدمت أ. د. لونكو⁽⁶⁴⁾ في بحثها أربعة مقترحات تلخص وظائف البداية، صاغتها وفق نصوص حديثة، وهي معطيات بإمكانها أن تنسجم مع أي نص سردي، مع تعديلات برورها تحقيقاً لفائدة في التحليل. هذه الوظائف الأربع، هي رهانات واعية أو غير واعية تتحقق بأشكال متعاقبة من سارد لآخر.

أ- الوظيفة السّنية (Fonction codifiante) : في هذه البداية تجسد نقطة الانطلاق في فضاء لساني جديد يدخل في "مواجهة" مع المتلقي من أجل إبلاغه. وهذه الوظيفة الأولى تحول البداية إلى خطاب يعمل خلاله السارد على ضمان صدق وحقيقة النص، وبالتالي توجيه الإدراك وتأطير أفق الانتظار، بل تساهم على حد تعبير أ. د. لونكو- في خلق أفق جديد بالنسبة للراوي والقارئ معاً، خصوصاً إذا أدرجنا عنصر "البداية الإدماجية" in M6612222⁽⁶⁵⁾، التي تدمج القارئ، على الفور، وسط حدث كان قد ابتدأ، سواء من بدايته أو من الوسط أو من نهايته، ويتحقق الإدماج في البداية الرحلية بشكل آلي، بحيث تكون الرحلة متجهة، يلتقطها الراوي من بدايتها ليدمج خطابها في سيرة الرحلة، تحقيقاً لخط سير لا يكسر أفق انتظار القارئ :

«قال الشيخ أبو عبد الله : كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرون وسبعمائة، معتمداً حج بيت الله الحرام، وزيارة قبر

الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام، مغرداً عن رفيق أنس بصحبته، وركب أكون في جملته، الباحث على النفس شديد العزائم، وشق إلى تلك المعاهد الشريفة كامن في الحيزام، فحزمت أمري على هجرة الأحباب من الإناث والذكور، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور،⁽⁶⁶⁾

يفتح خطاب البداية في "تحفة النظار" على فضاء التصديق عبر الجملة الأولى التي تخبر عن الفاعل ونقطة انطلاقه وتاريخ ذلك. ويتم ضمان هذا التصديق وتأكيد في الجملة الثانية التي تقضي إلى نوعية النص (رحلة حجية). لكن ما تبقى من جمل يكسر أي أفق متظر، ويخلق أفق انتظار آخر، ونوعية إدراك مغاير سيصاحب المتلقي خلال قراءاته للنص وذلك بالحديث عن ارتحاله وحيدا بعدما هجر أحبابه وفارق وطنه، فأضفت الأوصاف والتشبيهات على هذه الفقرة طابعا تأثيريا يعد بالكثير من المغامرة والمجانب نظرا لعادة الرحلات الحجية التي تكون جماعية، فهو يقول: «فحزمت أمري على هجر الأحباب، وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور». صورتان مليتان بالتوجيه والتأثير تقودان إلى تأسيس إدراك آخر، وخلق تسنين ضمني، بتقديمه علامات ومرجعيات كامنة على حد تعبير يونس-⁽⁶⁷⁾ توجه المتلقي، كما أن الإدماج يتحقق ابتداء من لحظة الفعل دون أن يحضر المتلقي في التفكير الذي سبق فعل الخروج، وهو بذلك يبدأ بداية إدماجية تعكس رغبته في سرد كرونولوجي.

ب- الوظيفة الإغرائية (Fonction séductive): وهي رهان

يعتمد إليه كل مؤلف لتحقيق التواصل الواسع، وخلق رغبة القراءة، حتى أن استراتيجيات الإغراء تتعدد وتنوع⁽⁶⁸⁾، ونعمل كلها على إنتاج متعة الاستماع والتخيل، وهو ميثاق يعلن عن نفسه منذ البداية: «اعلم رحمك الله - أن في عام ست وتسعين وتسع ومائة من الهجرة ومن حساب النصارى عام ثمان وثمانين وخمس ومائة وألف أمر القسيس الكبير بمدينة غرناطة بهدم صومعة قديمة كانت في الجامع الكبير، وكانت تسمى من قديم الزمان تربة قبل الإسلام وذلك بعد أن بنوا صومعة قريبا منها، عالية جدا، ولما أن هدموا القديمة وجدوا في حيطانها صنوفا من حجر وفي داخله صنوفا من رصاص وفيه وجلوا رقا كبيرا مكتوب بالعربية والعجمية المتصرفة في بلاد الأندلس، ونصف حمار الصالحة مريم عليها السلام - أم سيدنا عيسى عليه السلام - وعظما من جسد أشطبان الصالح عندهم»⁽⁶⁹⁾.

يسعى أفوقاي، في بداية حكيه إلى حفر نفق الإغراء والمتعة من خلال فعل الأمر "اعلم" الذي يفيد تأكيد حقيقة معينة، ثم أمر القسيس الكبير بهدم الصومعة القديمة، والإخبار عن وجود صنوفا ورصاصي.

إن عناصر الإغراء في هذه البداية موجودة من خلال الإيهام بالحقيقة، ثم الصفات المعطاة للأشياء: فالقسيس "كبير" في مرتبته، والصومعة "قديمة" (قبل الإسلام)، والجامع "كبير"، والصومعة "الجديدة"، عالية جدا، والرق أيضا "كبير" ... إنها صفات للتضخيم والمبالغة، بقصد توليد الشعور بالغربة

والتعجب يفتانها أيضا حضور الغموض الناتج عن البياض الدلالي ، ولا مقول الجمل السردية المتشابهة ، فوجود صندوق ويدخله رق مكتوب بلفنتين دون الإفصاح عن مضمون هذه الرسالة يقود نحو إغواء غامض يتكشف مع الإخبار بوجود نصف خمار لمريم وعظم من جسد أشطبان إغراء يعد بالكشف عن حقيقة معينة لها علاقة بما هو ديني -إسلامي ، مسيحي : (لغة الرق ، الصومعة ، الجامع ، نصف الخمار والعظم) لكن السارد فيما يبدو ، لجأ إلى تأطير غموضه بتقنيتين :

الأولى هي إيراد اللامتوقع الذي يملك وظيفة استباقية وتوجيهية للنص والقارئ⁽⁷⁰⁾ ، وذلك من خلال التأكيد على أن نصف الخمار هو لمريم ، والعظم لأشطبان ، ففي هذا اللامتوقع توجيه القارئ نحو خطاب ديني .

وتتمثل التقنية الثانية في لجوء السارد إلى حجز مجموعة من المعلومات تفسر المعطيات لتتمدد خط الطعم الإغرائي ، وتوليد شحنة خيالية لدى المتلقى قبل تقديمه التفسيرات .

ج- الوظيفة الإخبارية (Fonction informative) : وتدعو إلى التمييز بين نوعين من البدايات : الأولى معلوماتية ، والثانية لاتقدم معلومات ؛ فكل البدايات الرحلية تتضمن إخبارات تركز أساسا حول معلومات عن السارد المتكلم والزمن والمكان ، ومعلومات أخرى مدعمة .

ووظيفة تقديم الأخبار هي شكل من اتبناء التخويل عبر تلك المعلومات ، ونقط موجهة واستدلالية للقارئ الذي بطأ المجهول

ويرتبط به . يقول ابن جُبَيْر في بداية رحلته : «تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار» :

«ابتدئ بتقييدها يوم الجمعة المولي ثلاثين لشهر شوال سنة ثمان وسبعين وخمس مائة على متن البحر بمقابلة جبل شلير ، عرفنا الله السلامة بهمه .

وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من غرناطة ، حرسها الله ، للنية الحجازية ، المباركة ، قرنها الله بالتيسير والتسهيل وتعريف الصنع الجميل ، أول ساعة من يوم الخميس الثامن لشوال المذكور ، وبموافقة اليوم الثالث لشهر فبراير الأعجمي ، وكان الاختيار على جيان لقضاء بعض الأسباب ، ثم كان الخروج منها أول ساعة من يوم الإثنين للتاسع عشر لشهر شوال المذكور وبموافقة اليوم الرابع عشر لشهر فبراير المذكور أيضا» (71) .

يقدم ابن جبير في بدايته الرحلية معلومات حول عناصر ثلاثة :

- معلومات حول النص : وفيها يتحدث عن بداية كتابة الرحلة ، ومكان هذه البداية ، مع نية تدوين الرحلة الموازية لنية الحج . كما أنه يحيل على جنس الرحلة في العنوان الفرعي والذي هو العنوان الرئيسي ، وأيضا الفعل المبني للمجهول وهو يُحِيل إلى الرحلة والضمير الغائب المرتبط بتقييدها ، إضافة إلى أسلوب النص الذي ينبنى على دقة وضبط في تقديم الخبر .

- معلومات حول المرجع : وهي الاخبار المقدمة حول

العالم، للإحالة على معرفة خارج النص وعلى تجلياته في ذكره لأربع فضاءات مرجعية :

فضاء متحرك : مكان تدوين الرحلة (البحر مقابل جبل شلير بالأندلس).

فضاء الانطلاق : غرناطة، مع الإشارة إلى الانفصال عن رفيق رحلته أحمد بن حسان.

فضاء الهدف : الحجاز للحج.

فضاء المرور : مدينة جيان بالأندلس لقضاء بعض حاجياته ثم الخروج منها.

يأتي تقديم هذه المعلومات متضمنا لتفصيل في الإشارة إلى المكان والزمان، وبعض القموض في عدم ذكر سبب الانفصال عن رفيقه الذي لم ترد له ترجمة، وأيضا سبب مروره بجيان.

- معلومات حول التخييل : وذلك بتنظيم السرد وبناء العالم التخيلي (الوظيفة الميتاسردية والوظيفة البنائية).

د- الوظيفة الدرامية (Fonction Dramatique) : إذا كان

اختيار بداية الحكيم مسألة معقدة في النصوص التخيلية لأن المؤلف فيها يضطر إلى التدقيق في اختيار لحظة وشكل الدخول⁽⁷²⁾، وتحديد بداية الإخبار بالحدث أو وصف ما يرتبط بالفعل السردية... فإن المسألة في النص الرحلي تختلف، لأن كل سارد رحالة يلجأ إلى بداية الحكيم، ابتداء من انطلاق رحلته، لحظة خروجه، أو استعداده للخروج. فابن جبير يخبر عن تاريخ ومكان بداية تدوينه لرحلته، ثم يسرد انطلاق القصة بانطلاق

خروجه (شأنها عند ابن بطوطة ، العبدري وابن فضلان والتابلسي) ، فيما هناك بدايات رحلية أخرى تختار بداية القصة بالإخبار عن شيء من صميم الرحلة للإغراء كما في نص "ناصر الدين على القوم الكافرين" ، أو للاختيار إثبات استرجاعات تمهيدية سابقة عن الرحلة ، وقد لجأ إلى ذلك محمد بن زين العابدين في (رحلة السودان) وهو يصف مشهداً عن طفولته ، وغير ذلك من الاختبارات التي سرعان ما تندمج في السياق وفي التسلسل الكرونولوجي .

ولجأ كل سارد في نصه الرحلي إلى تحقيق تواصل موفق مع متلقيه ، لأن البداية بالنسبة للرحالة في نص رحلته هي وهان عبره ستأسس مصداقية النص ، ويتحقق الإغواء ، وشد المتلقي ؛ فالعلاقة بين السارد والمتلقي ترسم في جملة البداية باعتبارها لحظة التقاء لاستجماع سلسلة من العلاقات الموجهة إلى متلقي السرد في النص .

إن البداية في هذا السياق تكون مرشداً للقراءة والقارئ⁽⁷³⁾ ، وتشكل وظيفة استراتيجية ، لأنها مرآة ذات أنواع ووظائف تولد انفعالات وشعوراً وأفق انتظار . كما أن جملة البداية ، وهي نموذج للجمل السردية في النص الرحلي ، تختلف بكونها جملة مرتوية بالإخبار والرغبة في التصديق على عقد القراءة . لهذا فهي مكثفة ومرآوية ، إضافة إلى أنها تشكل وترسم أسئلة يحجبها النص متكفلاً بالجواب عنها أو بتوليدها .

*- البقريزي (ت845هـ) . كتاب المواظ والإعجاز بلذكر المخطط
والأثار (المعروف بالمخطط المقرئية)، القاهرة، مؤسسة الثقافية
الدينية (د،ت)، ج1، ص3.

1- تمت الاستفادة في التأطير النظري لهذا الفصل من المؤلفات التالية،
أساسا، ومن مقالات أخرى - نجيء في السياق لا تقل عنها أهمية :

- Leo H. Hoek . La marque du titre, Mouton 1982.
- Charles Grivel : Production de l'interet Romanesque, Mouton 1973.
- Gerard Genette . Seuil, ed seuil 1987.

2- محمد فكري الجزار : العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي .
القاهرة . سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر
1998، ص45.

Leo Hoek, P XI -3

- Henri Bonac . Guide des Idées Littéraires, France, ed - 4
Hachette.

Leo Hoek, P 1 5

Leo Hoek, P 6-6

- Jean Louis Morhange : Enclit narratifs, in : Revue Poétique, 7
France, N° 104 Nov 1995, ed seuil, p394.

8- حول العنوان في السرد الأدبي الكلاسيكي، انظر : هوك، ص7.
جينيت، ص54. بينك، ص505.

- Jean Louis Morhange, Idem, P394 -9

ibidem -10

11- حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون
(مج1)، دار الفكر، بيروت 1982، انظر ص، ص360-377.

- انظر أيضا . محجم النديعة لأقايزوك الطهراني، (مج3)، دارالأضواء، بيروت (د ت)، ص ص 399-479.
- 12- محمد عويس : العنوان في الأدب العربي . النشأ والتطور، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الأولى 1988، ص 41.
- 13- محمد عويس، مرجع سابق، ص 108، 109
- 14- ابن أبي محلي الفقيه الشافعي ورحلته الإصليت الخريت، الرباط، منشورات عكاظ، ط 1، 1991 [تحقيق عبد المجيد الفندوري] انظر : ص 101 هامش رقم 101.
- 15- Henri Barac, Idem, P. 506.
- 16- Charles Grivel . Production de l'intérêt Romanesque, ed - Mouton, lahaye, 1973, P13.
- 17- Jean Louis Morhange, Idem, P395
- 18- Henri Mitterrand le discours de Roman, France, ed P U F- (éditions) 2ed, 1986, P21
- 19- المفصود، على الخصوص، الحكايات الشعبية، والسير الشعبية، كتخييل يباشره المتلقي دون تقديمات هذا الميثاق العرفي التناولي.
- 20- Gerard Genette · Seilla, ed Seuil, 1987, P152
- 21- G. Genette · Seilla, Idem, P 50
- 22- Idem, p 195
- 23- رحلة ابن معصوم المدني أو سلوة الغريب وأسوة الأريب، بيروت، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، 1988، ص 19 [تحقيق شاكرو هادي].
- 24- يوسف الحسني : ملقط الرحلة من المضروب إلى خضر موت، الدار البيضاء شركة الشر والتوزيع، 1988، ص 17 [تحقيق وتقديم وتعليق أمين توفيق الطيبي].
- 25- أبو حامد الغرناطي، ص 31.
- 26- أبو حامد الغرناطي : تحفة الألياب ونخبة الأعيان، الدار

- البيضاء، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط 1، 1993، ص 31 [تحقيق اسماعيل العربي].
- 27- النرناطي، مرجع سابق، ص 29.
- 28- أبو حامد النرناطي، مرجع سابق، ص 33.
- 29- سيزا قاسم: **الخطاب التاريخي من التقييد إلى الإرسال**. قراءة في الطبري والمسمعودي وابن خلدون [ضمن كتاب جماعي] الأدب العربي: تعبيره من الوحدة والتنوع. بحوث تمهيدية، مركز دراسات الوحدة العربية، جامعة الأمم المتحدة، بيروت، ط 1، مارس 1987، ص 132.
- 30- هناك مقدمات تقتصر على البسلة والحمللة ثم الاستغفار إلى الله، مثلما في رحلة العبدري أو الشكر لله كما في رحلة قناصر الدين على القوم الكافرين⁹.
- 31- أبو حامد النرناطي، ص 29.
- 32- ابن بطوطة، ص 99.
- 33- ابن فضلان، مرجع سابق، ص 68، (بناء على أمر أمير المؤمنين المقننر إلى ملك الصقالبة).
- 34- ناصر الدين على القوم الكافرين، مرجع سابق، ص 18، (بناء على أمر من السلطان المولى زيدان إلى بلاد الأفرنج).
- 35- ابن بطوطة، ص 31.
- 36- عبد الفنى النابلسي، مرجع سابق، ص 27.
- 37- انظر: - Henri Mitterand . *Le discours du Roman*, P.U.F. - France 2ème ed. 1986, (Chap. La préface et ses lois . Avant propos romantiques, PP : 21-34).
- 38- أفوقاي، ص 17.
- 39- العبدري، ص 1.
- 40- النابلسي، ص 37.
- 41- الطومس Pelimpson أو الطلس كما يعرفه (معجم المصطلحات العربية) هو الرق الذي طمست فيه الكتابة الأصلية وإن كانت لا تزال آثارها ظاهرة ظهوراً ضعيفاً وذلك ليكتب عليه مرة أخرى، مثال ذلك

نسخة الأنجيل التي عُثِر عليها بدير (سائت كاترين) بطور سيناء، فقد
مُحِيت منها نصوص الأنجيل، وكتبت فوقها قصص، وحكايات لها
شعبية كبيرة في القرن الثامن للميلاد.

انظر : مجدي وهبة وكامل المهندس : معجم المصطلحات
العربية في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984،
ص.ص 237-238.

42- ناصر الدين على القوم الكافرين، ص19.

43- رحلة العبدري، ص1.

44- رحلة العبدري، ص3.

45- نفس المرجع والصفحة.

46- يقول ابن بطوطة : «الحمد لله الذي ذلل الأرض لعباده ليسلكوا منها
سيلا فجاءا» ص29، النسخة.

47- في "ناصر الدين على القوم الكافرين" تشكل الإشارات إلى
الأندلس، بلاد المسلمين، بلاد الإفرنج، غرناطة، مراكش ... محورا
استراتيجيا سيحكم في بناء النص الرحلي، بناء مرجعيا إلى تجربة
تروى بالكثير من الحميمية والخوف من فقدان المكان، مؤطرة بشائبة
بلاد المسلمين = بلاد الإفرنج (الكفار).

48- أبو العلاء المعري : رسالة الغفران. بيروت، الشركة اللبنانية
للكتاب (د،ت) (تحقيق وتقديم فوزي عطوي) ص57.

49- الجرجاني : كتاب الترميمات، بيروت، مكتبة لبنان، 1988،
ص26.

50- انظر : حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية في العصر

العباسي الثاني، بيروت دار الجيل، ط1، 1982. حيث يدرس
أهمية المقدمات في الشعر العربي وما يفرزه من اتجاهات باعتبار
المقدمة هي الوجه الذي يتأثر ويؤثر.

- انظر أيضا : شوقي صيف : الفن ومطاهره في الشعر العربي،
ص227 وعكوف الشعراء في الفترة العباسية على المقدمات الموروثة
مختارين ما يلائم حياتهم.

51- تشكل البداية في نصوص المقامة بنفس اللازمة المفتتح بها «حدثنا عيسى بن هشام قال»، عند بديع الزمان الهمفاني، ثم المفتتح ثان في زمن الماضي بفعل حركي يُلحظ على اللعب والإياب أو حركة قام بها السارد.

أما في نصوص كتيبة ودمنة فإن المسألة أشد إغراباً من خلال بداية مسكوكة في كل النصوص : «قال ديشليم الملك ليديها القليسوف»، والملاحظ أن بدايات كتيبة ودمنة مترابطة، وفي كل بداية بدايتان، الأولى تبتدئ ب : «قال ديشليم» وهي البداية المفكرة لأنها تتضمن تصوراً حول الحكاية وأيضاً بداية محفزة ومأنحة للسرد فرصة الحكمي. أما الثانية فهي بداية الحكاية التي تبتدئ بالشكل التالي : «قال بيلدا : زعموا أن»، وهي بداية تؤسس للإحتمال وترسم مسار التخيل مستعانة من الماضي.

في «ألف ليلة وليلة» هناك البداية الكبرى التي تفتتح بها الحكايات، وهناك البدايات الصغرى لكل حكاية أو ليلة.

جاء في البداية الكبرى : «(حكى) والله أعلم أنه كان فيما مضى من قديم الزمان ومالك العصر والأوان أن ملكاً من ملوك ساسان بجزائر الهند والصين...».

حضور البناء للمجهول وفعل الحكمي والإحالة على الماضي السحيق اللامتممين من أجل رسم أفق واضح للتخيل والإنعاف، وقاعدته أن البداية في السرد القديم تؤسس للإحتمال أكثر من الحقيقة، وتبني قاعدة إخبارية تتوجه إلى القارئ منذ البداية بكم معلوماتي حكاية.

52- Jean Louis Morhange · *Incipit Narrativa* (l'entrée du lecteur dans l'univers de la fiction), in *Revue Poétique*, N°104, Nov. 1995, ed seul, Paris, P387.

53- Andrea del Iungo · *Pour une poétique de l'incipit*, in *Revue Poétique* N°94, Avril 1993, ed seul P135-136.

54- Jean Louis Morhange, *Idem*, P387

55- Andrea, D.L. 1993, P131

Idem, P137 -56

Jean Louis Morhange, Idem P387 -57

Idem P400 -58

59- في "الإصليت الخريت"، أو "تحفة الألياب"، بجري في الأولى
تثير شخصية الشيخ سالم السهوري، الذي أخذ عنه ابن أبي محلي ١
وفي الثانية يعمد أبو حامد الغزنائي إلى تثير التعجب الذي سيحدث
عنه بقوله: «اعلم ولفك الله أن الدنيا عبارة كما هي فلك القمر من
الهواء، والبحار والأرض وما عليها وما تحتها وما يحيط بها والمعمور
من الأرض فيما يقال مسيرة مائة عام من ناحية الشمال مع ما يقاربه من
المشرق والمغرب» ص 37

- Jean Raynaud - commencements Romanesques, (Article -60
m.) Position et oppositions sur le Roman contemporain, Actes et
colloques N°8 strasbourg, ed Klincksick 1979, P132.

61- العبدري، ص 7.

62- يمكن تصميم هذا الاستنتاج على الكثير من الموضوع السردية
الكلاسيكية في بداياتها الكبرى، لكن بداياتها الصغرى تتعرض
لتكبير استرجاعي كما هو الأمر بالنسبة لحكايات ألف ليلة وليلة أو
كليلة ودمنة، عبر تقنية التوليد الحكائي، الذي يضطر السارد خلاله
إضافة الحدث باسترجاع ما يمثل به.

63- الشيخ محمد بن علي بن العابدin : رحلة السودان، تونس، بيت
الحكمة، قرطاج، ط 1، 1993، [نقلها إلى العربية عبد الله معاوية]
يقول:

فتفرغت حتى سن اليافعة لقراءة القرآن المجيد في الكتاب مع صبية
آخرين، وعملا بتوصيات والدي عليه رحمة الله بدراسة العلوم فإني
أخذت أتعلم مبادعها بتونس، مما جعلني أرتبط بروابط المودة مع طلبة
قادمين من البلدان المجاورة كنت أراقبهم بانتباه، كان معظمهم يملأ
قصارى الجهد ويشتغلي في دراسة الخيمياء والسحر وفن البحث عن
الكوز واكتشافها، فافهم في ذلك الغر والحاجة ص 25

- 64- انظر : Andrea del Lango. Idem.
- 65- ورد المفهوم عند J.L.Morhange في مقالته المذكورة سابقا ، وهو يحلل بداية رواية (الطريق الملكي) لآندري مالرو 1930 ، واستعمل قبله عند Hux و O.Genette .
- 66- ابن بطوطة ، ص 33 .
- 67- ضمن : أ. د. لوتكو ، مرجع سابق ، ص 139 .
- 68- Andrea.d.L.Idem, P139-140
- 69- رحلة ناصر الدين على القوم الكافرين ، ص 23 .
- 70- Andrea d.L. ' Idem P140
- 71- ابن جبير ، ص 7 .
- 72- Andrea. d.L. Idem P144
- 73- Andrea, P147, J.L.Morhange, P394

الفصل الثاني

السرد وبنية الجملة

I - **سرديّة الرحلة** : لا يختلف السرد الرحلي عن باقي السرود باعتباره مجموعة من المتواليات الجمالية المؤسسة لتيّقات ذات وظائف وأهداف تتغيى توظيف تقنيات وأساليب لفهمان تواصل محقق مع الجنس الذي يكتب فيه ، ومع الذات الفاعلة التي تصوغ الأحداث والأفكار ، ثم مع المتلقي .

إن السرد في النص الرحلي « لغة بسيطة وليست مباشرة »⁽¹⁾ ، وهو قريب جداً من السرود المعاصرة له التي ترعرع في حضنها ، وارتوى معها من نفس المعين ، وخصوصاً التاريخ ، وأيام العرب والوقائع ، ذلك أن « الخلفية النظرية » التي يكتب بها كل من المؤرخ والراوي والرحالة تعتمد إثبات يقين مرتبط بالأحداث والآخر والذات ، كما ترتبط بطبيعة الإدراك والتسجيل والتفريغ والإخبار وعلاقة « السارد » وبسيطه اللغوي : السرد بالواقع .

وإذا كان السرد في التاريخ يعتمد البحث عن الوقائع

والأحداث من الماضي والحاضر وتسجيلهما بتقريرية مضمناً بعض الحكايات المختلفة بأحداث وأشخاص فبان أيام العرب والوقائع والتراجم، وكل الأشكال القرية، بدورها تسجل حيوات الآخرين، وأفعال السالفين باعتبارها حقائق في الأولى، أما الثانية فتساق للعبرة واستخلاص الدروس، وبناء الحاضر والمستقبل.

وقد أصبح نص الرحلة نصاً متعدد الأنظمة، لغة ولهجة وأصواتاً ومحاكيات متعددة المصادر والرواة وهذا التعدد تحكمه بنية السفر (...) والتي تفرز خصائص عديدة ساهمت في تشكيل بناء النص⁽²⁾، كما تؤكد ذلك بعض خصوصيات السرد الأخرى في باقي الأشكال، خصوصاً المحولة من الشفوي إلى المكتوب.

ويبرز السرد الرحلي خصائص وروابط مشتركة تتحول حسب الاستعمال، منها: الإيجاز والحقيقة والخصوصية وبساطة الأسلوب⁽³⁾، إلى بنية متفاعلة تتخذ لها متطلقاً محدداً ونهاية واضحة تبدأ بالحركة وتنتهي بالسكون الذي يجسده السرد نفسه. وبذلك فالحركة السردية في النص الرحلي دائرية، تتضمن طبقتين مختلفتي الألوان والوثيرة ومرتبطتين بالحركة:

- سردية العبور ويمثلها الانطلاق والمسير في رحلة فعلية - مادية أو متخيلة، ذهاباً وإياباً، متضمنة المتواليات والتمهيد، والعمادة إلى التقديم والتعريف، وإلى الأحداث العارضة، بحيث يحتوي كل نص في العموم - سردية العبور إلى الحكاية والفعل والأحداث، ألقياً أو عمودياً.

فسرد العبور في "كليلة ودمنة" تتخلق وضعية مشتركة

لافتتاح الحكيم وبلورته في سياق المثل والحكمة ، وتخزينه بطاقة من الدينامية التي تولد فيه قنوات عبور أخرى ، كما أن سرود العبور في " ألف ليلة وليلة " تشكل جسراً لأفاق المغامرة والعجيب ، وبالتالي الحكاية وامتداداتها .

يرسم العبور المادي في النص الرحلي للسرد وثيرة متوسطة السرعة تشرّب نحو الحركة المدورة محور الرحلة . وهو ما يعكس نفسية الرحالة الراوي المتطلعة إلى الوصول للهدف . ففي الرحلة الحجاجية ينبنى السرد متوسط الحركة بين البطء والسرعة ، باعتبار أن الرحالة يتعجل الوصول إلى الحج ، فيحيا عبوراً مضاعفاً على المستويين المادي والنفسي ، شأن العبدي في عبور الذهاب ، إذ يلجأ إلى الوصف والتعليق للتعبير عن توتر عميق مما يرى ويسمع ، وهو ما يعكس الحضور النفسي وتجليته للنص الرحلي الحجاجي في كل مراحل .

أما سرد العبور لإياباً فغالباً ما يأتي بوتيرة سريعة مختزلة ومكثفة تكمل بعض المعطيات التي لم يتم الإنتباه إليها في مسير الذهاب . ففي نص العبدي يشغل الجزء الخاص بعبور الإياب ثلث الصفحات المخصصة لعبور الذهاب متبعاً سبيل الاختزال على غرار قوله : « ثم سافرنا من مدينة تونس أمناً الله تعالى فعمرنا على باجة ثم على نحولان فتياسرنا منها على طريق بونة وأخذنا على طريق الفلاح فدخلناها قلعة قلعة وهي ذوات عدد وليس بها ما يذكر ولا مسا يورخ ثم على قسنطينة على الطريق الأولى ثم على بجاية ... »⁽⁴⁾ .

وفي تمثيلات أخرى هناك نصوص تختفي منها سرديّة العبور فيلجأ الراوي إلى «القفز» على كل تلك المرحلة والابتداء بسرد الحلقة بعد «تقديم» لا بد منه لافتتاح الرحلة. وفي رحلة ابن فضلان يتم الدخول مباشرة إلى «ناثرة الهدف» مثل العديد من النصوص السفارية التي يتم فيها «تحديد» الذات، وبالتالي «إخفاء» وعزل «سرديّة العبور»، لأنه لا يشكل أهمية بالنسبة للآخر صاحب الرحلة الحقيقي «المرسل»، أو لأن الراوي لا يهمه حكمي ما عرض له بالطريق قبل وصوله للهدف ذهباً أو إياباً، وهو ما يمكن لحظّه في النصوص السفارية (أبو دلف وابن فضلان) إذ يتم إقصاء «الذات» نسبياً وسفرها مع الاحتفاظ فقط بوقائع المهمة- الهدف، رغم أن أهمية سرود الطريق تتضمن بنيات حكاية هامة تستعرض ضمن مشاهد سلسلة رابطها عين الراوي ولغته وذاكرته وأفقه المحلي بأذواق انتظار أخرى وأحلام واستيهامات، هي وغيرها قرائن مرجعية وعلامة لفهم وتفكيك «الذات». لأن فهم ابن فضلان ورحلته في مستويات وعيه وأوصاء الآخرين سيستحقق بالشكل الواضح شأن رحلتي ابن بطوطة والعبدري مثلاً- لو تضمنت سرديّة العبور بوجهيه.

في الرحلات المتخيلة يتمحور العبور في (منطق الطير)⁽⁵⁾ باعتباره استراتيجية لبناء الرحلة في كل مراحلها :
 - «مرحباً بك أيها الهمد، يامن للطريق هاد، وفي الحقيقة مرشد كل واد». ص 180.

- «ما أن سمعت الطيور جميعاً الكلام، حتى أدرك الكل

الأسرار القديمة ووجد الجمع نسيا يربطهم بالسيرغ فلا جرم أن تولدت لديهم الرغبة في السير، ولذا عبدوا جميعا إلى الطريق^٩. ص 217.

- فبعد سماع هذا الكلام كله، سارعت جميع طيور الوادي بتكيس الرؤوس في دماء الأكباد، وعلمت جميعها أن هذه القوس الصعبة لا تقوى عليها سواحد حفنة من المعجزة، ولم تجد أرواحهم الاستقرار بسبب هذا القول، وما أكثر الذين ماتوا من المعجز في ذلك المنزل، وأما الطيور الأخرى التي اندفعت إلى المسير، فبفعل ما سيطر عليها من تحير، قضت سنوات متقلة بين مرتفع ومنخفض^٩. ص 415.

هذا الحضور المكثف لرمزية العبور مدعما بالقائد (الهدد الهادي) والهدف المخلص (السيرغ) يوسع دائرة مفهوم السفر الروحي ومستوياته، فيما غاب العبور في (رسالة الغفران) لأن بناء الرحلة إلى العوالم الأخرى يتنظم ضمن شبكة معقدة من الترميز والإيحاء حيث السفر الروحي -الباطني هو العماد المتحكم.

• سرديّة الوصول، وفيها يتكثف السردى مشيعا بأفاق أخرى، ويحرصه على التشخيص الدقيق، سواء تعلق الأمر بما هو روحي - ديني، أو تقريرى وتبليغي وسفاري، أو علمي وأدبي وغيره. ففي هذا المستوى يصبح السرد متوازنا ومتضمنا أشكال الوصف والتعليق والتأمل والمقارنة والتمثل.

والسرد الرحلي خلال هذه المرحلة يكون في لحظة حاسمة تلي سرديّة العبور إلى سرديّة الوصول الذي يمثل وجهي عملة

عبورين ، مادي ونفسي ، ونقطة بداية عبور آخر داخلي لإرواء الرغبات المقيدة بتلك اللحظة .

حركتان تطبعان السرد هما الإنغلاق والافتتاح ضمن هذه الاستراتيجية ، مما يعطي للحكي دينامية تفعيلية تغذي حركات السفر والمفاجأة والعجيب ، وعناصر أخرى تشيد الجملة السردية بشرائنها المحيلة على خارج وداخل النص انطلاقا من الدائرة التي تضيق أو تتسع وهي تفتح على أساليب ومكونات تجعل من حركتي العبور والوصول إطارا وجرا البناء أعم وأعمق .

إن السرد ، بهذا المعنى في النص الرحلي هو خطاب يتضمن بنى أساسية ومستويات ، ويشكل نسقا متماسكا يختزن بداخله طبقات قولية دلالية متلونة ومتدرجة في سرعتها وطئتها ، وفي حركتها ومكوناتها .

II - مميزات وأنماط الجملة السردية في الرحلة :

ترسم الجملة في الرحلة سفرها الخاص انطلاقا من سرود تتولد عنها جمل وصفية ؛ لبناء أحداث تتسج وتتنامى بموازاة تقدّم خط سير الرحلة بحيث «إن المسافر يمكن أن يُحكى باعتباره تابعا زمنيا»⁽⁶⁾ . وتأتي أهمسية الجملة في البناء السردى لتطرح فرضيتين :

- نسق الخطاب ونسبائه التنوع .

- الجملة السردية وعلاقتها بالخبر والسند والمراجع .

إن الجملة السردية في النص الرحلي خطاب بؤري ، ومحرك دينامي للأحداث رغم قصر الجملة وكثافتها ، فهي مشغلة

بالأوصاف وتوالي الأحداث . لكن أهم ما يميزها هو تشكلها من أربعة عناصر خدام : الخبر ، والسند ، والفعل ، والمرجع . وهي مكونات ميزت الجملة في مؤلفات التشريح واللغة والأدب باختلاف يخصص كل شكل في علاقة الجملة مع عناصرها المهيمنة والأخرى الشكلية التي هي إطار لخلق وتوليد الإنفعال والمتعة والإدراك المحقق لتلقى منسجم ، بما يوازي الانسجام الذي كان يبحث عنه الراوي - الرحالة في رحلته .

1 - الخبر : الجملة السردية في الرحلة هي جملة (تُصيص) إخبارية بامتياز لا ارتباطها الحميمي بالأحداث بشكل متسلسل ومتنوع في النشر عامة⁽⁷⁾ من زاوية حملاته الدلالية وبحسب التيمات . وهو ما ينطبق على الرحلة المتضمنة للخبر ، والذي شهد تدقيقات ومراجعات باعتباره الوعاء الذي يحمل المعنى ويصوغ اللفظ ، فبحثوا في تعريفه ، شأن السكاكي الذي عالجه من منظور بلاغي في علاقته بأربعة فنون⁽⁸⁾ . وهو ما يعني ترعرع مفهوم الخبر في المحض البلاغي . فيعني الخبر النبأ أي ما يحتمل الصدق والكذب لذاته ، يقابله الإنشاء الذي لا يحتمل الصدق والكذب⁽⁹⁾ ، ونفس المعنى نلمسه عند الجرجاني⁽¹⁰⁾ .

ومن رؤية أخرى فإن الخبر هو العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر وخبرته (...) وقيل للخبر هو المعرفة بمواطن الأمر⁽¹¹⁾ . وفي سياق آخر ، يعرض أبو هلال العسكري للمفهوم (الخبر) بالمقارنة مع مفاهيم قرية منه ، ففي حديثه عن الفرق بين الخبر والحديث يقول : «الخبر هو القول الذي يصح وصفه

بالصدق والكذب، ويكون الإخبار به عن نفسك وعن غيرك ...
والحديث في الأصل هو ما تخبر به عن نفسك من غير أن تستلهم
إلى غيرك، ويسمى حديثاً لأنه لا تقدم له وإنما هو شيء حدث لك
فحدثت به، ثم كثر استعمال اللفظين حتى سمي كل واحد منهما
باسم الآخر فقبل للحديث خبر والخبر حديث ... ويجوز أن يقال
إن الحديث ما كان خبرين فصاعداً إذا كان كل واحد منهما متعلقاً
بالآخر فقولنا رأيت زيداً : خير، ورأيت زيدا متعلقاً : حديث⁽¹²⁾.

وفي موقع آخر يسمى الخبر الطويل قصصاً لأن بعضه يتبع
بعضاً كما أنه العلم بكنه المعلومات على حقائقها⁽¹³⁾. وهذا
الاهتمام البلاغي والمعجمي بمفهوم الخبر هو بالتأكيد اهتمام
فقهه، حيث تعرفه (دائرة المعارف الإسلامية) بوروده في
الأحاديث مرتبطاً بالإسناد فويسمى الغزالي الأحاديث التي ترقى
إلى النبي باسم الأخبار، وأقوال الصحابة بالأنبار⁽¹⁴⁾، لكن
المحصلة، ترجع تبني السياق البلاغي القريب من السرود
المعتمدة على الأخبار والحكايات، وهي تتناسل مع الأنباء
والأحاديث ولكنها تحتفظ بالخبر مفهومها حاملاً لفنية سردية،
ومشكلاً حكاية جامعة لأخبار متعددة ومتنوعة يمكن حصرها في
أربعة أنواع مهيمنة : الخبر التاريخي، والاجتماعي، والأدبي،
والديني، لا تحضر كاملة في نصوص الرحلة أو بعضها، بشكل
متفاوت بحسب شكل النص وأسه، يتداخل معها نوع حاضر بل
تظهر بشكل مستمر وهو الخبر الذاتي، أو عن الذات باعتبار
الرحلة، برمتها، وإن كانت تسجيلاً لأحداث ووقائع من طرف

الراوي-الرحالة فهي تعكس رؤيته للأشياء وعلاقته معها واختياراته واهتماماته، إنها حكي مباشر أو غير مباشر عن ذات الرحالة وذهنيته وتصوراتيه، بحيث يحضر هذا العنصر في الأشكال الخبرية خلفية موجهة.

1-1- الخبر التاريخي : لا يمكن لنص رحلي أن يخلو من أخبار تاريخية بالمعنى الذي يعطي للمؤرخ والجغرافي الإعتداد على الرحلة مثل مصدر معتمد يملأ بمعلومات حول أحداث وتواريخ وعمران وطرق.

إن عمق بنية الخبر التاريخي ليس هو التأريخ المحض في ذاته وإنما هو تسجيل مراحل الرحلة، وملاحظة عين الرحالة، وما يسمعه في ارتباط بالزمن، أو ما يحيل على الماضي ؛ ذلك أن مستويات الخبر التاريخي تقف على سرود تتعلق بـ :

1-1-1- الماضي الذي يحيل على فضاءات حافلة بمؤشرات لا نسترجعها حتى يكتمل فهم الحاضر . ويعتمد الراوي-الرحالة على مصدرين في بناء هذا النوع من الأخبار التاريخية : المؤلفات التاريخية والسماع المتصل بالأخبار الماضية (التاريخية)، فهناك استرجاع لتفضلات والأمكنة بعمرانها، وأيضاً للقادة والحكام وبعض الخصوصيات والأحداث المشهورة.

يقول أبو دلقب : «والخبر في بناء هذه المدينة أن هرمز ، ملك الفرس ، بلغه أن مولونا مباركاً يولد في بيت المقدس في قرية يقال لها بيت لحم وأن قريته يكون ذهباً وزيتاً ولبناً فأنفذ بعض ثقافته بمال عظيم وأمره أن يشتري من بيت المقدس ألف قنطار زيتاً

وحمل معه لبانا كثيرا وأمره أن يمضي من بيت المقدس ويسأل عن أمر هذا المولود، فإذا وقف عليه دفع الهدية إلى أمه وبشرها بما يكون لولدها من الشرف والذكر وفعل الخير ويسألها أن تدعوه له ولأهل مملكته ففعل الرجل ما أمر وصار إلى مريم فبلغ إليها ما وجه به معه وعرفها بركة ولدها فلما أراد الإنصراف عنها دفعت إليه جراب تراب وقالت له عَرَفَ صاحبك أنه سيكون لهذا التراب بناء فأخذه وانصرف⁽¹⁵⁾. يمكن الإشارة هنا إلى أن الخبر التاريخي عند أبي دلف قد أصبح مرجعا يقتبس منه المؤرخون (الحموي والقزويني) أخبارهم الشي وقف عليها أو سمعها من مصافرها القرية.

1-1-ب- سرود تهتم بالحاضر وتعتمد رؤية العين الممزوجة بقراءات سابقة لرحلات مرت من نفس المكان، على غرار ما فعل ابن بطوطة مع ابن جبير، والتابلي في رحلات سابقة له. أما سميات الخبر التاريخي في النص الرحلي فهو هجين من الجغرافيا والتاريخ الواقعي والمتخيل، المسموع والمرئي، يتموضع بين الاختصار الكثيف أحيانا، خصوصا فيما يتعلق بوقائع تتعلق بأشخاص وأحداث، وبين الإفاضة في الوصف الجغرافي والتحديد المكاني؛ ففي نص «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب»، يلتقط الراوي الخبر التاريخي الهجين من الرؤية والسماع دون إطناب، فيورده بوضوح في عدد أقل من الجمل التواصلية. أما العبدري فإن أخباره التاريخية حلي قلتها- تأتي تفصيلية مفتقدة لسلاسة أخبار أبي حامد الغرناطي أو ابن بطوطة.

ويحقق الخبر التاريخي وجوده في النص كلما كان عينيًا يستجيب لفصول الراوي، فيشكل في بعض الأحيان اندماجا يلتوت الخبر، وفي أحيان أخرى خروجًا ذا مسافة محسوبة عن ذات السارد قبل أن يعود إليها، تأكيدًا لواقعية الرحلة وأهمية معلومات الرحالة وقراءاته.

2-1- الخبر الاجتماعي : ويفيد هذا الجانب مبحث الإثنوغرافيا والأنثروبولوجيا، لأن الخبر الاجتماعي هو سجل ثري بالتقاط الظواهر والعادات وبعض التقاليد التي ينظر إليها الرحالة الراوي من منظور مقارن ويرصد من خلالها كل ما هو غير مألوف من سلوكيات ومعاملات، كما يرجع إلى التصوير بنبذة استقصائية أو انتقادية مع ما يصحب ذلك من سخرية وتعليق ووعظ وتمثيل.

هذا النوع من الإخبار هو فسفساء من أخبار وحكايات ؛ ففي (الرحلة المغربية) يتركب الخبر الاجتماعي، في بعده الواقعي «الحادث المصغى» من الإختلافات، ويقتصر، غالبًا، على الأخبار الاجتماعية المرتبطة بالآخر والحجاج والدين :

«ومن الأمر المستغرب والحال الذي أفصح عن قلة دينهم وأحرب أنهم يعترضون الحجاج ويجرعونهم من بحر الإهانة والملح الأجاج، ويأخذون على وفدهم الطرق والفجاج يبحثون عما بأيديهم من مال ويأمرون بتفتيش النساء والرجال...» (16).

الخبر الاجتماعي عند ابن فضلان وابن بطوطة مرصود بالمعجائي، يلتقط اللامألوف والغريب، سواء جاء رؤية أو

سماعاً، ويعتمد التضخيم والمبالغة. وفي هذا السياق يتحقق اختلاف هذا النوع الخبري من رحالة آخر بحسب رغبته كل واحد وقدرته على صوغ ما يراه ويؤوله، انطلاقاً من خلفياته ومواقفاته ثم من الشكل التعبيري الذي يكتب فيه، لأن أخبار الرحلة الحجية تختلف عن أخبار الأنواع الأخرى، سفارية أو علمية... وكان هدف النص الرحلي أن يساهم في بلورة بناء الخبر بكافة أنواعه. .

3-1- الخبر الأدبي : وتزخر به الرحلات الحجية والزيارية

والعملية على الخصوص، فتشمل تراجم الفقهاء والشيوخ والعلماء وبعض الأسماء المؤثرة في حياة الرحالة أو الآخرين من أحياء أو أموات. ويتصف هذا الخبر بالإيجاز والالتزام بتراجم مختصرة تضيء سيرهم الثقافية والاجتماعية وتأثيراتهم، أو تقتصر على ذكر بعض الفضائل وما وقع للرحالة أو ماسم.

4-1- الخبر الديني : ويتمثل بكثافة في الرحلات الحجية لإرباط الرحالة بهدف معين يعقد له فقرات وفصولا تسم الرحلة، وذلك من خلال سرود مترابطة حول فضلاء مكة والمدينة والمزارات، وأخبار حول الأنبياء والمعجزات، وإيراد بعض القصص المدعمة التي تتقاطع والخبر التاريخي.

ويتظم الخبر الديني في أفق إيراد معلومات حول الأنبياء ومعجزاتهم، وكل ما يتعلق بالجانب الديني خصوصاً، فالخبر الديني في "الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز" يقوم على استهداء ملاحم وعطولات الأنبياء والصحابة عن طريق الوقوف على معالم قبورهم أو بعض المعالم

الأخرى كالمساجد أو المعبد أو الفضاءات، أو ذكر أسمائهم في السياق، والاستطراد في الترجمة والإخبار⁽¹⁷⁾.

وعموماً، فإن صيغة الخبر الديني تأتي لإضفاء الطابع التجنسي على الرحلة، وتحقيق التوازن النفسي والروحي للراوي. تتكامل بنية الخبر، نواة الجملة السردية في الرحلة في تنوعها وتكون هي المؤشر على نوعية الرحلة إذ تنطلق من عنصرين محضين يتخلقان في كل خبر: وهما الرغبة والقدرة، يوحدهما البحث عن المعرفة وأشكالها؛ فحضور الرغبة دافع للحفر والسؤال والتبع، أما القدرة فإنها ملكة الرحالة في التقاط ما يشكل معرفة وتصوراً ورؤية.

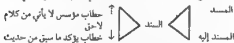
كما أن بناء الخبر لا يكتفي، في النص الرحلي، بعرض المشاهدات بشكل محايد وإنما يلجأ إلى إرواء الجملة الخبرية في غاها المتكامل برؤية الرحالة عبر توافقات أو تعارضات مستعملا في ذلك الذوق المرتبط بالرؤية والسماع والقراءة والتخيل والاستيهام؛ فأسلوب ابن جبير فيختلف باختلاف البلدان إذ أنه عندما يذكر المعاملة السيئة التي لقيها من موظفي ميناء الإسكندرية يستخدم أسلوباً خبرياً بحثاً يخلو من الصور الجمالية، والمحسنات البيعية. وفي لحظة وصوله للأراضي الحجازية، وقد ارتاح فسميسره ووصل الحرم المكي، نجد أسلوباً جميلاً⁽¹⁸⁾، وهو ما يعطي للرحلة بنية خبرية متنوعة ذات طابع احتمالي، خصوصاً في الجانب التاريخي والاجتماعي، وذات طابع نسبي في الخبر الأدبي.

ويتكون الخبر في الرحلة من «الحكان» أولاً، ثم «نوعية الرحلة» الموجهة للمهيمنات والقواعد، وهكذا فإن طبيعة الأخبار، بدورها، تتشكل وفق النوع الذي تشرب سماته، حيث يأتي الخبر التاريخي في الغالب وصفيًا تقريرياً، لكن تقريرته تنكسر بالجنوح نحو إبراز العجائب فيه. أما الخبر الاجتماعي فهو تصويري يلتقط الصورة في حركيتها وسكونيتها... وعموماً، فالخبر في النص الرحلي يؤدي وظيفة التلقين والتعلم والاعتبار والإمتاع، باعتبارها زاهات للتحقق، وروى تعكس رغبات الراوي ورويته للأشياء والعالم.

2- السند : ارتوت الجملة السردية في التراث العربي القديم بخصوصيات تواترت في أشكال تعبيرية مختلفة، من ضمنها السند الذي شكل مفتاح الجملة وسمة التصديق؛ ذلك أن السند ارتبط بالخبر ومرادفاته في حوض «حضارة الفقه» والرغبة في التأسيس لليقين. لذلك، فإن الإسناد هو «نسبة الشيء أو الخبر أو الرأي أو الحقيقة إلى أصلها أو مصدرها وهو بمعناه الإجرائي الجواب عن السؤال الذي كثيراً ما يرد على الألسن والأقلام»⁽¹⁹⁾. ويصرف الجرجاني، الإسناد بأنه نسبة أحد الجزئين إلى الآخر، أهم من أن يفيد المخاطب فائدة يصح السكوت عليها. وهو عند النحاة ضم إحدى الكلمتين إلى الأخرى على وجه الإفادة التامة. وفي اللغة هو إضافة الشيء إلى الشيء، أما الإسناد في الحديث فيعني أن يقول المحدث حدثنا فلان عن فلان عن رسول الله⁽²⁰⁾. وفي تعريفات أخرى أبعد عن الفقه، وأقرب إلى التاريخ

الذي هو قريب من الرحلات يصبح الإسناد إثبات فعل القول ورد النص إلى متجهه وليس إثبات الفعل إلى فاعله⁽²¹⁾، فالطبري يصل من خلال الإسناد إلى النص وليس إلى الفعل. وطريقته تعتمد جملاً إسنادية من قبيل «ذكرني بعض أصحابي» «ذكر لي جماعة من أصحابنا» أو «ذكر من رأى وشاهده»، فيصبح الشاهد والراوي شخصية واحدة، فيما يختلف الأمر عند المسعودي الذي يحول «ملكية النص من الشاهد الراوي إلى المؤرخ الراوي»⁽²²⁾.

وهكذا اقترن السند في جانبه الشكلي بالرواية والافتتاح لبداية خبر جديد أولي أو متمم لما سبق من أخبار، وأيضاً التصديق على المستوى الدلالي، وإضفاء الشرعية والصحة على الخبر من ثمة، فإن بناء جملة السند يأتي على الشكل التالي :



والسند هو فعل إنتاجي للخبر والتصديق على الكلام، لهذا فهو في المؤلفات الدينية ينتج خطاباً دينياً يثر التوجيه والوعظ في القضايا الحياتية والأخروية، كما أنه في خطاب التاريخ يسعى إلى إضفاء الحجّة والأمانة على التدوين. والسند في الخطاب الديني والتاريخي له شروط ومواصفات ومحددات تُسَوِّغ الملفوظ المنتج. ولأن النصوص السردية ولدت في حوض الثقافة الإسلامية والتاريخ مستلهمة بعض مكوناتهما، ومستثمرة إياها في نصوص معينة ويتوغلّف مختلف، فإن الإسناد في المقامات وفي

كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة والسير الشعبية إيهامي يسعى لتحقيق وظيفتين : الإيهام الفني ، والسخرية من صرامة الواقعي ومن الحقائق العاجزة والتصديقات التي يفرزها خطاب الإسناد . لكن الرحلة وبعض الأشكال القرية منها تلجأ إلى توظيف الإسناد بصيغة التصديق وإيلاء الأهمية لحديث واقعي مسنود يكشف عن عمق معرفة الرحالة بالرجال والأمكنة والتواريخ ، لذلك اتخذ السند في السرد العربي وجهين :

- سند حقيقي ، وفيه مستويات ، بحيث لا يخضع لمقياس الضعف والصحة ، كما هو الشأن في الخطاب الديني ، لأن كافة المرويات في الرحلة والتاريخ وغيرهما من التعبيرات القرية منهما تسمى إلى البحث عن سير حياتية وفكرية وأدبية وبعض الاخبار والأقوال والحكايات .

لهذا لا يدقق النقد في الاسنادات ، إذ يكفي أن يكون المسند معروفا أو طبعت له ترجمة ذاتية .

- سند خيالي في النصوص الحكائية بأشكال متفاوتة تعزز كل شكل حكاية عن الآخر⁽²³⁾ .

ويرتبط السند في النص الرحلي بمسندين واقعيين معروفين أو مغموين في مجالات الأدب والفقه والاجتماع ... رغم أنه لا يتحقق في كافة النصوص الرحلية ، وإنما في بعضها وبشكل قليل ، خصوصا مع رحلات من ذوي حس أدبي في نصوص حجية وزيارية ، وثقافية بشكل خاص .

ويختلف السند في الرحلة عن الإسنادات في حصول

أخرى ، على الرغم من كونه يقصد إلى تأكيد واقعية المأخوذ
باعتباره خبراً حقيقياً ، ويلاحظ في بنائه العام المتواتر سندان :
- سند مباشر توطئه أفعال واضحة تفيد أن الإسناد سمعه
الراوي الرحالة مباشرة من الأصول ، ويتنظم داخل حوار يقصر أو
يطول ، لكنه يعبر عن إيراد خبر معين يسمعه الراوي من معين
خبرة وراءه : «ودخلت مدينة أبهر سنة أربع وعشرين وخمسمائة ،
ونزلت عند القاضي الإمام أبي اليسر عطاء بن نيهان وكان من
أصحاب الشيخ الإمام ابن اسحاق الشيرازي ، وكان ، رحمه الله
عالماً فاضلاً صالحاً كريماً ، فتذاكرنا يوماً عجائب الدنيا فقال : في
أرضنا حب لم يشاهد مثله ، عندنا قلعة تسمى أروشان ، فيها جبل
يقال له «كوة رستم» ، فيه «غار رستم» وفي أعلى الغار ثقب كغم
كوز إذا دخل الإنسان إلى الغار يجد في ذلك الثقب حزمة من
قضبان عددها خمسة عشر قضيباً لا يدري من أي خشب هي ،
مشدودة بخيط لا يدري من أي شيء هو [...] فقلت ليس الخبر
كالمعينة . فلما رأيت ذلك العجب ، قلت ...» (24).

- سند غير مباشر متعلق بخبر يروي عبر آخرين شاهدوا
أو سمعوا الخبر ، فيعيد الراوي صياغة الخبر بلغته وتوجيهه . وقد
يذكر صاحبه أو ينيه للمجهول ، وفي هذا الإطار تدخل أيضاً
الأخبار المقررة من كتب ذات إحالة واضحة ، وهو ما يوجد في
جل النصوص الرحلية كما هو الشأن عند ابن جبير : «وأخبرنا غير
واحد من الثقات ، ممن يعرف حال خاتون هذه ، أنها موصوفة
بالعبادة والخير ، مؤثرة لأفعال البر ، فمنها أنها أنفقت في طريقها

هذا إلى الحجاز صدقات ونفقات في السبيل ، مالا عظيما وهي تحب الصالحين والصالحات وتزورهم متكررة رغبة في دعائهم .
وشأنها عجيب كله على شبابها وانغماسها في نعيم الملك ، والله يهدي من يشاء من عباده» (25) .

وفي كلا السنين وما يمكن أن يتفرع عنهما يصبح الراوي بنصه الرحلي شفويا ومقبلا ، سندا مزدوجا في ما يرويه من مشاهدات وسماع ، بحيث منصبح رحلة ابن جبير أو ابن بطوطة أو رحلات غيرهما سندا لرحلات أخرى

ويشكل عام فإن صيغة الإسناد في الرحلة تشكل قطبا في توليد الحكمي وإمداؤه بأخبار تشكل لحمه بنه . وكلما كان السند متوعا أفرز تعددا في المعطيات وزوايا النظر ، بحيث إن الصيغتين البارزتين يمكن تحديدهما في ' سند عام يحال على الغياب بالسماع أو القول عبر المباشر ، وسند خاص مباشر عن طريق السماع من الشيوخ وغيرهم .

وتختلف صيغ ورود الإسناد بحسب الخبر ، فتحققه في الخبر التاريخي أنه يزاوج بين المباشر وغير المباشر معتمدا على السماع والقراءات التاريخية ، وأيضا إلى المشاهدة العيانية . أما الخبر الاجتماعي فجملته لا تحتاج إلى سند لأنه يكتفي بتسجيل ما يراه ، في الأعم ، ونادرا ما يعززه بمرويات يسمعهما في هذا الجانب تكون قليلة جدا . فبيما يعتمد الخبر الأدبي والديني على الإسناد بشكل كبير كما هو الأمر في رحلات العبدري والتابلسي .

3- الفعل : الجملة السردية في النص الرحلي هي خطاب

إخباري يتشتر عبر سفر وكرونوتوب وتيمات متوالدة في شكل إخبارات متنوعة محورها الهدف أو الذات أو المكان أو الآخر . لهذا ، فإن هذه الجملة تستند على بنية الخبير والسند والمرجع والتيمات من ضمن عناصر كثيرة . ولعل مايقوي الصيغة الإخبارية للجملة الرحلية أن الرحالة هو الراوي الذي يحكي خبر رحلته في فترة محدودة وأمكنة معينة ، وأيضا طبيعة بنية الأفعال المحركة للجملة ، ذلك أن الأفعال المصاحبة للسفر هي بالضرورة- أفعال دينامية ، تشكل مدونة تنوزع إلى بنتين اثنتين :

3-1- بنية أفعال الإنطلاق : وهي مجموع الأفعال التي

ترد في بداية الرحلة وانطلاق المسير من جهة ، ثم الأفعال الواردة من جهة أخرى ، مع كل انطلاقة صغرى داخل الفضاءات الواقعة بين نقطة الإنطلاق ونقطة الوصول . وأفعال الانطلاق عند ابن بطوطة وابن فضلان وابن جبير مبشرة للخروج والارتحال والسير والاتصال والعبور ؛ أفعال ترد في صيغة الفعل بضمير المتكلم المفرد أو الجمع أو في صيغة المصدر مسبوقا بالفعل الماضي " كان " الذي يحتل عند ابن بطوطة -أساسا- موقعا ملفتا دون غيره ، لإدراك هذا الراوي أنه يروي أحداثا مرت عليها قرابة ثلاثة عقود ، لهذا فاستعمال فعل " كان " ، عنده يتموقع متجلزا ، ويختلف عن استعمالاته عند ابن جبير والعبدي .

وإذا كان ابن فضلان والتابلسي قد تخليا منذ البداية عن الفعل " كان " مثلما هو الأمر في المقطعين الافتتاحيين فإنهما

يخفيان حضور فعل السفر في الماضي القريب والمحدد،
ويضمران الفعل "كان" بداخله :

- «فرحنا من مدينة السلام» [..] وسرنا منها إلى قريسين
فأقمنا بها يومين . ثم رحلنا فسرنا حتى وصلنا إلى "همدان" فأقمنا
بها ثلاثة أيام»⁽²⁶⁾.

- «ثم أصبحنا في يوم الخميس المبارك عدة المحرم أول
شهر سنة خمس ومائة وألف من الهجرة النبوية»⁽²⁷⁾.

ويأتي الفعل عند ابن جبير والبيدري وابن بطوطة ليشغل
موقع المولد الابتدائي فقط :

- «وكان انفصال أحمد بن حسان ومحمد بن جبير من
هراطة» [..] وكانت رحلتنا»⁽²⁸⁾.

- «كان سفرنا تقبّله الله تعالى في الخامس والعشرين من ذي
القعدة عام ثمانية وثمانين وستمائة من حاحة صانها الله وكان
طريقنا»⁽²⁹⁾.

- «كان خروجي من طنجة مسقط رأسي في يوم الخميس
الثاني من شهر الله رجب الفرد عام خمسة وعشرين وسبعماية
[...] وكان ارتحالي»⁽³⁰⁾.

هكذا وفضلا عن الشحنة التي يفتح بها الحكيم قبل التخلي
عنه نسيا ويصير الحكيم كله في الماضي مألوفاً ومحدداً .

إن أفعال الإنطلاق بنواسخها هي السكة التي يتحدد بها
الزمن الماضي ، وترسم بها كرونولوجية الرحلة ، وكل هذا يؤكد
اختيار الراوي لأفعال محرّكة تساعد الجملة والدلالة على التوالد

والسهولة في الحركة والحفز على المسير والدقة في التحديد والارتباط به ، مما يجعل هذه الأفعال خطاباً إخبارياً مليئاً باليقين والتأكد ، وهو الشأن نفسه مع الانطلاقات الصغرى داخل النص حيث تصبح الأفعال أكثر حسية ، متشبثة برغبة و يقين داخليين ، يفلذان تلك الأفعال ويملأها بسخ نفسي وحسي وثيق الصلة بنفسية الرحالة- الراوي .

2-3- بنية أفعال التجسير : وهي البنية التي تحتوي أفعالاً للبناء داخل النص الرحلي تسعى إلى الربط بين السرد والوصف ، وبين الأحداث بعضها ببعض . وحاصية هذه الأفعال أنها متنوعة للتواصل ، وذلك على غرار : قصصنا ، وصلنا ، أخبرني ، رأيت ، سمعت ، قال لي ، حدثني ، ثم سافرنا ، ثم زرنا ... وغيرها من الأفعال التي ترسم دلالات غير موحدة تتضمن الحركة والشيئات ، والتأكيد والشك ، ولكنها تهدف إلى تحقيق الربط والانسجام والتواصل والحفاظ على العناصر التأسيسية في بناء الرحلة من كرونولوجية وتوالي الأحداث ، وهو المستوى الأول الذي تحققة أفعال التجسير ، (مستوى الربط) ، ثم المستوى الثاني ، (الحفز) الذي يسمى للحفاظ على عنصر التشويق ، والإيهام بالأخبار باعتبارها حقائق ذات مرجعيات تعكسها بعض أفعال التجسير الإسنادية نفسها : ذكر لي ، رأيت ، سمعت ...

ولها تين البنيتين من أفعال الانطلاق والأفعال التجسيرية - إضافة إلى بنيات صغرى متحققة بأشكال ونسب متفاوتة- فلوحة على التوجيه والتفعيل السرديين ، وعلى التواصل الذي يراهن

على خلق انسجام نصي، وانسجام بين المقارئ ونص الرحلة. من ثمة، فإن الحركة المهيمنة للأفعال في الرحلة تتراوح بين أفعال اليقين المتضمنة للأحكام والرؤية والمشاهدة في صياغات تأكيدية وتقريرية (أفعال البصر + أفعال الانتقال واللقاء)، وبين الأفعال الاحتمالية التي يتوخاها الراوي حتى يتسنى له الحديث بشكل افتراضي يقول من خلاله ما يعجز عن تأكيده فيتركه في منطقة الاحتمال والافتراض والشك. وعادة ما تأتي هذه الجمل ذات حمولة أدبية رقيقة غير جافة: (أفعال السماع، والإحالة على البناء للمجهول والحوار).

ويتحقق هذا التنوع الذي يتبناه النص الرحلي باعتباره حكيما عن سفر يلتقط المشاهدات بالإدراك الحسي، وأيضا بالمتخيل. ولا بد لكل جملة من محور يجسد موضوع الحركة والعلاقات الممتدة في أبعاد الفعل وامتداداته الفضائية والزمانية، بحيث يؤكد المعجم في الرحلة على أهمية الأفعال، وعخصوصا أفعال البصر التي تندرج ضمن أفعال الإدراك الحسي المؤطرة للمشاهدات والسجلات، فيحتل فعل الرؤية موقعا يوريا يؤسس للأحداث المدركة والمثيرة بالاحتمال، كما ترتبط بالدهشة والإعجاب أو الإنكار والشك.

- فو أول مارأيت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعاما وعجبت منه، فقال لي صاحبه: إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه، فلما وصلت الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك⁽³¹⁾.
وتفاوت حضور أفعال الإدراك الحسي في الرحلات

العربية بين التمتعظهر خافتا أو الظهور بكثافة كما في (رسالة ابن فضلان)؛ إذ يصبح فعل رأى جسرا لأهداف هي نسيج الرحلة . ولاتحقق حيوية الفعل إلا بوجود أفعال أخرى إدراكية من قبيل السمع والرؤية عبره . وتتوزع هذه الأفعال في نص ابن فضلان إلى تكرار ملحوظ للفعل «رأى» ، وهو لرؤية أشخاص وأمكنة . ثم فعل «سمع» لأخبار وأحداث ، وبينهما ترد أفعال أخرى قريبة . وفي هذا السياق تكون أفعال النص أفعالات طبيعة فضائية⁽³²⁾ . وتكمن أهمية فعل الرؤية في الإدراك وفي الذات المدركة التي تنقل الشيء العربي (أو المسموع) وأيضا في لا محدودية الفعل بصفة متأصلة⁽³³⁾ لأنه يتسع ويمتد إلى عدة مفعولات .

ويمكن ملاحظة ندرة أفعال الرؤية في سياق التفالوت من خلال نص ابن بطوطة الذي يدغم الفعل ويشبه أثناء حكيه متخليا عن وساطته ، وراويا رحلته وكأنه يخشى الإقراط في استعمال فعل «رأى» ، فلا يوظفه في حالات قليلة ، ولكنه يبدو حاضرا ضمنيا في سروده وأوصافه ، وهو أسلوب أقرب إلى الحكي والإمتاع منه إلى البحث عن تأكيدات وتقارير لا يهجم المتلقي بحقائق مرئية بعين الراوي .

والمرجح أن هذه المدة الطويلة الفاصلة بين التجربة وتقيدها يجعل فعل الرؤية منصهرا في الذاكرة التي تستدعي أفعالا أخرى أقدر على إرواء الحكي . وكذلك تنفذية الجملة الرحلية باعتبارها بنية فائضة بذاتها وبكل المكونات الأخرى مما يكسبها قوة إخبارية تحقق أهداف تقييد الرحلة ، خصوصا وأن وظيفة كل من

الجملة الفعلية والإسمية وشبه الجملة تقوم بصوغ الخبر بشكل
تأوي، وتضيء جانب الحكيم فيه، إضافة إلى حضور التزمين
والتوصيف والتلوين في الجملة السردية الشيء الذي يثريها
بمحولات وخلفيات وحقائق واحتمالات.

4- المرجع : يفتح السرد على صياغات إحالية تشكل
برنامجا ينتج نصا ينحاز إلى نسق ومعمار معين. ويتخلق المرجع
في النص منصهرا ومستجيبا لانسجام نصي ظاهريا، ومؤسسا
لقنوات تمتد وتتوسع لتجذب المتخيل ومسار الجنس، مادام
المرجع هو الشيء المسمى الذي تحيل عليه العلامة اللسانية سواء
في الواقع أو الخيال⁽³⁴⁾ في إطار علاقته بالذال والمطلول، وهو ما
أكدت عليه تصورات سيميائية أخرى جعلت المرجع يتضمن أيضا
المتخيل والرمزي حيث الواقعي ليس معطى خالصا ولكنه
بناء⁽³⁵⁾. فهل يمكن القول إن السرد الرحلي -وهو نص يحكي
تجربة «معيشة»- يحيل على واقع حقيقي؟ وإن النص مرتبط
بمرجع واقعي يحيل عليه؟ إنها مسألة معقدة تمتلك أكثر من واجهة
وزاوية لا جزم فيها، لأن كل تجربة مستعادة في نص شفوي أو
لغوي تصبح تجربة ثانية؛ فالواقع يوجد مستقلا عن النص⁽³⁶⁾،
هذا الأخير الذي ليس صيغة جاهزة وإنما علامات متشكلة تتفاعل
بداخلها عناصر ونسائج تؤسس لرؤية مفتوحة تعتمد على الذاكرة
والتلاحمات وعلى إعادة إنتاج إدراكات وتشريرات ضمن قنوات
تستقطب ما يخدمها جماليا وفنيا ومعرفيا.
ويعمل النص الرحلي على فرضية تأكيدية بصدق المرجع،

وذلك بتوجيه ملازم وجمل ذات مرجعية لها قيمة الحقيقة⁽³⁷⁾ تصبح سلطة تؤسس لكيان يشتغل وفق هذا التصور، ثم يهدمه في سياق تسلل وتسرب بنيات الاحتمال والشك والإحالات على العالم الممكن، فتخلق نصا مفتوحا باتفعال مضاعف لا يستند على يقين المطلق والحقيقة المطابقة، ولكنه يخلق «واقعا ثانيا»، ورحلة ثانية، وإحالة أخرى رغم الإدراك الخاص للتجربة المؤكدة بواسطة استعمالات مرجعية لعناصر نصية هي الخلفية التي يقف عليها السرد الرحلي في علاقات العمودية والأفقية مع الراوي والأحداث وصيغ التواصل. لأن السرد الرحلي يحتوي على مرجعيات إحالية خارجية على نصوص أخرى⁽³⁸⁾، وعلى تجارب متعددة تطعم التجربة الشخصية للراوي، فتتحول المرجعيات إلى مجالات متنوعة ومتفاعلة تشكل من الرؤية والسمع والقراءات والنصوص وطبقات المعارف المتنوعة. وهو ما يخلطه المفلمي في سياق ارتحال جغرافي وتاريخي في قوله: «اعلم أن جماعة من أهل العلم ومن الوزراء قد صفوا في هذا الباب، وإن كانت مصنفاتهم مختلفة، غير أن أكثرها بل كلها سماع لهم. ونحن فلم يبق إقليد إلا وقد دخلناه. وأقل مسبب إلا وقد عرفناه. وصائر كنا - مع ذلك- البحث والسؤال والنظر في الغيب. فانظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام. أحدها ما عايناه والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره...»⁽³⁹⁾. لكن المرجع يفتح أكثر على العالم، ذلك أنه «يدل على كل ما يمكن التفكير فيه أو التلميح إليه» فالإحالة

الإرجاع الخاصة تعمل ، باستمرار ، سواء أكان مايرمي إليه ماديا أم لا ، خياليا أم لا . ثم إن مصطلح الإرجاع ينطوي على مزية تضمن الخارجية ؛ فالمرجع هو الغياب الذي يعوض عند حضور الدلائل . كما أنه يفترض حجة خارجية أو بداية فعلية تُمكن القارئ من إثبات صحة الكلمات . أما وجود واقع غير لفظي خارج كون الكلمات فمسألة أكيدة ، غير أن الاعتقاد الساذج بوجود صلة مباشرة بين الكلمات والمراجع فإنها وهم وذلك لسببين : أحدهما عام وصالح لكل وقائع اللسان ؛ والآخر خاص بالأدب⁽⁴⁰⁾ .

من ثمة ، فليس هناك بُدّ من الحديث عن اتصهار تفاهلي لمرجعيات ثقافية ودينية وزيارية وسياسية وغيرها تؤثر فيها مدة الرحلة التي تؤثر التجربة ؛ فقد أمضى الهروي (ق7هـ) معظم حياته في الترحال سائحا وزائرا بلاد الشام ومصر والعراق وإيران والهند وبيزنطة وصقلية ... ودون كل مشاهداته تلك في كتابه "الإشارات إلى معرفة الزيارات" ، شأنه شأن ابن بطوطة وابن الجيعان وغيرهما .

وتحدد المرجعية بشكل غير موحد تبعا لنوعية الرحلة والاتجاه المهيمن فيها ؛ فالمرجع عند المقدسي ينبنى على مراحل ومستويات عليّة تنفق وطبيعة مؤلفه الجغرافي الرحلي :
 «فإنّ نظم كتابنا هذا ثلاثة أقسام : أحدها ما غايته والثاني ما سمعناه من الثقات والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة في هذا الباب وغيره ... فكم بين من قاسى هذه الأسباب وبين من صنف

كتاباه في الرفاهية ووضعته على السماع، ولقد ذهب لي من هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم⁽⁴¹⁾، ويمكن النظر إلى المرجع في النص الرحلي من زاوية أخرى تكمن لي تضمنته لمرجعين أساسيين هما : مرجع الحقيقي ومرجع المتخيل يعقدهما الاحتمال والتخيل :

1-4- مرجع الحقيقي : في هذا القطب يتم تسجيل الزمان والمكان والإحالات المتعددة عليهما في حركية متسلسلة . لكن هذا الحقيقي ذاتي مرتبط برؤية وصياغة نقلته من مرجع معيش إلى تقبيد مكتوب ملوث خضع للاختبار والإسقاط والتشذيب والإضافة، مما يجعل «الحقيقي» غير مكتمل حينما دخل وعاء اللغة عبر التحويل، بل إن الحقيقي لا يصير شفافاً إلا بتفاعله مع المحتمل والخيالي، ومع النفسي والبدني ؛ فالتخليلات التي يلجأ إليها الراوي من حقول التاريخ والجغرافيا والحديث والتراجم ... مراجع تندمج ضمن بنية سرديّة وظيفتها التأكيد والمعرفة، لكنها تذوب ضمن استراتيجية التفاعل والتوجيه الذي يمارسه الراوي على كل الملفوظات بقصد تدعيم «الملفوظ الواحد» والتأكيد على المرجع بصفته «علامة للإحالة على ما هو واقعي»⁽⁴²⁾ مرتبط بالنص باعتباره أن المرجع لا يفصل أبداً عن النص الذي يؤسسه⁽⁴³⁾.

2-4- مرجع المتخيل، ويتمظهر من خلال الحوارات والأحلام والتعليقات وبعض الأحكام والمقارنات والتخمينات والتلوينات والاستعمالات الأسلوبية ؛ إنه مرجع ثري، يجعل

النص الرحلي يتخذ من مرجع الحقيقي وعاءً لإطاريا المرجع المحتمل ، مع حضور خاص للإدراك الذي يخلق التوازن بين الراوي والرحلة والمثلي ؛ فالعلاقة بين المدلول والمرجع مؤسسة بالدال⁽⁴⁴⁾ في تشعباته ، بحيث يشيد بناء المرجع - وهو من أهم العناصر المشكلة للخطاب - في النص الرحلي صوته وفق قاعدة تتيح للتفاعل فرصة تحقيق المتعة والمعرفة اللتين يتوخاهما



إن حضور المرجع بهذه الصيغ في السرد الرحلي يشجع الجملة بدلالات مرتبطة بالذات وبالروية ، وقد عبّر ابن قنط في مجموع نصه «أنس الفقير وعز الحقيير»⁽⁴⁵⁾ عن تلاقح المرجعيات -المتعارضة أحيانا- لإضاءة مرجعية الراوي ؛ لأن تمظهرات هذه المرجعيات «الغريبة» ، والتي سيتم تلويثها حيناً ، والوقوف موقفاً حيادياً منها حيناً آخر ، تشكل نسفاً موازياً يفرز الحقيقي ويقوم قنوات الإدراك والتواصل مع المثلي الأول (الراوي) والثاني (القارئ) .

يُشكل السند والاستشهاد⁽⁴⁶⁾ مرجعاً موازياً يحتمل «الحقيقة» ، ويراد به الانسجام والتوازن⁽⁴⁷⁾ ، وبالتالي يقف

المرجع البؤري علامة متجذرة تدمج وتبلور وتنسق في أفق إنتاج مسار مرجعي معتمد في الإدراك والتواصل والاستشهاد ؛ فمرجعية ابن قنفذ القاعدية الصوفية والمتنوعة في سجلات اجتماعية غير متساوية يعكسها نصه الرحلي ، وتتلخص في رغبته الباحثة عن اليقين والانسجام الروحيين وكذلك عن الطهارة عبر تحقيق بعض الأشياء الرمزية والفعلية التي تغذي روحه وتعطيه الشفة والإرتياح ، وهو ما شكله التوجه الصوفي والاعتقاد الذي طبع ورسم حيوات بعض " الصلحاء والأولياء " الذين ساروا في نفس الطريق ، فهُمْ يتبع خطاهم عبر تذكيرهم واسترجاع مساعيهم وكراماتهم في الدنيا ، على غرار التابلي في رحلته الحجيّة .

تؤكد قيمة الإدراك الرئيسية في العلاقة مع المرجع . وأهميته تكمن في التراوح الذي يهضم المرجع بين الحقيقي والمنخيل والمحتمل ، استعانة بالمرجعيات المساعدة الموازية ، والتي حصرها ابن قنفذ في سجلات الهروي والتووي وياقوت الحموي والحنبلي وغيرهم من الرحالة والمؤرخين والعلماء الذين أغنوا مرجعيته في بنائها العام .

إن بناء الجملة هو تنظيم للمرجع المسنن المحكوم بمرجعيات دينية واجتماعية وتاريخية وأسطورية وبأشكال أخرى هي مفاعلات تصدأ ضمن دائرة أو دوائر تشكل مرجعية مشتركة ، واستراتيجية تحكم وتشيد الرحلة ورؤاها للأناء والآخر في استقلالية وخصوصية ، إذ لا يمكن للرحلة أو لأي نص أدبي

أن يكون نسخة وإعادة لإنتاج العالم⁽⁴⁸⁾ عبر أصوات المرجع والإجراءات الداخلية.

III- الإستراتيجية السردية

1- أنواع السرد : تحقق السرد في الرحلة من خلال تشكيلات متلونة تبحث عن انسجام للتواصل ، ذلك أن البنية العامة المجددة في النوع المتحى ترسم شكل تأثيرها على بنية السرد ، بحيث يصبح كل نص وحلي بناء تركيبيا تتفاعل بداخله بينان أساسيتان : سرود كبرى وأخرى صغرى :

1-1- هي السرد الكبرى الموسعة تحدد الرحلة في كليتها بقيمتها وأهدافها ، كما تشكل التيمات الإطارية التي هي عماد الرحلة ووجه معالمها التي تنسجم وبناء النص الرحلي ، ثم تحدد أفقه ومعلمه ، لأن الكرونولوجية التي طبعت شكل الرحلة جعلت البرنامج السردى في وحدته واضحا ومحددا ، ذلك أن بنيات السرد الكبرى تتأطر في ثلاث حركات عامة هي :

- الخروج والمسير ذهابا وإيابا .

- المشاهدات ، والحوار والتعليق والمقارنات .

- الحنين والتذكريات .

وتتحول كل هذه الحركات وغيرها من أحداث ووقائع خام إلى سرود تخييلية إطارية هي البنيات التي تقوم عليها الرحلة . وتتراوح هذه السرد بين البانورامية والمشهدية تحقيقا للتنوع والتواصل . ويتأكد التنوع بشكل جلي في تعدد الأشكال الرحلية حيث يشتغل الحلف والتلخيص على بعض حركات السرد

الكبرى : (حركة الانطلاق والمسير في الرحلات السفارية)،
 والتخيلات والاستشهادات والاستطراد في الرحلات الأدبية
 والحجية ، فيما يغلب الاسترجاع والتراجع المختصرة على
 الرحلات الزيارية ، أساسا ، والحجة والأدبية بدرجة أقل .
 وقد تشاغل كل هذه العناصر وتتخذ مستوى موحدا يعمد إلى
 التلخيص الذي يطبع مجمل الرحلة (ابن جبير) ، فتشكل
 الاستطرادات والتخيلات والاسترجاعات النسبة الأكبر في النص
 (النايلسي) .

2-1. في المقابل تتكفل السرد الصغرى بمحكيات هي
 صيغ نصيصات متوالية تتضمن ، بدورها ، وقائع أبرزتها عن
 مصادفات ومفاجآت أو مغامرات ، أو حوارات ، أو رؤيات ، أو
 سماع ، أو استرجاع مقروءات يستدعيها الفضاء ، أو سياق حوار
 معين . وتعمل هذه النصيصات على تفعيل السرد الكبرى ، ويعد
 الدينامية في الحكى عن طريق ما نقله من تعجيب ومعارف ،
 تسمى كلها إلى إبراز تنوع الخطابات والرؤى ومواقف الراوي
 وتعليقاته .

إن هذه النصيصات هي بمثابة " الخيط الذهبي " الذي يترق به
 الراوي سروده متفاعلا مع كل البنيات الأخرى . ويمكن في هذا
 السياق ملاحظة ثلاثة أشكال مهيمنة في هذا النوع :

2-1-1. محكيات سرودية داخلية نفي "أنا" الراوي-
 الرحالة ، وهي نصيصات مقطعية مبثوثة في كل النص ، تتمظهر
 عبر شكلي الصريح والضمني ، سواء في إطار الحوارات أو في

إطار المشاهدات وما تفرزه من تعليقات ومقارنات تموضع فيها «الأنا» المركزية جليلة أم خفية. وهذا ما يتحقق بكثرة في نص ابن بطوطة الذي رسم مسار الرحلة على محور اللات تصب في القطب السيري الشلري.

2-2-1. محكيات سرديّة عن الآخر المتعدد من خلال أوهاء تنسجم مع وعي وقناعات الراوي أو تختلف معه. لهذا فهذه السرود تحمل أحكاما وتعليقات وأوصافا وهي نصيصات تراجمية تنحو منحى تصوير الآخر لفهمه ؛ فابن فضلان قلا سروده بنية رواية مارآه بالأساس في هذا "الآخر" من لاملوفية واختلافية. فيما كانت النصيصات التراجمية تنماس مع الهاجيوغرافيا⁽⁴⁹⁾، وتمتص منها كما هو الأمر في الرحلات الزيارية مثل رحلة ابن قنطبر الذي يروي سيرة أحد الأولياء انطلاقا من رؤيته ورؤى المريدين له، والناهبلي من خلال استعراضه الاسترجاعي لنصيصات متوالية فيها القصير المختزل والطويل المستطرد من سير الصحابة والصلحاء ومنافهم، فتكون الرحلة بذلك فضاء لسرود عن الغير، متراوحة بين التراجم والهاجيوغرافيا والمناقب تبعا لنوعية الرحلة.

2-2-1. محكيات تخص سرود اليومي من خلال بعض الأحداث والتواريخ الخاصة بالقضاءات التي يمر منها الراوي أو يتوقف عندها، مما يلزمه حكمي الطريق. وفي هذه المرحلة يعمل السرد متناوبا مع الوصف، خصوصا حينما يتعلق الأمر بالانطلاق من المعرني إلى استرجاعات توسع من الإدراك، وتكمل ما قصرت

العين عن التقاطه . كما ظهرت في الرحلات نصوص تنكس على التاريخ والجغرافيا لتوليد نصيصات استرجاعية مدعمة تتموضع إلى جانب السرود الأخرى لبناء الرحلة وأفقها على الخصوص . وتكون نصيصات الأنا والآخر واليومي التاريخي شفرة متفاوتة الحضور ، تحقق نوعية الرحلة وهيمنة سرود على أخرى ، بالإضافة إلى هيمنة التلخيص والمشهدية .

وعبر تفكيك السرود الرحلية البسيطة أو المركبة بتضح ارتباط السرد بالزمن باعتبارها نصوصا زمنية تنطلق من نقطة وتنتهي في أخرى ، ذلك أن خصوصية تزمين السرد تتحقق في النصوص الرحلية ديناميا من أجل الموضوعية المزعومة وإيهام المتلقي بحقيقة ومصداقية خطاب الرحلة ، الأمر سيان في الرحلات الخيالية حيث يتم استثمار مكون الزمن ضمن سردية المعجاني لتشكيل تحولات في صور وأحلام غير مألوفة .

2- **العناصر والأسس** : يتحدد السرد في الرحلة وفق استراتيجيات عامة وخاصة ، أساسها خطية الرحلة المرسومة بنقطة انطلاق ونقط التوقف ، ومايصحبها من مشاهدات وتأمل وحوار وأزمات وآمال ، ثم نقطة الوصول ، ومايستتبعها من نقط أخرى قد تحقق العودة أو البحث عن أهداف خطوط سير أخرى . إنها استراتيجيات تحصر الزمن ، وتجدد الفضاء والأحداث المشاهدة المروية والمتخيلة ، ومايخضع له السرد أثناء تحويل الأحداث والوقائع من تجربة معيشة إلى سرد مكتوب من تحريكات وإضافات وإهمال وتقريرية ... عبر النفاذ إلى

الإستراتيجية السردية وما تتضمنه من عناصر وتشكلات ترمخ
نسيج السرد الرحلي .

كل نص رحلي هو نسق سرود مترابكة ومتلاحمة تفضي إلى
بناء ذي دلالات، متجنس ضمن قواعد الرحلة بشكل خاص،
وفي إطار الشر الفني بشكل عام . لكن تحقق بناء السردية -وهو
يخضع لقوانين الجنس والكتابة- يسمى إلى ترسيم مكونات
وعناصر مهيمنة ذات حضور جذري في توجيه السرد ووسمه .

خمسة عناصر وأسس وتيمات تتواتر وتحضر بأشكال متفارقة
في هذا البناء وهي : السفر، والعبور، والمعرفة، والدائرة، والمتعة .

1-2- **العنصر** : تيمة السفر هي البؤرة الأم التي تنمو حولها
تييمات أخرى باعتبارها الموكد والحافز الداعي للحركة والقدرة
على التفعيل والحيوية، لأن السفر هو التحقق الفعلي أو الذهني
للإرتحال في الأزمنة الثلاثة وأبعادها في الوجود أو الخيال، بحثا
عن يقين ما ؛ ذلك أن عنصر السفر يصبح ذا وضعية مزدوجة
الحضور، فهو شكل وتيمة في آن من خلال الشكل الإطار الذي
يسم النص بـ«رحلة» ، ثم ما تنتجه هذه الأخيرة من أفعال وأحداث
تفيد الانتقال وتجليات السفر موضوعا وشكلا، بحيث تبدأ محركا
فاعلا للسرد في المنطلق، ثم تتراجع لصالح تيمات أخرى، مع
حضورها الضمني في لحظات الانتقال، ثم تحضر في بعض
النصوص بصيغة تناوبية بين الشكل والتيمة، لأنه حينما يهيمن
السفر تكون التيمات الأخرى «خافتة» ونابعة له، وحينما يهيمن
الشكل تبرز تلك التيمات .

يشتغل السفر في النص الرحلي عنصرا يغذي الرحلة، فتتطلق الأحداث، ثم ينسحب تاركا الفرصة لتييمات أخرى خلال محطات الوقوف والوصول. وكلما بدأ خفوت تلك التيمات، أو اختفت، أو أدت وظيفتها، يتم اللجوء مرة ثانية إلى مكون السفر لفتح أفاق أخرى على تيمات جديدة، وهكذا يكون السفر مولدا وجسرا، كما هو حافز ووعاء.

في "تحفة النظر" يفتتح السفر السرد ولكنه يتراجع لصالح تيمات مغايرة في اللحظة التي يتوقف فيها الراوي في مكان جديد، فتتخلق أحداث ووقائع، ويتم استدعاء السفر على المستوى الذهني -الاسترجاعي لدعم مشاهداته وتمكينه من التفاعل مع باقي الأحداث ثم يعود إلى السمر والانتقال إلى فضاء آخر وأحداث أخرى للتجسير والربط والتوازن داخل النص الرحلي فيحرر الخبر لتمنيع الحكيم بالانتقال والتنويع.

تُحرك عنصر السفر، في كل مراحله، حوافز الرغبة والبحث عن تغذية دوافع ذاتية ومشتركة، مما يجعله محورا بؤريا يفرز تيمات محدودة في الزمان والمكان، وهي وقائع صغيرة تنتهي بمرور السفر، تيمات لصيقة بفعله تتشكل من خلال معان وقرائن ونصيبات مشقة..

ولا يتوضح السفر الذي هو عنصر وشكل، إلا انطلاقا من فهم كونه نستولد تيمات أخرى تساهم في بناء السرد من خلال تنوع الأحداث التي يمكن النظر إليها من زوايا: أحداث ماضية بعيدة تروى بالتواتر يتم توثيقها بالسند، ثم أحداث ماضية قريبة. أما

الأحداث اليومية فإن الرؤية والحوار والتأمل عناصر كفيفة بتشكيلها وصوغها.

2-2- **العبور** : تشكل العبور خلال لحظة حاسمة في البحث عن يقين غير محدد في واحد من الأزمنة الثلاثة. ولكنه يتفاير ويختلف من نوع رحلي لآخر ؛ ففي الرحلات الحسية والزيارية، الزمن مقسم إلى دنيا وأخرة، وفي الرحلات السفارية يصبح الراهن والمستقبل معادلة أساسية، ولإنجاز كل هذا لابد من اللجوء إلى تقنية العبور لتحقيق شيء ما.

حينما يحيا الرحالة رحلته فهو يعيشها في راهنتها، لكنه في الآن نفسه لا يمكن أن يعيش ويفهم أو يتعايش مع لحظته دون استحضار الماضي الذي منه قرر وفكر، فمن خلاله يقارن ويتطلع إلى المستقبل الدنيوي والأخروي، وذلك بالعبور باعتباره تقنية سرعية للاستدعاء والاسترجاع على مستوى النص، فيعبر المكتوب إلى الماضي (الفعلي والمتخيل) للحديث عن أحداث وخيالات سابقة انتهت باعتبارها بنية دائرية تتصل بالحاضر وتفتح على المستقبل عبر مصطلح مفاد.

في الرحلة الفعلية التي تصبح لحظة ماضية أثناء تحولها إلى رحلة مدونة يحضر الماضي في عبوره إلى النص - بأشكال متعددة، فيتظاهر موجها التيمات والمعرفة وكل العناصر الأخرى نحو صورة للمستقبل الذي يتخذ صورا متغيرة في تمثيلات نوعية مختلفة : دينية ودنيوية، ليس بالإنفصال الحاد والمتنافر، وإنما بالاختلاف والمغايرة المرنة، والمتداخلة الحدود ؛ فالمستقبل

في رسالة ابن فضلان مضرب غير واضح، وكأن الراوي يستهدف إنجاز فهم للحاضر فقط وقد استغرقته معطياته اللامألوفة. فيما يعلن العبدري والتابلسي عن صورة المستقبل الأعزوي الذي يطمحان إليه؛ فما الدنيا بأزمتهما إلا عبور نحو الزمن الخالد (الأخرة).

وضمن بنية الزمن والتحويلات التي يتجها العبور، وهو تقنية نفسية وسردية يحقق البناء السردى في الرحلة دينامية في التقاطع بين الأزمنة كما يحقق فعلا نفسا بالعبور الأفقي والعمودي، وإن كان يبدو في النص عبورا كرونولوجيا يطعم بتتويع من عبورات مستدعاة وهي شخصيات ومولدات، لأن النص الرحلي وهو أثر لرحلة فعلية أو متخيلة لا يتحقق إلا في هذا العبور.

3-2- المعرفة : تنبني الرحلة على تقديم معرفة متنوعة مباشرة من المعلومات الأدبية والتاريخية والجغرافية والاثنوغرافية، وغير مباشرة تشكل من آراء ومواقف الراوي عن ذاته وعن الآخرين.

ويكمن خطاب المعرفة ونوعيته فيما يقلعه الراوي عبر أوصافه وتعليقاته وتبويراته، فخلالها تبرز «معرفة القيم» و«معرفة السائد»، بأسلوب المقارنة والحوار والتكريب، فتتبار معرفة الذات والآخر، فضلا عن معرفة موازية متحولة يساهم فيها أفق انتظار القارئ وثقافته، والعصر الذي يتناول فيه النص.

المعرفة في النص الرحلي تنبني على أسس وخلفيات الذاكرة والعين في مستوى أول، ثم القراءة والسماع في مستوى ثان.

وبالتالي تصيغ عبارة عن تلقّيات وتقليدات ترتقها تحويلات وتفاعلات ؛ فحضور عين الراوي هو المهاد الذي يستدعي معطيات تخص التلقّيات الأخرى بصيغ تختلف من نص لآخر ، إذ يستثمر التابلسي ما تراه عينه ليسترجع تذكاراته من مقروءاته التاريخية والجغرافية والدينية والأدبية . أما ابن فضلان فإنه يقدم معرفة . تتعلق بما يراه وبما يسمعه فقط .

تتألف معرفة العين من طبقات معارف ، ومستويات على قدرة الاستبطان والتوغل ، وتطعيم كل ذلك بالاستدعاءات والاسترجاع من مقروءات وسماع وتخمين ، ثم من تأملات وتعليقات وأسئلة محايدة ومقارنات ، ذلك أن المعرفة في النص الرحلي من صنفين يضاهلان ويُعضدان بعضهما : معرفة جاهزة توحي بالموضوعية ، هي معرفة متفاعة وموجهة يختارها الراوي من قراءاته حتى تُركي رؤيته وتُصدقها ، ومعرفة مشككة من الرؤية والتخيلات والسماع . وتصيح المعرفة الجاهزة جزءاً ضمنها ، وهي مدونة تلّوّب كل شيء من أجل بناء رؤية منسجمة تعكس القناعات الحقيقية والاحتمالية للراوي .

إن نوعية المعرفة المقدمة في الرحلة ليست واحدة ، كما أنها تقدم للمقارئ على أساس كونها حقائق حيناً (ابن بطرقة ، العبدري) ، واحتمالات حيناً آخر (أبو دلف) .

وتترواح المعرفة في الرحلات بين الحقائق والخرافات ، وبين المطلق والنسبي ، لأن مرجعيتها في سياق سفر محدود- تمتع من العين والذاكرة ، وبالتالي فإن تنسيبها وارد ، وزوايا النظر

إليها وتقويمها يختلفان من حقل لآخر . لكن قارئ الرحلة ، باعتبارها نصا تخييليا سيدرج هذه المعرفة ضمن أي معرفة مذكّنة في النص السردى ، تضيء "الأنا" الراوية في مرحلة ما ، وكيفيات تفكيرها ومسارات وعيها وأوعاء الآخرين وأدوات هذا الفهم الذي يفسح المجال لشحذ الأسئلة الموجهة للأدب العربي وإشكالاته التعبيرية .

4-2 الدائرة : تساهم الدائرة في بناء السرد الرحلي انطلاقا من ابتعادها عن المفهوم الهندسي المبسط ، واقتربها من الدائرة وهي مفهوم فلسفي يكحم النص بيناءاته الداخلية والخارجية ، فالرحلة تنجز سفرا خطيا على المستوى الظاهري حينما يقرر الرحالة إنهاء رحلته عند نقطة النهاية - الهدف وقطع خط العودة ، على عكس النصوص التي تحقق سفرا دائريا يتضمن نقط البداية والنهاية والعودة .

والنص الرحلي ، في الأعم ، دائرة تضم معارف وأحداثا وسرودا ، حيث هناك دائما اقتران بين البداية والنهاية⁽⁵⁰⁾ ، وربط جديلي بين العناصر البنائية ، وبينها وبين ما هو خارجي ، وحضور للدائرة التي تشكل انغلاقا عن الخارج وانفتاحا على الداخل ، ذلك أن القصة في النص الرحلي أو الأحداث المحكية والمجردة في تواليها تُشكّل حلقة دائرية متصل ، بعضها بالبعض الآخر ، وعناصرها هي البناء والنسيج الإطاري الذي يشكل الرحلة من تواليات أخبار تساعد على الانفتاح والانغلاق⁽⁵¹⁾ ، بحيث إن كل خبر يمكن عزله لوحده ، كما يمكن قراءته مع مجموع

الحلقات المخبرية ضمن دائرة تجسد المسير عبر الذهاب والإياب .

داخل بنية المسير تتشكل الدوائر من المشاهدات والأحداث المتولدة، وهي دوائر صغرى مكثفة بذاتها، تنمي الدائرة الكبرى للرحلة بعمامة. كما أن التمثيل اللفظي الذي يجسده الخطاب تمثيل دائري بامتياز، إذ «التميز الأساسي هو الذي يقابل الدائرة باعتبارها عنصرا في تركيب القصة المروية والدائرة التي هي قانون لبناء الخطاب الذي يروي هذه القصة»⁽⁵²⁾. فالرحلة تنفتح بشكل دائري على قرائنها، وتحقق شروط التواصل حينما تنفتح على الذات والآخر، والقيم والنصوص، والرؤى والخلفيات. أنذاك تنعش الدائرة، وتصبح بعدا في بناء الرحلة وتخصيبتها، فخاصية تعدد الأمكنة هي انفتاح على التوالد والسجلات، وعلى دوائر متفاعلة ومتتجة .

من هذا المنظور تنتج الدائرة باتغلاقاتها وانفتاحها وعيا دائريا *Planetary consciousness*⁽⁵³⁾ يتشكل من المعلومات والآراء المجمعة والتعليقات والخلفيات والمسبقات والسجلات المؤطرة للرؤية الرحالة للعالم تصوغ أو تعدل، وتوجه رؤية القارئ. كما يتمظهر هذا الوعي الدائري عبر الجسم في قضايا تتعلق بالتاريخ والقيم والزمن (الدفيا . الآخرة)، وهو ما ينعكس في لاوعي النص ويوجه النوع الرحلي والصوغ العام .

5-2- المتمتعة: إن عملية التحويل التي تخضع لها تجربة

فعلية أو ذهنية روحية لتصير نصا لغويا تتم عبر اللغة الراسمة

لتحقيقات المتعة في مستويات ، ووضعية مضاعفة في مراحل متعددة عاشها الراوي - الرحلة قبل الفعل ، وذلك بالتفكير والنهي لها ، ثم فعليا أثناءها ، وما صاحب ذلك من تعديل والكسار وتقويم ، ويعدنا من تذكر ثم حكى شفوي ، وأخيرا من تقييد ومراجعة ، مما يضاعف من تشكل التشويق وإنبائه ، خصوصا ، وأن تحقق المسافة بين الفعل والتلوين يعطي نصا تخيليا مليئا بالتذكرات والاستعدادات ، وأيضا بالاحتمال ، لأن المسافة الزمنية حوكت الفعل بأحداثه ووقائعه إلى ذخيرة من التذكرات المعشقة التي استتبعت بدائل من الاحتمالات والتخيلات . وإذا ضاقت المسافة فإن التخييل يبدو جافا قريبا من التفريرية (العبدوي ، النابلسي) ، وكلما كان الراوي متحكما في أداته الحكائية بمعاودة الحياة في الرحلة مرة أخرى ، وليس البحث عن نقلها لتحقيق التشويق وتحقق المتعة من خلال وجود ظلال وثغرات وقطع وتناوب بقود نحو الإمتاع والتحكم في تقنياته عبر التسريع والابتلاء .

يقول ابن بطوطة في تحفته : «وفي بعض تلك الأيام ركبت في جماعة من أصحابي ، ودخلنا بستانا ثقيلا فيه ، وذلك في فصل القيظ ، فسمعنا الصياح ، فركبنا ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجلال . فاتبعناهم فتفرقوا ، وتفرق أصحابنا في طلبهم ، وانفردت في خمسة من أصحابنا ، فتخرج علينا جملة من الفرسان الرجال من غيضة هنالك ، ففرونا منهم لكثرتهم ، واتبعني نحو عشرة منهم » (ص 544) .

وينفص الأسلوب بواصل الحكاية تسلسلا وتشويقا على الشكل التالي :

- بقاؤه لوحده مطاردا من طرف ثلاثة فرسان .
- دخوله فرارا منهم في خندق عظيم .
- خروجه تائها .
- مفاجأة أربعين رجلا من الكفار له ، سلبوه وأسروه .
- اكتشافه وجود مسلمين مع الكفار ، كلموه بالفارسية وأكدوا له أنهم سيقتلونه .
- تكلف به ثلاثة منهم : شيخ وابنه وثالث أسود خبيث أمر بقتله .

- مرض الثالث الأسود الخبيث .
- مجيء آخرين وضمنهم شاب خلص الراوي الرحالة من القتل .

ويواصل ابن بطوطة حكيه عن مغامراته المليئة بالتشويق المعتمد على الهروب ، ومايلأجيه من جوع وعطش ومعاناة دفعت به إلى حافة الموت ، ثم مجيء المنقذ في كل مرة .

إن تشكّل التشويق والإمتاع يخضع لنظام معقد ، يفعل فيه المحكي والمسافة والأدلة ويأتي المستلزمات التي يلجأ إليها الراوي المتشرب للتراث الحكائي السردى وصياغاته الفنية . مما يجعل النص الرحلي بنية للإمتاع ، وملئى علامات شتى ، بحيث تجذر المتعة في الحدث والحوار والمشاهدات ، وذلك عبر كل مفاصل النص ومستوياته .

- توماشفسكي : نظرية الأغراض] ترجمة إبراهيم الخطيب ، بيروت ، مؤسسة الأبحاث العربية ، ط1 ، 1982 ر ص 179 .
- 7- انظر . محمد سيد محمد . بين القصة الأدبية والقصة الخيرية ص. ص 85-132 [مقالة في المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الكويت ، العدد الثاني عشر ، المجلد الثالث . خريف 1983] . يدور الخبر من منظور إعلامي تواصلية ومعالج شاة الفن القصصي والقصة الخيرية والقصص الخيرية والأدبية وتطورها في الحضارات الانسانية قديما وحديثا .
- 8- ابراهيم سكاكي (622هـ) : مفتاح العلوم (مبسطة وشرحه : نعيم زوروي) بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، 1983 ، انظر القسم الثالث ، الفصل الأول وما بعده ص 163 .
- 9- الموسوعة الفقهية ، ج II ، وزارة الأوقاف الإسلامية ، الكويت ، ط1 ، 1983 مادة إخبار ص 253 .
- 10- المبرجاني : كتاب التصريفات ، لبنان ، بيروت مكتبة لبنان ، 1978 ، ص 101 .
- 11- ابراهيم الاياري (جمع وتصنيف) : الموسوعة الفقهية ، مؤسسة سجل العرب ، المجلد 8 ، 1984 ، ص. ص 159-160 .
- 12- ابراهيم المسكري : الفروق اللغوية ، [حققه ومبسطة حسان الدين المقدسي] ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، لبنان 1981 ، ص. ص 28-29 .
- ويمثل المسكري على تمحيصات أكثر من خلال بحثه في الفروق بين الخبر والبيا ، هذا الأخير الذي لا يكون إلا للإخبار بما لا يعلمه المخبر ، ويجوز أن يكون المخبر بما يعلمه وما لا يعلمه ، ولهذا يقال تخبرني عن نفسي ولا يقال تبثني عن نفسي ٢٩ ص 29 .
- 13- نفس المرجع ، ص 74 .
- 14- دائرة المعارف الإسلامية ، بيروت ، دار الفكر ، المجلد 8 ، ص 211 .
- 15- أبو دلف : الرسالة الثانية ، الناشر عالم الكتب ، القاهرة 1970 ، نشر وتحقيق بطرس بولغا كوف ، أنس خالدوف . ترجمة وتعليق محمد منير موسى ، ص 38 .

- 16- العبدوي ، ص 83.
- 17- يقول البابلسي : «ثم لما قرئت صلاة الجمعة ذهبنا إلى خارج البلدة إلى الجامع الذي دفن فيه الصحابي الجليل سيدي خالد بن الوليد...» ص 125 ، ثم يستطرد في استرجاع حياة خالد بن الوليد وبعض الأحداث التي استقاها من النووي (تهذيب الأسماء واللغات) والهروي في كتاب الزيارات، ثم يختم بقصيدة مدحية من نظمته . (ص ص : 125-132).
- 18- سيد حامد النجاج : رحلة التراث العربي : الفصل الخاص به : مشوار كتب الرحلة ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 5 ، 1994 ، ص 226.
- 19- منير بشور : في منهجية الإسناد والتقدم عند العرب [مقال في مجلة] مواقف ، بيروت ، حريف 1981 عدد 43 ، ص 48 (47-59).
- 20- المجرجاني : كتاب التعريفات ، بيروت ، مكتبة لبنان ، 1978 ، ص ص : 22-23.
- 21- سيزا فاسم : الخطاب التاريخي من التفتيد إلى الإرسال : قراءة في الطبري ، المصمودي وابن خلدون ، الفصل الخامس ضمن كتاب جماعي (الأدب العربي - تعبيره عن الوحدة والتنوع ، بحوث تمهيدية) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة الأمم المتحدة ، بيروت ، ط 1 ، مارس 1978 ، ص 134.
- 22- نفس المرجع السابق ، ص 136 .
- 23- يأتي الإسناد في "كليلة ودمنة" نابتاً وواحداً لا يتصير مع تنوع الحكايات ، لكن في ألف ليلة وليلة يتنوع باطراد الحكايات ويتسلل تراثياً من حكاية لأخرى.
- 24- أبو حامد الغزنائي ، ص ص 107-108.
- 25- ابن جبير ، ص 213.
- 26- ابن فضلان ، ص 73.
- 27- البابلسي ، ص 45.
- 28- ابن جبير ، ص 7.
- 29- العبدوي ، ص 7.

- 30- ابن بطوطة، ص 33.
- 31- ابن بطوطة، ص 640.
- 32- عبد اللطيف شوطا : نظر ورأي [ضمن مؤلف جماعي] : أبحاث في اللسانيات العربية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسمك، الدار البيضاء مطبعة النجاح، 1996، ص.ص 11-25 [ص 13].
- 33- المرجع السابق، ص 20.
- 34 - Jack Feuillet Introduction à l'analyse morpho-syntaxique, Paris, ed P.U.F 1988, P26.
- 35 - Gerard - Denis Parcy . lexique de la critique, Paris, ed. P.U.F, 1991, P81.
- 36 - Laurent Danon Boileau Produire le fictif, France, ed Klincksieck, 1982, P32.
- 37 - Georges Vignaux . Le discours acteur du Monde, ed. orphys, 1988, P75.
- 38- ميكائيل ريفاتير : الوهم المرجعي [ضمن مؤلف جماعي، مترجم] الأدب والواقع، ترجمة : عبد الجليل الأزدي، محمد مختصم، مراكش، نشر تسعت ط 1 - 1992، ص 67.
- 39- المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن، مطبعة بريل 1906، ص 45. نشر مكتبة مطهرلي، القاهرة، ط 3، 1991.
- 40- م. ريفاتير : الوهم المرجعي، مرجع سابق، ص 46.
- 41- المقدسي : مرجع سابق، ص 45.
- 42 - Wladimir Kryszinski - Carefours de signes, essai sur le Roman Moderne, Lahaye, Mouton éditeur, 1981, PP19,31.
- 43 - Laurent - Danon-Boileau, Idem, P34.
- 44 - Leo Hock sémiotique et littérature : Interférences, in Revue des sciences humaines, tomes LXXII, N°201 Janv. Mars 1986, P11.
- 45- ابن قنفذ (ق 15م) . أنس الفقير وعز الحفير، الرباط، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، 1965 [اعتنى بنشره وتصحيحه : محمد الفاسي وأولف فور].

46- تتحدث كلوديت سارتيليو عن وظيفة الاستشهاد والمقتبس، في سياق تناولها له قائلة بأن التمرير التقليدي للإستشهاد المشتق من البلاغة الكلاسيكية يحدد هدف الاستشهاد - الاقتباس في التصوير والمزخرف
انظر :

- Claudette sartillot . citation and Modernity : Derrida, Joyce, And Brocht, Norman, university of oklahoma, Press 1993.

- Henri Quéré Intermittences, ed P U.F, 1992, P88 -47

- Laurent Danon, Idem, P33 -48

49- الهاجيوغرافيا شكل تعبيرى يعمل على تقييد وذكر حيوات وسير الأولياء والصلحاء وذلك بنشر أفعالهم وكراماتهم وبعض أفعالهم.

- Voir Encyclopedie universelle. T 8, P207 et 208.

وأيضاً : ميخائيل باختين : شعرة ديمستوفسكي، البيضاء، دار توبال، ط 1- 1986. ص. 198، حيث يتحدث باختين عن «الأصاف الأدبية القصصية الأساسية داخل الأدب المسيحي القديم-الأنجيل، ومآثر الحوارين وسفر الرؤيا وحياة القديسين والشهداء».

- Jan Baetens : Qu'est ce qu'un texte "circulaire"? in -50 Poétique N°94, avril 1993, ed seul, P215.

51- يقدم ميشيل أربني تصوراً عن منظور علاقة النص باللسانيات في سياق التصور الكوسميتي حول انغلاق النص وانفتاحه كمقولة نظرية ضمن ثنائية الحكيم والحطاب وخصوصيات النص.

- Michel Arrivé Linguistique et Littérature. in : - انظر : l'école de Paris, (en collaboration). Paris, ed Hachette 1981.

- Jan Baetens, Idem, P215 52

53- تعالج ماري لويس برايت (ص5 و29) تعريف "الوعي الدائري" بكونه نظرة مركزة للكون وتفسيره وفق معطيات جاهزة حيث يصعب الوعي الدائري جهاز المعرفة والحكم

- Mary Louise Pratt : Imperial eyes, Travel writing and transculturation, London, ed Routledge, 1992.

الفصل الثالث

البناء والخصوصية

ينهض النص الرحلي على عناصر تشيد معماره الفني وتصفل خطابه من آثار الشفوي وبصمات التجربة ومسافة إدراكها وإدراك التفاعطات المتنوعة التي أكتبت النص تلويحات شتى تحولت وانتقلت ساخنة إلى دفء المكتوب ومط أشكال غنية.

ولعل الرحلة من الأشكال التي تحفل بالشراء والتنوع باعتمادها على السرد استكشافا لخبائيا عوالم الحكيم المشلود إلى تجارب وخيالات تبني وترسم سرديا، باعتبار السرد هو الصيغة الطبيعية في الشر الفني، والحامل لكافة المكونات الأخرى، والمرأة التي تكثر رصيدا يتنامى من الصور والرؤى والتعليقات والقناعات والاحتمالات وصيغ الكتابة والتواصل، والأساليب المتنوعة أو المحدودة للتعبير، لأن الرحلة تقف في ملتقى علامات غارقة في الأدب في تماس بين نصوص سردية تعنى بعوالم فوق طبيعية وأخرى شديدة الصلة بيقين حاله ومفتقد يتم

تلمسه في ضوء المرأة بين التجربة والحقيقة والمرجع والتخييل ، وتجذب كل ذلك في الواقع والذاكرة والمكتوب مما يجعل النص الرحلي «حياً» وسط تصادي نصوص مختلفة ، الشيء الذي يؤكد تحول الرحلة من فعل مادي وتجربة معيشة إلى تجربة ذهنية محولة واحتمالية تورط الفعل المادي في «حوض التخييل» .

يقدم تحول الرحلة وتحول قنوات الواقع والذهن إلى لغة تخيلية تستحضر ما يرتبط بالحنين والتذكر ، يقدم صوراً ينقلها الراوي من ذهنه كما عاشها أو تخيلها إلى اللغة بين مدأى الواقع والمحمّل ، واستكشافاً لخيالها اشتغال للصورة داخل البناء الرحلي وكيفية تشكيلها وتمثلاتها المختلفة للرؤى والمسموعات والمتخيلات ، وخضوعها لتأويل متباينة في النصوص الرحلية بأنواعها ، واختلاف رحالاتها باعتبار الصورة قناة متعلدة داخل نص وخطاب ينتجان صوراً ذات سمات وطبائع معينة ، وبالتالي فهي من هذا المنظور قطب التخييل ومسار الأثر اللانمحي ؛ إنها رداء ونسيج لكل مكونات النص ومنطوقه ؛ في مقابل هذا تحضر ذات الراوي في كل تجلياتها ، وبمختلف أصواتها المعبرة عن وعيها وتحولاته- باعتبارها استلهاماً لأحداث وتأويلات واحتمالات وتخيلات . والذات الخالقة للتفويت هي الجسر والقناة التي تمر عبرها العناصر والمكونات . وتشكل في ضوئها صورة الآخر ، في اختلافه واتسجابه من خلال صياغات مختلفة تقدمه في النص الرحلي وتشكل منه صورة وموقفاً يعمم على العالم الذي ينتمي إليه هذا الآخر .

1- علم الصورة ، تدرج الصورة وتمثيل الآخر ضمن مبحث علم الصورة *imagologie* الذي مافتح يتوسع ويخترق عدة حقول ، مكتشفًا قدرته على خلق أشكال من التواصل ، مادامت هناك أشكال عدة لتحويلات لا متناهية من الملموس إلى المجرد ، ومن الواقعي إلى المنخيل . وتستخدم كل محاولة لضبط وظيفة الصور في مؤلف أدبي بحواجز منها التحديد⁽¹⁾.

وتشكل الصورة أداة في علم الصورة الذي يندرج في فرع الأدب المقارن⁽²⁾ ، ويجد له في النصوص الرحلية مرتعا حقيقيا للإستنبات وإنتاج الصور ، بحيث تشكل الصورة موضوعا في تمثيل الأنا والآخر ، وكذلك بمعطيات مسبقة ، وإسقاطات ومشاهدات ، واحتكاك بثقافة وتقاليد هذا الآخر ؛ ذلك أن الصورة تحضر في كل خطاب مكتوب أو شفوي لتتجسّد عوالم تخيلية وقنوات جمالية للتواصل مع المتلقي ، لهذا كان علم الصورة (الصورولوجيا) حقلا موسعا للبحث وتفكيك الخطابات للوقوف على إدراة صورة مجتمع في الوعي أو في العمل الأدبي لشعب ما⁽³⁾ ، من خلال التوغل في بلاغتها ، أو اتخاذها قطبا في مواجهة قطب آخر ، بالمقارنة بين صورتين ، وبين وعيين وصوتين وفيهم عالمين ، سواء من منظور واحد (الراوي) أو عبر منظورات منقولة ومحركة (أصوات الغير) حيث يتم تنفيذها ضمن قنوات الرصيد الثقافي والمعرفي للراوي ، أو بتعبير ريفيردي (Reverdy)⁽⁴⁾ : لا يمكن أن تولد الصورة من المقارنة ، وإنما من واقعين متباعدين . ويخضع تشكل الصورة لاعتبارات تجعل منها نصا تخييليا

لامتزاجها بالذاتي والخيالي والمزاعم⁽⁵⁾، وخضوعها لأسلوب المؤلف ونوابه وتأويلاته، ثم لأشكال التلقيات. والصورة، كما هي في النص الرحلي، بالمعنى الأسلوبي غير العام، تعبيرية، تسترد التجربة وتكشفها ضمن مشهد لغوي تتصافر لأجله البلاغة والصيغ الأخرى التي تحقق بناء يترك في الذهن تجسيدا معينا وأثرا واضحا.

ويحفل النص بتشكلات صور ذات مسارات تنتج "الأخر" وضمناها يتموقع موقف أو لا موقف الراوي، فضلا عن صور أخرى غير مباشرة يمكن ترصدها في أوصاف الثقافة والعادات والحوادث التي يقيمها مع العامة والخاصة، ويمكن القول بأن الراوي-الرحالة يرسم صورة بتلاوينه الخاصة؛ فصورة الآخر في الرحلات المحجية ليست، بالضرورة، صورة الآخر في الرحلات السفارية أو غيرها. وبالتأكيد فإن الصورة كما تشكلت في رحلة ابن فضلان تبدو مغايرة للصورة عند العبدري أو ابن جبير أو ابن بطوطة، إنها جزء من مادة الأسلوب⁽⁶⁾، وأثر لغوي يرسم مسار الحكيم والوعي، لا يتشكل إلا بتلاقحه مع آثار وصور أخرى خلقية تحيا داخل السرد والوصف، وتتخلق داخل النسيج العام للدلالة، تبلور أهم القضايا في النص باعتبار الصور مرتبطة ومتفاعلة مع كافة العناصر الأخرى البصرية، فتصبح قادرة، بشكل عملي، على أن تُدّر أي موضوع⁽⁷⁾، وتعمل على التوجيه والتأثير وهي تسع وتوغل في ثنايا الموصوفات والتمثيلات، فتشمل كل المكونات النصية لتصبح الرحلة مرصدا لإنتاج الصور المتجانسة

وغير المتجانسة ، الحية والدينامية والأخرى الجامدة غير المؤثرة أو ذات الفاعلية ، لأن مسألة ترابط النص ككل بقضي إلى تنوع هذه الصور ووضوحها باعتبارها خلاصات لتجارب ذاتية وغيرية ، روحية أو فعلية ، من السماع والمشاهدات والتخيل والاحتمال والتخمينات ، يُعاد إنتاجها وصوغها ذهنيا باعتبارها أثرا وطروعا تخضع للميش ، من جديد ، في الخيال ثم في اللغة والكتابة .

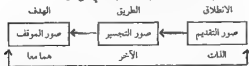
تفتح السرود في الرحلة على صور مولدة ذات استجابة مزدوجة للدلالة المجازية والحرفية ، ثم على التحويلات التي يخلقها بعد التأويل ضمن البرنامج السردية عامة .

وتستقطب الصورة مسارا في كل نص باعتبارها متروعة من حقلين يتكاملان : الواقع والخيال ، فيتم تنصيدها مرتوية بالإحتمال لتضطلع بدور دينامي متجذر يعمل على الشكل اللغوي باعتبار أن كل صورة هي طريقة في الكلام⁽⁸⁾ ، وأثر غير أحادي بل منفتح على نسائج وطبقات وأصوات وتداخلات وسجلات وقنوات ، يبنى خزانها اختياريا يعكس معرفة الراوي وقدرته على التمثيل وفق مركبات أسلوبية معينة ، ثم تصيح الصورة حاملة الوعي بالذات وبالعالم ، مؤطرة بمعطيات ذاتية ورؤى محكومة بمواضعات وخلفيات ذهنية وثقافية وتاريخية .

ترتبط الصورة في " الرحلات الواقعية " بالذات وبالأخر ، غير متورطة في البلاغة أو الإيحاء والتميز ، وهو ما يمكن تلخيصه عند ابن الجيآن⁽⁹⁾ ، حين يعمد إلى صور إخبارية أكثر منها إيحائية يعذي

بها تشخيصات المرجع ، ويستجيب لتأثيرات خلفية تعمل على التبليغ والإعجاز .

2 - **تظاهرات الصورة في الرحلة :** إن الصورة في النص الرحلي هي اكتشاف الأثر ومعاودة التجربة فيه وسط المسافة المنجزة بين الفعل ولحظة الصوغ والتدوين ، ويمكن تمثيل الصورة التي هي تشكيل لتخييل تجربة حققت نسفا حوريا بعناصره ومكوناته وخطابه باعتباره استثمارا استثمارا للتجربة الماضية⁽¹⁰⁾ ، ووعيا بها ، فيتم التشكل بنسب متفاوتة في الوضوح والإلباس ، في المطابقة والتحريف . لكن التنوع في الصور يعكس الموقف المعرفي والخلفيات التي سادت الصورة خاصة والرحلة عامة ؛ فهناك نصوص رحلية عدة ، إضافة إلى ما نضرع عنهما من نماذج أخرى ، ترشح بمعطيات وعلامات ذات زوايا نامية ومفتوحة على أفاق وبرايمج يمكن رصدنا في ثلاث صور تأطيرية مهيمنة تتلاقح فيما بينها ، وهي صور التقديم وصور التجسير ، ثم صور الموقف ، بهذا الترتيب أو ممتزجة في كل الرحلة :



و تتحقق بهذا الترتيب أو مشتتة بحيث تحضر صور التجسير في كل المراحل وكذلك صور الموقف . وتُبرز هذه الصور⁽¹¹⁾ حالات لصيغة بها ، وهي حالات انفعالية ، وإدراكية ، واحتمالية .

لأن الصورة هي إحدى أدوات الخطاب الانفعالي الأكثر قوة⁽¹²⁾ تُبلور وعياً يكشف عن مشاعر وأحاسيس ضمن سلسلة من المتواليات المتداخلة بين الإطارات الثلاث والتي تدرج ضمن الصور الوظيفية المفتوحة على الصور الثقافية ذات القدرة على تكثيف التجربة في نسق مجاور لتجارب الغير ومعطياته الحسية والمسموعة والمتخيلة.

2-1- صور التقديم والربط، يعتمد الراوي، تبعاً لكونهولوجية الرحلة وخط سيرها الذي يفتح الحكيم والانطلاق، إلى التجريب وتشكيل صور تقديمية كبرى عن الخروج وعن ذاته وأحاسيسه، لهذا تبنى هذه الصور انفعالية مرتبطة بالوجدان، تستحضر الإغتراب بين الإنكماش والتمدد، وتكون ذات وظائف استراتيجية، منها التقديم والربط والتنسيق، ففي "الرحلة المغربية" للمبدري توصف الصورة التقديمية للمات وسط سياق سردي بأنها إشارية لكنها مثقلة بالأحاسيس، فتتحول إلى صور نفسية تُفهم من صياغات سياقية في وصف الأنا والفضاءات، ترتبط بالإنشراح أو التوجس.

وتختلف، نوعياً، الصور التقديمية في النصوص الرحلية. فمن صور اللوحة القصيرة عند ابن جبير إلى الصور العميقة الإنفعالية المرئية بالوجدان، كما عند ابن بطوطة. وكلها في المحصلة صور تمثيلية تقدم الذات بصيغ ما، ولكنها تضمن التقديم وترسم أفق التواصل؛ ففي نص (أبو دلف)، مثلاً، يلتمس الراوي صوراً تعي وظيفتها، وأيضاً قوتها وقدرتها على

إرواء باقي صور النص . ومن جهة أخرى ، تغيب من نصوص ثائية هذه الصور التقديمية الكبرى (ابن فضلان) ، خصوصاً في الرحلات القريبة من التقارير السفارية . لكن صور التقديم تحضر في أشكال صغرى تتحول إلى مرآيا مضيئة لتلك الصور ، وإلى أداة ربط أيضاً ؛ ذلك أن ابن بطوطة كان يستدعي في نصه الرحلي صوراً تقديمية رابطة تربط بالبناء الدلالي العام للنص وبالتلقيات المحتملة ؛ فالصورة التقديمية الرحلية -مُلقحة بأثار الإحساس والتذكر- عتبة بين الغياب والحضور لخبرات وتجارب مكشفة تبحث عن توازن وقدر لتوليد الصور وتطريز الدلالات .

ومن أهداف الصورة التقاط عناصر عدة من العالم الخارجي⁽¹³⁾ ، وأخرى حول الذات وتفاعلاتها . لأنها تمتلك خصوصياتها وتخزن وغيا بذات الراوي ضمن نسق جمالي لا تفصح إلا عن الضروري المرتبط بالسفر . فهي محدودة في عطاياها ، تتقدم بصيغتين اثنتين : الصورة المباشرة ، أو غير المباشرة ، وهي الممثلة في تقديم صورة أخرى عن موقف يعكس رغبات وبواطن الراوي . وفي كل الحالات يعتمد هذا التقديم على الاختزال والتكتم أحياناً ويتراوح بين الإثكاء على الوجوه البلاغية تحقيقاً لنص فني ، أو استبعاداً لكل ذلك لحساب " التقرير " .

إن تشكل الصورة التقديمية لذات الراوي يستبعد البذلخ البلاغي والتفصيل ، ويكتفي بالإيحاء دون التصريح ، وهو تقتير يعمل على الربط ومد القنوات مع المرجع والمتلقي .

2.2- صور التجسير ، وتبدأ في التشكل لغوياً مع بداية

وصف الآخر^١ وهي تأتي لتجسير الفجوة بين صورة الأنا وبين الرحلة وأهدافها ، وأيضاً لجمع الأخبار المروية بصور تستوضحها ، فتربط بالادراك في سياق مبدأ نسقي ينهي على دعامة البناء العام والكلي للتخيل ، بحيث يتحقق الانفتاح في كافة الاتجاهات من جانبي الراوي والمروي له ، وتُرسَم مسارات تأويلية مولدة لسيرورات تواصلية - معرفية تُطوّر من الإستراتيجية الكتابية . فقدره الصورة على الإنفتاح والتواصل رهينة بقدرتها على تخلفها إدراكاً موسعاً لا يُقيّد الدلالة في حدود مسطحة ، بل يؤهلها لتلويحات تستولد تُسقا مرتباً يرفد الخطاب الرحلي ويمدّه بمبدأ التمثيل الذي يرسم مسار الصورة التي هي مقدرة «تولد من القصة»^(١٤) والادراك ، فتؤسس لنسائج علائقية تنفضي إلى صورة ذات أثر لفاعليتها ومركزاتها التخيلية ؛ فهي بناء تواصلية مُحفّز للمخيلة ، يعمل على تفعيل السرد بالتفريعات التي يخلقها داخله .

وحينما يتعلق الأمر بصورة التجسير فإن كل صورة هي بناء لغوي تجسيري يُنتج تشكيلاً يؤول معطيات معينة لصالح فهم ماسبق وما سيلحق . إنها صورة للتلاقح بين النصي المتخيل والمرجعي المحتمل في أفق رؤية مشيدة لصور شئ .

وتعني صورة التجسير الإنفتاح من كل الزوايا على سجلات ومراجع بين التكوّن السابق في ذهن الراوي للصورة ، وهي شكل مادي خام مباشر ، وطاقة لغوية احتمالية مرتبطة داخل نسق كلي من التمثلات وعبر تقاطعات ملفوظية وعلامات تستجيب لأكية

كتابية خاصة وعامة، وأيضا لآليات التلقي المحكوم بمرجعيات وأفق انتظار ومبادئ. إنها إدراك مباشر ومادي في الرحلات الفعلية تتموقع بين إدراكين: إدراك قبلي تخيلي عن هذا الآخر، وإدراك بعدي تتم خلاله موضوعة الصورة المنبئية ضمن صور لاحقة وفترة تضيد وتوضيب وتركيب.

وترسم الصورة في الرحلة، فضلا عن الإدراك والتجسير، إحساسا بالإنسجام يختلف من رحلة إلى أخرى؛ بحيث يتشكل تلقى مختلف من قارئ لآخر، وذلك باختلاف النوع الرحلي وطبيعة تكوين الراوي وخلفياته المعرفية؛ فالصورة عند ابن جبير هي غير الصورة عند أفوقاي، كما أن إدراك الصورة عند أبي دلف يختلف عن إدراكها عند ابن قنفذ. إن الوعي الثقافي واللغوي للراوي هو السند المباشر لقيام الصورة؛ إضافة إلى الوعي السردي؛ فابن بطوطة يعني منذ البداية أن نصه الرحلي يتخذ منحى حكايا، فيما يقرر العبدري إيراد سروده «بالمشاهدة شاهد البرهان، من غير تورية ولا تلويع ولا تقبيح حسن، ولا تحسين فيبح، بلفظ قاصد لا يحجم معرود ولا يجمع فيتعدى المدى»⁽¹⁵⁾.

وفي ضوء هذا يتخذ التجسير مواقع مختلفة في تحديد الآخر بصور غير موحدة، وبالتالي غير منسجمة؛ إذ يختلف تمثيل الآخر في الرحلات الداخلية (النصوص الزيارية) عند الرحلات خارج الوطن، بحيث تتحول الصورة إلى جسر يربط اللات بالآخر، وجسر للصورة المتخيلة القبلية نحو الصورة «الموجهة» أو جزءا منها، لأن الصورة القبلية كلية، فيما الصورة الحقيقية جزئية.

ومن مستلزمات صورة الآخر تقديمات لصور تخلص حضارته وثقافته وتاريخه من منظور رحالة غابر، ثم من منظور راو يحول المشاهدات إلى قدرة تذكيرية ومشاهد غنية بخلفيات تبشر اللامألوف والمعجاتي، وأيضا عناصر الاختلاف والتلاقي، فتصبح الصورة محوكة إلى نص لغوي «حاملة لأثار عادات وسلوك»⁽¹⁶⁾، وتمثيلات لغوية وذهنية للآنا والآخر. هذا الأخير تظل صوره في الرحلات العربية ذات سمات أساسية تبني ضمن نسقية الثقافي والاجتماعي والتاريخي، فتبدو انطباعية غير حاسمة، وأحيانا تستند إلى معايير دينية أو أخلاقية تلتقط اللامألوف وتهمل بعض التفاصيل وتكتفي بمصدرية الرؤية والانطباع، مما يجعل أهمية الصور التجسيرية في ارتباطها بالنسق الثقافي، ووسطيتها في انزالها عن هذا النسق.

3-2- صور الموقف (التجسير عكسي الاتجاه) :

يتحقق التجسير في مستوى عكسي الاتجاه، بحيث ينقل صورة الأنا - نحن كما هي في ذهن وتصور الآخر عبر الحوار أو عبر نقل رأيه، أي الأنا كآخر عند الغير وهي صورة مزجية : تجسيرية-تقديمية، واحتمالية .

وتتحقق تمظهرات هذه الصور في تشكيلها على مستويات منها : المستوى الأول في الصورة المتضمنة للموقف ولشحنة من الانطباعات، خصوصا تجاه المكان، فعبرة تفرز مواقف صغرى لا يمكن العبور، ومواقف كبرى تتعلق بالمكان الهلثف المقصود . وتختلف هذه الصور بين مشاهد صدامية (العبدري)،

وأخرى متساكنة (ابن جبير)، ودخل هذا الإطار تجسد صورة الآخر في ارتباطها بمعطياتها ومحيطها.

المستوى الثاني، صورة النحن كما هي في ذهن الآخر، والمشكلة في موقف يعبر عن رأي الآخر في الأنا، ورأي الأنا في الآخر كما يفهم ذاته من خلال موقف الآخر، دون أن يستطيع النص الرحلي استكمال زاوية المرجع بإيراد كيف يفهم الآخر ذاته عبر موقف الأنا، بحيث تصبح صورة الموقف بدلالاتها صورة للعبور، مرة ثانية، إلى الصور التقليدية (الناقلي).

تعمل هذه الصيغة التبادلية، المحمولة عبر صوت الراوي لقنواته الخطائية، على تعديد صوره والاضطلاع بإنتاج مصادر أخرى للصورة، بصفتها معلومة في شكل أحكام وانطباعات تتعلق بالقضاء الذي ارتحل منه، أو بلاته، مثل ما نجده عند العبدري وهو يتقل سروجا بصوته عن السنة الفقهاء والشيوخ، في شكل صيغة تدويع الصورة التي تفضي إلى صياغات سرديّة ممكنة + وبهذا الشكل تنوي تعقيدا يجعل منها شبكة مكثفة من الرموز، واللامقول، والمنمحي، والمحرّف، والموهوم به، والحقيقي، والخيالي والمحتمل، فيصعب القبض على الصورة في كليتها لأن الرحلة هي فسيفساء من جزئيات مبنية، يتخذها الراوي تمثلا للكل وصورة-واجهة للرحلة.

إن تعاقب وتداخل أشكال الصور الثلاث وهي ترفد بعضها البعض، في تقاطعات وتفاعل، تخلق دينامية نصية في الرحلة، بحيث إن تشكيلها ضمن المكونات السردية الأخرى يجعل النص

تشخيصيا واحتماليا، يكسر الوثوقية التي قد يحيل إليها الجنس، كما يولد مشاهد متراكبة ووظيفية تساهم في الكشف عن طريقة الاشتغال السردي عند الراوي، وأيضا صيغة التعالقات داخل الصورة مع الذات والآخر والفضاء واللغة، وهي نتائج تحفيزية للمحكي وأتوقته. والصورة في هذا المستوى تشخيص للوعي بالذات وبالعالم، تعتمد إلى تحديد سمات أسلوبية ودلالية، تساهم في توجيه الإدراك العام بخلق انطباعات متعددة.

كما تقوم الصورة في النص الرحلي على القطب البلاغي البسيط أو المعقد، فتجيء في الغالب قصيرة تضيء الوضوح والتعبير القريب، حتى تؤسس للتواصل وتكون قناة موجبة، كما أن الصورة، وهي تحقق مبتغاها، تختزن في لاوعياها النصي الرؤى والأحلام، عبر حضور متعدد بين صور حينية، تصبح «طريقة في الوجود»⁽¹⁷⁾ والحياة، وأخرى مدحية مقابل صور في الذم. لكن المهيمن هو صورة التمثل: تمثل الذات والآخر وما تفرزه هذه الصيغة من تنوع. حيث في النصوص السفرية تُهيمن الصورة المقارنة على الصورة الوصفية في الرحلات الحجية والزيارية.

ويتيح هذا التنوع إمكانيات لملاحظة صور تدعم بعضها البعض من صور مشهدية، ولَمْحِية محابلة، وإيحائية، ومرجعية، وتأسيسية بحضور يتفاوت في جل النصوص، لأن المشترك بينها هو طموحها في «ترجمة فكرة أو خيال»⁽¹⁸⁾، أو أحلام واستيهامات. إن كل صورة حيوية هي انعكاس لأكثر وأحاسيس ساخنة اهتمت وتعمل في ذهن الراوي. وتستقطب

الصورة في إطار تشكيلها أدوات أسلوبية وبلاغية إضافة إلى عنصر 'محرك' ومولد هو الوصف، باعتباره إطاراً تبني داخله الصور، بعدما يكون السرد قد هبأ المهاد حكياً، فيتخذ الوصف موقعه لترجمة الصورة وشبكته إلى صور لغوية ثم إلى جهاز قائم، وكلما كان الوصف متحرراً من التقريرية كان الجهاز الرمزي متجسراً ومرناً وقادراً على ربط علاقات 'ماكرة' مع المتلقي.

3- مبدأ الوصف: يُبني النص الرحلي مكون الوصف من حيث المبدأ العام الذي وجد لأجله، في مستويين، وإذا كان الوصف يشتغل حينما يتوقف الزمن، ففي الرحلة يتعش الوصف عندما يتحرك الزمن، فيبدو في الظاهر متوقفاً، ولكنه في هذا المستوى، بطيء يتأهب للانطلاق حتى يهيئ الفرصة للوصف. أما المستوى الثاني، فلا يوجد وصف مباشر في الرحلة وهي تعاش من طرف الرحالة، لكنها وهي تصير كتابة، تتحول معها الأحداث المنضدة وأيضاً الأوصاف الفارزة للصور باعتبار الوصف أساس الرحلات⁽¹⁹⁾.

ويجيء كل وصف مفوقاً وطموحاً لإظهار الموضوعية والالتزام بها، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بسرد 'رحلة' ذات مرجع واقعي، ويستحوّل إلى سرود وصور يوظفها المجاز والاستعارة بخيوط المقارنة.

تطلق العناصر الأساسية التي يعتمد عليها الوصف في بناء النسق الجمالي للصور في الرحلة من العین واللغة، تجمعهما شبكة عمليات يترتب فيها المرجع الواقعي والذاتي والغيري والثقافي...

إلى جوار الخلفيات والتأثيرات المستحكمة في النسق اللغوي .
من ثمة ، فكلما كانت الأوصاف ثرية بحمولتها المعرفية وأسئلتها
القادرة على التفاذ إلى كنه الصور والموصوفات ، استطاعت أن
تغذي مخيلة المتلقي وتجعل التواصل مستمرا .

وتتلرج المشاهدات التي يراها الرحالة ويسمع بها ، ضمن
الذاكرة ، فهي المادة الأولية التي تختزن في الذهن وتتفاعل مع
استيهامات وخيالات وصور مسبقة عن الأشياء ، فتتشكل
الصورة التي نجيء مخصصة وثرة حيناً ، وجافة تقريرية وباهة
حيناً آخر ؛ في الأولى تكون الصورة احتمالية مهما تجذرت في
اليقين ، وفي الثانية تظل علاقتها سافرة وواعية .

من الذي يرى ويصف ، هل هو الرحالة أم الراوي ؟ فالراوي
يتموقع بصفته قناة للإستحضار بفعل لوتجاعي يستعيد وقائع
وأحداث يراها هامة في بناء نص رحلي ، وهو بذلك يمارس التذكر
من خلال السرد والوصف ، مستثمرا «سلطته» في تقديم الرحلة
بالصيغة التي يرتضيها وواصفا بصيغ مفوية وهجينة بين شخص
الرحالة وذات الراوي والسجلات التي تطوّرت بينهما .

وينهض الوصف من الذاكرة المنتجة استنادا إلى الماضي
الذي يوحى بنظمين القارئ ، لإدراكه أن الأحداث منتهية
ومحسومة النتائج ، فيلجأ في وصف الصورة إلى بنيتين : بنية
الصورة التي يكون طرفا فيها ، يصف حالته أو واقعة مشهدة ،
يقول ابن بطوطة في هذا السياق :

«فلما كان الليل دخلتُ القرية ووجدتُ دارا في بيت من بيوتها

شبه خابية كبيرة، يصنعونها لإختران الزرع، وفي أسفلها ثقب يسم منه الرجل، فدخلتها ووجدت داخلها مقروشا بالثين، وفيه حجر جعلت رأسي عليه ونمت، وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفين»⁽²⁰⁾.

ثم هناك أيضا بنية الصورة الوصفية التي يكون فيها الراوي طرفا غير مشارك ولكنه ليس محايدا باعتبار حضوره ومشاهداته ثم روايته للخبر :

«وفي بعض تلك الجزائر، رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها، ولها ابتان إحداهما كمثلهما ذات ثدي واحد، والأخرى ذات ثديين، إلا أن أحدهما كبير فيه اللبن، والآخر صغير لا لبن فيه فعجبت من شأنهن ...»⁽²¹⁾.

الوصف هنا مذكّر، فترثوي فيه الصورة من آراء وانطباعات الراوي الذي يروي عن إعجاب وتأثير اللامألوف؛ فالصورة الفنية داخل نسق وصفي وجمالي، وفي سياق انتقالي من تجربة إلى أخرى لغوية هي شيء له معنى⁽²²⁾، يجعلها مذكّنة تمتع من المرجع الخارجي والذاتي، لهذا ينتفي الحيداد في الوصف ويحضر صوت الراوي ورؤيته المزدوجة في الصورة حضورا مختلفا يبرز تعليقه ووجهة نظره الضمنية أو الصريحة، بحيث تختلف طبيعة هذه الرؤية من المرونة إلى الحدة. فالمبدري يتموقع عنيقا في كل صورة، يُشهر أحكامه صراحة، على عكس ابن فضال الذي يلجأ، في الغالب، إلى الوصف وإبداء الإعجاب أو الثغور فقط.

يقول العبدري واصفا إحدى المدن : «وهي للجهل مأتم وما للعلم بها عرس . أقفرت ظاهراً وباطناً ، وفنمها الخبير بها سائرا وقاطنا ، تلمع لقاصدها لمعان البرق الحلب وتُرى ظاهراً مشرقاً والباطن قد قطب ، اكتنفها البحر والقفز واستولى عليها من عربان البر ونصارى البحر التفاق والكفر وتمرقت عنها الفضائل تفرق الحجاج يوم الغفر ، لا ترى بها شجراً ولا تمراً ولا تخوض في أرجائها حوضاً ولا نهراً ولا تجلي روضاً يحوي نوراً ولا ذهراً ، بل هي أفقر من جوف حمار وأهلها سواسية كأسنان الحمارة» (23).

لا تقف مساهمة الوصف في بناء الصورة عند ما هو ظاهر ، وإنما تعكس الترميزات النفسية بحيث يشكل الوصف عند ابن بطوطة في بعض مراحل رحلته نتيجة لزمة طوقته فكانت الصورة هي المتغنى الذي يفتح الدائرة للانتقال ، فالوصف الذي يتحرك - ظاهرياً - في زمن مجعد هو عتبة الدينامية السردية والتخلص من نقطة ثابتة نحو أخرى حركية .

وتولد الصورة أيضاً مع الدعشة التي تستأثر بالرحالة ، فيعمد إلى رسمها تأكيداً لها ؛ ويثبت ابن بطوطة في تحفته صوراً تخلقت إثر دعشته مما رأى أو سمع ، شأن ابن فضلان وأبي دلف .

كما تساهم شبكة الوصف بكل صورها - في تفعيل السرد الخطي الذي يزوج بين التكتيف والتوسيع من أجل ابتداء أثر انفعالي في المتلقي ، فيصبح الوصف نواة للصورة ثم المشهد ، مما يقضي إلى تكون مبدأ تأثري يتحكم في علاقة التواصل مع المتلقي ، وفي التفاعل الإنتاجي للصور والدلالات ذات الوقع

الفني والجمالي، مُحققاً مجموعة من القيم الوصفية⁽²⁴⁾،
يتمظهر بعضها في النص الرحلي كالتالي :

- القيمة الديكورية : وعبرها يكون الثبات واضحاً من
خلال وصف تصويري يَهْمُ توشية الأسلوب والزخرفة فيه، حتى
تتحول الصورة إلى جزء من ديكور عام للمشهد، وهي قيمة
لاتحقق كثيراً في النص.

- القيمة التفسيرية : وتكون في مستوى أعلى من تقديم
معلومات حول الفيزيقي والسمات الخاصة، وذلك لأن الصورة
توضع للمقارنة أو لاستكمال توضيح فني في سياق الرحلة.

- القيمة الرمزية : ويمكن تلمسها في غنى الأوصاف
المتنوعة حول ماهو اجتماعي وتاريخي وثقافي، مما يعطي
للمتلقي «المتنوع» مجالا ثرياً لفك شفرات تلك الصور واستتاج
مايفيد الحقل المشتغل فيه.

- القيمة الدينامية : وتعمل على تفعيل السرد وتوجيهه،
لوجود فعلتي الانتقال والتشروع، مما يكسب الوصف أداة إجرائية
هي المقارنة، فضلاً عن القيم الأخرى، ويصبح الوصف
خلفية لتفعيل السرد؛ فالسفر يقود إلى المشاهدة ثم إلى
الوصف، وبعد ذلك التعليق أو التحول إلى السرد بحشا عن
مشاهدات أخرى أو استرجاعات وصفية مستدعاة من المؤلفات
الجغرافية الوصفية ذات التأثير اليبين تاريخياً على النص الرحلي أو
النصوص التاريخية.

يمتلك النص الرحلي مدونة وصفية تمثل الجهاز الذي يحرك

الصورة ويرسم ألفها، ويتخصص الأمر أكثر على مستوى الشكل التعبيري، بحيث إن مدونة الرحلات الحجبة-الزبارة ليست هي مدونات الرحلة السفارية، مثلاً، إضافة إلى الاختلافات الأخرى في السمات الخصوصية لكل رحلة على حدة، وتظهراتها بين التبسيط والتعقيد، بين الإسراف والتقتير؛ وهو ما يبدو تجسيدا في طبيعة الأوصاف والصور، فلا يحيد الوصف في النص الرحلي عن الأنا والآخر وما يصاحبهما في الزمان والمكان؛ والكل يندرج في إطارين كبيرين هما المادي والمجرد الروحي:

- الأوصاف الخاصة بالمجرد وتصب على الذات والحنين والتذكر والأهداف الدينية، والعلم، والعلاقات، والأفكار، والقيم؛ فالعبدري في رحلته يؤثت خط سيره بصور من هذا القبيل، يلتقطها مجردة من حمأة شعوره الساخن، فتأتي مقتصدة خروفا من الإسهاب وابتعاد الصورة.

- الأوصاف التي تخص المعلوم وتتعلق بكل الصور الأخرى الواردة، سواء كانت خارجية أم داخلية، وتقترب في العموم من الطريق والعمارة والأشخاص ومن تقديم الآخر.

وقد أصبح الوصف وتقديماته من المكونات الأساسية في النص الرحلي، وأساسا في مجال تشكيل الصورة التي تساعد على فهم آليات رسم صورة الآخر والأنا وتظهرهما وسط ثقافة وفي مجتمع له قيمه وأعرافه.

1- مسار التدوينات: الرحلة نص مذوت وخطاب يضيء عدة بؤر من ضمنها "أنا" الراوي، باعتبار السرد الرحلي «سيرة ذاتية»

شعرية، محدودة في الزمان والمكان. إنها مشهد مسيري وذاتي وبيوغرافي يخص لحظة زمنية مؤقتة بسفر «ذات» تحمل أحلامها وتطلعاتها ومعارفها وقيمها.

يستخدم الراوي السرد بتنوعاته من أجل السيطرة على القارئ عبر استراتيجيات من التشويق وبناء الحكاية المولزي لبناء الذات، ونظير الكتابة التي هي فاعلية التشكل والحكي الداخلي من الفكرة وقنواتها مع اللغة والخطاب.

والتدوير بهذا المعنى هو ذات منتجة لملفوظها وخطابها، إذ يطل جميع المستويات بما فيها الكلام الواقعي والاستيهام والأحلام⁽²⁵⁾، وفي النص الرحلي يتج فعل الكتابة حواراً مع العناصر الثقافية والفكرية والاجتماعية واليومية، مع التشكيلات التخيلية من خلال الحضور الملح للذاكرة وأصواتها، ومن خلال تحقيقات التحويل والتماس بين الشفوي والمكتوب، وبين المرجعيات الحاضرة في النص واتصهارها في التاريخي والأيديولوجي واللاشعوري ضمن متحيل كلي يعطي مرجعيات ملونة⁽²⁶⁾، تلنفي مع علامات غافية وأخرى بارزة في شكل لغة الكلام وسجلات الوصف والتأمل والحوار.

إن فعل تدوير الكتابة يتحقق من خلال فعلي الإصهار والحوار بين طبقات قولية وملونات ومعاجم وأثار وصور تؤسس لمتحيل ومسار كتابي، من أجل إنتاج المتلقي بالمكتوب المقدم إليه بذلك الشكل وضمن نسق متضمن لمعرفة، ولقيم حاملة مسار صوت مهيم وتمثيلات مرجعية. فالحديث عن الذات عند

ابن بطوطة يقترن بالبداية، ثم ينتقل إلى الأخبار الغريبة محتجبا وراء سروده، شاهدا وساردا ومعلقا مراحيا بين الذاتي والغيري عبر الذاكرة والتوثيق.

إن بُعد الذات في النص الرحلي يتمثل بصفته كينونة متجاوزة لتشخيص الغياب (الماضي) داخل نسق سردي، هو سيرة تواصلية بين ذات الرحالة وذات الراوي، فيقدم النص الذات من منظور هذه الأخيرة، من خلال بنيات سردية وقاعدة مخاطبية وإحالية تقوم على التواصل والإقناع.

والرحلة، من هذا المنظور سيرة تعتمد حكي سفر الذات ورؤاها ومنظورها بجمالية وفنية تقضيان إلى حضور مبدأ تمثل الذات في أشكال نموها: أي علاقتها بذاتها وبالأخر، باعتبارها نوعا من الضرورة الإستيقية⁽²⁷⁾، وتشكيلا لمرايا تعكس الأحلام والرغبات والأصوات الثاوية للذات، حيث تفتح الرحلة عبر مبدأ التمثل كوي على عوالم الاحتمال والتخيل. من ثمة تجلّ تلوين النص الرحلي عبر حضور الراوي في كل حركات النص وسرده لوقائع وأخبار وأوصاف من خلال رؤيته وخلفياته، والتي تبصم السرد وتطبعه في مستويات التحقق، وأيضا حضور النوع الذي يقوي أو يضعف حضور التلوين.

ولعل وجود الراوي بارزا في الرحلة يجيء من كونه صوت المؤلف الرحالة الذي يحكي تجربة التحم بها، وتشكلت لديه في صور ذهنية تحولت إلى نص لغوي يفرز خطابا يحمل فلسفة وقناعات الرحالة الراوي ومسجلاته. فكل كتابة سيرة -كما

النص الرحلي في بعض الوجوه- تتطلب مسافة بين الراوي السارد والمؤلف الفاعل ، حتى يتحقق الوعي السردى وتتمكن الكتابة من تحرير كلماتها ومرجعياتها ، لتوليد مرجعية جديدة احتمالية مقطرة تلتقط الأثر وتذخره في بناء رمزي ، استعاري .

تتطلب المسافة بين الراوي والتجربة اختصارا وفترة زمنية ونفسية يتخلص فيها الراوي من الأثر المباشر للتجربة ، ويفصل عن الرحالة-الفاعل والمنفعل حتى لا يصبح النص وعاء لتفريغات ، أكثر منه بنية جمالية وفنية . وفي هذا الموقع ، تصبح أهمية المسافة ضرورية كي يصبح الراوي هو المتحكم في صياغة التجربة وفي المؤلف وليس العكس ، أي أن «أنا» الراوي ليست جامدة وإنما هي فعل دينامي يفرز إدراكا باستقلاليته عن المؤلف .

إذن ، فالمسافة بين الرحالة والراوي ليست ملتزمة بشكل مطلق وإنما هناك تراوح في بعد ضروري يتخلق ويجعل الرحالة متملكا لمسافة بينه وبين تجربته التي تُسَعفه في توليد إدراك متحول عن إدراك التجربة ، ينظر إليها باعتبارها كلاً متبها في الزمان والمكان ، ولكن فعلها يستطيع أن يغير جثاوت نسبي- في رؤى وقناعات الرحالة ، كما كانت لديه إيمان انطلاقه . فشخصية الرحالة تجعلنا نفهم النص ، ومن ثمة ضرورة وأهمية معرفة من يرحل⁽²⁸⁾ . ذلك أن الرحالة في بدايته ، ليس هو في نهايته ، كما أنه ليس هو أثناء تدوينه للرحلة والتي هي تجربة بأثارها ، شخصية كانت أم متناوبة بين الذات والآخر من خلال الرؤى والمشاهدات والقرارات ، حيث حصيللة التفاعل مؤكدة في كل المراحل ؛

فالمسافة غير ثابتة ، تتحرك بشكل تنقلص فيه حيناً وتمتد حيناً آخر تبعاً للنوع الرحلي وقدرة تحكم الراوي في أدواته ووسائله .

ففي حالة تمديد المسافة بين الراوي والرحالة ، يصبح ضمير المتكلم جزءاً من بنية ، يتبادل مواقعه مراراً بين ضمائر أخرى مذبذبة في ضمير الغائب وفي ضمير الجمع فيبدو كما لو أنه يروي حكاية عن ذوات متعددة ، ضمنها ذاته .

يحول ضمير المتكلم الجمع الذي يحضر في العديد من النصوص الرحلية على حس جمعي مشترك ، وعلى تحقيق الانفصال بين أنا المؤلف وأنا الراوي ، ومن نتائج هذا ، الحركة التي تبصم التراوح داخل المسافة ، فيتحول الراوي من شخصية فعلية (رحالة) إلى شخصية متخيلة ذات وظائف ، تمارس وسائل متعددة أهمها تدوير الخطابات والسجلات التي ينقلها .

وينتجق الإيهام كلما تمددت المسافة وبدأ التلويح شفافاً وشاعرياً ، والعكس نسي ، وهو ما يتضح بجلال في الفقرات السردية ، إذ تسير الحركة نحو التقلص والارتقاء حينما تكون المسافة ضيقة بين الراوي والرحالة ، لأن التلويح لا يتحقق بشكل جيد ، كما أن السرد والوصف ينحوان نحو التفريرية وعدم التعمق في رسم الصورة ، بينما تجيء حركات التمديد في المسافة الواسعة بين الرحالة والراوي ، فتبدو السرد «ناحمة» قريبة من المشاعر والوجدان وكل متعلقات الحنين والتذكر ، وتندرج رحلة ابن بطوطة في هذا النمط تحقيقاً سامياً لعلاقة الراوي بالرحالة ، ذلك أن موقع الراوي في النص ينتج علامة لكيان مرجعي متعدد

الحضور، فهو عموماً رحالة وليس كاتباً مهنياً محترفاً، يمنحه السفر ربط كافة المواقف مع إبقاء البطل الواحد⁽²⁹⁾ الحامل للرسالة الإستثنائية التي تدفعه لاحتراف الكتابة في موضوع يخصه، ويرتبط به من جانب نوعيته، بحيث يمكن أن يكون فقيهاً واعظاً، أو سفيراً، أو حاججاً، أو زائراً أو رحالة، منجولاً وأديباً، وقد يجمع بين أكثر من صفة.

2 - الراوي في الرحلة وهي السرد العرشي: يختلف الراوي في الرحلة عن الراوي في السرد الحكائي الكلاسيكية، حيث هو «ناقل لتراثه وتجاربه وتجارب الجماعة، ينقل هذا إلى مستمع أو قارئ بوصفه مشاركاً أساسياً في عملية القص»⁽³⁰⁾؛ وتستعمل الرحلة أيضاً راوياً متخيلاً يتماشى مع الواقعي في بعض الوظائف التقنية.

إن الراوي في كل نص هو أداة وسيطة يظل جامداً ومحايداً أو حيوياً وفاعلاً، يسهم في خلق التخيل، وكلما كان حراً ومتحرراً من التوجيه أبداع، حتى أن ميزات الراوي في السرد القديمة تكاد تكون متقاربة رغم الخلاف الذي يمكن حصره في نقط محددة؛ وهي أن الراوي في الرحلة واحد، فاعل ومشارك بالضرورة، ومتج للقص والمنظم للحكي ومخرجه، إنه راو وممثل مجرب، وموضوع التجربة، يسجل مذكرات أفعاله وحركاته، يظل قصته الحقيقية⁽³¹⁾، يسير وفق خطة رحلية تتحكم في النص كله، يطنى عليها التأريخ وبعض التفسير، فيما الراوي في السرد القديمة متعدد وغير مشارك في الغالب، يروي في شكل غير محدد

مسبقا، حيث الحكيم يطلب على التاريخ، لكن مواقع الالتقاء تكمن في بحثهما المستمر عن المتعة والمعرفة والاعتبار والقيم، وكلاهما عالم بكل شيء تقريبا، ينهج التسلسل الحكائي وتركيز رؤية مهيمنة متساقطة مع تخفيت الأصوات الأخرى.

ونلمس بعض التقارب بين راوي الرحلة والراوي في المؤلفات التاريخية، فكلاهما يحمل صفة ناقل أخبار وأحداث مؤرخ لها مع هيمنة الأخبار في زمن أوسع في التاريخ، هذه الأخبار التي يلاحظ تقلصها في فترة محددة دون الاهتمام بتفاصيل أكثر¹ وكلاهما أيضا يزاوج بين الحكيم والتاريخ، فراوي الرحلة يعزز الحكيم بالتاريخ، بينما يلجأ راوي التاريخ إلى تعضيد أخباره بالحكي.

إن راوي الرحلة بحالة عن حقائق وحقين وهوية لن يجدها في رؤيته التي تضيق مع القرب، وتوسع في مسافة البعد، فيلجأ إلى التاريخ من خلال مستويين: الأول باعتماده على التواريخ المكتوبة والشفوية للحفر عن اليقين والهوية، والثاني ممارسته للتاريخ عن ذاته والآخر ومشاهداته، أما راوي التاريخ فهو باحث عن هويات وحكايات يخفي بداخله رحالة كما يخفي الرحالة بداخله مؤرخا، وهما معا يتقاطعان في الوظيفة السردية، بحيث تكون العلاقة بينهما متصلة ومتفاعلة⁽³²⁾.

يحكي الراوي نفسه الرحلي بضمير المتكلم المفرد أو الجمع، فيحقق نوعا من الارتباط بالجنس الرحلي وبالأحداث وبلذاته كراو مؤلف ورحالة، فتصير الظروف الاجتماعية للرحالة

وتحركاته العملية وجذوره الجغرافية ذات تأثير ملموس على خطابه⁽³³⁾، مما يفرز صورتين للراوي من خلال الضمير :

الأولى يتصوّر فيها من خلال الضمائر المرتبطة بالجمل الفعلية وهي حركة تحكي عن انتقال في الزمان والمكان، ويكون مقرونا بأخبار طارئة تزند الحدث وتمهد لأحداث أخرى.

«ثم سرنا حتى قلعتنا «ساوة» فأقمنا بها يومين، ومنها إلى «الري» فأقمنا بها أحد عشر يوما، ننتظر أحمد بن علي أخا صعلوك لأنه كان «بخوار الري».

ثم رحلنا إلى «خوار الري» فأقمنا بها ثلاثة أيام ثم رحلنا إلى «سمان» ثم منها إلى «الدامغان» وصادفنا بها «ابن قارن» من قبيل الداعي، فتتكرنا في القافلة، وسرنا مسجدين حتى قلعتنا «نيسابور» وقد قتل «ليلى بن نعمان» فأصبنا بها «حمويه كوسا» صاحب جيش خراسان.

ثم رحلنا إلى «سرخس» ثم منها إلى «مرو» ثم منها إلى «قشمان» وهي طرف مفازة «أمل» فأقمنا بها ثلاثة أيام، فربح الجمال لدخول المفازة»⁽³⁴⁾.

تبوح كل الأفعال الواردة في هذا النص بالحركة التي تحفز الفعل لأن الراوي يربط الحركة بإنجاز أو بحدوث شيء، فالسير تلاءم القيام والانتظار، ويرتبط الرحيل بالقيام والمصادفة وبالتكرار والاستخبار عن مقتل ليلى بن نعمان، مما يعطي للجمل الفعلية المتصلة بالراوي رغبة وقدرة بتحققان بالقوة والفعل.

الثانية حيث يبرز الراوي في أفعال خفية ، محركا للأحداث أو شاهدا عليها غير معني بها ، وتعلق الأمر بأفعال المشاهدنة والتعليق والتخيل ، مثلما عند ابن جبير وهو يرصد ما يرى :
«ومن أعجب ما شهدناه في يوم الإثنين المذكور أن صعد بعض الشيبين أثناء ذلك الزحام يرومون الدخول إلى البيت الكريم فلم يقدرُوا على التخلص فتعلقوا بأستار حافتي عضادتي الباب ، ثم أن أحدهم تمسك بإحدى الشرائط الفنية الممسكة للأستار إلى أن علا الرؤوس والأعناق فوطئها ودخل المبيت» (35).

يؤكد الراوي وجوده في النص الرحلي عبر ثلاثة مظاهر أساسية : فهو راو مشارك فعلي لوحده أو مع الجماعة ؛ أو راو غير مشارك ، ولكنه شاهد بالرؤية أو السماع .

وتكون الأنا في المظهر الأول متحركة وفاعلة ؛ وفي الثانية ساكنة ومنفعلة ؛ و«الأنا» تنفعا إعلان في ما بينهما ، بحيث إن الحركة الأولى قد تدفع للحركة الثانية ، كما قد تؤسس الحركة الثانية لبروز الحركة الفاعلة .

يبرز المظهر هذا في كل النصوص الرحلية بمستويات مختلفة ، ففي الرحلات الحجاجية والزيارية يكون التوازن أصلا ومرجعا نسبيا للصورة الأولى ، خصوصا إذا ما تعددت المسافة بين الرحالة والراوي باعتبار أن هذه النصوص ، إضافة إلى الرحلات الأدبية-العلمية هي رحلات شخصية تنجز لحساب الذات والرغبة في إنتاج فكرة أو رغبة .

أما النصوص السفارية ، فإن الصورة الثانية هي المهيمنة ، في

جلها، مع حضور عناصر لا توجد في النصوص الأخرى بإبراز الإغتراب في «بلاد الآخر»، وأيضاً نوع جديد من المشاهدات غير المألوفة التي تضع الراوي بين الاستحسان والاستنكار؛ كما أن الرحلة السفارية تنجز فعلاً لحساب الغير، وكتابة للأننا والغير في أن، بينما تظفر الصورة الأولى في الرحلات الثقافية فتتبار ذات الراوي بصفتها قطب يبحث عن المعرفة واليقين ويضع «الأننا» أمام اختيارات مستمرة.

وتعدد المستويات وتختلف مع الأشكال الرحلية ومدى انسجامها أو لا انسجامها في المسافة الممكنة بين الرحالة والراوي من جهة، وبين الراوي والنص ثم الخطاب من جهة ثانية، ذلك أن «كل ملفوظ يحمل في ذاته آثار تلفظه وفعل إنتاجه الدقيق والقردي»⁽³⁶⁾ ضمن سجلات ذاتية تتجلى في المعرفة الذاتية للراوي وأقواله، ثم صيغ تقديماته لذاته ومعارفه عبر ضمير واضح أو من خلال تقديمات خارجية. فضلاً عن حضور الكتابة باعتبارها موضوعاً لفعل الرحلة، حيث تتمتع بالتدخل في المعطى، تغييره وتحويره وإعادة تركيبه لفائدة المستكشف⁽³⁷⁾، ويمكن تمحيص «أنا» الراوي من زاوية أخرى، ذلك أن النصوص الرحلية تأتي في صيغتين كبيرتين:

* راو عاش التجربة ثم دونها بنفسه.

* راو عاش التجربة ثم رواها وكتبها غيره.

تندرج في الصيغة الأولى أغلب الرحلات، دون أن يفقد التحويل نسخ الارتباط في تلك المسافة؛ أما الصيغة الثانية والتي

يمثلها نص التحفة لابن بطرولة، فإن صياغات ابن جزري أو عمله التركيبي أو التنقيحي يفقد النص توجهه الفني ؛ في حين يمكن الحديث عن صيغة ثالثة «وسعية» وتعلق بتدوين رحلات الملوك والسلاطين من طرف مرافق في الرحلة، من كتاب الدواوين، يكون خاصا لذلك وتسمى رحلة أو حركة⁽³⁸⁾. ويساهم الشكل الفني في توجيه "الأنا" وتحديد مواقعها ومدى تدخلاتها، خصوصا وأنها تتلون بأثر التجربة التي تخوضها ؛ ذلك أن النصوص الحجاجية والزيارية أساسها تجربة روحية، مقابل التجربة المادية في الرحلات التجارية، فيما يخوض الرحالة تجربة النقل والتواصل في النصوص السفارية ... ويبقى الراوي يبقى واحدا لأنه عاش تجربة كان لابد من التفاعل معها، والمهيمن فيها إما الروحي أو المادي أو هما معا ؛ أو تجربة أخرى تكليفية ذات هدف محدد .

3- **وظائف الراوي** : يضطلع الراوي في السرد الرحلي بوظائف عليها طبيعة الجنس الذي يكتب فيه، ومواضيع الشتر السردى الكلاسيكي، خصوصا وأن الراوي في الرحلة، وظيفيا، يلتقي مع الراوي في الحكاية الكلاسيكية لأن الوظيفة بشكل عام، هي أداة إجرائية تعمل على :

- نشر الحيوية في شرايين السرد .
- تنمية مسارات الحكيم، وتخصيب السرد .
- تنظيم الحكيم وتخليق التوازن بين الأنا والآخر .
- تلويث المحكي ..

- تجلير الرؤية والوعي .

- الربط والتنسيق بين الخطابات وتنفيذها .

والراوي الذي يقوم بهذه المهام أو ببعضها وغيرها ويتقاطع مع رواية آخرين في حقول سردية ، يحمل معرفة منهجية ويبحث عن أخرى فتشكل وظائف قبلية موجهة ومؤسسة (وظيفة تحويلية) ؛ وثانية داخلية هي البناء المشكّل للنص (وظيفة سردية) ؛ أما الوظيفة الثالثة فهي تيماتيكية ترسم أفق الخطاب (وظيفة البحث) .

1-3- وظيفة التحويل : وهي مستويات تتحول الرحلة فيها من فعل مستمر إلى فعل متته :
- تحول الرحالة من شخص واقعي إلى راو متخيل يوهم بالواقعي .

- تحول التجربة المعيشة إلى أفكار ونص شفوي ثم نص لغوي مكتوب . ويتمظهر التحويل وظيفيا بمعناه العميق والإبداعي في ثلاثة مستويات بارزة :

أولا : تحول الرحلة من فعل مادي مستمر إلى متته ، الراوي فيها يتحكم ظاهريا في النهاية داخل النص بعدما لم يكن يعرف بالتحديد مسارها على مستوى الواقع ؛ وهو في النص يحكي بضمير المتكلم مسيرة ذاته ومآلتيته المفرد أو الجمع ، في الماضي القريب : (رحلة العبدري) ، أو الماضي البعيد : (تحفة النظار) .

ثانيا : تحول الرحالة من شخص واقعي إلى راو متخيل تخلق داخل المسافة بين الفعل واللغة فصار فاعلا لغويا ، ووسيطا

ينقل آثار التجربة ؛ ويكون التحويل في هذا المستوى حراً ومرناً كلما كانت المسافة محتلة ، ومحتفظاً بوظيفة الإيهام وبصوت الرحالة أو بالصوت المضاعف له .

ثالثاً : تحويل التجربة إلى أثر فني يتضمن كل عناصر المتعة والتشويق والمعرفة .

2-3- وظيفة السرد : وهي وظيفة خطية استرجاعية تحيل في السياق العام على الماضي ، تستخدم سروداً مستحضرة في الحاضر ، والرحالة يتحول من فاعل في الملموس إلى فاعل لغوي للرواية ، بعيد صياغة التواريخ والأخبار وآثارها ؛ تتحقق عبر توظيفات أساسية معثلة في التسلسل من جهة ، ثم التشويق والحكي المستمر والمتنقل تبعاً للملاحظات والانتقالات من جهة أخرى ، داخل فضاءات متعددة . كما أن هذه الوظيفة التي يقوم بها الراوي في النص الرحلي هي وعاء استراتيجي عام ، تتم بداخله عدة عمليات لتنظيم البرنامج السردى وتوجيهه ، والتهوض بوظيفة السرد والعرض ، وبالتالي التقديمات التي يقوم بها لأنه وللآخرين ، والتلقيات التي بعيد صوغها وتقديمها من جديد فتصبح هذه الوظيفة جزءاً من المراقبة والتحكم بقصد التوجيه ، غير اللجوء إلى تقنيات وطرائق لعرض الرحلة : منها التراوح بين الرؤى من خلف ، ومع ، ومن الخارج ، ذلك أنه في ما يتعلق ببعض المعلومات التي يقدمها الراوي متعجباً منها ، أو مستكراً لها ، تكون رؤيته من الخارج ذات معلومات أقل ، ويكون ذلك في كل الرحلات ، وخصوصاً حينما يتعلق الأمر بالأخبار الإثنوغرافية

وبعض المعلومات التاريخية للأمكنة التي يمر منها، أو خلال اللقاء مع العلماء والسيوخ الذين يريدون إجازة الرحالة؛ أما حضور "الرؤية مع" فتتحقق حينما يكون الحوار في قضايا دينية أو مقرومات تتساوى فيها المعلومات بين الراوي ومتحاوريه.

وفي مرحلة ثالثة، تتشبد الرؤية من خلف في الأخبار التي يتحدث الراوي فيها أو يتحاور حول ذاته والفضاء المنطلق منه أو حول بعض معلوماته الثقافية والدينية، فتجنيء معارفه أكثر من معلومات محاوريه والمستمعين إليه، وفي هذا السياق، يلجأ الراوي إلى سجلات لغوية فيها الوثوقي والشك، مما يفرز تركيبة من الجمل المتواوئة بين جمل خبرية وتأملية وتعليقية ووصفية تتدرج وتعضد بناء الجملة السردية، كما أن لجوءه إلى تقنيات الرؤية والأسناد وغيرهما، هو بمثابة توظيفات لمراكز التوجيه وصيغ التواصل بشكل سليم.

وتتقاطع هذه الوظيفة، ضمن البرنامج السردى للراوي مع الوظيفة السردية عند المؤرخ بالتحديد، وإن كان هذا الأخير يسعى إلى استبعاد ذاته ما أمكن وتحييدها عن الأخبار التي يجب أن يظل شاهدا عليها بالسماع والمشاهدة والقراءة، لكن حضور الإبلاغ والتواصل وما يستتبعه ... يتعظف حالياء في الوظيفة السردية.

إن هذه الوظيفة هي مثل كل الوظائف، موجودة في كل السرود، لكن خصوصيتها تختلف من شكل تعبيرى إلى آخر، بحيث إنها في الرحلة أداة مركزية للتفصيل والتحفيز، وخلق

الانفعال والتأثير عبر سرد كرونولوجي مشهدي، يستثمر العديد من التقنيات لتحقيق فعل الكتابة والتواصل .

يرسم الراوي في " الرسالة الثانية " لأبي دلف برنامجا سرديا يستجيب للبرنامج الرحلي، وذلك بسعيه إلى المزاجية بين رؤيتين، الأولى حاضرة، وهي الرؤية من الخارج التي يتخلها وسيلة لتأسيس رؤية داخلية، تخص ذاته ؛ وفي الآن نفسه يحمل رؤية خيارجية هي الثانية وتتمثل في المعلومات التي يمتلكها، وهو نفس الشأن يجري مع ابن فضلان الذي استدعي لتعليم الدين للأخر، بصفته حاملا لمعارف لا يعرفها الطرف الداعي، وفي الوقت نفسه، يبدو أن الراوي بدأ عديم المعرفة ببعض العادات التي ألفها . إنها ازدواجية تتحقق في النصوص السفارية كما في باقي الأنواع الرحلية، فالراوي في (الرسالة الثانية) يبرز ساردا مشاركا قريبا من كل شيء، يستعمل لغة إبلاغية وتحفيزية على القراءة، تخلق الانفعال والتأثير من خلال الأحداث وتواليها عبر التسلسل وما يتضمنه من إمتاع يقود القارئ إلى عوالم، يمسك الراوي بزمامها لتحقيق فعل الكتابة والتواصل .

فالوظيفة السردية هي البؤرة التي تتشكل حولها العناصر والوظائف الأخرى، وتستجيب لأفق انتظار القارئ أو تصدمه، وبالتالي فإنها تنهض - في النص الرحلي، بموقع أساسي إلى جانب القواعد الأخرى المكونة للرحلة .

3-3- وظيفة البحث : وخلالها يقوم الراوي بالبحث عن أشياء متعددة، منها التأكيد على حقيقة الرحلة واستعمال خطاب

المدمجة لها لكن التدقيق في هذه الوظيفة يجعل النصوص الرحلية لا تكفي بتحقيق البحث في نوع واحد من المعرفة وإنما تشعب إلى معارف مساعدة توضح مدى اتساع علوم الرحالة- الراوي، فهو في رحلة العبدري يصوغ سروده بناء على طبقات من البحث المتعدد، إذ يبحث عن التطهر والأطعمتان، وهو ما يصبغ خط الرحلة منذ الإنطلاق إلى الوصول، فيبرز بحث آخر عن المعرفة الشعرية والفقهية واللغوية والإجازات التي كان يحظى بها، وأخيراً بحث الرجوع والحكي.

ويقف الراوي بهذه الوظائف وغيرها متبشراً في النص الرحلي، حاضراً وممسكاً بالحكي ويخيط البحث، متجهاً لسرود يتواصل بها مع القارئ الذي يفترضه كما يفترض تلميذه «حقائق» ومرويات، مما يقضي إلى نص مُدَوّن من كافة النواحي؛ فالراوي صورة لثلاثة قبل أن يكون الرحالة الفاعل، يجسد وضعية المرأة التي تنضد وتخلق المسافة، فتنتج صوتاً مضاعفاً هو قناة تُعرّر عسرهما أصوات وقنوات أخرى تحقق التفاعل والإدراك.

إن الراوي في النص الرحلي مبدعٌ صور وأصوات تفرز أشكالاً نصّية وسير ضمن نسق ثقافي حدد الإطار والنوع، كما عين وظائف الراوي القرية من وظائف رواة السرود العربية والتاريخ أيضاً في الأفق والخطاب الموجه على أنه إدراكات بين الحقائق والاختلاقات. وهكذا يتحقق تلويث الكتابة الرحلية انطلاقاً من الوظائف والمكونات وباتّي العناصر المشكّلة للبناء.

III. الآخر

يتضمن كل نص بالضرورة رؤية وخطاباً، ويعكس بشكل واضح الأنا التي لا توجد بدون الـ «أنت»⁽³⁹⁾ والآخر. وحينما يكون هذا النص رحلة فإنه يرتبط بمضامين متعلدين وزمن ممتد يجعل النص حافلاً بأبعاد سيرية - جغرافية، تراجمية ومناقبية، يتفاعل لبناء صورة الأنا وصورة الآخر، حيث الرحالة «أحد المفاتيح التأويلية للعالم والتاريخ»⁽⁴⁰⁾ والذات.

وأما كانت التصور التعبيرية لا تخلو من حضور الذات بصيغة ما، فإن الرحلة تستحضرها بشكل خطي وعمودي بحجاب الآخر، هذا الأخير الذي هو أفكار وقيم وعادات وثقافة يتمظهر من خلال صورتين :

• الصورة الأولى قبلية في ذهن الراوي قبل انطلاق الرحلة، تتشكل من السماع الذي يضيف على الآخر صورة احتمالية، تركز على جوانب اللامألوف والغرائبي وبعض التقاليد المغايرة، وتترسخ انطلاقاً من الحكيم الشفوي ومن الرحلات السابقة، أو من بعض المؤلفات التاريخية والجغرافية، ومن الأحلام والتخيلات، إضافة إلى بنية العقل العربي الذي كان يقسم الآخر من منظور ديني - إلى بلاد الإسلام وبلاد الكفر، وهو نفس المنظور الذي هيمن بتفاوت - في جل الرحلات العربية حتى القرن التاسع عشر، واستحكم في رؤى الرحالة وصياغة الآخر.

• الصورة الثانية وهي صورة بعدية معدلة بعد انتهاء الرحلة فعلياً، تحافظ على آثار من الصورة الأولى، تُرى من منظور آخر

يورطها في يقين الاحتمال، ووهم ترسيخ «الأخر» كما هو وليس كما كان أو ما سيكون عليه، ولعل المرحلة الحاسمة هي لحظة تحويل «الأخر» من التجربة المعيشة إلى الكتابة التخيلية، فيصير مجرد قيم وأفكار وأحكام عند أبي دلف، وعجائب وخوارق وعادات غريبة عند ابن بطوطة وابن فضلان، كما يصبح مجسدا للاختلاف عند افوقاي: لأن الراوي ينظر إلى هذا الآخر من وجهة نظر تمييزية مقارنة تعتمد كفتي الانسجام والاختلاف باعتبارهما سؤالا خلفيا يقف وراء كل صورة للآخر... هل تتسجم أم تختلف مع «الأناني»؟.

1- الآخر والآخر والآخر والآخر بشكل مطلق وإنما بصورة نسبية باعتباره هوية مغايرة، تتبدى من خلال الأناني والتفاعلات الممكنة حدوثها، ومن التأثيرات والقيم الثقافية والاجتماعية السائدة وما تفرزه من مهيمنات موجهة، لأن كل نص رحلي يحكي اكتشاف الآخرين⁽⁴¹⁾، عبر تيمات يعتمد عليها الرحالة موضوعا له، انطلاقا من رؤية إسلامية قد تستطيع بلون صوفي أو سياسي أو غيرهما من المؤثرات التي تعدل من تشكيل تلك الرؤية، بحيث يتحدد الآخر من المحدد الديني: إما الآخر المشابه أو الآخر النقيض.

وتتضمن كل رحلة صيغة للتقديم وعرض للآخر، فتقدم صورة الآخر من خلال ملامح وبعض سمات العنصر الثقافي بالمفهوم الذي يحمله الراوي، ذلك أن الرحلات الحجيبة-الزيارية ورحلات المشاهدة تجعل من هذا العنصر دعامة مركزية في بناء رؤية الرحلة.

كما إن حضور الاجتماعي وما يتضمنه من تأثبات مكمل
 لصورة الآخر من سلوك وعلاقات ... ينظر إليها الراوي متراكبة غير
 مفصولة، رغم ما قد تفرزه من تعدد يقود، بدوره، إلى التنوع في
 التقديمات بين القبول والرفض، بين الانسجام والاختلاف،
 فيصبح منظور التقديم قيمياً يطرح إلى جانب أسئلة محايدة عن
 جوهر الآخر وطبيعته؛ فهو عند ابن فضلان وأبي دلف يشمل
 الآخر المغاير لأن قوام دين غير الإسلام يبيح ما حظرته الشرائع
 الإسلامية، كالكباب الآخر -ممن زارهم ابن فضلان (ص
 156-157)- على شرب النبيذ، وطرائق اختيار الموت مع
 الميت، إضافة إلى العديد من الممارسات التي تؤطر صورة الآخر
 مادياً وروحياً في الأخلاق والعلم والجهل والصدق والقيم ...

ويتبار الآخر عند العبدري وابن بطوطة في الأنا الثانية داخل
 الإسلام باطلاق أحكام وانتقادات على عنصر حضور أو غياب
 القيم الإسلامية، أما العبدري فيرسم الآخر بشكل تركيبى،
 ويتحدث عنه من وجهة نظر رحالة مسلم متشدد في لهجته يتخذ
 صورة الآخر باعتباره كلا واحداً.

وهذا الآخر الذي يتم تقديمه من طرف الراوي، وفق شبكة
 خلفية موجهة، يؤثر ويتأثر بما يرى ويسمع ثم يتقل إلى فعل
 الإنجاز، إذ المهم بالنسبة إلى الرحالات، هو أشكال التفاعل
 التي يتداخل من خلالها مع الآخر طيلة رحلتهم⁽⁴²⁾، ويعتمد هذا
 الراوي إلى مدونة قيمية، تتعامل مع الآخر من ثلاث زوايا:
 الاختلاف والرفض، الانسجام والتوافق ثم موقف الحياء،

مستعملا مفردات وأساليب تعبر عن الموقف بتوظيفات معجمية ودلالية تعبر عن الاختلاف، وتنصب على جوانب الأخلاق والروح (المبدي، ابن فضلان)، أما التوظيفات الخاصة بمدونة الانسجام والتوافق مع الآخر، فاستعملاتها صريحة وضمنية في جمل إخبارية تبدو محايدة ظاهريا؛ أو أعمال ألفاظ قطعية تأكيدية (ابن بطوطة، المبدي) تُعزز الانسجام مع موقف الآخر في قيمة التي تتفق وقيم الأنا، أو مع تلك التي تبدو ضرورتها أساسية وتقتضها الأنا.

ومن زاوية أخرى، يسجل الراوي موقفا حياديا يدفع به إلى نقطة يعبر فيها عن رأيه صراحة، فيكتفي بعرض الآخر في مرحلة أولى، كما فعل ابن بطوطة في مواقف كثيرة، أو في مرحلة موائية تعزز الحياد من خلال التعبير بالاندهاش والمفاجأة من كون تفاصيل الآخر غير مألوفة (ابن فضلان، ابن بطوطة).

ومن كل هذه الزوايا التي تقدم المواقف تجاه الآخر من طرف الرحالة الراوي مقارنة ومعتلة، تتشكل مواقف موازية عن الذات في قوتها أو في ضعفها.

وإذا كانت صورة الآخر تنبني في أغلب النصوص الرحلية من منظور رؤية الرحالة-الراوي، فهناك شذرات أخرى يتحقق فيها ما أسمته ماري لويس برايت M.L. Pratt الأوتونوغرافي⁽⁴³⁾ حيث يتم تقديم صورة الآخر الإثنوغرافية، من طرف هذا الآخر نفسه، وباستحضار صوته عبر الحوار أو نقلا في السياق على لسان الرحالة الراوي.

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ، ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن . فقال لي الوزير : هذا البستان لك . وسأعمر لك فيه داراً لسكنائك . فشكرت فعله ودعوت له ثم بعث لي من الغد بجارية وقال لي خذيه : يقول لك الوزير : إن أعجبتك هذه فهي لك والآن بعثت لك جارية مرهنية ، وكانت الجواري المرهنيات تعجبني ، فقلت له : إنما أريد المرهنية فبعثها لي⁽⁴⁴⁾ .

يورد ابن بطوطة ، في سياق الإخبار والحكي عن مشاهد من رحلاته صوت الآخر مبرزاً قيم الكرم وتجلياته وأنواعه ، وهو ماسيتكرر كثيراً في مراحل الرحلة للكشف عن القيم المتصلة بالعلاقات التي تربط بين الأنا والآخر .

أما ابن فضال فيقول : «ووقفنا في بلد قوم من الأتراك يقال لهم «الباشغرد» ، فحذرناهم أشد الحذر . وذلك أنهم أشر الأتراك وأقذرهم وأشدهم إقداماً على القتل ، يلقي الرجل الرجل فيفرز هامته ويأخذها ويتركه ، وهم يحلقون لحاهم ، ويأكلون القمل ، يتتبع الواحد منهم ذرز قرطقه ، فيفرض القمل بأسنانه ، ولقد كان معنا منهم واحد قد أسلم ، وكان يخدمنا فرأيناه وجد قملة في ثوبه فقصعها بظفره ، ثم لحسها ، وقال لما رأيته : «جيد»^١

وكل واحد منهم ينحت خشبة على قدر الإحليل ويعلقها عليه ، فإذا أراد سفراً أو لقاء عدو قبلها ومسجد لها ، وقال «يارب افعل بي كذا وكذا» فقلت للترجمان : «سل بعضهم ما حاجتهم في هذا ، ولم يجعله ربه^{١٩}» قال : «لأنني خرجت من مثله فلست أعرف لنفسي خالقاً غيره»⁽⁴⁵⁾ .

لا يتحقق الأوتوثوغرافي إلا برغبة الراوي وعلى صهنته ،
فيورد هذا النوع من التقديمات الذاتية للآخر بقصد تعزيز الخبر
والتويع في السرد ، فضلا عن الأسلوب العام الذي يحكم سرديّة
الرحلة ، فابن فضلان يلجأ بكثرة إلى هذا الشكل من السرد الذي
يعرض للآخر من زاويتين : زاوية تقديمه ؛ وأخرى بتقديم الآخر
لنفسه عن طريق الحوارات ، فيما هناك رحلات أخرى تعود إلى
هذا النوع بشكل قليل ومتناثر ، كما عند ابن بطوطة ، أو غائب سيبا
عند النابلسي والمبدري على سبيل المثال .

2- **ابهاد الآخر** ، يشكل الآخر بالنسبة للراوي جزءا أساسيا
في بناء الرحلة من كافة المستويات ، باعتبار أن السفر هو «مرآة
الإحاجيب» ، ومرآة النفس التي لا ترى تفاصيلها إلا بالانتقال
والإغتراب والإحتكاك مع آراء وسلوكيات وتقاليده الغير ،
والإصطدام ببعضها والتوافق مع البعض الآخر ، حيث رؤية الذات
صافية عبر المقارنات المتعددة والقاسية أحيانا ، فيصح «اكتشاف
الآخر ، هو في نفس الآن اكتشافا للذات ؛ إنه تعديل بمس الخارج
كما الداخل»⁽⁴⁶⁾ ، فضرورة الآخر تأتي من كونه يشوي الخير
والشر ، الانسجام والإختلاف وهي حالات يجسد فيها القيم
المجتمعية والثقافية الأكثر بروزا ، فيتخذ النص الرحلي من ضمن
عمدة مكوناته : الآخر في صيغته العميقة المجردة ، أو الآخر
الحامل لهذه المجردات والتي تتحول إلى أفعال ملموسة .
والشخصية في الرحلة الفعلية هي الآخر الفعلي ، والصورة
التي تحمل من الإحتمال أكثر من حملها للحقيقي ، من ثمة

فالراوي يتخذ صيغتين للتعامل مع هذا الآخر : الصيغة التعميمية وفيها تتم الإشارة إليه بصيغة الجمع الغائب دون تعيين اسم معين عند الانتماء إلى فضاء ما ، وهو أسلوب نهجه بكثرة ابن فضلان الذي كان يصور الآخر من زاوية الاجتماعي ومايطبعه من سلوك وعادات .

أما الصيغة الثانية ، وهي التخصيصية العادية أو القرينة من شكل التراجم المضمنة ، فيلوذ بها ابن بطوطة والناقلي بشكل خاص ، كما أن موضوعة الآخر والتعامل معه ، يجيء من اعتبارات قبلية مميزة للآخر المسلم وغير المسلم ، وهو ما بدا واضحا عند ابن فضلان وأي دلف وأفوقاي ؛ بينما أنواع هذا الآخر وتجلياته في النصوص الرحلية كثيرة تستجيب لرؤى ومنظورات الرحالة-الرلوي ، ثم لنوع الرحلة. فنص العبدري ، يروم استقصاء الآخر الثقافي للبحث عن العلماء والفقهاء والأدباء ، كما يعكس الديني والاجتماعي في اختبارهما للذات وتدعيمها وتحسينها .

أما الآخر التاريخي والرمزي فيتم استدعاؤه في جل الأنواع الرحلية ، مثل الآخر الاجتماعي المهيمن على الرحلة السفارية والحجبة وفي باقي الأشكال بتفاوت . ويحضر الآخر في الرحلة متعددة ومتنوعة بتنوع النماذج البشرية في المجتمعات والمصور ، فهناك رحلات لا تسجل إلا حضورها مع " الآخر " المتحكم في السياسي أو في الاقتصادي أو في الثقافي ، دون استحضار " الآخر " البسيط والعادي ، وهذه ثغرة واضحة في النص الرحلي الذي أغفل التركيز على الأصوات الهامشية والمنسية واقتصر على

الأصوات الحاملة لسلطة معينة ، فالرحالة- الراوي يحاول أن يختزل المجتمع الذي يزوره في ذلك الآخر ، وحينما يتخذ منه موقفاً يعكس على رؤيته للمجتمع أو الفئة ، لأن مواقف العبدري المتطرفة من بعض العلماء والفقهاء والأدباء هي نفسها مواقفه من الثغافي والعلمي في ذلك المجتمع ، وبالتحديد الفئة الممثلة له في تلك الفترة .

أما الآخر عند أفوقاي فيمثل صورة ممقونة ومرفوضة تعكس مواقفه من المجتمع المسيحي ، دينيا وسياسيا ، فيما يطبع التناقض والتنوع موقف ابن فضلان من العجائب وبعض العادات الغريبة لمجتمع غير اسلامي ؛ موقف يلدو منسجما يسط مشاهداته عن الآخر بعين المتعجب والمتلذذ ؛ وبين الانسجام والتناقض تصبح الرؤى والأحكام نفسية ، في جزء كبير منها مبنية على مقارنات ذاتية تعمل على تذويت الكتابة ويساهم عنصر الوصف في تحقيق شفافية صورة الآخر ، لكنه لا يحضر إلا نادرا في أوصاف فكرية استثنائية لبعض الشخصيات ، فيما تظل صورة الآخر في الأغلب ، شاحبة بلون ملامح .

3- الآخر- الشخصية : تتفاعل أبعاد الآخر في النص الرحلي في تعدديته ، بحيث تتنوع تجلياته من خلال استيعاب رؤية الراوي- الرحالة للآخر ، سواء الذي يحثك به تحاورا وتعاملا ، أو الذي يسمع عنه بصفته جزءا من الماضي أو الحاضر .

إن فهم تشكل الآخر في وهي الرحالة- الراوي هو رهين بمدى استدعائه لهذا الآخر ، باعتباره شخصيات تؤثت النص وتساهم في

بنائه وتخليق الحيوية في الحكي عبر تخيل الأحداث وتأطير الآخر في شخصيات تساهم في بناء الرحلة والتي لا يمكن رصدها إلا عبر شبكة العلاقات التي تربطها، وداخل تقاطع حركتي الدال والمدلول⁽⁴⁷⁾.

وإذا سلمنا بتعظهر الآخر بصفته شخصية في الرحلة فإن تعدد أنواعها، ضمن الأشكال الرحلية يفضي إلى شخصيات مرجعية (تاريخية، وأسطورية، وكراماتية، واجتماعية، ودينية ...) وإشارية واستذكارية⁽⁴⁸⁾، تترسم الأثر الواقعي إلى جانب لمسات فنية تخيلية، وهو ما يُفني صورة الآخر في علاقاته بالرغبة والتواصل والمشاركة، وتحقق ذلك في النص الرحلي عبر مستويين :

- الآخر المنتمى إلى نفس الأمة دينيا (بلاد الإسلام)، والنظرة إليه تظل مزدوجة عند ابن جبير وهو يرى في المسلم آخرًا متعبدًا بين المسلم المماثل له، والمسلم الذي يُلد الحجاج ويهيئهم وهم في طريقهم إلى الحجاز (ص 65-66)؛ ثم المسلم الآخر في بلاد الغير، كالمسلمين في صقلية، ومايعانونه من مللة من طرف أهلها :

«وفي ملّة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم، النفوس تعرفه، من سوء أحوال أهل هذه الجزيرة مع عبّاد الصليب بها، دمرهم الله، وما عليه معهم من اللذ والمسكنة»⁽⁴⁹⁾.

- أما الآخر المنتمى لبلاد العجم فإن الرؤية إليه غير موحدة عند الرحالة. وإذا كان موقف العبدري قاطعًا، باعتبار الآخر

يتبعي إلى «بلاد الكفر»، فإن ابن جببر وابن بطوطة وابن فضلان لهم مواقف تتنشر بالموضوعية، وفي رحلة ابن جببر يصادف الآخر المعجمي : الطيب، التقي (ص366)، كما يصادف الآخر - النصراني - الذي يدخل معه في صراع (ص378)، فيصفهم في كل مرة، فاعتنا إياهم بأقبح الأوصاف : «... وصاحبه خنزيرة تعرف بالملكة، وهي أم الملك الخنزير صاحب عكا، دمرها الله» [...] موضوع الملك الملعون» (30).

إن المصالحة عند ابن جببر وعي ديني - اسلامي، تجري مع أوعاء الآخر الدينية، وتتصادم مع وعي الآخر السياسي الذي لا يطبق حدود الله ؛ على عكس الآخر عند أفوقاي المتمثل في اليهود والمسيحيين، من ملوك وأمراء وقساوسة وراهبان وهو يصورهم انطلاقاً من منظومة دينية، يجادلهم بها ويحاكمهم أيضاً. أما ابن فضلان وابن بطوطة فينظران إلى الآخر المتبعي لبلاد الكفر أو لطرق مذهبية معينة، من منظور اختلافية عن الأنا من جانب العادات والحياة الاجتماعية.

وقد عمد الرحالون إلى استعمال مفردات من قبيل : الكفار والنصارى ومرادفات أخرى مقابل المسلمين، تمييزاً، وتأكيذاً للرؤية التي ينظرون منها للآخر.

من خلال هذين الاطارين المتشككين في أغلب النصوص الرحلية تنفرز أنواع من الشخصوس Personnes المتحولة إلى شخصيات Personnages مشاركة وأخرى مستحضرة.

- بالنسبة للشخصيات المشاركة في النص الرحلي، فإنها

تحضر عبر الآخر المماثل (المسلم)، الذي يحضر باسمه «موجهاء وفاعلا وحافزا وجسرا للحكي، وتتخذ صفة المشاركة وماتستتبعه من توجيه وتحفيز من جانب حضورها في أحداث عاشها الراوي بالرؤية، أو مساهم فيها بالفعل، وتتمثل هذه الشخصيات عند ابن بطوطة في الملوك والأمراء والعلماء والفقهاء والصلحاء والأولياء وأصحاب الكرامات؛ الشأن نفسه عند النابلسي وابن قنفذ، في البحث عن أهل الكرامات والعقلاء الذين يمارسون توجيهها وفعلا على الراوي، ماديا أو روحيا (حكايات ابن بطوطة مع أصحاب الكرامات وعطاياهم ثم خوارقهم في المسخ والتحول والإختفاء).

- الآخر المشارك المماثل، ويتجلى في اندغامه في "نا" الدالة على الجماعة، والتي تجمع بين أنا الراوي والرحالة، وبين فرد أو أكثر من مرافقيه طوال الرحلة، أو في مرحلة من مراحلها. وقد ينعتهم الراوي بأسمائهم، كما فعل ابن جبير وابن بطوطة في بعض مراحل سيرهما، وكثيرا ما لا يلجأ الراوي إلى تسمية مرافقيه، الأمر نفسه عند النابلسي والعبدي.

ودور هذا الآخر المشارك -المماثل سلمي، خافت الحضور أمام كل أنواع الشخصيات الأخرى لا يمارس أي فعل لأنه ذائب في ذات الراوي ومغيب في أفعاله.

- نوع آخر من الشخصيات المشاركة، هو الآخر المغاير الذي يحثك به الراوي، فيخبره ويتعامل معه ويرصد عاداته وسلوكه. ويتمظهر هذا الآخر المشارك من خلال حضور أوصافه

كما رآها الراوي وأدمجها في مخيلته وصارت جزءاً من صورة الآخر ضمن نسيج رحلته :

«وهم نصارى شقر الشعور، زرق العيون، قباح الصور، أهل غدر، وعندهم معادن الفضة، ومن بلادهم يؤتى بالصوم وهي سبائك الفضة التي تباع وتشتري في هذه البلاد»⁽⁵¹⁾.

كما يبرز أيضاً من خلال حضوره واشتراكه في الأحداث، مثل أفوقاي وهو يعايش الآخر في الأندلس أو بالبريجة، حيث سيكلف بمهمة لدى الإفرنج، أو خلال معاشرته لهم وهو ينقل السجلات الطويلة معهم.

ويعرض ابن بطوطة لهم، بدوره، وهو يحكي عن المحن التي لاقاها⁽⁵²⁾، لكن ابن فضلان يرسم صورة الآخر المشارك في نماذج عدة بشكل قريب وواضح، خصوصاً في وقوفه عند الغزاة على سبيل المثال :

«وقال آخر منهم : «لا، بل نأخذ ما معهم ونتركهم عراة يرجعون من حيث جاءوا»، وقال آخر : «لا، ولكن لنا عند ملك الخزر أسراء فنبعث بهؤلاء نقادي بهم أولئك»، فمأزالوا يتراجعون بينهم هذه الأشياء سبعة أيام، ونحن في حالة الموت حتى أجمع رأيهم أن يخلوا سبيلنا»⁽⁵³⁾.

إن العلاقة بين شخصيات الآخر المشاركة والراوي، هي علاقة تواصلية متوترة حيناً، ومنسجمة حيناً آخر، (ابن جبير، ابن فضلان، ابن بطوطة)، عملت على خلق شكل من الدينامية في الحكي عبر التشويق، وأيضاً إبداع التنوع في صيغ تقديم هذه

الشخصيات، بحسب شكل تواصلها، إذ تبقى في النهاية ذات تأثير على رؤى وخطابات الراوي، وذات سلطة مادية أو روحية عليه، عكس الشخصيات المشاركة والعابرة، فهي ليست سوى وسائط للربط، لا سلطة لها في الأحداث أو في رؤى الراوي. وقد شكّل انفتاح السرد الرحلي على أصوات شخصيات الأخر المتنوعة نسقا مرجعيا ينهض بضرورة سردية وتفرعات داخل المتخيل الرحلي، تعتمد للأخر صورة ومرجعا وتُنظر في كيفيات حضوره وتظهره ثم التقديمات التي يعرض بها.

• **شخصيات الأخر المستحضرة**، وهي التي يتم استدعاؤها دون وجودها، إما عن طريق السماع أو القراءة عنها. شخصيات تاريخية وردت بكثرة عند ابن جُبَيْر، وابن فضلان وابن بطوطة والنايلسي وأفوقاي ... في سياقات سردية ووصفية تتج مرجعيتها، من خلال استحضار الفاعل والفعل بشكل ضيق أو موسع.

يبنى الراوي نسجه الوصفي على ما يراه من معمار وجغرافيا، ويُعصد ذلك بالرجوع إلى التواريخ لاستحضار الفاعلين في تلك الموصوفات والأحداث التي وقعت، ويتسرب الحكيم أثناء ممارسة «العبة» الاستحضار إلى الحكيم للإمتاع وإبراز قدرة الراوي على اختزان ثقافة موسوعية في القص والإخبار تشهد له بالمقدرة، ويشمل بُعد الاستحضار، فضلا عن شخصيات الأخر التاريخية، الأخر المرجعي والديني والسياسي والثقافي والخرافي والرمزي، والذي يؤدي وظائف تخدم البناء السردى والحكاية

كما لو أن هذا الآخر المستدعي هو شكل لوسائط سردية تتسج نصا
رحليا مفتحا على دائرة تفاعلية من الأبعاد المستحضرة للآخر،
والتي تتخصب داخل قناة "أنا" الراوي لترسم بدورها، أثرها
عليه، وتنظم بعض الفواعل الداخلية لخلق التحفيز الواقعي،
ومن داخله يتولد المتخيل لأن كل مشروع "واقعي" حسب هنري
متران - يبدأ من الشخصيات، حيث تنبع بنية "المحكّي الواقعي"
نحو الاستناد على نموذج بيوغرافي (54)، فتتنوع أبعاد حضور
الآخر في الأشكال البيوغرافية والسيرة والتراجمية والمناقبية
والأوتوإثنوغرافية ... بتنوع الأشكال الرحلية المتفاعلة بين قطبي
الأنا والآخر، كما توضح الترسية ذلك :



إضافة إلى ما يميز النص الرحلي من خصوصية تشوي صورة الآخر بكافة تعظيراتها، وتعكس أسلوباً في الكتابة لما يُشكله الآخر من حضور منظم داخل الرحلة، فهو شخصية محولة عبر قناة وهي وفهم الراوي، يصبح محرراً داخل النص، وأداة لالتقاط أهم التفصيلات والحركات المكونة للرحلة، خصوصاً وإن حضور الآخر لا يأتي بصيغة واحدة، وإنما يتمظهر مشاركاً أو مُتَحَضِّراً بصفته فاعلاً موجّهاً أو وسيطاً عابراً.

إحالات

- Aleksander Abramowicz : Le fonctionnement des images -] dans "Le paysan de Paris" de Louis Aragon, P193 (Article in : L'ordre du descriptif, Etudes Réunies par Jean Bessière, Université de Picardie, P.U.F.1988.
- D.H Pageaux : la Littérature Générale et compa- 2- النظر : rée, Paris, Armand Colin, 1994.

الفصل الرابع الخاص بالصور، صص : 59-76

- Abdeljalil Lohjoni . L'image du Maroc dans la littéra- 3- ture Française, Alger, ed : SNED 1973, 99

- Aleksander.A. Idem, P193 4-

- 5- محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن، دار الثقافة، دار العودة، بيروت ط5 (د.ت) الفصل السابع، ص 422
- 6- ستيغان أولمان : الصورة في الرواية. طنجة، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، 1995 ص294 [ترجمة وضوان العيادي ومحمد شبال].

7- ستيغان أولمان، مرجع سابق، ص196.

- 8- فرانسوا مورو : البلاغة، مدخل لدراسة الصور البيانية. الدار البيضاء، ط1 منشورات الحوار الأكاديمي، ط1، 1989، ص11

[ترجمة محمد الولي، جريد عائلية عن كتاب :
(François Moreau . L'image littéraire.

9- ابن الجيعان (ق15م) : القول المستطرف في سفر مولانا الملك
الأشرف، أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام 1477م، ليبيا، منشورات
جروس برس، ط1، 1984.

10- م. أولمان، مرجع سابق ص107.

11- استيفاحا لهذه الأقطاب وهبتها، فإن الصورة التقليدية للآنا والآخر
أو الموصوفات الأخرى من عناصر حضارية وثقافية تحضر كلية، ومن
أجل القبض على الصورة في الرحلة، بعيدا عن التصميم، ننص
الصورة التقليدية بالذات الراوية، والصورة التجسيرة بالآخر فيها
ندرج قطب الصورة الموقف خاصة بهما معا.

12- م. أولمان، ص217.

- Encyclopédia universalis, France, éditeur à Paris 1980, vol-13
8 (Image) P731.

- Pierre Busch . l'image dans le texte, P858 , in Revue .- 14
Critique, France, éd Minuit, N°82, Nov95.

15- المبدي الرحلة المعقوية، مرجع سابق، ص1.

- Encyclopedie universalis, Idem, P731

- Alexander A., Idem, P206.

- Henri Bonic . Guide des idées littéraires, France, éd Hach-
ette, 1988, P 242.

19- حسين محمد فهم . أدب الرحلات . سلسلة عالم المعرفة، عدد
138، الكويت، يونيو 1989 . ص193.

20- ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،
بيروت دار إحياء العلوم، ط2، 1992، ص 547 [قدم له وحققه الشيخ
محمد عبد المتعم العريان].

21- ابن بطوطة، ص603.

- J.M Floch : Images, signes, Figures, l'approche- 22
sémiotique de l'usage, in Revue d'Esthétique, Nouvelle série,
ed, Privat N°7, 1987. P112.

23- العبري، ص ص : 76-77.

- H Benac. Idem, P137 -24

25- انظر للتوسع : GRECCHIONI, K : L'énonciation de la subjectivité dans la langue, Lib. Armand Colin, Paris, 1980, P83.

26- انظر : Van Den Howvel : Parole, Mot, silence, pour une poétique de l'énonciation, Lib. José Corti 1985, P60.

27- Mikhail Bakhtine : Esthétique de la création verbale, Paris, Gallimard, 1984, P55 et 211, 278.

28- Hervé Richard. interprétation archéologique de Récits de voyage en tournaie (P P241-248) [Art in : Raymond Chevalier (édité par) : influence de la Grèce et de la Rome sur l'occident Moderne (Actes du colloque, déc.1975) Paris, ENS. Tours, ed les Belles lettres :1977)].

29- T.Todorov . Théorie de la littérature, France Seuil, 1965, P20.

30- نبيلة إبراهيم : لغة النص في التراث العربي القديم [ص] مجلة فصول، المجلد الثاني، العدد الثاني، القاهرة، 1982، ص 14.

31- Daniel Henri Pageaux : La littérature Générale et comparée Paris, Armand colin, 1994, P35.

32- Normand Douyon . L'art de voyager, in Poétique N°73, fev 1988, ed Seuil, P87.

33- Hervé Richard, Idem, P243

34- ابن فضلان، ص 74، 75.

35- ابن جبير، ص 143.

36- ترفستان تودوروف : الشعرية . الدار البيضاء، دار توفيق ط2، 1990 ص 43 [ترجمة شكري المبخوت ورحاء بن سلامة].

37- يوسف ناوري : صورة الآخر في رحلة ابن بطوطة . ص 64-65 [مقال ضمن كتاب جماعي] : ابن بطوطة : منشورات مدرسة الملك فهد العليا بطنجة ط 1، 1996

38- انظر : رحلة قايناي سنة 1477م والتي دونها ابن الجيمان (ق15م)

- ابن الجيعان : القول المستطرف في سفر مولانا الأشرف أو رحلة قايتهاي إلى بلاد الشام 1477 ، منشورات جروس برس ، ليبيا ، ط 1 ، 1984 [تحقيق عبد السلام تدمري] .
وتنص الأمر يمكن ملاحظته أيضا في الرحلات الإستعمارية التي كان يكلف فيها ضابط بتسجيل كل أحداث الغزو العسكري والعلمي .

- T. Todorov : Les Morales de l'histoire, France, ed Grasset, 1991, P102.

- D-H Pageaux : la Littérature Générale et comparée, Paris, Armand Colin 1994, P32.

- T.Todorov, Les morales de l'histoire, Idem, P105-41

42- ترفشان تودوروف : الرحالة الحديثون . (مقال) مجلة الكرمل ، قبرص عدد 35 ، 1990 ، ص 191

43- تسعمل ماري لويس برايت لفظة التعبير الاوتوإثنوغرافي "autoethnographic expression" بمعنى التعبير الإثنوغرافي الذاتي للإشارة إلى اللحظات التي يقدم فيها الآخرون أنفسهم بطرق تندمج مع الفاظ الغير . انظر :

- Mary Louise Pratt . Imperial Eyes, Travel Writting and trans-culturation, London, ed Routledge, 1992, P7

44- ابن بطوطة ، ص 595 .

45- ابن فضلان : رسالة ابن فضلان ، بيروت ، مكتبة الثقافة العالمية ، ط 2 ، 1987 ، ص 107-108 [تحقيق سامي الدمان] .

46- Jean Marie Apotolides . Les Methodologies du voyage, commentaire à l'université de Rouen, France.

ورد هذا الاستشهاد ضمن دراسة يوسف ناوري ، صورة الآخر في رحلة ابن بطوطة ، ص 66 [ضمن مؤلف جماعي] ابن بطوطة ، منشورات مدونة الملك الفهد للترجمة بلنجة ، 1996 .

47- Philippe Hamon : Pour un statut sémiologique du Per-sonnage, in poétique de récit, seuil, 1977, PP124-125.

48- انظر التقسيم الذي قدمه فيليب هامون : Pt Hamon , Idem :

- 49- ابن جبير . رحلة ابن جبير . مصر ، مكتبة مصر 1992 ، ص 434
(تحقيق حسين نصار) .
- 50- ابن جبير ، م . م . م . ص 382 .
- 51- ابن بطوطة ، ص 351 .
- 52- انظر . ابن بطوطة ، صفحات : 276 ، 319 ، 521 ، 539 ، 544 ،
577 ، 596 ، 620 .
- 53- ابن فضلان ، ص 104 .
- 54 - Henri Mitterand . L'illusion réaliste de Balzac à-
Aragon, France, ed P.U.F. écriture, 1994, P4

الفصل الرابع

المبدأ الواقعي

يتشيد المبدأ الواقعي في النص الرحلي بالصورة النسبية التي تجعله مترواحاً بين التقريرية والاحتمالية، أي بين المشاهدات من زاوية التقاط اللامسألوف في الزمان والمكان والانسان وبين المسموعات والتهيئات، مما أعطى للرحلة مساراً حافلاً بالتأويل والقراءات، وأيضاً بتنوع المتلفين من حقول مثالية داخل سلاسل مكانية وزمانية متدرجة تمثل إطاراً مفتوحاً على الأحداث التي تكسر باحتماليتها الكثافة الواقعية، وذلك عبر وسائل ومؤشرات وتقنيات أوصاف، وكذلك كل الرؤى والتأملات الواردة يتواز مع الحكيم عن أحداث عاشها الراوي الرحالة خلال رحلته أو رحلاته بين أمكنة مختلفة وجديدة وفي زمن متحرك ودائري يصاغ ضمن هذا الكلي المنصهر في صور لغوية اندماجية مع السجلات الخفية والصريحة المولدة للاحتمالي والواقعي.

إن حضور بنية المكان وتفرعها إلى أمكنة للمعبور داخل ذات الراوي والرحالة في آن، ووسط أزمنة مختلفة معيشة ومستدامة، ثابتة ومحركة، يجعلها مجسدة لحقيقة الرحلة فعلا منجزا ومبلورا لعبداً الاحتمالات الحية ومظاهرها في النص الرحلي.

انطلاقاً من كل هذا، فكل رحلة تخلق عالَمين متقابلين بجسر واحد : الأول للراوي الرحالة المتحرك في إطار مكاني وزماني معين. بينما الثاني للمتلقي الذي يخترن أسواره وأفاق انتظاره العامرة بالفراشي والبحث عن العجيب واللامألوف، فينشطر في مرآة الرحلة إلى صورتين :

- متلق متعين، حقيقي، يكون دافعاً للرحلة أو أمراً بها فعلياً، أو مشيراً بتدوينها بعد سماعها، كما قد يقتصر على الاستمتاع والإعجاب.

- المتلقي الثاني هو صورة من الأول، قرية أو بعيدة يحددها الهدف المسطر، كأن يخاطب الراوي عامة الناس أو الفقهاء والأدباء والعلماء أو نخبة من المؤرخين والجغرافيين.

إن علاقة التلقي لا تستقيم إلا بتماسك البناء النصي وقدرته على بناء مواز للفارز المفترض ضمن أسئلة تشكل انطلاقاً من الإطار الواقعي المتجسد في الرحالة-المرسل، المتعين في الرحلة باسمه، والمرسل إليه في الرحلات السفارية أو حتى في غيرها، والتي يأمر شخص معين بكتابتها له باعتبار سلطته السياسية أو الدينية أو الفكرية على الرحالة-الراوي.

ومن جانب آخر، يصبح الراوي متلقياً لمشاهداته وتخيلاته

لكون الرحلة تجربة محوكة داخل نسق التلقي الذي يجعل من أفق الانتظار منظارا تقييميا يعتبر علي إحساس مزدوج- المكتوب نصا واقعيا وخطابا يتضمن العجيب واللامألوف، ثم المكتوب في الرحلات الخيالية حلما يتشبت به المؤلف للتعبير عن «أزمة» صيقة بالنفس والواقع.

II. بنية الفضاء والزمن

1- **العبور إلى الذات** : في التعريف العام للرحلة ، فعلية أو متخيلة ، يكون الانتقال من مكان لآخر ، هو العنصر الأساسي والدعامة التي توظف الأحداث والأفعال ، فالرحلة هي الانتقال في الفضاء بتعبير تودوروف⁽¹⁾ والذي يؤكد ان هذه القيمة تكمن في الانتقال الداخلي بحيث يتغذى النص الرحلي من هذا العنصر .

وقد ارتبط المكان في الأدب العربي الكلاسيكي كثيرا بالحكي ، سواء في المتن الشعري الجاهلي وغيره ، أو في النصوص الحكائية⁽²⁾ ، كما ارتبط بالخيال والكتابة والمرجع ، أي بالتذكر في مستوياته الحينية والمؤلمة حتى أصبح مرجعا للتذكرات وسجلا لاسترجاعات تزوج بين التقريرة والشاعرية ، وهي الإحالة التي تجمع بين المرجع والسجل ، فيصبح المكان مرجعا مألوقا حينما يتم تناوله في سرود مباشرة من خلال مشاهدات الراوي ، أثناء الانتقال والتوقف في زمن الرحلة ، وتراوح هذه العلاقة بين مرجع ذاتي أثناء الحديث عن مكان الأنا والانطلاق والأمكنة المقدسة ، وبين مرجع غيري ويتعلق بالأمكنة التي يعبرها الراوي وتكون أجنبية عن 'ذاته' لأنها أمكنة الأخر .

أما المكان - السجل فهو الاسترجاعات المستدعاة من طرف الراوي، من مؤلفات تاريخية وجغرافية، ومن مقروءات خاصة لأمكنة معينة تاريخية أو مقدسة؛ وبين المرجع والسجل تتوضح رؤية الراوي للمكان وعلاقاته التي تنجيء طبيعية حيناً، ومتوترة حيناً آخر لأنه يتحول من فضاء مادي إلى وعاء روحي حامل لرموز هي نقط ضوء موجهة؛ فالآخر تتحدد وضعيته انطلاقاً من المكان، وذلك لأنه يشوي بداخله تدوينا فاضحا، يكشف علاقة الراوي بالمكان وتعددته وبالمستويات النفسية المتجسدة في هذه العلاقات فالمكان من منظور الرحالة-الراوي دائري يتكون من طبقات في الرؤية والتذكر، كما أنه خطي فعليا، وعمودي من حيث التصور خصوصا في الرحلات الحجية-الزيارية.

يشكل مكون المكان في الرحلة إلى جانب الراوي مبدأ فاعلا في بناء النص، ويؤسس لشبكة تنطلق منها الأحداث تبرز نسيج الحكاية، من أجل بلورة المنخيل. وقد اتخذ التقسيم الكلامي للرحلات «مظهرين أساسيين تمثلان في رحلات الخيال ومنها انتقال الرحالة إلى أماكن أو أزمنة غير أماكنهم وغير أزمتهم ليتمسوا فيها الملجأ والخلص من محنة واقعهم، أما المظهر الثاني فقد أتى في رحلات خرج فيها أصحابها من بلادهم باحثين عن «المكان الآخر» الذي يمكن للإنسان أن يعيش فيه دون مخاطر»⁽³⁾، فضلا عن كل التفسيرات الأخرى التي تنبني على جوهرية المكان (الدنيا = الآخرة)، (بلاد الإسلام = بلاد الكفر) كما ارتبط المكان بمسارات زمنية متروكة بين الماضي والراهن

بمختلف تلويناتها الإحالية (التاريخي، المقدس، الاجتماعي، الحضاري...)، وأيضاً المستقبل، والإرباط باليونان والحلم. وللمكان في ذهن الراوي الذي يتخذ من الرحلة موضوعاً للحكي وضعية "هندسية" خاصة تختلف من نص لآخر، لكن القاعدة المشتركة عموماً، ترسم ثلاثة أمكنة إيطارية كبرى، تتوسع أو تنقلص، وتعكس حياة السفر والمسافر، فالمكان في الرحلة هو "خشبة مسرح" من ثلاث طبقات متتالية الظهور، بأحداثها المتسلسلة والمتداخلة، وبفضائها الهندسي والعلاقات التي تتسج معه وتشكله في الذهن والذاكرة. لأن المكان وهو يتحول من بناء في الواقع إلى معمار نصي، يعيد تشكيل "ذاته" مرة أخرى، ضمن التشكيل العام للرحلة، وي طرح أسئلة مغايرة تستبعد كل تبسيط في المنظور الذي يقاربه من زاوية انعكاسات واقعية، وتستحضر المكان كأثر في النفس ورسوم تذكيرية تؤسس لمصفاة لا تحتفظ إلا بالملوآت والإطارات الكبرى والتي يمكن الإقتراب منها، إجرانياً، لهم بعض آليات اشتغال المكان في النص الرحلي.

أ- مكان الانطلاق هو الأساس الذي يكون نقطة البداية والرجوع النهائي وعتبة الانتقال إلى أمكنة أخرى، يجيء مفتوحاً ومترسباً في النفس لأنه يمثل لحظة ضيق في حياة الرحالة، حينما يضطر للهجرة، أو البحث عن علوم أخرى، أو عن لحظة تطهيرية في الحج أو الزيارات.

إن علاقة الرحالة بالمكان هي علاقة مركزية تُسقط إلتباسها

بعد مغادرته ، فيصبح مرجعا للمقارنة ، وأقفا للتذكر والحنين ؛ وما العودة إليه مسلحا بالعلم أو مطهرا نفسيا إلا رغبة في بداية علاقة جديدة أكثر انفتاحا وشفافية .

وتحكم الإنطلاق من المكان-الأم للراوي حميمية تعكسها مقارناته واعتزازه ، أو تحسُّره وحنينه للأرض والأهل . فالمكان هو الإطار والوعاء والجسر ، من ثمة ، تغدو العلاقة معه نفسية وجدانية معقدة داخل بؤرة حنينية تروي الأحداث وتلونها . ففي " تحفة النظر " يلدوب المكان في غمرة الحكيم عن رحلة امتدت لأزيد من ربع قرن ، لكنه يتمظهر في وصف أحاسيسه بغريته ، في أول فراقه من " طنجة مسقط رأسه " حيث يصاب بالحُمى (ص 35) ثم حينما لم يسلم عليه أحد ، وشعر بالاغتراب والضيم : « فوجدت من ذلك النفس مالم أملك معه سوا بقى الغيرة واشتد بكائي » (ص 35) ، بعد ذلك سيستأنس ويتحاشى استرجاع مكان الانطلاق ، لأن رحلة الراوي (ابن بطوطة) مستخذ من كل مكان نقطة انطلاق جديدة ومكانا خاصا ، خصوصا حينما كان يتزوج ويلد له أبناء .

ويظل تمثل فضاء الإنطلاق غائبا حاضرا في الرحلة قبل تنوُّنها ، ولكنه يسقط أثناء التقيد لكون دواعي الحنين وتحركاته لم تعد لها ضرورة ، بحجة أن النص يكتب بعد نهايته .

وإذا كان حضور مكان الانطلاق في العديد من النصوص مسألة تدعوها آليات الكتابة في الرحلة ، وخصوصا النصوص العلمية-الأدبية ، والمحجية-الزيارية ، فإن الرحلات الخيالية تُغيب

فضاء الانطلاق وكذلك فضاء العبور، فيما تركز على الفضاء الهدف، وأيضا النصوص السفسارية المميزة بإغفال شبه كلي لأمكنة الانطلاق، والإكتفاء بالإشارة إليها استكمالا للتقرير بشكل محايد (ابن فضلان، أبو دلف).

ب- المكان الجسر هو فضاء السير والعبور والمواجهة مع الآخر، لأنه بداية السفر خارج مكان الألفة، بحيث يمثل جسرا للعبور من نقطة الانطلاق إلى نقطة الهدف، خلاله يصبح المكان أمكنة ليس فقط للعبور، وإنما للتزود بالزاد والمعلومات والحكايات والتجارب، مما يجعل 'العبور' أنصب مرحلة في الرحلة، نظرا لتعدد الأمكنة وتنوع التجارب من جراء اللقاءات والصدامات والمفاجآت. وكلما كانت نقط العبور كثيرة، حققت للنص ثراء في الحكايات والصور، فيجني الحديث عن وقائع العبور أغنى وأكبر حجما من وقائع المكان-الهدف. ويقف العبدري في رحلته على أزيد من ثلاثمائة مكان متنوع من مدن وقرى، وقلاع، وجبال، ووديان، ومغارات، وأبواب، وقبب، ويطون، ومعالم، وبحار، ومساجد، وقبور... شكلت جسورا داخلية لخلق حلقة من المعرفة الأدبية والعلمية والتاريخية والجغرافية. وقد شكل مكان العبور لديه فرصة لتكوين وتدعيم وتقوية معلوماته، وفرصة للقارئ كي يعرف مواقف الراوي من الأمكنة التي هي جزء من الآخر.

وينقسم مكان العبور، كما ارتسم في ذهن العبدري الراوي، إلى قسمين كبيرين:

- مكان إيجامي يجيء طبيبا أو مقدما معطاء يرتبط بأناس من ذوي المكانة العلمية والفكرية .

«ثم وصلنا إلى مدينة تونس مطمح الآمال ومصاب كل برق ومحيط الرجال من الغرب والشرق ، ملئني الركاب والفلك ، وناظمة فضائل البرين في ملك ، فإن شئت أصبحت في موكب وإن شئت أبهرت في مركب كأنها ملك والأرباط لها إكليل ، وأرجاؤها روضة باكرتها ريح بلبل ، إن ردت مواردها نقصت غليلا ، وإن ردت فرائدها شفت حشا غليلا ، جلّيت بها عروس الغروس ، وحلّت بها على محر الحروس الطروس ، لا تشد بها ضالة من العلم إلا وجدتها ولا تلمس فيها بغية معوزة إلا استغنتها»⁽⁴⁾.

يتفرع المديح في المكان بذكر فضائله وقيمه والرجوع إلى تاريخه وماضيه ، أو إيراد بعض الأشعار عنه وذكر بعض الأعلام الذين أتموا به أو مروا به ، وبذلك يصبح المكان رمزا ومركبا حاملا لسمات وخصوصيات تميزه عن غيره ، وترفعه من صفة العادية إلى فضاء مميز .

- مكان "نحس" وجاف يربطه الراوي الرحالة بساكنته ، فيلصق به أقيح الصفات والنعوت :

«ثم وصلنا إلى مدينة القيروان فدخلتها مُجِداً في البحث غير وإن ، فلم أرَ إلا رسوماً مَحْتها يد الزمان ، وأثارا يُقال عنها كان وكان والأحياء من أهلها جفافة الطباع ، مالههم في رقة الحضارة باع ، ولا في معنى من معاني الإنسانية انطباع . .»⁽⁵⁾

إنها انطباعات ومشاهدات حول أمكنة أثناء العبور تتحول إلى أحكام قطعية أو شبه قطعية اتسمت بها العديد من أحكام راوي الرحلة المغربية (العبلري)، وهو يرتبط في عبوره، ذهاباً وإياباً، بين الممرات وما يطله من خراب أو تجديد، وبين مكان ذلك المكان.

إن هذه الثنائية التي تتحكم في الانطباع حول مكان العبور هي مسألة تمليها الخلفيات القبلية للراوي من خلال فرائده لنصوص رحلية سابقة، أو مشاهدته المباشرة وملاحظاته حيث يجد ما يتوقعه أو ما يخيبُ أفق انتظاره، وقد يتخلل عن أحكامه وانطباعاته تجاه الأمكنة، فيعمد إلى إيراد مشاهدات وصفية مخففة تبدو محايدة، وهو أمر مألوف في النصوص الرحلية التي تسجل المشاهدات وتفرز مواقف الراوي-الرحالة، وكأنما يريد أن يكون حكماً و"عيناً" بين ذاته الرحالة والراوية، وبين المستمع والقارئ. ويتم الانتقاء في ذكر أمكنة العبور وبعض النصوص (السفارية على الخصوص) فلا تذكر سوى بعض الأمكنة المعروفة دون سرد ما اتصل بها، شأن ابن فضلان الذي عمد إلى ذكر أسماء "المدن" بشكل سريع، وصولاً إلى بخارى (ص76) التي تستوقفه فيها بعض الأحداث، لكن ذكر باقي الأمكنة لم يكن -في سياق الرحلة- إلا ذريعة مرتبطة بأهلها وأحداثها.

ج- المكان الهدف الذي يحدد نوعية الرحلة ويشير إلى المكان الذي انطلقت نحوه منذ خروجها، سواء للهجرة، أو النفي، أو التجارة، أو الحج، أو الزيارة، أو السياحة، أو التعلم، أو السفارة.. إنه الإطار العام الذي تتحقق فيه الرغبات، فيتم

الللجوء إليه عن رغبة وشوق (الحج، الزيارة، السياسة)، أو بأمر (السفارة)، أو عن ضرورة وحاجة (التجارة، العلم)، أو عن اضطرار (الهجرة، النفي)، وبين هذه الرغائب أو نقائصها يرتبط المكان المتجه إليه بمسألة الانفصال عن "مكان الأنا"، والتوجه نحو "مكان الآخر"، مع تشكل رؤى وتحديثات لهذا المكان ذهنيا ووجدانيا.

ويرتبط المكان-الهدف بمدى تحقيق الإنجاز الذي حدده الراوي الرحالة أو عدم التوفيق فيه، وفي كثير من النصوص يصبح المكان-الهدف فضاء للعبور والانتقال إلى أهداف أخرى، مثل ابن بطوطة الذي حدد هدف وجهة رحلته إلى الحج، ثم ارتحل بعد ذلك إلى أهداف شتى، وهو الأمر الذي يتحقق في النصوص الزيارية والعلمية والسياحية، بينما يبقى النص السفاري ملتزما بالأمكنة التي يرسمها منذ البداية.

وتظل العلاقة بين الراوي والأمكنة المقصودة ملتزمة أو صريحة لارتباطها بنوعية الرحلة، ثم الإسقاطات الممكنة، حيث ترتبط في النصوص السفارية بالسياسة وبالأمراء والحكام وأتباعهم، وفي النصوص الحجية-الزيارية ترتبط بالمقدسات والتاريخ، بينما تستدرج الرحلات العلمية الحديث عن العلماء والفقهاء، وفي هذا الارتباط تَوَحَّدُ بين المكان وأهله، وهي الرؤية التي يمكن استخلاصها باعتبارها معطى في ذهن تفاعلت بداخله المقروءات بالمسموعات مع المشاهدة والمقارنة، ثم الإحتكاك بأهل الفضاء.

والنص الرحلي عموماً هو الذي «يكشف إمكانية ورغبة الرحالة في رؤية فضاء وزمن الآخرين من أجل استيعاب وحدة الفكر البشري وتنوع المجتمعات»⁽⁶⁾.

2- **المكان الرحلي ، البعد والتنوع ،** تنوع الأمكنة ضمن أبعاد تفني النص الرحلي بكل أشكاله ، وتفتح على شحنة واقعية ومرجعية تنتج هطلفات واسترجاعات تستقطب عناصر أخرى تلونها وتساهم في تكوين أفقها ، لأن المكان في بعض النصوص هو أنوية لتوليد الحكيم وتلوين الأصوات .

ويتحقق التنوع مع كل رحلة بحيث يني فضاءاتها ؛ ففي رحلة ابن جبير يبرر العنوان بتحديد مسار الرحلة " في مصر وبلاد العرب والعراق والشام وصقلية عصر الحروب الأهلية " ، كما أن تعدد الأمكنة يثوزع في النص زمنياً وقد شعلت الرحلة عامين وثلاثة أشهر ونصف ، عبر خلالها تسعة أمكنة هي كالتالي :

• الأندلس : ثلاثة أيام .

• على البحر الأبيض المتوسط ، شهر واحد ، وفي الأياب ثلاثة أشهر .

• في مصر نحو أربعة أشهر .

• في البحر الأحمر : تسعة أيام .

• في شبه الجزيرة العربية نحو عشرة أشهر .

• في العراق نحو شهر ونصف .

• في الشام نحو ثلاثة أشهر ونصف .

• في صقلية نحو ثلاثة أشهر ونصف .

وينعكس هذا التفاوت الزمني وأيضا على التنوع المكاني بين
البر والبحر، الأمر الذي ساهم في إفراز صورتين قويتين للمكان :
- المكان المتحرك في البحر الأبيض المتوسط والبحر
الأحمر، وميرتبط بالمحن العنيفة التي جعلت الراوي يبدع في
وصف الصراع وهو يواجه الرياح والعواصف على سفينة جارية
فوق بحر متقلب.

ويستدعي الراوي ابن جبير - هذا النوع من الأمكنة ذريعة
لوصف معاناته مع البحر، مقابل البر المجسد للأمان
والسلامة :

«فتمادى سیرنا في البحر، يوم الثلاثاء السادس والعشرين
لربيع الأول المذكور ويوم الأربعاء بعده بريح فائقة المهيب. فلما
كان إثر العشاء الأخيرة من ليلة الخميس - ونحن قد استبشرنا برؤية
الطير المحلقة من بر الحجاز - لمع برق من جهة البر المذكور،
وهي جهة الشرق، ثم نشأ نوء أظلم له الأفق إلى أن كسا الأفاق
كلها عصفوف الريح واشتدت حلقة الظلمة وعميت الأفاق، فلم
ندر الجهة المقصودة منها إلى أن ظهر بعض النجوم واستدل بها
بعض الاستدلال»⁽⁷⁾.

وقد جاءت أمكنة البحر محددة بأمكنة البر، وأيضا وسيلة
للوصول إلى «اليابسة» المتعينة وخالية من أوصاف غير الجغرافية
التحليلية والتعينية، هادفة لتسجيل المعاناة التي لقيها وهو على
ظهر السفينة.

- المكان الثابت في البر، وقد وقف الراوي خلاله على

إبراز أمكنة مدنية سعى إلى ضبطها، واصفا إياها واصفا بلاغيا دقيقا، حتى إن العديد من الرحالة اللاحقين عليه لم يجعلوا أوصافا للمدن التي مروا بها أو زاروها خيرا من إثبات أوصاف ابن جبير، فاقتبس العبدري منه أوصاف مكة والمدينة، فيما أخذ ابن بطوطة منه أوصاف حلب، ودمشق خاصة⁽¹⁸⁾.

إن صورة المدينة وهي مكان للوصول وجسر للانتقال، التقطها الراوي -ابن جبير من ثلاث نواح أساسية :

- المرافق : وضمنها يتحدث عن الأسوار والحصون والمساحد والمطارس والحمامات والمياه والأسواق والمعاشنات والمنازل والشوارع والأبواب.

- المشاهد : وتضم المقابر والموائد وآثار الأنبياء والعلماء والأولياء والمواقع الإسلامية، والمعابد والكنائس والآثار غير الإسلامية.

- الأرياض : وفيها تطرق إلى الأحياء والنواحي.

وقد عالج الراوي هذه الأمكنة بحسب حضورها ومواقعها التاريخية والحضرية والاجتماعية، مما حدا به، إلى رؤية المكان من زاوية معينة قد لا تحضر في نظره إلى مكان آخر، لأن الأمكنة في النص الرحلي هي بؤرة استيعابية، مغلب الحديث عن الآثار والمشاهدات -خلال تواجد ابن جبير- بفضاءاتها : (وفي الحجاز الشعائر والمواسم والاحتفالات الدينية، وفي العراق الوعظ والوعاظ، وفي الشام المسجد الأموي والجوانب السياسية والحزبية والاقتصادية من الحياة بين المسلمين والصليبيين وحياة

الدمشقيين الاجتماعية، وفي صقلية أحوال المسلمين ومشاعرهم تحت حكم الملك غليوم⁽⁹⁷⁾.

ورغم الارتباط المتعدد الأطراف بين المكان والتاريخ والاجتماع فإن الراوي مثل غيره من الرحالة يسجل موقفه الواضح من تلك الأمكنة، ففضاء المزارات هو فضاء مقدس لارتباطه بالديني، من زاوية رؤية: الأنبياء، الصالحاء والأولياء... أما المدن فموقفه منها جاء، مرة، مدحا، مستعملا عبارات من قبيل: «ذكر مدينة بانياس حماها الله» (ص381)، ومرة أخرى، قلحا وسبا كما هو الشأن في ذكره لمدينة حران التي ينعته بـ: «بلد لأحسن لديه ولا ظل تتوسد أبرديه» (ص305).

إن المكان في وعي راوي رحلة ابن جبير ليس واحدا، كما أنه ليس مستقلا عن مكونات وهوامل أخرى، تظل مشكلة له، وأهمها في هذا الوعي-الذي يستحكم بنية التوجيه عند الراوي-العلائق الدينية والتاريخية والاجتماعية المشدود إلى المكان.

أما المكان في رحلة أفوقاي فيتخذ أبعادا نفسية قريبة من «مكان البحر» عند ابن جبير ففي نص «ناصر الدين على القوم الكافرين» يشغل أربع محطات رئيسية ارتبطت بالصراع وأشكاله وهي: الأندلس، البريجة، أزموور ثم الإفرنج، وقد سميت هذه الفضاءات الرحلة بثلاث خاص جعل السفر من الأندلس إلى البريجة يتحول إلى فرار بحيلة، ثم السفر-الفرار من البريجة إلى أزموور بحيلة ومغامرة، إذ سيكلف من أزموور إلى الإفرنج، بمهمة

أشبهه بالسفارة، حيث سيدخل في سجلات دينية وسياسية واسعة، متخذاً من الغيب والسحر والعجيب مادة لتقوية الأنا/ الذات، ومبيلاً لتحفيز الحكيم وتفعيله.

المكان في الرحلة نسيج قاعدي ومتحرك يستقطب مولدات أخرى من داخله وذرائع لاسترجاع المقدم أو المندس في البعد التاريخي والحضاري وفي الممارسات الأخلاقية، كما يستقطب الحكيم عن المشاهدات والإنطباعات، فيصبح المكان متشكلاً ومعاداً في تشكله من الرؤية والرؤيا ومن السماع والمفهوم والاستيهامي، لإحتواء النص الرحلي على مواضع لا وجود لها، وعلى رؤية وهمية لأماكن موجودة فعلاً، وعلى أحداث وهمية في مواضع موجودة حقيقة⁽¹⁰⁾.

لذلك كانت بنية المكان في النص الرحلي مفتوحة على تعالقات واستراتيجيات بين الأمكنة والأشخاص، وماتفرزة من تسجيل للمكان، بتقليده أو بدمه والابتعاد عنه، ثم ارتباطه بالتاريخي عبر الاسترجاعات، وجنوح الراوي، في أحايين كثيرة، إلى تلمص دور الجغرافي.

3- الزمن الرحلي، يتحكم المبدأ الواقعي في النص الرحلي بشكل جلي انطلاقاً من مؤشرات ترسم متخيلاً واقعياً، وتؤسس لبنات متداخلة وتأطيرية، ضمنها بنية الزمن التي تتموقع ضمن كل الأحداث والأفعال.

وإذا كان حضور الزمن وتوظيفه في الرحلة يختلف من نص لآخر، وعند الرحالة عموماً، فإن الرحلة هي نص زمني بامتياز،

سواء كانت هذه البنية من أجل التأريخ أم بقصد إبراز الحرص على إمداد القارئ بوقائع حقيقية ذات مرجعيات مضبوطة لا متخيلة ، فيما هناك نصوص أخرى تغيب عنها المؤشرات الزمنية لعدة اعتبارات تتعلق بأسلوب وطريقة الرحالة في الكتابة والتدوين مقابل هذا تخلق النصوص الرحلية المتخيلة أزمنة خارقة تستجيب للبناء العام للرحلة ، سواء بالايهام في الواقع أو بتشبيث زمن الأخيرة .

ويتعظهر الزمن في كل بنيات النص الرحلي بشكل واضح أو ضمني ، وبأشكال متنوعة بتنوع الرحلات وخصوصيات الأسلوب عند المؤلف ، بينما تبقى العلاقة مع الزمن ذات أبعاد تتوضح من خلال النصوص المتوفرة حيث يمكن رصد أشكاله فيما يلي :

أ- نصوص تحتوي على إشارات صريحة حيناً ، وضمنية حيناً آخر ، تفيد ببعض التواريخ الخاصة بالرحلة ، وفي هذا الشكل يكون الحدث هو مفتتح الحكى ، بينما الزمن عنصر داعم يرد في لحظات متباعدة للتذكير ، لأن التركيز على الأمكنة يأخذ يزمام الحكى وتغلب الإشارات الزمنية جزءاً تابعاً للفضاءات . ففي الرحلة المغربية للعبدري تبي- الإشارة إلى زمن بداية السفر مفتحة تاريخياً للرحلة ، بعد ذلك مستصبح الأمكنة والمزادات هي البديل الكرونولوجي عند العبدري ، بينما يتحقق حضور الزمن في رسالة ابن فضلان وكذلك في تحفة النظار بشكل مزدوج سواء بإشارات متباعدة للتأريخ ، مثلما في قول ابن فضلان «فرحنا من مدينة السلام يوم الخميس لأحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة

سبع وثلاثمائة. فأقمنا بالنهر وان يوماً واحداً ورجلنا مجدين حتى
واقبنا الدمكرة فأقمنا بها ثلاثة أيام» (11).

ويسير على نفس العنوان، ثم يلجأ إلى التصميم من خلال
إيراد فقرات من قبيل :

«ولقد أصابنا في بعض الأيام برد شديد» ص 89.

أو ما يرد عند ابن بطوطة :

«وافئق في ليلة من ليالي إقامتنا بمرساهم ...» (12).

وهذا أمر وارد في أغلب النصوص الرحلية مهما كانت مؤطرة
رمياً، فإن الرحالة يستند إلى جملة زمنية تصميمية، وهي فنيا وسيلة
لعدم الاغراق في التحديدات الزمنية المثقلة للنص.

وفي كل هذه الحالات، فإن الحدث الرحلي بمفصله
الموزعة على بنيات منشطرة هو البناء الرئيسي في هذه النصوص،
وما حضور الزمن في صيغته التاريخية البسيطة على مستوى
السرد إلا تقوية لتلك الأفعال والسرد، ونغطة للاحتتمالات
والخيالات المبنوثة.

ب- نصوص رحلية تلجأ إلى اتخاذ التواريخ مفتوحاً للحكي
حيث يطغى الطابع الكرونولوجي الذي يحول الرحلة التي رسمها
- في شكل شذرات مؤطرة بتاريخ وقوعها، وإن كان في أحيان
كثيرة يلجأ عبر استعادات تفرسها الأمكة المتوقف عندها إلى
تواريخ مستعادة من الماضي لأضواء تلك اللحظة.

وفي هذين النوعين من الحضور الزمني بهذا الشكل يتم
التنوع من رحالة لأخر، وبين نص مثقل بالتاريخ لكل الحركات

والأفعال، وبين آخر يشير -في تباعد- يلمح ويصهر النص كله في بناء متوازن.

وإذا كانت بنيات الزمن تختلف وتعدد مع الرحلات السفارية والحجبة والثقافية وغيرها، فإن الزمن الرحلي الخطي والمتعلق بلحظات السفر، يحضر في كل الأنواع والأشكال بصيغات مختلفة من أجل تحقيق وظائف شتى تظهر مع كل نص ورحالة؛ فنحفل هذه البنيات بأزمة أصبحت في الرحلة جزءاً من البناء العام، وهي غير الأزمنة التي يحيها الرحالة في الواقع ويدونها بعد ذلك، وإنما أزمة مستدعاة من الماضي القريب أو البعيد تخص تواريخ خاصة بالأمكنة وبالشخصيات أو بالأحداث من جهة، وتصب في ما هو ديني وسياسي وثقافي واجتماعي من جهة ثانية.

II. آليات تلقي الأخيلا

1- **هي قضايا التلقي** : يحقق النص الأدبي علاقات متعددة الأقطاب، متفاعلة بين عناصر أساسية في انبثاقه وتأكيد خصائصه، والتي تتحول إلى سلطة تضرر متعة تخيلية جاذبة، مؤطرة بقطبين متفاعلين، حددتهما الدارمسون في هذا المجال- في القطب الفني، الذي يمثل نص المؤلف، والقطب الجمالي، وهو الإدراك الذي يحققه القارئ في تفاعله مع النص المقروء.

إنها عملية معقدة لما يتعلق الأمر بعملية التلقي ومآثر حته من إشكالات واستدادات متشابكة، سواء في مهادها وقاعدتها الكبرى بالصايا، أو تواصل ذلك في مدارس أدبية وأنجلو أمريكية، وسعت من زوايا النظر، وانفتحت -مثل المدرسة الألمانية

بتوحيدها- على تصورات معرفية متقاطعة وتشبيكات فلسفية ذات أبعاد وبصائر متنوعة، تنكس على المنهج التجريبي في التعامل مع الفرائض العقلية، ومع التصورات الفلسفية الأرسطية، ومثالية باركلي، والكانطية، والتحليل النفسي، وظاهراتية رومان إنكاردن R. Ingarden، وبصمات آدموند هوسرل في رده على التجريبية والمثالية، وإبلاء الأهمية للروعي والموضوع الخارجي. أما البعد الهيرمينوطيقي، وملاحظات هانس جورج كادامير الأساسية فإن تأثيره كان ذا أهمية وما يزال.

إنها مشاريع، مثلما يلخصها إرود إيش⁽¹³⁾ ويؤطر بها قراءته لنظرية التلقي. لكن الأسئلة التي انصبّت في كل هذه التصورات والمفاربات على المفاهيم ومن الزوايا المتعددة، مازال البحث فيها بكرا، رغم الإجراءات المؤطرة والمستويات النظرية في الموضوع.

وقد قاربت المفاهيم القائمة، ذاتية الفرائض المتلقي، ثم النص -الإرسالية، مع تعقيب أو إغفال لذات الراوي الذي هو في نفس مستوى المتلقي - حسب جاب لتفنت⁽¹⁴⁾ أو كلاهما يسهم في خلق العالم الفني للخطاب السردي. فالتركيز على أفق الانتظار أو التوقع، والذي يعوّل عليه يلوّس كثيرا في نظرية التلقي، صار جزءا أساسيا في بناء أي تصور حول التلقي، وأيضا في نظرية الأدب أثناء مقارنة مسألة التجنيس، دون الوصول إلى التدقيق في طبيعة هذا الأفق، الذي هو عنصر دينامي متحرك، غير ثابت، لا يخضع لترعات سيكولوجية، وإنما لنسق ثقافي وفكري مرتبط بخلفيات

تاريخية مرحلية، وتشيد ضمن سيروية غير ثابتة، تتغير بحسب تغيير هذا الأفق أو اندماجه، انطلاقاً من البنيات النصية الموجهة للقراءة وخصوصيات التفاعل والتحقق ومستويات التأويل، لأن النص هو إنتاج يجب أن يكون مصصير تأويله جزءاً من إوالبته التوليدية الخاصة، فتوليد النص هو تحريك استراتيجية تشترك فيها توقعات أفعال الآخر كما هو الشأن في كل استراتيجية⁽¹⁵⁾.

وفي ضوء هذه السيروية بتخلق المعنى، ثم الإفتراضات التي تحتويه وفقّ خطاطات إحالية لمرجعيات محددة، ولطبيعة الإدراك والمسافة، كما الذخيرة المشتركة بين الباث والمتلقي هي الأساس في اشتغال نظام الفعل ورد الفعل ضمن نص فني معين⁽¹⁶⁾.

ويشكل مفهوم المعنى، وما يتجّه من وقع عند ايزر W. Iser سبيلاً لرسم معالم جمالية التلقي وتفاعلها، مما يستولد جهازاً مفاهيمياً موسعاً، يعطي للصورة حضوراً استراتيجياً، باعتبارها قطبا مركزياً في "تجسيد" و"إنتاج" المعنى والوقع في ذهن المتلقي، وعلاقة كل ذلك بفنّات جمالية، وعلامات نصية تغذي من طبيعة النص وخصوصياته، ضمن سلم الجنس الذي ينتمي إليه، وقدرته على تمثّل عناصره وتنسيبها، وبالتالي جعلها انتهاكية لأفق انتظار المتلقي، هذا الأخير الذي يحقق "العبور" أو "اللاعبر" إلى مستويات المعنى والدلالة، من خلال قدرته على توسيع ديناميّة القراءة ومسارات التواصل والتصادي

الإيجابي ليقوض المقصديات المخفية أو يهملها، من أجل تحقيق قاعدة تأويلية.

إن تعدد مستويات التلقي، والوضعية المشتركة⁽¹⁷⁾ بخصوص النص والمتلقي، يحيلان على التنوع الممكن في ضبط تموضع القارئ وإثباته. فداخل كل نص، يتحقق شرط القارئ الضمني، وكل نص يتشكل ضمن تفاعلات وجود فاعل حقيقي وآخر متخيل (المؤلف والسارد)، مقابل قارئ حقيقي، وآخر متخيل. وهو نسق يتشعب بحسب أبعاد النص، الذي هو تجربة محوكة، تفترض قراءا حقيقيين ومتخيلين.

والمتلقي في المحصلة هو بنية نصية متداخلة، ومحولة بدورها إضافة وتحويرا، تحقق تداوتا وإنشاء لأن «النص يفترض قارئه كشرط حتمي لقدرته التواصلية الملموسة الخاصة، و (...) أيضا بقوته الدلالية»⁽¹⁸⁾. فالقارئ الضمني في ذهن المؤلف الحقيقي ينتسج ضمن المكونات الأخرى ويتوجه إليه الخطاب في أكثر من موقع، بشكل ضمني أو صريح أحيانا، لأن النص الأدبي بتعبير أيزر «لا يُخفي معناه الوحيد في داخله ولكنه يقوم بمجموعة من التوجيهات نحو تجميعه للمعنى من أجل نفسه»⁽¹⁹⁾. وهو ما يطرح وظيفة التلقي، فهناك تلقيات للنص الواحد وللمتلقي الواحد، وفي كل مرحلة تنصج خصوصياتها وشروطها، يصبح التلقي نسقا لمواضعات يمكنها أن تتحقق، وهذا أمر لا يغيّب عن المشتغلين في هذا الحقل، من ثمة كانت الوظيفة البديهية للمتلقي بكافة وجوهه واحتمالاته- هي الفهم

والتواصل ثم التأويل ، وعبر هذه المستويات يتم ملء الفراغات البيضاء ، باعتبار النص -كما يحدد ذلك امير طو ايكو- نسيجاً من الغضاءات والفجوات التي يجب ملؤها⁽²⁰⁾ في مرحلة العبور للتوسيع من دينامية القاعدة التخاطبية بين المؤلف والنص والقارئ، والبحث عن ايجاد وضعية مشتركة من خلال التركيبات الطوعية، وهو ما يفرز بالضرورة- خصوصية الرسالة والتلقي والبحث فيهما.

إن قضايا التلقي النظرية ، باعتبارها استراتيجيات جديدة لتعزيز نظرية الأدب وتحديثها، هي أعقد بكثير من اختزالها في مدخل تركيبي، لكن الرغبة في مساءلة النص الرحلي انطلاقاً من هذا المكون والمستوى، تستولد أسئلة أخرى تقارب التسيج النصي للرحلة ولآليات الكتابة فيها.

2- التلقي والنقد: في إطار سياق تشكّل النص الرحلي العربي وأبنائه، كانت قضايا شاغلة في النقد العربي القديم تصوغ أسئلتها حول التلقي في حقل الشعر بالأساس، بخلفية تستند إلى التراث البلاغي النقدي وتقاطعاته مع الفلسفي، حتى أن أهم من قسّل أسئلة التلقي هم الفلاسفة المسلمون (الكندي، الفارابي ابن سينا، ابن رشد ...) والنقاد المشتغلون بقضايا منطقية وفلسفية، وبلاغية أدبية (عبد القاهر الجرجاني، حازم القرطاجني ...).

وقد ارتبط هذا المبحث بالشعر باعتباره حقلاً لشمحيص المعطيات والمفاهيم-والتي يمكن اختبار النص السردي في

ضوئها انطلاقاً من قضية اللفظ والمعنى عند النقاد العرب-
والقائمة على الغرابة، إضافة إلى مجموعة مفاهيم أخرى مؤطرة
بجهاز نظري نقدي يتغذى من حقول شتى.

وإذا كانت الغرابة والتعجيب قطبين أساسيين في الخطاب
النقدي فإن المتلقي بشكل عام ارتبط بمفاهيم جمالية تنوقية،
مثل: اللطف، والإبداع، والبلاغة، والبيان، وعناصر أخرى
تضافر في سبيل بناء صورة أو تصوير معنى وخلق شروط إدراكه،
عن طريق تفعيل التخيل والمحاكاة (الفارابي)، لأن معالم
«الإستجابة التي يحدثها التخيل في المتلقي» في ضوء حقيقة
مؤكدة في علم النفس الأرسطي، مؤدعا أن الإنسان كثيراً ما يتبع
انفعالاته وتخللاته أكثر مما يتبع ظنه أو علمه» (21).

إن الصوغ الأدبي والبناء الفني للجملة، في إطار متواليات
تشكل معنى عاماً، يجيئان لهدف قصدي هو التأثير وخلق تلق
عام وآخر خاص، النص الرحلي-تمثيلا- فيه، يهدف إلى خلق
متعة ومعرفة، عبرهما يتشيد خطاب تعليمي تربيوي وأخلاقي،
ولاشك أن التصوير بأشكاله ويمث صور متعددة المستويات يهدف
حسب الفارابي- إلى الفائدة والراحة، أو التعجيب واللذة

3- الرحلة والتواصل: تختزن السرود القديمة أكثر من

مثلث في النص، ففي نص "ألف ليلة وليلة" يتمظهر المتلقي في
النوع المتضمن لشكلين أوليين متخيلين في البناء الحكائي:
المتلقي الرئيسي: شهریار، ثم المتلقون الفرعيون والمتناسلون.
النوع الثاني هو المتلقي الضمني- الواقعي الذي سيفرأ

الكتاب، وهو القارئ الشعبي المغموم بالمعجائب والخارق وفوق الطبيعي.

أما الإرسالية في 'كليلة ودمنة' فتتوجه إلى دبلشليم، وإلى متلقين متخيلين أيضا، ثم المتلقي الضمني وهو القارئ الحكيم الذي يفك الرموز ويستنتج العبر. بينما تلجأ المقامات إلى المتلقي - المؤلف في بناء النص، والمتلقي الضمني الباحث عن اكتساب اللغة والمتعة؛ أما السير الشعبية فالمتلقي فيها ضمني يرمز إلى القارئ الشعبي المتطلع إلى التغذي بالحسن البطولي والقيم المنافحة عن العروبة والدين.

النص	المصنوع له المشارك	المصنوع له المشارك	الحائز	الهدف
1	كليلة ودمنة	شهر يار	قارئ شعبي	المتعة والتهنئة
2	كليلة ودمنة	يوليا	قارئ حكيم يكتشف الرموز	الحكمة والرمز
3	المقامات	المؤلف	قارئ لسوي	اكتساب اللغة والعناية
4	السر الشعبية	المتعة	قارئ شعبي	المتعة والتشجيع

ترسم البنيات النصية لهذه الأشكال السردية بؤرة توجيهية للقراءة تختلف وتتقاطع في مستويات معينة، وفي قنوات التواصل والمسارات العجائية، التي تجسر قطبي الفني والجمالي (النص والتلقي)، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يتمظهر التلقي في النص الرحلي، بافتراض أن المتلقي ليس واحدا؟.

سؤال سيكون مُضللاً، لو تم البحث مباشرة عن جواب لتوضيح قطبي الإشكالية، لكن المسألة أعمق من ذلك، فالدراسات التي بحثت في المتلقي لم تهتم للمسألة في النص الرحلي، وبالتالي أغفلت أن يكون الرحالة المؤلف- الراوي، هو نفسه المتلقي الأول الذي تلقى الرحلة -قبل تدوينها- فعلاً ملموساً، ثم قام بتحويلها إلى صور تخيلية عبر قناة التذكر. آنذاك، يتحول الرحالة إلى راو وفارئ لتجربة معيشة، ساهمت المشاهدة والتخيل في بناء صورها، وأسست لمرجعية مشتركة، وقاعدة أولى بين الرحالة والمؤلف الراوي، الذي يحقق منجزات ووفائات، يتحول -وهي خليط من حوارات وإرساليات وتلقيات وفعل تجسيدي- إلى كتابة تخيلية تمت خلالها عملية تحويل خاضع للإختزال والتكثيف وبناء صور، تتموقع فيها الذات راوية مشاركة، ومتلقية مشاركة.

فالرؤية هي مستوى أول من التلقي، والسمع مستوى ثان يتشكّلان وينموان إلى جانب مستويات أخرى ضمنها التذكرات، والتخيلات، والتخمينات والتأويلات ... فتحقق استراتيجية التلقي عند الرحالة - الراوي نفسه في مرحلة التلقي الأول المباشر، الذي هو تجربة معيشة مستحول في مرحلة التلقي الثاني المكتوب إلى إرسالية إدماجية للقارئ. وإذا كان بعض المتلقين في النص الرحلي يحشون، بمواراة الوقع الفني، عن صدق الإرسالية، فإن الأجدد بالبحث هو اعتبار الإرسالية تخيلاً ومقدرة لغوية، فضلاً عن نسق من آفاق الإنتظار المتراكبة بدءاً بأفق الراوي

ثم أفق القراء كما يتخيلهم المؤلف الحقيقي، أو كما نقرّزهم القراءة.

فكل نص منجز هو ناقص بالضرورة. وسلطة المؤلف أو النص هي سلطة لا مكتملة بالتأكيد، لأن قطب المتلقي ينتج آليات ومكونات لتلقي الأخيلا ولتوليد الاحتمالات المنسية، فضلا، في الحذف المترتبة عن السرد الكرونولوجي.

يقدم أفوقاي في نصه الرحلي، فعل (اعلم) في صيغة الأمر، مغاطيا متلقيا عبر إخبارية يضطر من خلالها إلى الرنط في البناء السردى لمعرفة اسم المدينة (برضيوش)، والبحث عن الجغرافية للحصول على اسم النهر (نهر لاكارون). فهو يدفع القارئ كي يكون متلقيا إيجابيا: يتلقى الخبر، ويبحث عن ملء فراغاته، ويدفعه إلى التعلم ومعرفة طبيعة السجال ونوعية الآراء المتداولة. وفي كل مرة، تُشكل الحذف قضاء أثريا للراوي والمتلقي، حتى يكون قارئا مشاركا، يعيش الكتابة التي هي تحويل مفترض لتجربة معيشة، يتم سردها في سياق التخيل.

إن صيغة التحويل هي عملية لتفويت الفعل والكتابة، في ارتباطها بخصوصية النص الرحلي دون باقي النصوص السردية أو الشعرية، لكونه نصا مفتوحا يتضمن عناصر من حقول مختلفة: جغرافيا، وتاريخ، وأنساب، وتراجم، وسير، وحكي شخصي... وهو في مستوى آخر، إعادة إنتاج لنصوص أخرى، مثلما يشكل قالب النص / نصوص سابقة أو معاصرة له، وبالتالي فإن القراءة بدورها ستكون مفتوحة ومؤطرة بنصوص أخرى، لأن

المتلقي يقرأ النص بحللفية انتمائه إلى جنس الرحلة، وما يخلقه من فراغات، يبحث عن ملتها، فخاصية النص الرحلي أنه يكتب وفق إطار، هو نفسه الذي يوظف القارئ ويجعله «أسير» الجنس للإطار والمحدود، فلا يحقق أفق الانتظار الباحث عن الاندماج.

والقراءة من هذا المنظور هي بتعبير ستانلي فيش⁽²²⁾ نشاط تلوّثي، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بنص رحلي يتمي إلى النصوص الشخصية، التي تحكي عن مسيرة الذات والروح في أمكنة وأزمنة محدودة، والمتلقي كلما يقرأ مثل هذه النصوص، يدخل في علاقة تفاعلية مع تجربة مستحق له «منفعة وفائدة».

يحقق النص الرحلي سياقات وعلاقات تواصلية مع الذات الساردة ومخاطب مباشر، تتم الإشارة إليه في بعض الأحيان بشكل صريح أو عبر أدوات الخطاب.

يصرح أحمد بن قاسم الحجري (أفوقاي) في تمهيدته لرحلته «ناصر الدين على القوم الكافرين» بالمتلقي الذي يقصده قائلا : «وطلبَ مني غير واحد من علماء المسلمين أن أعمل تأليفاً بذلك، ولم يتفق العمل، إلى أن أمرني شيخنا وركتنا بمصر المحروسة بالله، وهو العلامة الشهير علمه وثناؤه في الأقطار والبلدان : الشيخ علي بن محمد المدعو زين الدين العلامة الشيخ عبد الرحمن الأجهوري المالكي ..»⁽²³⁾ كما يقول في فقرة أخرى : «قرأت الرحلة المذكورة على الشيخ الفاضل المذكور» (ص 19)، ويرد فعل «أمرني» ثلاث مرات في هذا التقديم، مما يفضي إلى أن

متلقي الرحلة هو قارئ حقيقي، ذو مستوى علمي عال، حيث يتم افتراض قارئ شبيه (مضاعف) مجرد، من نفس المستوى.

ويسمى أفوقاي إلى تأكيد ما جاء في خطابه التقديمي وفي الصفحات الأخيرة من نص الرحلة، حيث يذكره الشيخ علي الأجهوري من خلال تدخله في بنية النص: «وطلبت منه أن كل ما يظهر له أنه غير لائق أن يأمرني بإسقاطه ونصحي، ونفني بعمله وبنه الصالحة» (ص 135). وفي كل الحالات يتكرر فعل الأمر وتدخل القارئ الذي يصح مشاركا وموجها للنص في مراحل الرواية الشفوية والتدوين الكامل ثم التلخيص. ويعرض أفوقاي لمسألة التناص والتقاطع بكون نصه ليس سوى علامة تتلقي مع علامات أخرى تكشف عن وجه المتلقي في المؤلف، وذلك بالتعاج قراءاته من كتب دينية وفقهية في نصه الرحلي⁽²⁴⁾.

وعبر تضاعف النص تتحدد مرجعيات السارد ووعيه المؤطر بنصوص أخرى، كما يتوضح حضور المتلقي متوجها في مفتتح العديد من أبواب الرحلة بفعل «اعلم» في صيغة الأمر: «اعلم أن بين باب الكعبة شرفها الله، وبين الركن العراقي موضعا طوله اثنا عشر شبرا وعرضه نحو النصف من ذلك»⁽²⁵⁾.

فالراوي الرحالة يخاطب قارئاً يرغب في العلم بأسرار المواضع التي ارتحل إليها ابن بطوطة، والذي يتحول إلى مؤرخ وجغرافي، في إطار دينامية الفعل المستحكمة في مفتتح هذه الأبواب وفي بنية السرد عامة، لأن طبيعة الإخبار توضح أن النص

هو اختصار الرحلة بتفاصيلها، جاء بناء على طلب منلق شخص متعين وعلومس .

أما العبدري ، فإن قراء رحلته -حيث يعلن عن ذلك في تقديمه- هم شيوخه بمصر وغيرها . «وكان شيخنا زين الدين بن المنير حفظه الله ، يستحسن مايقف عليه منها وقد أكملتها ...» (ص6) . بالإضافة إلى حضور المتلقي الضمني الذي قيد العبدري رحلته من أجله . وهذه خاصية في الرحلات الحجية ، التي يكون منلقوها من صنف القارئ الفقيه المتعلم ، والقارئ العادي ، فيما يتوجه خطاب الرحلات السفارية إلى الآخر ، ويمكن أن يكون تقييدها على غير صيغة التقرير ، مثلما الأمر في رحلة ابن فضلان والتي تُقرز ملاحظتين أساسيتين :

- حضور المتلقي الضمني والعام مع غياب إشارات تفيد مخاطبا معنا بالإسم أو الضمير (أنت + الكاف) .

- بروز فعل «قال» في لحظات تجلد الحكيم ، وهو الفعل الذي يشير إلى أن راويا (ياقوت) ينقل كلام السارد (ابن فضلان) ، بمعنى أنه كان متلقيا مشقفا ، مؤرخا وجغرافيا ، وعالما في الأنساب .

تكمّن خصوصية التلقي في النص الرحلي في البنيات النصية الموجهة إلى جمهور خاص من الفقهاء أو الأمراء أو الأشخاص المعنيين من جهة ، والقارئ العام الباحث من جهة أخرى عن فائدة أو متعة في الرحلة باعتبارها مشاهدات ومغامرات للتصادي بين الأحداث في سيرورتها ، وأحداث السرود العربية الكلاسيكية

الأخرى الحافلة بالأخيلة. فرغم الإضاعة الخلفية التي تحدثل النص بصفته مقصديات وحقائق، فإن مسار القراءة يتجه للحفر عن الأخيلة، ويعقد الراوي بعض سروده لتدوين العجائبي واللامألوف. من ثمة فإن السؤالين اللذين طرحهما «أيزو» حول كيفية استيعاب النصوص، وحول النيات التي توجه القارئ في معالجة النص⁽²⁶⁾ يجدان في تحليل مسألة التلقي من خلال الرحلة انفتاحا عن تلقي الأخيلة والنيات النصية الإخبارية التي تخاطب وجدان المتلقي بتوظيف مشاهدات واستيهامات تشحذ العواطف وتستميل النفس.

يشهد أحمد بن جزري أن السلطان المريني أبو عنان هو الذي أمر ابن بطوطة بتقييم الرحلة بعدما رواها عليه شفاهيا، وهو ما يؤكد ابن بطوطة في مقدمته للتحفة، الأمر الذي يفيد أن بناء هذا النص مثله مثل العديد من الرحلات الأخرى التي انكتبت، بناء على رغبة مستمع، يريد أن يحفظ الإرسالية في مكتوب يستفيد منه قراء آخرون، يحتملهم الأمر والرحالة والراوي. إنه المتلقي الخاص الحقيقي، ويعد بعجي متلقون مفترضون ومجردون. فالخاص يتدخل -أحيانا- في النص، كما يفترض تدخل ابن جزري في نص رحلة ابن بطوطة، وتدخل علي الأجهوري في رحلة ناصر الدين. بل يمكن التوغل أعمق من منطلق أن الرحالة والراوي هما المتلقي الأول الذي يستعيد الأحداث، وفق خطاطة وتصور معينين، تحكم فيها خصوصية الجنس ونوعية الرحلة، وأيضا ثقافة ووضعية

الرحالة، مما يمكنه من إيجاز نص تحويلي خاضع لتفسيرات وتأويلات وحذف وتنظيم، دون إغفال مسألة الحكي الشفوي الأولي، ثم كتابة ذلك الحكي من طرف الرحالة نفسه، أو من طرف راوية يتكفل بالتحريير.

هذا، بالإضافة إلى عوامل أخرى، قبل أن يصل إلى المتلقي المتعین والمفترض، والذي ليس واحدا منسجما، أمام نص لا يقود بالضرورة إلى صورة واحدة. ذلك أن «تلقي النص» (كنسيج من الرموز) يختلف من متلقٍ لآخر، بل إن تلقيات النص الواحد تختلف عن بعضها، ولو كانت الذات المتلقية واحدة، وذلك باعتبار أن فعل التلقي يخضع لشروط خارجية (المكان والزمان، ووضعية فعل التواصل)، كما يخضع لشروط أخرى داخلية (بيولوجية وسيكولوجية، وأخرى تتعلق بمعطيات ووضعية المستقبل الاجتماعية)⁽²⁷⁾.

عبر هذه الأفعال، تناسس الوظيفة التواصلية والتفاعلية بين الموضوع والذات، مما يكسب القراءة بُعدا تذاوتيا، لأن الذخيرة المشتركة تفرز مرجعا ووضعية مشتركتين، بتسيب ضروري يجعل التواصل تفاعليا يبين الاستجابات، ويولد مسارا تحققيًا للمعاملات التركيبية الطوعية، بقنوات تذاوتية، تلجأ إلى تقنيات ومظاهر أسلوبية من أجل تحقيق جمالية التلقي، وعيا بثنائية اللفظ والمعنى، وأهميتها في نسج صورة أدبية متخيلة، تشكك في التمسك؛ إدراك واقع ثانٍ «محتمل» ينهض من الواقع المتخيل.

إن الأحداث والإخبارات - وهي تتراوح بين عمليتي السرد والوصف - تخلق تجسسية ذات وقع ينسج تعجيباً ولذة وفائدة .

«فركبت معهم حتى صرتُ إلى النهر، فإذا أنا بالرجل وإذا هو بلراعي اثنا عشر ذراعاً. وإذا له رأس كأكبر ما يكون من القصور، وأنف أكثر من شبر وعينان عظيمتان، وأصابع تكون أكثر من شبر شبر، فراعني أمره وداخلني مادخل القوم من الفزع وأقبلنا نكلمه ولا يكلمنا، بل ينظر إلينا»⁽²⁸⁾.

يستشعر المتلقي حركية السرد والتدقيق في الوصف القريب من التجسيد، الذي يخلق التعجيب وكذلك المتعة المتحققة من فقرات حكائية تشكل بتواليها فائلة معينة : تربوية، أخلاقية (دنية، وثقافية معرفية في التاريخ، والجغرافيا، والأنساب، والتجربة الشخصية ...).

إن صور السرد عند متلقي النص الرحلي هي تنظيم تخييلي لمشاهدة العين والذاكرة، تكيفت عبر قناة أو قنوات، لرسم واقع آخر مكيف ومحول، أو نماذج من الواقع - بتعبير إيثر⁽²⁹⁾ - تعكس أنظمة دلالية تفهم مستوى معينا وتأويل خاصة، كما تؤكد التركيب المعقد لعلاقة النص الرحلي بـ «الواقع» عبر التجربة، وتحولها ثم تلقيها .

يتشكل الواقع المشترك في التخييل من متواليات بناءات صور، تتضمن فراغاً بشكل بنيات فعوذجية في النص، تفرزها لعبة الزمن ومايرافقه من حذف واختزال، لأن النص الرحلي -

ككل النصوص - يخضع لاستراتيجية تحقق عبر الأفعال الكلامية وباقي المكونات تواصلا وتفاعلا .

وتندمج المستلقي وهو يقرأ رحلة تغفيها ذخيرة من اليقين الواقعي والاحتمالات وأيضا من الحركة والمفاجأة والعجائب ، في نسيج البناء ويصبح متجا لصور ذهنية بواسطة التمثيل والتخييل ، تتحول إلى تركيبات طوعية Synthèses Passives بموازاة الصور المنجزة في النص .

فحافز الواقعي يتمثل على نفس درجة الإجمالي إضافة إلى تأثيرات الزمن والتحويلات الممكنة ، وصياغة الحكيم وجنس الرحلة والطبيعة النفسية للذات الراوية ، وغيرها من العوامل المتشكلة في اللحظة والسيرورة .

إحالات

1 - T Todorov Les Morales de l'histoire, France, ed, Grasset - 1992, P95.

2- يحضر المكان ، بشكل لامت ، في كل النصوص الحكائية القديمة ، حيث تتم الإشارة إليه منذ البداية ، وقد يجيء واقعا بأحداث واقعية أو بأحداث خيالية ، كما قد يجيء مكانا متخيلا محضا .

3- حسين محمد لهيم . أدب الرحلات . الكويت ، سلسلة عمالم المعرفة ، عدد 138 ، يونيو 1989 ، ص 43

4- المبدري ، ص 39 .

5- المبدري ، ص 64 .

6 - H.D. Pageaux, Idem, P 32

7- ابن جبير ، ص 80 .

- 8- الاقتباسات من رحلة ابن جبير هي وصف المدن لم تقف عند الرحالة الذين جاءوا بعده وإنما من طرف المؤرخين كالمقرئ في خطه، ومن طرف الأدباء كالمقرئ والمشرقي.
- 9- ابن جبير، من تقديم حسين نصار، ص 13.
- 10- انظر حسني زينة ' جغرافيا الوهم. لندن، رياض الريس، ط 1 1989، (معالج الأمكنة من منظور مفتوح في نصوص جغرافية رحلية).
- 11- ابن فضلان ' رسالة ابن فضلان. ص 37.
- 12- ابن بطوطة : تحفة النظار. ص 629.
- 13- ELRUD Ibsch : La réception Littéraire, Article : انظر : N°15, PP249-271, Traduit de l'allemand par Daniel Malben, in Collectif . M.Angenot J Bessière D.Pokkema, E.Kushner . théorie littéraire. ed P.U.P, Fondamental 1989
- 14- Jaap Linvelt . Essai de typologie narrative, le point de vue, théorie et Analyse, librairie José Corti, Paris 1981
- 15- امبرطوليكو ' القارئ النموذجي [ضمن كتاب جماعي : دراسات طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط ط 1، 1992] ترجمة أحمد أبو حسن، ص 160.
- 16- اندريس بلملح . استعارة الياء واستعارة المثلثي [دراسة ضمن مؤلف جماعي] نظرية التلقي : إشكالات وتطبيقات، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ص 109.
- 17- W. Iser . Actes de lecture ; théorie de l'effet esthétique, ed. 17 Pierre Mardaga, 1985, P293.
- 18- امبرطوليكو، مرجع سابق، ص 159.
- 19- فولفكانك ايزر . آفاق استجابة القارئ [ضمن مؤلف جماعي] من قضايا التلقي والتأويل، جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية. الرباط، 1995 ص 223.
- 20- امبرطوليكو، مرجع سابق، ص 158.
- 21- جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي ط 3، 1992.

- 22- ورد الاستشهاد لخصن ملف (جمالية التلقي) : مجلة دراسات سمائية، أدبية، لسانية، العدد6، حريف، شناء 1992 . (مقالة) : عبد العزيز طليسمات : الوقع الجمالي وآليات إنتاج الوقع عند : و. ايزو، ص54.
- 23- رحلة (ناصر الدين علي القوم الكافرين) : ص18 من التقديم
- 24- نفس المرجع، الصفحات 58، 59، 60 و 137 143.
- 25- ابن بطوطة، ص150 وعند أموقاي «اعلم -رحمك الله- أن في هام ست وتسعين مائة» ص23.
- «اعلم أنها من أعظم مدن فرتجة على حاشية البحر من بلاد الأندلس» ص37.
- «اعلم أنا مشينا وقصدنا تلك البلاد» ص105.
- 26- ف. ايزو : أبقى نقد استجابة القارئ، مرجع سابق، ص216.
- 27- كوستر جريم . التأثير والتلقي : المصطلح والموضوع، [دراسة في مجلة] دراسات سمائية، أدبية لسانية، عدد 7 - 1992 - المشرق [ترجمة أحمد المأمون] ص18.
- 28- رسالة ابن فضيلان ص137.
- 29 - W.Iser Acte de lecture, théorie de l'effet esthétique ed. Pierre Mardaga, 1985, P132

خطية كلاسيكية تخبر بكل ما يتعلق بالمهمة والأحداث المصاحبة لها أو التي كانت قبلها وترتبط بها.

فالتابع السفاري الذي هيمن على الرحلة، جعل السرد يفقد بعض خصوصياته فلا ينجح سردا اعترافيا يسوح بالحنين ويؤطر التذكريات بالذات ويحرر السرد، وإنما هو سرد تقريرى ببعض العموميات والخصوصيات البعيدة عن الذات والمتجهة - جلها - نحو الآخر.

وقد كان بإمكان السرد أن يكسر الخطية ويتجه في خطوط هي نسج متواز من التقاطعات السردية المشكّلة لسلاسل كاملة من الحكى في تجربة رحلية استغرقت أحد عشر شهرا ذهابا.

وتعتمد الاستراتيجية السردية في رحلة ابن فضلان على الخطية لخلق سياق استقطب قطبي الحكى والتأريخ، عبرهما توجد المتعة الفنية من خلال الحوارات المستولدة عن السرد والأوصاف.

وهكذا، فإن هذه الاستراتيجية جاءت مقطرة لم تعتمد العديد من الأساليب الرحلية وإنما تضمنت سردا للمشاهدات وبعض المسموعات من حوارات مع حذوف وتلخيصات ملازمة أعطت للسرد طابع الانتقائية. وأيضا في الحوارات. عبر الترجمان. وكلها تضيء سرودا تخص الآخر والبعد الاجتماعى.

3-1. نهج ابن فضلان سبيلا مزدوجا في الوصف لم يلجأ إليه إلا في حالات قليلة حينما أصبح السرد متشبرا يلتقط مشاهداته، بينما كان حريصا باستمرار على استبعاد الأوصاف

والصور التي تضيء ذاته ، من ثم فإن شبكة الوصف المتوفرة في الرسالة تغيب الأوصاف الحثيثة والتذكيرية وتستحضر المشاهدات وكل ما هو خارجي .

وقد قام الوصف بنور حيوي في تنشيط السرد وتحقيق الانتقالات المهمة في الرحلة ، خصوصا في لحظة العبور الأولى المتسمة بشح في المعلومات ، لم يبدأ الحكيم بشكل متج إلا حينما بدأ تشغيل الوصف بموازلة وتناوب مع السرد .

وتمثلت الأوصاف الواردة في ما رآه الراوي - الرحالة ، بشكل محدود ، سواء في تصويره المزجج للشخصيات التي التقاها وتعرف عليها بحكم مروره عليها ، أو شخصيات توجه إليها مباشرة ضمن سفارته . وقد كان تصويره لها مرتبطا بالاجتماعي من خلال مظاهر الحياة الاجتماعية أو من خلال السلوك الداخلي - النفسي .

وإذا كان حضور الوصف متواترا ببعض المشاهدات المتعلقة بالحياة اليومية ، العامة والخاصة لساكنة تلك المناطق ، العابر منها أو المنتقل إليها من عوام وملوك وجنود - حول النفود ، والألبسة ، والأكل ، والحنف ، والمعاملة ، والموت ، وتحرك الليل والنهار ، وتقاليد أخرى ، فإن ابن فضلان لم يلجأ إلى الأسلوب الجغرافي ليصف المسالك والعمران وإنما اكتفى بالإشارة والتصريح بالمحن التي لاقاها جرأه أحد عشر شهرا من المسير والمعاناة من الطبيعة والأنهار أو من بعض ممن لقيهم .

كما يؤدي الوصف في الرسالة وظيفة محددة ، باعتباره على فعل الرقبة بالعين والحوار المباشر والمنقول ، فجاءت

الصور يقينية أكثر منها احتمالية، ومنجذرة في المشاهدات، فتتحول الأوصاف من انطباعات وتأملات إلى إخبار بحقائق وعجبية وغير مألوفة.

4.1. يختار ابن فضلان طريقة في تفيد الخبر، سالكا سبيل إيراد ما رآه وسمعه بنفسه لصياغة الخبر اليقين. كما يعرفه ابن وهب الكاتب⁽³⁾ بعيدا عن الشك والاحتمال.

فما ينقله الراوي - الرحالة هو عبارة عن تجارب الغير - وقائع وقعت له وللجماعة أثناء الانفعالات - والمتمثلة في حكايات صغرى تنفرع عن العبور أو الوصول. وهكذا يصبح الخبر أنواعا ضمن النسيج العام لرسالة ابن فضلان بالإضافة إلى الأخبار الخاصة والأخرى العامة؛ فهناك خبر التحذير الذي يتكرر ليفيد الحيلة والإنجاز:

«فلما سمعت كلام عبد الله بن باشتو وكلام غيره يحذرونني من هجوم الشتاء (حلنا من بخارا) راجعين إلى النهر» (ص. 80).

أو يرد للتحذير فعليا من قساوة الطبيعة، بينما يجيء في سياقات تالية على لسان ابن فضلان تجاه الآخر، خصوصا ما تعلق بالدين. وهذا النوع من الأخبار دينامي يصف الصدام ويقدم المعرفة، وقد تضمن الحوالات، كما عاش الحكايات المتعلقة بالمحن التي لاقاها أثناء العبور وأداء المهمة في الوصول، وهو الخبر - الدرس المتضمن للتحذير يقصد إنجاز طقوس ومراسيم خاصة أثناء قراءته للرسالة وتعليم ملك البلغار كيفية الدعاء من المنبر أثناء الخطبة⁽⁴⁾.

نوع آخر من الأخبار المتعلقة بما هو ثابت من مشاهدات
رأها فأوردتها مع غياب أخبار التراجم والأخبار المستفزة من
مؤلفات الجغرافية والتاريخ والاكتفاء بالرؤية والسمع
المباشرين :

فولقد بلغني أن رجلين سافقا اثني عشر جملا ليحملا عليها
خطبا من بعض الغياض ففسيا أن يأخذوا معها قذاحة وحرارة
وأنهما باتا بغير نار ، فأصبحا والجمال موتى لشدة البرد .

ولقد رأيت لهواء بردها بأن السوق بها والشوارع لتخلو حتى
يطوف الانسان أكثر الشوارع والاسواق فلا يجد أحدا ولا يستقبله
إنسان ، ولقد كنت أخرج من الحمام ، فإذا دخلت إلى البيت نظرت
إلى لحيتي وهي قطعة واحدة من الثلج حتى كنت أدنيها إلى النار
(ص . 84-85) .

يرد الخير بهذا النوع للأخبار بأساس الحكاية في هذه الرحلة ،
وهي المعاناة من الثلج والتقلبات الجوية والنهرية ، بحسب ما بلغه
من خبر مسموع لم يشهه وإنما سيروي ما يماثله وتزكيه .

لذلك فإن الخبر هو الإدراك والتجربة بالاعتماد على
السند باعتباره فعلا إنتاجيا للأخبار بصيغة ما ، ولم يرد لديه مرجعا
يستند إليه من المؤرخين أو من الجغرافيين أو ممن لقيهم . وإنما
كلما أورد سماها معينا أو ما يولّيه أحواله على الغائب والنكرة من
قبيل : (ولقد بلغني . وأمرنا من كنا نأمن من أهل البلد ، وسمعتهم
يقولون . وقال بعضهم . . .) وبهذه الطريقة يتحول الخبر عند ابن
فضلان إلى مصدر ويقين وسند يعتمد المؤرخون لوصف أحوال

تلك البلدان باعتباره المصدر الوحيد الذي زار وقيد مشاهداته في تلك البلدان وفي تلك الفترة .

ويمكن اعتسار الفعل الابتدائي المحرك للخبر هو السند الوسيط في تقوية حضور الخبر وإعطائه نكهة مميزة، فبنية الأفعال المحركة للجمل تتألف من أفعال الانطلاق وأفعال التجسير وجلها يقوم بوظيفة الربط وتحقيق الإدراك واليقين فضلا عن حضور الأفعال الحسية . الدينامية ذات البعد التضميلي للحكي والمتحكم في المعجم العام وما يحفل به من مفردات أعجمية ملمعة طبعيا كما هي ضمن المعجم العربي متفاعل وتؤدي وظيفة هذا التعدد اللغوي المكتسب لخلق تواصل ممكن، ذلك أن «قدرة الكلمة الواحدة على التعبير عن مدلولات متعددة، إنما هي حاصية من الخواص الأساسية للكلام الإنساني»¹، وقد استعمل ابن فضلان في معجمه سجلات متفاعلة ومتكاملة فيما بينها لتحقيق القصد العام .

إن مجيء الأفعال بصفة «التحن» حيناً، وبصفة المفرد حيناً آخر، يخلق توازناً في السرد الرحلي السفاري الذي يحكي مراحل الرحلة . السفارة أساساً، فلا يحتاج الراوي أن يعبر عن بعض رؤاه وتأملاته واستيهاماته أحياناً إلا حين يجنح بالسرد إلى الإخبار عن الآخر وعن بعض مهن السفر، أو حين يوظف أفعالاً من قبيل رأيت ؛ أو ينخرط في حوارات مع الآخر عبر الوسيط بلغة تلعب دورها الاستراتيجي في كل تجلياتها . ورغم ذلك، فالبناء اللغوي عند ابن فضلان هو عالم هنسي لا يجاد حقائق وتأكيدها،

من تم «تعتبر اللغة أداة صلبة يستعصي اقتحامها، فلا تسمح لنا 'بقول شيء' دون نقل موقف من هذا الشيء حين نتكلم أو نكتب، فالكلمات أو الجمل التي نختار ترجع الصدى لمستمعينا أو قرائنا وتصدر مغايري ممكنة»⁽⁵⁾، وهو السعد الذي يمكن النظر من خلاله إلى التركيب الأسلوبي العام للرحلة.

2. الرحلة والتجربة: لكل رحلة آثار في الواقع والنفوس، وطريقة خاصة للادراك وخلق المسافة مع هذا الواقع، فتتحول الرحلة بكل أسرارها ومعطياتها إلى تجربة تكتز تجارب مفرقة، ضمنها معطيات وآراء ومسبقات. وبين الرحلة والتجربة يحضر الراوي في بعده الذاتي بصفته متلقيا وراويا لهذه التجارب من بينها تجربته المنصهرة باعتبار أن الرحلة تؤثر لشكل الحياة. بتعبير جان كلود بريخت⁽⁶⁾ ولشكل الكتابة أيضا. كما يحضر الآخر في بعده المغاير ثم الأمكنة وهي فضاءات للتجربة وتفاعل بُعد الذات بالآخر.

2. 1. بُعد الذات : يجسد الراوي في هذا القطب الأوامر والرؤى والمشاهدات التي عاشها، وهو رحالة، في نص رحلي ذي بناء واضح يتضمن معطيات وبنيات تخيلية من خلال حضور الذاكرة التي انتفتت تفاصيل وأحداث وحولات في مسيرة دامت إحدى عشر شهرا.

إن التجربة التي يصوغها الراوي هي التحقق الفعلي للحقائق المادية المتصلة بالمتخيل المتجسد في الكتابة عبر الانتقاء والتحويل والتعديل والحجب والإضافة، لذلك فبُعد الذات الراوية لا يطابق بالضرورة ذات الرحالة الذي عاش متدبها في.

مهمة القراءة والإهداء والإشراف، من هنا فإن تأمل حضور الضمير في النص يكشف عن هذه المسافة وتحليها، فـ«نون الجماعة» هي التي تفتتح الحكى وتقوده لمدة طويلة قبل أن يطفو ضمير المتكلم بعد الاستئناس بالآنا داخل «النحن»، والتذويت الذكي لهما في البداية إذ يرتبط ضمير المتكلم الجمع بأفعال سفر العبور والارتحال دون التوقف، في حين سيبرز ضمير المتكلم المفرد المعبر عن ذات الرحالة في بخارا مرتبطا بفعل الرؤية ثم الوصف.

إن الضمائر في رحلة ابن فضلان هي وسائل دالة للتنوع وتأكيد جنس الرحلة وخلق التراوح الممكن بين الذات الجمعية والذات الفردية له باعتباره ممثلاً للخليفة وللجماعة ثم لنفسه؛ فقد تحدث في حواراته وهو فقيه ومسؤول من طرف المقتدر بالله، وحكى ما رآه واصفاً ومعلقاً من منطلق كونه رحلة مسلم، وكان الرحلة التي هي مدرسة للتجارب⁽⁸⁾ في نهاية المطاف، تقرير تمّ اتجاؤه لهذه النحن والآنا، مختطاً أسلوبين متوازنين: أسلوب الأديب الواصف ويعتمد الإيجاز بدون تكلف؛ وأسلوب الفقيه الواعظ، فلا غرابة أن يكون الأسلوب والضمير في نفس الكفة لتأدية مدلول واحد:

فونزلنا مع الملك منزلاً، فدخلت أنا وأصحابي تكين وسوسن وبارس، ومعنا رجل من أصحاب الملك بين الشجر فرأينا عوداً صغيراً أخضر، ص. 128.

ويغدو التراوح بين الأسلوبين تشكيلاً لمسافة ضرورية تضد التجربة وتضطلع برسم الأوعاء وإدراك الأحاسيس المرافقة في

كل الرحلة، والتي يعبر عنها الراوي باسمه ونيابة عن مرافقيه :
 الخوف، والفرع، والتعجب، والدهشة، والحيرة... وهي
 مشاعر مختلفة تختزن تعليقاً وموقفاً من المشاهدات وبالتالي
 توجيهها، فالمسافة بين الرحالة والراوي فنية بالأساس تدفعه لأن
 «يبنى أثره بطريقة تملي "الوضع الراي" الذي يتعين على المشاهد
 تبنيه على نحو متناظر مع النصوص الأدبية، وعلى المؤلف توجيه
 نفسه وقارته في ما يتعلق بمضمون عالمه المتمثل (...)» ويتضمن
 هذا التوجيه تموضعاً في المكان والزمان، قد يبدو المؤلف أو
 راويه بعيداً أو قريباً جداً، محرراً لعادة تاريخية أو شاهد عيان⁽⁹⁾.

يحضر راوي الرحلة قوياً في مواقع محددة مع الوصف
 والحكي والحوارات سالكا ثلاثة سبل في الحديث : الرؤية
 والسماع من الآخر ثم المزج بينهما في الحوار مع إدراك أهمية
 حضور الترجمان الوسيط في نقل وترجمة المحاورات، بدليل أن
 من مرافقيه من يعرف الروسية واللغات التركية، كما يمثل عبر ثنابا
 الرحلة من خلال أوصاف ضمنية أو صريحة من قبيل : (كان شديد
 الإيمان بالله . عظيم التمسك بدينه وأخلاقه وتقواه . لا يخون
 الأمانة . ينهي عن الفسوحش ويأمر بالمعروف . يتفزز من
 الأوساخ . يرهبه رؤية النساء عاريات . يرتجف لسماع أسئلة الكفر
 والشرك).

تبرز هذه المعطيات المشكلة لصورة الراوي - الرحالة مقومات
 الذات الإسلامية في أبعادها عند ابن فضلان الفقيه والأديب
 والسفير.

2.2. بُعد الشخصية والأخر، وتحقق صوراً مشككة

في رسالة ابن فضلان لاستعراض الرزى والأوعاء. وحضور ثنائية المسلم والكافر متجلية بين الذات والأخر والأوصاف التي ألصقها به من خلال رصد بعض عاداتهم وتقاليدهم في الزواج والموت والتوحيش وعدم الاحتشام، فيرجع كل ذلك إلى ما هم فيه من كفر.

وإذا كان النص الرحلي لابن فضلان لم يعرف اتجاهها نحو المناقب أو نحو سرد حيوات من لقيهم أو شخصيات تاريخية مستعارة، فمرد ذلك إن الرحلة هي سفارة لا تتطلب هذا النوع من التخليلات من جهة، ثم عدم معرفته بلغات البلدان التي عبرها من جهة ثانية، بالإضافة إلى الإحساس بالتفوق العربي الإسلامي على الآخرين، من هذا المنطلق فإن المرافقين لابن فضلان يتم نعمتهم بصفاتهم الأولى قبل إسلامهم (موسى الرسي، تكين التركي، يارس الصقلابي) أو بصفاتهم العملية الموكولون بها في السفارة: الفقيه، المعلم والقلمان... فلا دور لهم باستثناء ما جاء من حديث عن أحمد بن موسى الخوارزمي الذي كان متظراً أن يلحق بهم ويتسلم ما أوصى به من الفضل بن موسى النصراني وكيل ابن الفرات، لكنه اعتقل لتفويت الأمر عليهم وعلى السفارة، وامتداد ذلك في حوارات مع ملك الصقالية.

وقد تحدث أيضاً عن ملوك وجنود وشخصيات ذات نفوذ في البلدان التي مر منها بينما كان يحكي عن أشخاص حدثوه عن أمر، أو حاورهم في شيء، أو يصفهم للتمثيل لشيء عجيب أثار انتباهه

دون أن يذكر أسماءهم أو صفاتهم، وإنما يشير إليهم بضمير الغائب أو المجهول أو بتعبير : «فلان، فلانة، الرجل، المرأة...» .
 لم يكن اهتمام ابن فضلان بالآخر في رحلته بشكل مباشر، وإنما عبر سرد مشاهداته للأماكوف والغراتبي في السلوك الحياتي، وفي الممارسات الطقوسية المشككة لصورة الآخر خصوصا في أربعة مواقع هي بلاد الترك والخزر والصفالية والروس ثم صورة الآخر من خلال سُلطة العليا السياسية والدينية .
 إن الآخر هو المغاير الذي وصفه بالتوحش لتأكيد رؤيته الثنائية لبلاد السلام وبلاد الكفر، في حين يمكن لهذا الآخر المغاير أن يصبح معائلا في حال إسلامه وتقيّنه بمواصفات وضوابط المسلم ؛ وفي اصطحاب ابن فضلان لثلاثة من المسلمين غير العرب دليل على التعايش .

3.2. بعد الفضاء، حيث تمر مسارات الرحلة عبر الأمكنة بأزمته وأحداثها، مما يجعل المكان الأكثر دينامية تجرية متنوعة ؛ وقد كان ابن فضلان أشد حرصا على تقييد أسماء الأماكن من بلدان ومدن وقرى وقبائل ورباطات ومنازل ومغازات وأنهار... .
 واختيار دليل اهتم له كثيرا وقال فيه : «واستدلف أمر القافلة، واكثرينا دليلا يقال له قلواس، من أجل الجرجانية ثم توكلنا على الله - عز وجل - وفوضنا أمرنا إليه» ، ص . 88 .

إن بعد المكان في الرحلة فضاء متعدد التجليات، الانطلاق فيه من مدينة السلام (بغداد) والعبور عبر عدة نقط عربية وأجنبية قبل الوصول إلى المعلن الكبير التي سيقوقف عندها، فهناك

أمكنة عبور فارغة من أية دلالة، يعتبرها ابن فضلان فقط جسرا يتوقف عنده من أجل الاستراحة والتزود، في حين هناك أمكنة ثانية للعبور أيضا وهي دينامية تحولت إلى سجل حي بكل ما نقله، من الأحداث والتحويلات لدى الأتراك والخزر والروس والصقالبة. وقد وقف ابن فضلان في التقاطه لهذه الأمكنة على تصوير ما يقع وما يرى من وقائع وأخبار تحصى الفلاسلوف من السلوك والمادات والمعاملات بينما غرض النظر عن الوصف الجغرافي لهذه الأمكنة ومواقعها.

مثلما توقف الراوي عند المحن التي عاشها هو ومن معه في أمكنة معينة، سواء ببعض المدن أو الأنهار من جراء معاملات أهالي وحكام تلك المناطق، أو الطقس الذي لم يألفه ابن فضلان فنظر إليه بعين الرهبة والتعجب.

وداخل هذا المسار، كان بعد الزمن حاضرا في ذهن الراوي على مدى أحد عشر شهرا، مسجلا تاريخ خروجه ووصوله ومكتفيا بذكر عدد الأيام التي توقف عندها، حتى أن بنية الزمن كانت حاضرة في بنيات السرد حضورا مشوعا.

«فأقمنا بالجرحانية أياما، وجمد نهر جيجون من أوله إلى آخره، وقد سمك الجمد سبعة عشر شبرا، وكانت الخيل والبغال والحمير والعجل تجتاز عليه كما تجتاز على الطرق وهو ثابت لا يتخلخل، فأقام على ذلك ثلاثة أشهر»، ص. 83.

«وتطاول مقامنا بالجرجانية، وذلك أننا أقمنا بها أياما من رجب وشعبان وشهر رمضان وشوال، وكان طول مقامنا من جهة البرد وشدته»، ص. 84.

«فلما انتصف شوال من سنة تسع وثلاثمائة أخذ الزمان في التغير وأخذنا نحن فيما نحتاج إليه من آلة السفر [...] وتزودنا الخيزر والجاورس والنمكوز ثلاثة أشهر»، ص. 86.

«وكان وصولنا إليه [ملك الصقالبة] يوم الأحد لاثني عشرة ليلة خلت من المحرم سنة عشر وثلاثمائة، فكانت المسافة من الجرجانية إلى بلدة سبعين يوماً»، ص. 113.

هذه التحديدات المؤطرة للرحلة تعكس الوعي بها صفتها رسالة وتقريراً، وتؤسس للمبدأ الواقعي في النص ولصدقية الأحداث والمشاهدات.

إن رسالة ابن فضلان في المحصلة، بكل أبعادها المتداخلة : الذات والآخر والقضاء، فضلاً عن بنيات السرد والحكاية... تطرح أسئلة تخص الرحلة السفارية ونصيتها والتأطير الديني الذي احتواها، وشعريتها من حيث عناصرها الأدبية المتحققة بتفاوت مع الاشكال الرحلية وأنواعها وأيضاً خطاب المتخيل المتشكل مما أفرزته مشاهدات الراوي من لا مألوف وعجيب لدى الآخر/ الغير، وبعض البنيات الصغرى المحافزة، من بينها التكرار، والخوف، والمجيلة، والحوارات ثم التحذيرات والمشاعر المتنوعة. هذه المعطيات وغيرها، كانت صيغاً لتدعيم الشعرية وسبيلاً لاتباء الرؤية وصيرورتها في سبيل تشكيل مرجع للمتخيل الأصلي بامتزاج مبدئين عامين في النص : مبدأ واقعي يحضر عبر الأزمنة المحايثة للأمكنة وبعض الأحداث، ومبدأ احتمالي يتمثل في المشاهدات والمرويات التي تحكي عن المحن وتشخيصها.

إحالات

1. فهو على إيراد الأرقام والأحداث في ذكر التواريخ والمسافات والأبعاد والأيام، لا يعتمد عن أسلوب الأديب ولا يتقرب من أسلوب الجغرافي. فلا نرى له ذكرا لدراجات الطول والمرضى ومواقع البلدان، ودرجات الحرارة وموازنة الأقاليم بعضها ببعض كما يصنع الجغرافيون. ويعتمد في حكاياته للأحداث التي مرت به والاشخاص الذين لقيهم على المحاورة المباشرة، كقصة كتب لأمانا... ١
- من مقدمة المحقق سامي النعان : رسالة ابن فضلان، ص. 28.
- 29.

Marie Christine, Proffet, *real ouellet . la figure du Voyageur*, 2 Missionnaire, p. 95, in *Revue des Sciences Humaines (R.S.H.)*, N° 245, Janvier - Mars 1997.

3. ابن وهب الكاتب : البرهان في وصف البيان. القاهرة، مكتبة الشباب، مصر 1969، ص. 76-78 (تقديم وتحقيق حني محمد شرف).

4. رسالة ابن فضلان. انظر صفحات 114.115.117.118.
5. متيفان أولمان . دور الكلمة في اللغة القاهرة، دار غرب للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة 12، 1977، ص. 134 [ترجمة وتقديم وتعليق كمال بشر].

6. روجر فاولر : اللسانيات والرواية. الدار البيضاء، دار الثقافة، ط. 1، 1997، ص. 98 [ترجمة لحسن أحمامة] عن مؤلف : Roger Fowl : *er : Linguistics and the Novel*, Methuen, London, 1983

Revue des sciences humaines (R.S.H.), N° 245, janv. mars 1997, p. 7 130

8. Normand Doiron : *L'art de Voyager, le déplacement à l'âge classique*, Québec, les presses de l'Université Laval, Paris, Klincksieck, 1995.

9. روجر فاولر : اللسانيات والرواية. الدار البيضاء، دار الثقافة، ط. ١، 1997، ص. 95 [ترجمة لحسن أحمامة].

القسم الثالث

خطاب المتخيل

تحتل أسئلة خطاب المتخيل الرحلي موقعا وسط أسئلة المتخيل السردى العربى وذلك انطلاقا من السمات المشتركة وبعض الخصوصيات المميزة لكل شكل تعبيرى داخل دائرة السرد، حيث تبدو التقاطعات الجوهرية اللاحمة للمتخيل كما لو أنها نهر يروي الشرايين الخلفية لهذه النصوص وغيرها.

ثم إن انفتاح السؤال في هذا الصدد والسياق، يدعم الوعي بالرحلة في الأدب العربى ويستوضح فهم آليات تركيبها ودلالاتها انطلاقا من التساؤل عن كيف يتشكل المتخيل داخل رحم نص محسوب على النصوص «الناقلة» لتجربة واقعية وشخصية؟

فالتجربة الحياتية تجربة «مُخَزَّنَة» في صور في خزانة الخيال⁽¹⁾ ضمن مجموع خبرات تتحول إلى معرفة بالذات والآخر والعالم، ويعد الخيال جزءا من تلك المعرفة التي هي ذات تلوينات معينة غير منسجمة تختلف من رحلة لآخر، ومن مرحلة ثقافية وفكرية لأخرى، ينسقها ومهيمنها تتضمن التجارب وعدة رؤى وانطباعات ذاتية تنسى ثم تتمدد قبل أن تستقر في «قناعات» تصير «معرفة» عند راوى الرحلة، خصوصا في اللحظة التي يفكر فيها بتقييد رحلته أو بالأحرى، خط سيره «انطلاقا من» و «وصولا

إلى، ثم الوقائع والمشاهدات المتضمنة لأحكام ورؤى ومعارف صريحة أو مقنعة.

وتحول واقعية الرحلة، المفردة أحيانا النص إلى شهادات توثيقية تميل لأن تصير رسائل في التاريخ والجغرافيا والاجتماع وما يتفرع عنها، وذلك بالتركيز على الأوصاف والأمكنة، وعلى استعادة الأحداث والوقائع، ورغم ذلك تحتفظ النصوص هذه، بنصميينات تحتسب على الخيالي، مبنوثة في سرد التجربة والمشاهدة.

وعليه فإن تحول التجربة من وقائع ومشاهدات إلى تذكّر ثم إلى فعل الكتابة يتشكل باعتبارها فنا وعملية في صميم بناء المتخيل، لأن هذا الأخير يساهم في بناء الموضوع وعنصر مؤسس⁽²⁾ مثل غيره من العناصر البنائية الأخرى التي تحقق نصية النص الرحلي (أديا وفنيا).

ونظّل العوالم التي صورتها النصوص الرحلية حالات الممكن فيها حاضرة، رغم الاستثناء الواقعي، لأن المتخيل متجذر في طبيعة الحكيم والتذكر، بشكل مواز للإبداع كمقدرة، يعمل على تطوير الموضوع⁽³⁾، ووصله بأفاق أخرى. فعملية التحويل لا تتم إلا عبر قنوات، منها قناة الخيال الذي يجعله ابن عربي أتم علوم المعرفة⁽⁴⁾. وهكذا، يصبح أي نص رحلي خليطا من نصير الواقعي والإستيهامي والمحتمل، وعناصر شفرية لمسير ومشاهدات وتأويلات وانطباعات وتأملات وأحلام... والرحلة بهذا المعنى، هي نص حامل للسيري والبيوغرافي ونصيصات في

شكل حكايات مُشاهدة أو مسموعة ومقروءة، بينما رؤية الراوي المحتملة بكل تلك العناصر والأشكال هي رؤية احتمالية تلتقط اللامالوف والمعجب، والذي رفضه المنيذ من النقاد والمحللين قَسَمَوْه بالخرافي والأسطوري والشمعي⁽⁵⁾، باعتباره مشوشا على "الحقائق" التي ينشدونها. في حين تقول الثقافة الإغريقية إن كل رحالة هو كاذب⁽⁶⁾، وبالمقابل يخلص بعض الباحثين إلى أن النص الرحلي «عليه أن يمارس الكذب حتى يقول الحقيقة»⁽⁷⁾، فيما أن المنظور الأسلم هو كون المتخيل في الرحلة ليس كليا وإنما هو عنصر فني ورؤية للأشياء تتضمن صيغا للتعبير والتأويل وموقفا من العوالم التي يراها، فتصطدم بتصويراته القبلية وتتداخل، وبالتالي تصبح الرحلة ذريعة للتعبير عن آراء الرحالة وتأملاته الموصولة بأحلامه وخيالاته.

ويتمظهر مفهوم المتخيل في الرحلات من خلال قطبين متسعين يضعمان عدة عناصر صغرى تتدرج ضمن محور الواقعي والخيالي، أو كما يقسم الغزالي السفر في قوله: «السفر سفران. سفر بظاهر البدن عن المستقر والوطن إلى الصحارى والغلات. وسفر يسير القلب عن أسفل المسافلين إلى ملكوت السموات. وأشرف السفرين السفر الباطن»⁽⁸⁾. ومن منظور آخر وقريب، فإن المتخيل يحضر في النوعين معا بنسب متفاوتة وبخصوصيات مُختلفة.

رحلات خيالية تنطلق من تصورات فلسفية أو تأملات في الوجود، ذات خلفية دينية أو أدبية تعتمد البناء الغيبي-الماورائي،

وذلك بالرجوع إلى المعاضي الغائب، أو اختراق المستقبل على غرار "رسالة الغفران" لأبي العلاء المعري التي هي رحلة إلى عالم الآخرة. وكأن هذا النوع من الأسفار الذهنية هو بحث عن حلم ويقين ضائعين.

ورغم حضور الخيال المجسد في الغيبي، وفوق الطبيعي واختراق الواقع والمستقبل، فإن متعة المتخيل تظل غير مكتملة، شأن الرحلات المسماة واقعية، إذ يحضر فيها الخيالي بأشكال وفي مواقف تجعل المتخيل والمعرفي يتقاطعان ويخصبان بعضهما البعض.

- من بين مظهرات المتخيل في الرحلات "الواقعية" أن الخلفية الأساسية لبعض الرحلات، جاءت في إطار حكايات يتدخل فيه الغيب أو يدفع إليه تأويل معين مثل الحلم بالارتحال، أو البحث عن حلم / وهم⁽⁹⁾، أو التكفير عن ذنب مثلما وقع لابن جبير في رحلته الأولى حيث «ذكر ابن الرقيق أن الذي دفع ابن جبير إلى رحلته الأولى - والتي دون أخبارها - أن الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد المؤمن استدعاه ليكتب له رسالة، فقدم عليه فوجده في مجلس شرابه فعمد إليه الأمير يله بكأس، فأظهر الانقباض وقال: «ياسيدي ما شربتها قط» فقال: «والله لتشربن منها سبعة»، فلما رأى العزيمة اضطرب أن يشرب سبعة كؤوس، فلما فرغ منها ملأ له الأمير الكأس من الدنانير سبع مرات وصبها في حجره، ثم حمله إلى منزله. وأراد محمد أن يكفر عن هذا الإثم الذي أرغم على اقتراحه، فرأى أنه لا يكفر عنه سوى الحج،

فاستأذن الأمير، فأذن له، فباع أملاكها وضم ثمنها إلى ما ناله من الأمير وحجج⁽¹⁰⁾.

إن النص الرحلي ليس نصا يتيسر وإمما متضمن لأصوات وأوهام وروى تنصهر داخل قناة صوت ووعي وروية الراوي الذي يفرز متخيلا موسوما بخصوصيته وسماته، وأيضا تنوعه من حيث مصادره وصيغ حكيه.

وقد ساهمت النصوص السردية القديمة في تغذية المتخيل الرحلي بالأحاديث والأخبار والرحلات الخيالية الغنية⁽¹¹⁾، كما أثرت هذه الرحلات، بدورها، في كتابات بعض المؤرخين⁽¹²⁾ وغيرهم، فضلا عن التأثيرات الشخصية في بناء المتخيل؛ فالباحثة رفاقباني ترد المتخيل والمبالغات في تلك الكتب إلى الرغبة في إمتاع القراء⁽¹³⁾، بينما يؤكد محمود إسماعيل⁽¹⁴⁾ أن تشكّل المتخيل كان في الزوايا والخوائف والنكبات والأريطة.

ما يمكن استخلاصه، أن خطاب المتخيل يتمظهر عبر تنوع حضوره وتشكيلاته بالنص الرحلي في مهيمين أساسيين هما الحلم والعجائبي باعتبارهما تجليا للمتخيل، يهيمنان ويكحمان ويصهران السرد ويباقي المكونات، كما يكسران علاقة الراوي بواقعية الحكيم والأحداث، ويعملان على تنصيد الحكيم وتفاعلاته، ويطعمان الواقعي بالمحتمل لاستيلاد نص رحلي سردي مفتوح.

إحالات

- 1- سليمان المطار : التخيال عند ابن عربي (النظرة والمجالات). القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع 1991، ص 145.
- 2- Gabriëlle Schwab . la Genèse du sujet, l'imaginaire et le langage Poétique, in Revue Diogenes N° 115, 1981, ed Gallimard, P59.
- G. Schwab, Idem, P60-3
- 4- سليمان المطار، ص 180
- 5- انظر أحمد المحيسن . أدب الكوفة في العصر العباسي - سوريا، دار الحوار، ط 1، 1986، ص ص 179-188.
- [وأيضاً] شاذر غصبيك : في الجغرافية العربية، بيروت - دار الحديث، ط 1، 1988
- يقول فلكن دراسي التراث العربي والإسلامي من البحوث العرب علواً ينظرون إلى «الرحلة» على أنها نوع من الأدب الشعبي الأسطوري نظراً لأزدحامها بالتحكيمات ذات الطابع الخرافي» ص 10.
- 6- D.H. Pagnaux, Idem P 31.
- 7- Alain Niderst Les récits de voyage, recueil à l'université de Rouen, France, P52
- ورد الاستشهاد عند يوسف تاروي : صورة الآخر في رحلة ابن بطوطة، مرجع سابق. ص 65.
- 8- الإمام الغزالي إحياء العلوم - ج II، باب السفر، ص 244
وقد وجدت نصوصاً قريبة من دلالات السفر عند الغزالي في مؤلف : شهاب الدين السهرودي . حوافر المحاورف، مصر، دار الكتب الحديثة (ج 1) 1971 ص ص 276-307 [تحقيق عبد الحليم محمود بن الشريف].
كذلك في كتاب اصطلاحات الفصولية لجمال الدين القاساني (ج 8)، مصر الهيئة المصرية العامة للكتاب 1981، ص 103-104
- 9- كراتشكوفسكي : تاريخ الأدب الجغرافي العربي. بيروت، لبنان، دار العرب الاسلامي، ط 2، 1987، ص 157 [نقل إلى العربية عن الروسية صلاح الدين عثمان طاشم].

- 10- حسين نصار : أدب الرحلة - بيروت - القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 1991، ص20.
- 11- انظر - كتاب التيجان في ملوك جهنم، القاهرة، سلسلة الدخائر 10، عدد أكتوبر 1996، الهيئة العامة لقصور الثقافة.
- ألف ليلة وليلة «القاهرة»، سلسلة الدخائر 11، عدد نوفمبر 1996، ط2، (طبعة 1839 بكتا الهندية)
- 12- يقول حسين فهم إن كتابات الرحالة المسلمين اترعر بالقصص والحكايات الشعبية، كما نقل لنا الكثير من الأساطير علاوة على الغرائب والطرأف، وثامت أن بعض ما ذكرنا من أساطير أو عجائب ومعتقدات شعبية هي كتابات بعض المؤرخين مثل المسعودي والقرويني يرد أصلاً إلى كتب الرحالة ورواياتهم
- انظر : حسين محمد فهم : أدب الرحلات، الكويت سلسلة عالم المعرفة، عدد 138 - يونيو 1989 ص76.
- 13- رونا قباني، أساطير أوروبا عن الشرق، سوريا، دار طلاس، ط1 1988، ص14، [ترجمة صباح لبنا].
- 14- محمود اسماعيل : رحلة ابن بطوطة مصنف هام لدراسة الطرق الصوفية في الشرق الإسلامي، ص93 [خمس مؤلف جماعي : أدب الرحلة واكتشاف الحضاري، مكتبة جامعة الموصل اسماعيل، سلسلة الدراسات 5، 1993]

الفصل الأول

الحلم

“الأعلام في رسائل يوحنا
بها السر إلى نفسه”
عاجلت

1 - مقدمات أولية

1 . مقدمة أولى : انتبه العديد من الفقهاء والمفكرين في الثقافة العربية إلى الحلم باعتباره فعلا إنسانيا، مقيد من المتكرر منه بحثا عن وضع أصوله وآلياته لتأطير خطابه وتوجيه تأويلاته ؛ وترجع أسباب هذا الاهتمام الذي وردت فيه عشرات الكتب⁽¹⁵⁾، إلى ارتباط الظاهرة بالإنسان، ثم لاعتبار الحلم/ الرؤيا من بقايا

النبوة وأجزائها، بل هي أحد قسمي النبوة⁽¹⁶⁾، مرتبطة بالأنبياء ومعجزاتهم، كما سترتبط بالصلحاء والأولياء والمجاهدين وكراماتهم، «نامت الأحلام وسيلة للإدراك والكشف، ومقدرة على التنبؤ والتأويل وفك الرموز، الأمر الذي لا يتأتى لجدج الناس، فضلا عن كون المشتغلين بعلم التأويل ركزوا على أنه علم له أصل في الشريعة، ويختلف عن الكهانة وعلم الغيب⁽¹⁷⁾ معتمدين في ذلك على حجج أجلاها تجذر الحلم في حَيَرات الرسل والأنبياء منذ آدم حتى محمد (ص)، وأيضا تغلفه وهو وسيلة وتقنية في قصص الأنبياء، والتراجم والسير والمناقب والحكايات وياتي السرد، وابتناؤه قويا ومتخصبا في المتخيل الجمعي لأنه عصر «مقدس»، له امتداد في الحياة والنصوص، متصل بالغيب وفوق الطبيعي.

وفي ضوء كل هذا، كان الحلم ضرورة في حياة الأنبياء والرسل والإنسان عامة من جهة، ثم الأبطال في الحكايات وفي السير من جهة ثانية. وبالتالي فإن العلم الذي سيتبنى التأويل بدور «مقدس»، «ومن العلوم الرفيعة المقام، وهو العلم الأول منذ ابتداء العالم ولم يزل عليه الأنبياء⁽¹⁸⁾»، حتى أن الذين جادلوا في الحلم وأبطالوه، اعتبرهم الفقهاء، المشتغلون بعلم التعبير، من الملحدين. لأن الله، بتعبير ابن سيرين، هو الخالق لجميع ما نرى في المنام من خير وشر (ص5). فيما يستشهد التابلسي وغيره في مواضع مختلفة بقوله عليه السلام، ومن لم يؤمن بالرؤيا الصالحة لم يؤمن بالله وباليوم الآخر (ص3).

وإذا كان هذا هو موقع الحلم في الثقافة العربية، وهو موقع ثابت حرص المشتغلون بعلمه على ربطه بالديني والمقدس، فإن الحلم في الثقافات الأخرى القديمة شكّل جزءاً من اهتمام الفلاسفة. على الخصوص - ذلك أن أرتيمدوروس Artimidorus ألف كتاباً عن الأحلام، اعتبر من أشهر الكتب في القرن الثاني ق م بعده ألفت عدة كتب من نوع مماثل له وتستند إليه⁽¹⁹⁾، لكنها غير ذات مرجعية دينية؛ وإقرار أوسطو بأن الأحلام هي مجرد بقايا أو مخلوقات من الانطباعات الحسية⁽²⁰⁾ هو طموح يبحث عن موقع علمي لتفسير الأحلام بقصد إيجاد تفسيرات لأشياء غامضة وملغزة في حياة الإنسان، لهذا فإن جل التأويل لن يخرج عن دائرة الديني أولاً، ثم العرف الاجتماعي والثقافي ثانياً.

ويُلخص الفقيه والرحالة عبد الغني النابلسي كيفية تشكل الحلم، بتعبير يتقاطع فيه الفني بالديني بالفلسفي وبالطموح العلمي: «وقال المعبرون من المسلمين: الرؤيا يراها الإنسان بالروح ويفهمها بالمقل ومستقر الروح نطقات دم في وسط القلب ومستقر القلب في رسوم الدماغ والروح معلق بالنفس، فلذا نام الإنسان امتد روحه مثل الراح أو الشمس فيرى بنور الله وضيائه تعالى ما يرى ملك الرؤيا وذهابه ورجوعه إلى النفس مثل الشمس إذا غطّاها السحاب وانكشف عنها، فإذا عادت الحواس باستيقاظها إلى أفعالها ذكر الروح ما أراه ملك الرؤيا وخيل له».

وقال بعضهم إن الحس الروحاني أشرف من الحس

الجسماني ، لأن الروحاني دال على ما هو كائن ، والجسماني دال على ما هو موجود⁽²¹⁾.

2 - مقدمة ثانية ، فضلا عن الموقع الذي صاغته الثقافة العربية للحلم في ارتباطاته ، وفي الهدف المتوخى ، فإن شروطا وفيودا شكلت الإطار العام الذي يرسم للحلم وتعبيراته الحدود ، وهي شروط دقت في كل شيء - تقريبا - وشرعت للحلم والتأويل انطلاقا من اجتهادات علمية أو غيبية .

وقد أجمع الفقهاء المعبرون على أهمية المكان وتأثيره في إنتاج الحلم وتأويله ، لأن اقترية كل بلد تخالف غيرها من البلاد لاختلاف الماء والهواء والمكان ، فلذلك يختلف تأويل كل طائفة من المعبرين من أهل الكفر والإسلام لاختلاف الطبائع والبلدان⁽²²⁾.

ويتيح هذا الموقف المنفتح تعدد التأويلات ، وضمنا تعدد الأحلام وسط حرية تؤمن بالاختلاف وتؤسس له ، كذلك في اختلاف مجيء الحلم في أوقات معينة دون أخرى ، أهمية في اعتبار الحلم انطلاقا من الأصدق وعدم الأصق . فابن شاهين يعتبر أن أصدق ما تكون الرؤيا في الربيع والصيف (ص4) ، دون تحديد زمني معين ، فيما يقول ابن سيرين بأن رؤيا الليل أقوى من رؤيا النهار ، وأصدق ساعات الرؤيا بالأمسحار ؛ أما النابلسي (ص5) فيقول بأن أصدق الرؤيا بالنهار ما كانت بالفيلولة ، دون أن ينفي صدق رؤيا الأمسحار .

يؤكد هذا الاختلاف المؤسس على تجارب أهمية البحث عن تأطير حقل شديد الحساسية وصعب التأطير، حتى أن الفقهاء والمعبزين قلبوا في شروط كيفية النوم وشروط الحلم المكره وطريقة مواجهته⁽²³⁾، وأداب حكي الحلم والالتزام بعندم الكذب، لأن الغش والكذب في الرؤيا من الإثم، وعلى الرائي الاحتراز من الكذب والنميمة والعيبة في الرؤيا⁽²⁴⁾.

وتتكمّل الشروط الخاصة بالرّائي عبر تحذيره أن لا يقص رؤياه إلا على عالم أو ناضج وليس على جاهل أو عنده⁽²⁵⁾. أما شروط المؤول فيلخصها النابلسي في أن يكون المؤول عالماً ذكياً تقياً نقياً عالماً بكتاب الله وحديث النبي (ص) ولغة العرب وأمثالها وما يجري على ألسنة الناس، ولا يعبر الرؤيا في وقت الاضطراب وهي ثلاثة: طلوع الشمس وغروبها وعند الزوال⁽²⁶⁾.

هذه الشروط وغيرها جعلت ابن سيرين يُعبّر من كل أربعين حلماً واحداً فقط، وهو يشرح الطريقة التي يسلّكها في التأويل: «وتفهم كلام صاحب الرؤيا وتبيّنه، ثم اعرضه على الأصول فإن رأته كلاماً صحيحاً يدل على معانٍ مستقيمة يشبه بعضها بعضاً عبّرت الرؤيا بعد مسألتك الله تعالى أن يوفقك للصواب وإن وجدت الرؤيا تحتّم معنيين متضادين نظرت أيهما أولى بالفاظها وأقرب من أصولها فحملتها عليه ...»⁽²⁷⁾.

إن موقع الحلم وتعبيره في تراث ثقافي عربي واسع هو الذي دعا إلى البحث عن آليات وأسس عبرها تمّ تخليق قواعد مفتوحة

للقضايا المتكررة من الأحلام، مما ساهم في ضرورة إفراد أنواع وأقسام للأحلام داخل إطارات كبرى.

3- مقدمة ثالثة: تنوعت تقسيمات الحلم إلى إجراء من خلاله تم الفصل بين الحلم والرؤيا، فاعتبرت الرؤيا من الله والحلم من الشيطان⁽²⁸⁾، وهو منظور دعت التقسيمات المتعمدة في الفكر العربي على الثنائيات، لأن الرؤيا والحلم في محصلة الفهم العام، تخلص إلى شيء واحد، خصوصاً، إذا استبعدنا ثنائية الصحيح والفاقد.

يقدم ابن سيرين تقسيماً يخص نسبة الحلم للنفس أو للآخر⁽²⁹⁾؛ بمعنى أن الأحلام لا يمكن أن تخرج في مضمونها عن كونها ذاتية متعلقة بالراي نفسه وتفسر له أو أن يراها الراي ولكن تفسيرها يكون لآخر:

«واعلم أن الإنسان قد يرى الشيء لنفسه وقد يراه بنفسه وهو لغيره من أهله وأقاربه أو شقيقه أو والده أو شبيهه وسميه أو صاحب صنعه أو بلدته أو زوجته أو مملوكه»⁽³⁰⁾، وفي الحالتين يجيء هذا الحلم مفسراً وظاهر التأويل، أو مكتئباً مضمراً يحتاج إلى بديهة وحسن تغليب، وهو ما أعطى للمفسرين سلطة الحكم القبلي قبل التأويل، وذلك انطلاقاً من مقياس الباطل والصحيح، فالرؤيا «الصحيحة في الأصل منيئة عن حقائق الأعمال، منبهة على عواقب الأمور إذ منها الأمرات والزاجرات، ومنها المبشرات والمنذرات»⁽³¹⁾، وتتنوع على ضربين: حق وباطل، وعلى ثلاثة

أنواع (32) : الصالحة من الله ، وحديث النفس ، ثم التحزنية من الشيطان . ويقف النابلسي مُدققاً في الرؤيا الباطلة والصالحة لأنه تحديد يشكل عتبة علم التعبير ، فيرى «أن الرؤيا الباطلة سبعة أقسام : الأول حديث النفس والهَم والتعني والأضغاث ، والثاني الحلم الذي يوجب الغسل لا تفسيره والثالث تحلير من الشيطان وتخفيف ، وتهويل لا نصره ، والرابع ما يَرِيه سحرة الجن والإنس فيتكلفون منها مثل ما يتكلفه الشيطان ، والخامس الباطلة التي يريها الشيطان ولا تعد من الرؤيا ، والسادس رؤيا تريها الطبائع إذا اختلفت وتكثرت والسابع الرجوع وهو أن يرى الرؤيا صاحبها في زمن هو فيه وقد مضت منه عشرون سنة» (33) .

يحدد النابلسي مقابل هذا، الرؤيا البشرية الحق ، فيجدها في خمسة أقسام : الصادقة الطاهرة وهي جزء من النبوة، الصالحة وهي بشرى من الله وما يريكه ملك الرؤيا واسمه صديقون ثم الرؤيا المرموزة وهي من الأرواح ، وأخيراً الرؤيا التي تصح بالشاهد (34) .

إن هذه الأشكال والأنواع من الأحلام بشروطها وتشرعاتها ، كما وصدها المعبرون في الثقافة العربية تظل مهاداً أساسياً لفهم طبيعة الحلم في ارتباطاته بعوي ونسق ثقافيين ، ذلك أن الفقهاء والمهتمين بالحلم عالجوا الأحلام «الحقيقية» أو التي يكون رائيها حقيقياً يرويها بنفسه ، ومقابلتها بما جاء في القرآن الكريم أو الحديث من مشابهات ، أي مقابلة الحقيقي بالنصي ، دون اللجوء

الى ذخائر الأحلام المعيشونة في النصوص التخيلية، سواء بتحليلها أو بمقابلتها.

II- اجتماعات الحلم

إن ثقافة الأحلام وما أفرزته من مؤلفات تضمنت نقاشات واجتهادات، شكلت دائرة مفتوحة وسط دوائر ثقافية أخرى تتفاعل في إطار نسق ثقافي متنوع ومحكوم بثوابت كبرى موجهة، اتجهت نحو ما هو واقعي ومحتمل، وتركت المتخيل ينمو في حرية طبيعية، ضمنها الأحلام النصية في التراث السردى. فقد كانت «شعوب الحضارات القديمة، البابليون والمصريون والهنود واليهود، ترى في الحلم حقيقة تنبؤية، وتعتبر الحلم أقوى من الواقع، بل هو أقوى حجة من أقوال الشهود»⁽³⁵⁾ وهكذا، إذا كانت الأحلام في العموم «إنتاجا نفسيا»⁽³⁶⁾، فهي أيضا انعكاسات للهامشي والمقصي ذي المعنى في الحياة اليومية، خصوصا، في النص الرحلي حيث «الأحلام تجري في عالم خاص مخلق على نفسه»⁽³⁷⁾، داخل مسيرة رحلية مفتوحة على متناقضات لا محدودة. من ثمة، ينطبع النص الحلمى بالرمزي والغيبى والغارق ككل نص لا يقدم جميع أسرار»⁽³⁸⁾، لأنه بنية ذات تلوين مغاير تحيا وتتواصل مع بنيات نصية أخرى، وخصوصا داخل الرحلة التي هي بؤرة دينامية لصهر الواقعي الخام بالحلمي والاحتمالي، مما يؤسس لبنية غير مخلقة، تصبح معها الرحلة تجسيدا لحلم أكبر، يستولد أحلاما صغرى متفرقة تضيء مواقع أزمة اللات، وملامح الانقراج عند الآخر.

ولا يمكن لمقاربة الحلم في الرحلة أن يستقيم دون الفهم الدقيق بأنه نص لغوي متحول من اللاشعور إلى الشعور، مليء بالأنغز، يتج معه نصوصاً أخرى استفسامية وتفسيرية، مما يستوجب معه احترام البعد النصي للحلم، بعيداً عن نسائج التحليل النفسي والقراءات الموازية، المنبثقة عنه؛ فلا فرق بين الرؤيا والحلم في نص الحلم الرحلي، كما لا اعتبار لمسألة الصدق أو عدمه، انطلاقاً من أن النص الرحلي هو مجموع إدراكات، منها إدراكات اليقظة المسمّاة حساً (رؤية)، وإدراكات النوم وتُسمى حساً مشتركاً (رؤيا) (39)، وكل الإدراكات في علاقتها الزمنية، الماضي والحاضر والمستقبل، تتفاعل فتأتي أهميتها الفنية من كون هذه الإدراكات التي هي نسخ الحلم في النص، تعيد صوغ الواقع من خلال رؤيته مرة أخرى بطريقة تعمد إلى تعديله أو تكسيه وخلخلته ودمج تلوينات أخرى مغايرة للنسيج النصي العام، من خلال تجذير البعد الإحتمالي لأضغاث الخلفيات الواقعية للنص، حتى أنه يصبح أحياناً ذاكرة للنص ومرجعيت رغم أنه يبدو ضالها في ثنایا الرحلة، يلتقطه اللاشعور ليرتق شرايينه وشرايين الشعور. والواقعي، فينتهي النص إلى الحلم شأن نص "التحفة" لابن بطوطة ورحلات أخرى.

ويكون انتماء الحلم إلى الذات الحاملة بشكل خاص والنسق الثقافي والديني بشكل عام، فيجنيء نص الحلم من نفس كلمات باقي النص (40) ليشير إلى خصوصية هامة وهي التداخل البنائي

لكافة البنيات والنصيبات، رغم احتفاظ كل بنية بعملها الدلالي والتلويحي؛ وفي المحصلة فإن الرحلة برمتها هي تحقيق لحلم ويحث عن حلم، يمكن أن يتمظهر في رغبة أو رسالة مرتبطة بالثنوي أو بالأخروي.

الحلم في الرحلة بنية تحفيزية مؤثرة، رغم أن رحلات أخرى لا يمحصر فيها الحلم بالشكل الطبيعي (أبو دلف، ابن فضلان، ابن جبير)؛ والحلم في الرحلة هو سفر، يخضع بدوره للتذكر ثم للكتابة ومحاودتها وفق مقتضيات التحويل من الشفوي المتذكر إلى المكتوب المكثف. مثل تحويل البخار المجرد إلى ماء ملموس. من ثمة، تبقى أبخرة الشفوي والذاكرة ورسوم الطروس حاضرة لتخصيب التأويل، وتعميق المسار العام للنص الرحلي؛ وبالتالي فإن الحلم لا يمتلك صيغة واحدة في الرحلة الواحدة، فبالأحرى التعدد النصي. الأنواعي للرحلات، الأمر الذي يقود إلى الخلاصة السابقة بانفتاح الحلم باعتباره نصا على التعدد.

III- مستويات الحلم في الرحلة

- تعدد صيغ حضور الحلم في النص الرحلي، سواء على مستوى الصياغة أو الدلالة، حيث ترد صيغتان أوليتان:
- حلم مرتبط بأحداث الرحلة: إذ هناك أحلام الراوي-الرحالة الراقي التي تخصه وتخص سير رحلته.
- حلم غير مرتبط بسياق الرحلة وتفصيلها يراه الراوي أيضا.
- فكل حلم هو بناء لرغبة واستكمال لها⁽⁴¹⁾، من أجل

تحقيق رغبات دفينة في المستقبل ، يختلط فيها الوهم بالواقع ، وتمسحي الحدود بين الحلم والحقيقة ، شأن ابن أبي محلي في رحلاته الفجلية والذهنية ، من جراء الضغط والقضايا التي كان يُعَدِّلُ حُكْمَها فيها ، حيث كان يقف في دائرة العجيب واللامألوف والخارق ، لمحتزج لديه الحلم بالواقعي :

« فقال لي : قم فاركع أربع ركعات أو اثنين شكرًا لله تعالى . وصل على النبي (ص) كذا وكذا ، ثم قم في موضعك إلى صلاة العصر ، فما وسعني إلا طاعته ، غير أنني لا أعلم تأويل قوله شكرًا لله ، إذ لم يبين لي ما أشكره عليه خصوصًا وإن كانت نعمه تعالى على عبيده لا تحصى . فتمت كما أمرني فقرأ [...] قُلْتُ أَنِّي يَفْظُهُ أَنَا أَمْ فِي مَنَامٍ » (43) .

كما تتجذر الرغبة في الارتباط بمعطيات أخرى (دينية وسياسية) ، فيتحول الواقع حلمًا ويبحث عن الجنة الموعودة ، بإلغاء الفواصل بين الواقعي والحلمي ، كما في رحلة عبد الله بن قلابة - برواية الغرناطي في تحفة الألباب - الذي سيخبر معاوية برويته خلال رحلته لسور إرم ذات العماد وكل العجائب الخارقة بداخلها ، فيسأله : « أريت هذه المدينة في الحلم »؟ (43) . إن الرحالة الراوي - الرائي هو الذي يجمع الواقعي بالحلمي ، فيبطلو استيهاما وتخيلًا ، خصوصًا حينما يولد الحلم من الحقائق ، بحيث الحلم صيغة عجيبة مشبعة بالأمل والمبشرات ، في حين لا يحتفظ الواقع إلا بصفوطاته وعصفه وقهره ؛ الأمر الذي يطرح هنا

الجدل المستمر بين الواقع والحلم، والتبادل بينهما من أجل خلق توازن متعادل للنفس.

وقد حفلت الرحلات بنصوص حلمية، شديدة الاختلاف والتنوع، خصوصاً في ارتباطها بالرحلة والرحالة الذي هو الراوي والرائي في أن. لذلك رصدنا ثلاثة مستويات لانتساب الحلم في النص الرحلي: وهي مستويات أولية يمكنها توليد عناصر أخرى في نفس الإطار:

1- المستوى الأول، حيث الراوي هو الرائي الذي يرى لنفسه ماله علاقة برحلته ومسار حياته فيها، وهو أمر طبيعي إذا اعتبرنا أن الأحلام هي انعكاس للترغيب وتحققات حلمية لأشياء لم تتحقق في الواقع، وتعد رحلة (ناصر الدين على القوم الكافرين) لأفوقاي نموذجاً لإيراد أحلام الراوي-الرحالة، وهي أربعة رؤيات جاءت كالآتي:

أ- يرى في النوم أنه يتلو سورة الإخلاص تقوية للنفس (ص45).

ب- يوم سفره يرى في نومه جماعة من الشياطين تدور من كل جانب فيجعل يقرأ أقل هو الله أحد، وهي تهرب وترجع (ص84).

ج- رأي في النوم شيئاً ضاع منه، قام فوجده. (ص134).
د- رأي في نومه فقيها تحدث معه في شأن كتابه (الرحلة) ص136، 137.

تُشكل هذه الأحلام صورة لذات الراوي - الراي في علاقته بأحلامه واستيهاماته ، وفضلا عن ارتباط الحلم بالذات والغيب والصراع ، يوجد هناك وجهان في هذه العلاقة : وجه الجدلية بين الحلم والواقع ورفد بعضهما البعض (ج-د) ، ففي النص (ج) يتحول الحلم إلى مكاشفة وبوابة لاختراق غيوب الصحو بمعرفة الغائب والمغيّب ، وهي أحلام تروح بكون الراي شخصا قريبا من الكرامة ، في حين يجيء الحلم (د) ليمطي الصيغة التقديرية على تقييده لرحلته عبر حديث في الحلم مع فقيه له مكانته .

وهذا الاستحضار في الرحلة لأحلام متسجة مع الواقع ، هو من أجل تخليق حقائق تقدم لقارئ الرحلة بقصد استكمال التصديق التام عليها ، كما ان أفوقاي في الحلمين ، يقدم التفسير الضمني الذي يؤول للإعلاء من شأنه في (ج) ومن شأن كتابه (رحلته) في (د) . أما الحلمان الأولان (أ-ب) ، فهما يقدمان وجه الصراع الداخلي في نفسية الراي - الراوي بين قوى الخير وقوى الشر ، وانتصار الخير لحضور اللجني والتمسك به ؛ وقد سعى أفوقاي إلى تقديم تفسير لحلميه ، بقي ملتجيا لأن هواجس الراي وعنف صراعه الداخلي يغطي على كل تفسير ، لكن المفسرين العرب هيأوا لمثل هذه الأحلام تأويلاتها ووجوهها المحتملة .

ففي الحلم الأول (أ) يفسر الشيخ النابلسي مثل هذه الرؤية بقوله : «ومن قرأ في المنام "سورة الإخلاص" أو شيئا منها أو قرئت عليه ، فإنه يوحد الله تعالى ولا يرزق ولدا أبدا ولا يموت

حتى يدفن جميع أهله، وقيل إن كان خائفاً أمن أو مظلوماً نصره.
الله تعالى، وربما قد فني عمره وانقطع أجله، وقيل ينال التوبة
النصوح والإيمان الصادق» (44).

يفتح التابلي لرائي سورة الإخلاص أربعة احتمالات تأويلية
متقاربة، وفي كل احتمال تعدد غير منقطع، فضلاً عن كون ثلاثة
احتمالات مسندة لقائل مبني للمجهول، وعلي ما يبدو أن معطيات
التابلي (ق 18 م)، هي تلخيص لتأويلات ابن سيرين (ق 8 م) وابن
شاهين الظاهري (ق 5 م)، هذا الأخير الذي قدم تفسيراً
بمراجعاته المثبتة :

«سورة الإخلاص من قرأها فإنه يسلك طريق التوحيد وتجنب
البدعة والضلالة بعد هذا المنام، ولم يرزق ولنا، وقال الكرماني :
يكون صاحب ديانة خالص الاعتقاد وقيل : توبة نصوح وإيمان
صادق وربما لا يعيش لصاحب الرؤيا ولد، وقال جعفر الصادق
يعلو قدره ويحصل مراده في الدنيا والآخرة» (45).

وإذا كان حلم أفوقاي يبوح بتقوية النفس وحشها على الصبر
ظاهرياً فإن المعطيات التفسيرية الأخرى التي تشير إلى التوحيد
والتوبة النصوح والإيمان الصادق وعلو القدر، كلها «حقائق» كان
الرائي يبحث عنها، معاً ومبهاً في لا وصيه ووصيه، فرأى في حلمه
سورة الإخلاص دون سور أخرى.

وتتكرر الأحلام المتعلقة بالراوي الذي يرى نفسه يتلو آية
قرآنية، الأمر الذي يدفع بالمفسرين إلى ملء هذا الجانب

واستعراض التأويلات المتعلقة بهذه الأحلام . أما الحلم الثاني (ب) حول الشياطين التي سيغلب عليها أفوقاي بالدين ، فذلك تشخيص مطابق لصراعه على أرض الواقع مع الرهبان والأعداء ، وهو نفس التفسير الذي قدمت أدبيات التعبير والتأويل منها «من رأى إبليس مسه وهو مشغل بذكر الله تعالى فإنه يزول بأن له أعداء كثيرة يريدون هلاكه فلا ينالون منه مراداً» (ومن رأى أنه يعادي إبليس أو يحاربه فإنه يدل على صحة دينه) (46) . وبالتالي فإن الشيطان في كل التأويل عدو ، كذاب ، خائن ، جاسوس ، وهي الصفات التي يمكن أن يتمثل فيها أعداء أفوقاي على المستوى الديني والسياسي ، حيث إن أحلام الرائي هي إغراز لا شعوري لما هو شعوري يتمي إلى الوعي والواقع ، بقصد دمج كل العناصر لاستخلاص «الحقائق واليقينيات» في ارتباطها بذات الرحالة ومسار حياته المعني على الصراع وحضور الديني والفني انطلاقاً من الذات .

إن الحلم عند أفوقاي هو حلم مُذَوّت وعلامة نصية تتصل ببنية النص من خلال المحن التي عاشها والمآزق التي وجد نفسه فيها في بلاد الكفر وهو يجادل ويساجل . وفي المقابل ، يسجل ابن بطوطة العديد من الأحلام التي يراها ويوردها في سياق رحلته ضمن أحلامه الكثيرة والمتنوعة ، ففي رؤيته الأولى المرتبطة بلقائه يقول :

«رأيتني ليلتي تلك وأنا نائم بسطح الزاوية ، كأني على جناح

طائر عظيم يطير بي في سميت القبلة بتيامن ثم يشرق ، ويتزل في أرض مظلمة خضراء ويتركتي بها فعمجبت من هذه الرؤيا»⁽⁴⁷⁾.

حلم تلخيصي واستباقي لكل مراحل الرحلة يرسم أمساجها ، فهو يستحضر كل عناصره الضرورية ، من زمن الليل ، إضافة إلى فضاء النوم بسطح الزاوية بصفته مكانا مقدسا ، ثم حضور الحلم وعناصره المباشرة مثل عظمة الطائر والقبلة والتيامن ، والأرض المظلمة الخضراء . ولن يتأخر ابن بطوطة في إيراد تفسير الشيخ لهذا الحلم بقوله له : «ستحج وتزور (ص) وتجول في بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها طويلا وستلقى بها دلشاد الهندي ، يخلصك من شدة تقع فيها»⁽⁴⁸⁾.

يُقدّم الحلم في البداية مُلغزاً لأنه يختزل رحلته برمتها وبعض اتجاهاتها ، لهذا جاء الحلم إسراءً محمولا على العجائبي ، يحدد الجهة والألوان ، وهذان العنصران هما مفتاح التفسير ، وكأنه سيعلم بالتفاصيل المستقبلية الكبرى لرحلته المجهولة ، مع العلم أن حلمه هذا ، مثل أحلامه الأخرى وتأويلاتها ، دونه بعد انتهاء رحلته بحوالي ثلاثة عقود ، أي بعد اكتمال حلقات الرحلة .

وتقترب الأحلام الأخرى المدونة - شأن غيرها - في الكثير من الأحيان من الاستيهام ، إذ يصبح هذا الأخير ذاكرة النص الموجهة بامتداده للمتخيل⁽⁴⁹⁾ ، والنصاقه بالنص المحكي ، فهو يفتدي النص باعتباره خطابا وكشفا له ، يخضع لمنطق النص ودلالاته ، ويتضمن مرایا راهنية شفافة ذات انعكاسات في غيوب الماضي

والمستقبل تساهم في التخفيف من القلق النفسي والصراع الداخلي، وإذا كان «مجيء الاستبهام للتعديل من الواقع الذي لا يُقنع»⁽⁵⁰⁾، فلأنه حلم أنتجته ضغوط الواقع والمجهول، خصوصا والرحالة يخوض سفرًا لا يعرف مساراته، ولكنه حينما يدون حلمه في سياق الرحلة، فإنه يخدم النص الرحلي والرحالة لتحقيق ذاته والإعلاء من شأنها؛ وفي حلم آخر يرويّه قائلا: «في أيام إقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى الناس كأن إنسانا يقول لي: يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس في كل يوم؟» (ص 707) وعن هذه السورة يقول ابن سيرين: «ومن قرأ سورة يس رزق محبة أهل رسول الله»⁽⁵¹⁾، أما ابن شاهين الظاهري فيؤكد على أن «من قرأها تكون عاقبته خيرا»، وقال الكرماني يطول عمره ويرزقه الله تعالى الغفران، وقيل يرزقه الله سعة وافرة يحسد عليها، وقيل تكون محبة النبي (ص) عنده مؤكدة»⁽⁵²⁾؛ في حين يقول النابلسي «ومن قرأ في المنام (سورة يس) أو شيئا منها أو قرئت عليه، حشره الله تعالى في زمرة محمد (ص) وآله، وقيل ينال نعمة من نعم الدنيا يحسن بها عند الخلائق وقيل إنه من المتظهرين ودينه بلا رياء وقيل يعطي من الأجر بعدد من قرأ القرآن اثنتي عشرة مرة لأن «يس» قلب القرآن»⁽⁵³⁾.

وتجد كل هذه التأويل نفسها في حلم ابن بطوطة الذي يستعمل أسلوب الحكايتين: «رأيت فيما يرى الناس»، ثم مستعملا أداة تشبيهية «كان إنسانا» ولم يقل مباشرة إنسانا، أي أن الأمر بأمر

كل نصه الرحلي ثمانية أحلام كلها للآخرين يرويها وينقلها باعتباره راوية دون أن يدخل وعيه المثقف ويفسر دلالات هذه الأحلام، ولكنه في سرده للحلم لا ينسى التفاصيل المؤطرة له والأهداف التي يتضمنها، مثل التركيز على فاعلية السلطة المعنوية لبعض الأموات، حيث يبقى الحلم وسيطاً بفاته وصيغة للتواصل والتبليغ، والحالم، المرمول إليه ينفذ ويحقق رغبة المحلوم به الأمر والمطالب.

ولاشك أن الشيخ النابلسي كان يعي الهدف من تضمين أحلام الآخرين وحضور الموتى وكراماتهم للنهي والأمر وتحقيق رغبات معينة داخل نص رحلته.

وتتمظهر أساليب وردود "حلم الآخر" المتخلل في السياق الرحلي على لسان الراوي الرحالة بعدة مظاهر خصوصية، أهمها الصيغة الافتتاحية للخبر ومنها: ذكر لي، أخبرني، مما ذكر، أخبرنا، سمعت... وكلها أساليب تتأرجح بين البناء للمجهول، واليقين، والإحالة على أسماء محددة حاضرة مع الرحالة أو مستعادة من الماضي القريب والبعيد، تكون معروفة أو مجهولة.

٢٧- أشكال وصلقات الحلم

تتفرع أشكال الحلم في النص الرحلي وترتبط بعلائقه بمكوناته النصية من زمن ومكان وشخص مستعادة وحاضرة، واقعية وعجائبية، فضلاً عن عنصر الغرابة والعجيب والكرامة،

حيث «العالم يجد نفسه في ظروف كثيرة إما تتغير تغيراً مفاجئاً، ويحدث في بعض الأحيان أن يتغير المشهد بصورة تدريجية، كذلك تطفو في الأحلام مشاهد وأقوام من الماضي البعيد أو القريب، فمن الواضح أن قوانين المكان والزمان تصبح معقدة عاطلة عن العمل» (35) وهو أمر نسبي، للتنوع الذي يطبع الأحلام، باعتبارها نصوصاً ملتحمة وغير مفصولة عن النص الرحلي، ولكنها تشكل عالماً المصغر الذي يؤسس لبلاغته وبعض خصوصياته مثل التركيز على إيراد الأحلام المتعلقة بالذات من أجل تأكيد علاقة الفعل بالفاعل، والتفاعل بينهما؛ ولتكرار فعل 'رأى' قوة تأكيدية وبيديه في نص الحلم.

كما يحضر الحوار داخل بنية الحلم لأنه صلب الخطاب، فعبّر به التأسيس لأمر ونهي أو بلاغ بين شخصيات مقدسة أو أولياء أو أقرباء وغيرهم، وبين الراي أو من يرى له الحلم، فضلاً عن تجلّو الغيبي في الحلم الرحلي عبّر الاستحضارات والحوارات، وأيضاً العلاقة الاستكشافية بين الحلم والواقع الحاضر والمستقبل، في أشكال متعددة: منها الهاتف المتكرر في أحلام رحلته لإخبار الراي بقضاء حاجة أو أجل أو تنبيه وتحذير أو تبشير... فالهاتف باعتباره صوتاً غيبياً، فوق طبعياً يعوض الحوار الذي يعرف فيه المحاور.

إن بنية الحلم مثل أي بنية نصية تحفل بمكونات تصوغ بناءها، لكن الحلم يحقق اختلافه، فمناخه البنائية متحوّلة لا

تخضع للمقاييس المألوفة ، ويمكن تمحيص أربعة منها لمقاربة
كيفية ودرجة حضورها والتغيرات التي تطرأ عليها :

١ - **أبعاد الزمن في الحلم** : يلخص ابن سيرين تعدد
وامتداد حضور الزمن في الحلم قائلا : «تأتي الرؤيا على ما مضى
وغثلا ونقصا . وقد تأتي عما الإنسان فيه ، وقد تأتي عن
المستقبل» (56) ، وهو امتداد في بنية الأحلام كما هي الرحلة التي
يخوضها الرحالة ، تتوجه من الماضي إلى المستقبل ، دون أن تبقى
صيغة الزمن ثابتة على حالها لأنها متحركة ويخضع الزمن في
الحلم الرحلي بدوره إلى هذه التحولات وأحيانا لإمتساخات ،
فهو يأتي من الماضي والغيب اللامحدود إلى المستقبل القريب ،
وكان مسألة الزمن هي فريضة لاختراف الغيوب في وقائع ستقع ،
فيستوعب الزمن إلى زمن عادي وخارق متحول ، وكلاهما يتلوح في
إطار الزمن الحلمي شأن الزمن في الحلم الذي أورده الفرناطلي
لمسجد الله بن قلابة ، والذي قال برويته للجنة ودخولها (57) ؛
والنص الرحلي هو نص زمني بامتياز ، كذلك الأحلام الواردة فيه
تتجه نحو المستقبل ، لأن الزمن في علاقته بالإنسان العادي هو
الشيء المجهول والمرعب ، وبالنسبة للمتصوف والفقيه هو
الحقل الذي يبحث عن الإقتراب من أسرار ، وكما جاءت العديد
من الأحلام في نفس المسار فإن كرامات الأولياء حاولت تأسيس
قواعدها على اختراق المستقبل أو تكسير زمنية الحاضر .
ولعبة الزمن في نصوص الحلم هي بناء رياضي يخضع

لتحويلات تخرق المنطق وتؤسس لعمليات زمنية حلمية تمثل نظام المخرق والتركيز على الغيب والكشف، لأن وظيفة الحلم في البيوغرافيا الروحية تقود إلى دراسة العلاقات بين الحلم والزمن (58). يورد ابن بطوطة نصا حلميا مسموعا يقول فيه :

«يذكر أن سراج الدين هذا أقام في خطة القضاء بالمدينة والخطابة بها نحو أربعين سنة، ثم أنه أراد الخروج بعد ذلك إلى مصر، فرأى رسول الله (ص) في النوم ثلاث مرات، وفي كل مرة ينهأ عن الخروج منها، وأخبره باقتراب أجله فلم يتنه عن ذلك، وخرج، فمات بموضع يقال له سويس» (59).

المؤشرات الزمنية في هذا النص الحلمي هي في قسمين : زمن عادي تمثله «نحو أربعين سنة في خطة القضاء»، وزمن حلمي متكرر يتضمن إنلارا ونهيا ثم إخبارا بحدث سيقع في المستقبل القريب، وهو دفؤ أجل الرائي، خصوصا وأن المخاطب، في الحلم المتكرر ثلاث مرات، هو الرسول (ص)، وفي ذلك دلالة مزدوجة على أن الناهي هو نبي يسوع تصديق الرؤيا، ثم الحلم ثلاث مرات، علامة على النهي المتكرر، لكن الرائي حينما غض الطرف عن تلك المعطيات مات.

يأتي الحلم بعد رغبة أو ضغط، باعتبار «دوره في الاعتناق» (60) والتحرر، ورغبة سراج الدين متضمنة لضغط نفسي عليه وعلى أهل المدينة بعدما قضى معهم عمرا كاملا في موقع حساس، أبان فيه عن عدله ونُصحه، فكان الحلم سبيلا للحسم

في الرغبة والضغط ، وسيلته هي النهي في انتظار حدث انتهاء الأجل القريب ، أي الصراع بين زمنين ، زمن الماضي والحاضر والتضحية بهما ، وزمن المستقبل المجهول الذي أراد له الرائي أن يكون في مصر ، وجاء الحلم لتكسير هذه المعادلة -عبر تحذير متكرر- بامتداد العاصي ونمذ المستقبل الدنيوي ، لأن المستقبل الأخرى قريب .

بنية الزمن في النص الحلمى داخل الرحلة ، هي بنية مشطرة غير أحادية ، متوزعة في أبعاد متعددة لتحقيق انتماء الغيب لزمني الماضي والمستقبل .

2 - جذور المكان في الحلم ، المكان في الحلم جذر مشعل يضيء التلغيز الغامض ويطلع علاقات الرائي بالحلم وبالرحلة في اشتباك التفسير مقابل التأويل ، ويتقابل معطيات الحلم ، التي صيغت بتوجيه معطيات مترسبة في الذاكرة ، من جراء تفكير وتأمل وضغوطات واقعية ، بحقائق الواقع وتمحيصاته ، هذا الواقع الذي عالجه وعلته وساهمت في رسم ملامحه الأحلام والاسيهايات . وقد شكل المكان في الرحلة عنصرا قويا لأنه الصفحة التي يتم عليها تسويد الأحداث ونموها ، وبالتالي فهو في نص الحلم المتخلل في هذا السياق يحضر استراتيجيا مولدا ، لأن بعض الأحلام الواردة في رحلات معينة تستدعيها أمكنة النوم ، والتي حضرت بكثرة مع ابن بطوطة الحريص على ذكر اسم المكان في البداية (مطبخ الزاوية (ص48) ، المدينة المنورة (ص141) ، مكة

المكرمة، المندومة المظفرية (ص163)، مسجن القلعة (ص55). أمكنة تؤرخ للحلم ويؤرخ لها، كونها أمكنة مقدمة أو استثنائية تُجوز صدقية الحلم وامتداده في الصحو بعد النوم، وتحقق وعوده وإلزاماته.

وترد الأمكنة في الحلم ورودا واضحا ومتعينا حينما يكون القصد منه التبشير، وهو أمر بلغ حدا من التعجيب والأسطرة في الأحلام المتخللة، في كتب الأخبار بشكل خاص، ثم باقي السرود العربية الأساسية. كما اهتمت كتب تفسير الأحلام أيضا بتخصيص فصول وأبواب لتفسير الرؤيا الخاص بالأمكنة⁽⁶¹⁾.

في النص الرحلي يرد المكان في بعض الأحلام صورة لبيوتويا المفقودة والمعلوم بها في الصحو. عند الغرناطي في حديثه عن الجنة التي رآها عبد الله بن قلابة، ومع النابلسي في الحلم المعين للموضع الذي رأى منه إبراهيم الخليل الكوكب، وابن بطوطة في علة أحلام تربط المكان بالكرامة وبالعجائبي (ص42، 48، 134). ويفتقرن المكان المقدس بالغيبى ويفوق الطبيعي، فيصبح مزارا، كما عند عبد النابلسي أثناء رحلته ومروده على قرية النيك: «وفي القرية المذكورة أيضا مسجد صغير لطيف، يقال له مقام لاطمة الزهراء، رضي الله تعالى عنها، لكونها رأت فيه مناما فأتينا إليه وزدناه وتبركنا به ودعونا الله تعالى هناك»⁽⁶²⁾، ولأن المرأة للرؤية غير عادية، فإن الحلم الذي تم به التأريخ للمكان بدوره خارق، بدليل أن زيارة الرحالة ليست

للمسجد في حد ذاته ، وإنما لأن فاطمة الزهراء رأت فيه
حُلماً مصداقاً .

ويُشر النابلسي المكان عبر إدراجه لحلم «بعض الشيوخ جاء
من مكة فصلى في الموضع الذي فوق الشق . الجوضع الذي يقال
أنه رأى إبراهيم الكوكب فيه ، وذكر أنه رأى في نومه إن أحببت أن
تري الموضع الذي رأى فيه إبراهيم الكوكب فاقصد دمشق ،
واقصد موضعاً يقال له برزة ، وعند مسجد إبراهيم فوق الجبل ،
فصل فيه ركعتين ، ثم أدع بما شئت تُجِبْ ، فقصدت
الموضع» (٦٣) . الحلم الذي يورده النابلسي نقلاً عن كتاب
"الإشارات إلى أماكن الزيارات" ، هو صيغة أخرى لتضمين
الحلم ، استناداً إلى قراءات الرحالة لتثبيت حقائق وتقويض
افتراضات حول مكان معين ، لأن الحلم هنا يستند إلى "الهاتف"
الذي هو صوت الغيب وقد حدد خطابه بأمر اختياري للرأي حول
مكان "مقدس" ، ولكنه مجهول عند الناس .

وترتبط القدسية بالمكان في كل الحلم ، حيث مكة هي
القضاء العام ثم "الموضع" الذي صلى فيه والإعتقاد ، حوله سائد
أن إبراهيم الخليل قد رأى منه الكوكب لكن الحلم في ذلك
القضاء وحول ذلك الموضع سيُصحح من هذا الاعتقاد ويدل -صبر
الهاتف الغيبي- على المكان الصحيح الموجود بدمشق ، وتحديداً
موضع يسمى برزة ، عند مسجد إبراهيم .

إن المكان في الحلم متصل بتيمة السفر واتبنائها على الأمكنة

والانتقال منها بحثاً عن شيء ما، لأهداف محددة، ولا شك أن أحلام الرحالة، أو ما يستدعي من أحلام يجيء المكان فيها متفاعلاً مع عناصر الرحلة وأماكنها. فالراوي -الرحالة يورد أحلامه أو أحلام الآخرين، في سياق الحديث عن وقائع في مكان معين، شأن النابلسي، وهو يزور قرية فيرزة أثناء رحلته، فيدرج عدة استشهادات تاريخية ودينية، ضمنها يدمج حلماً لفائدة مكان مبارك¹ نافع لفسوة القلب وكثرة اللذوب² (ص 82)، حيث يعزز موقف الرحالة من الأمكنة في كل مراحل نصه الرحلي، والتي تشكل لديه جزءاً من المقدسات وقد بنى رحلاته عليها.

وتحمل الأمكنة الرحلية في النص الحلمي بعض السمات العجائبية الواردة في الوصف المكاني داخل خط سير الرحلة، فضلاً عن الخصوصيات التي يفرزها كل حلم ومعالجته للمكان.

3- تعظّمات الآخر في النص الحلمي: تبث النص

الرحلية الآخر في أبعاد ومستويات جعلت من هذه النصوص مختبراً مهماً من حقول مختلفة تبحر في التجليات والطبائع، وحضور هذا الآخر في النص الحلمي المتخلل باعتباره سفرًا ذهنيًا لا شعوريًا في الرحلة، يجيء بدوره في أبعاد متنوعة، لكن المهيمن والمتكرر هو حضور الآخر الموتى، فذلك أننا في أحلامنا- بتعبير الكسندر بوريلي- نلقى أناساً كان قد انقرضت على وفاتهم سنوات وسنوات³ (164). ولاستدعاء الموتى في الحلم أهمية خاصة في ربط الأحلام بالغيب والهاتف والمحاورات

والتوجيه ، وعبر الحلم يحضر الماضي ، والذي كثيرا ما يلجأ إليه الإنسان باعتباره متنفساً من ضيق الواقع وإكراهاته ؛ لهذا اتجهت كتب تفاسير الحلم إلى تأويل رؤية الموتى بشكل عام ، وإيراد عدد من التفسيرات في الموضوع⁽⁶⁵⁾.

ويختص رؤية الموتى ، يورد التابلسي في رحلته رؤية الشيخ حسن ، جد الرحالة ، وهو ينهي عن قول الشعر (ص 63) ، وفي موقع آخر ، وضمن حلم عجائبي يرى أحد الأشخاص والده الذي يزنه ويتدخل في الواقع (ص 435).

في الحلمين معاً يتحكم الميت المعلوم به بالأمر والسهي ويتدخل في المعلوم ، وإذا كان الحلم الأول يبدو طبيعياً ويجد له تفسيراً معيناً ، فإن الحلم الثاني يندرج ضمن الأحلام العجائبية التي يراد من خلالها إثبات كرامة الشخص الميت عبر التمهيد بحكاية البهيمة ، فقد كان لوأله ، الولي العارف صاحب الكرامات والمعارف ، الشيخ عبد الله النخال ، بهيمة عزيزة عليه ، فطلبه منه ولده الشيخ عبد الكريم الإذن في ركوبها إلى الكرم ، فأذن له ، وشرط عليه أن لا يركب معه أحداً ، فلما ركبها أوقف خلفه واحداً من أصحابه . ولما عاد بها البيت وبطها في محلها ، فجاء الشيخ على عادته ، ووضع لها العلف ، فلم تأكل ، فقال لها : كلي يا مباركة . فقالت له : أنت أبرك مني ولكن ولك أنتعني وأردف خلفه من أذائي وضربني . فدخل إلى ولده وسأله عن ذلك فأنكر ، فمسكه من يده وجاء به إلى البهيمة وقال لها : هذا أنكر

جميع ما قلتيه، فأخبرته بجميع مقالاته أولاً، فلما سمع الغلام كلامها وقع مغشياً عليه فأخذته والدته إلى البيت ومكث ثلاثة أيام لا يعي شيئاً، ثم لما مرض الشيخ مرض الموت، أوصى ولده المذكور أن البهيمة إذا ماتت يدفنها. فتوفي الشيخ إلى رحمة الله تعالى، ثم بعد مدة ماتت البهيمة، فألقاها على المزابل، ولم يدفنها، فرأى والده في المنام وقال له: أنت لم تقبل الوصية ونحن بكفينك مؤونتها - فلما أصبح توجه فلم يجدها ولم يجد لها أثراً⁽⁶⁶⁾.

حضور كرامة تكليم الحيوانات وامتدادها بعد الموت في الحلم، ثم التدخل في الواقع وخرقه، وتفسير بعض أحداثه: سمعت بعرضها النابلسي بكثير من الإيمان والتأكيدية.

وتسواتر رؤية النبي محمد ﷺ في أحلام عديدة بأشكال متفاوتة، فالغرناطي يورد حلماً جماعياً لجماعة يرون النبي في النوم يرشدهم، ولما يعترض أحد الفقهاء على ذلك يرى بدوره كل شيء في الحلم⁽⁶⁷⁾، ويورد النابلسي حلماً يأمره فيه النبي ﷺ، بإثبات نسب الشيخ صبيح الحبشي إليه⁽⁶⁸⁾، فيما يرى شيخ آخر، النبي ﷺ الذي يجعل على لسانه بلاغاً وحكمة للناس (ص 262).

يفسر النابلسي، الذي يكفي بتضمين أحلام الآخرين، رؤية النبي في مؤلفه "تطير الأنام" قائلاً: «فمن رأى نبينا محمد ﷺ، لم يزل خفيف الحال وإن كان مهموماً فرج عنه أو مسجوناً خرج

من مسجته وإذا رُوي في مكان حصار أو غلاء فرج عنهم ورخصت أسعارهم وإن كانوا مظلومين نصرُوا أو خائفين أمِنُوا⁽⁶⁹⁾.

ولا تختلف دلالات الأحلام التي يقدمها النابلسي في رحلته عن دلالة تأويلها في مؤلفه "تعطير الأنام"؛ ونفس الأمر عند ابن بطوطة الذي يقدم أحلاماً تستحضر النبي محمد ﷺ⁽⁷⁰⁾، الهدف منها ارتباط الحالم بالدين الإسلامي وتثبيت كرامة معينة أو تسوية عجيبة ما، وهو ما يجعل الأحلام المدمجة في الرحلة متواصلة مع الكرامة والمعجاني، مما يؤكد تغلغل الديني والمقدس في هذه الأحلام، وتجذر ذلك سربطاً بطلب التوجيه والإطمئنان في الوعي واللاوعي.

4 - الحلم بين الكرامة والمعجاني، قاعدة الحلم أنه يخرق القاعدة ويعمل «باعتباره نقطة بؤرية يتركز فيها تفاعل القوتين المختلفة»⁽⁷¹⁾ بحمولاتها الاحتمالية والترميفية، واستدعائها للمسح والتعجيب، فيبدو أن من أهم دعائم الأحلام في الرحلات العربية هو «إضفاء قناع تنكري على الموضوعات الحساسة»⁽⁷²⁾ وتأکید الغرابة وتعميقها وإعطائها أبعاداً عن طريق المسح والرمز والتعجيب، الأمر الذي يفتح إثر كل حلم سجلاً لفك الرموز ولإيجاد تفسيرات تربط هذه التنكرات المثبسة والمجردة أحياناً بما هو ملموس في الماضي والراهن والمستقبل. فكل ما يبدو مرموزاً وعجيباً في الحلم يصبح مألوفاً في التفسير، كما في الحلم الذي رآه ابن بطوطة، وهو على جناح طائر

عظيم يتيامن ثم يشرق وينزل على أرض مظلمة خضراء ؛ هذا الحلم الذي يقول عنه الراوي انه عَجِبَ منه . وهو مصدر التعجب من الطائر والاتجاهات التي كان يطير نحوها، ثم في الأرض التي نزل فيها، لكن التفسير الذي قلعه له أحد الشيوخ سيترجم المفردات الرمزية في شكل مكاشفة :

الطائر الضخم : السفر .

اتجاه سمت القبلة : الحج

يتيامن ثم يشرق : التجوال في بلاد اليمن والعراق والترك .
 كما يكون الحلم أيضا سبيلا لإظهار كرامة معينة، شأن ابن بطوطة الذي جاء حلمه لإثبات كرامة الشيخ الذي كاشفه في رقياء، وتجيء أحلام أخرى لإثبات كرامة الرحالة الرائي، مثلما وقع لأفوقاي، وقد رأى في منامة له، ما ضاع منه في الواقع، وبعد الحلم وجده (ص 134) ؛ أو في حلم يورده النابلسي حول شخصية مستعادة من الماضي، وارتباط الحلم بالكرامة والدين خصوصا في الرحلات المعجبة والزيارية، الرائي أو الشخصية المستحضرة هما المباران، فيما تطل الإضاءة الشخصية المفسرة في أحيان أخرى، مثلما وقع لبخت نصر الذي رأى حلما⁽⁷³⁾، ونسبه فحاء نبي الله دانيال وتذكر له حلمه الذي لم يره هو، ثم يزوله لغير صالح بخت نصر الحالم .

٧ - ثلاث سمات

تبتق الأحلام متنوعة لغناها وانفتاحها، مما يجعل سمة التعدد

بالإسكندرية، وفي مسابق إيراده لكرامات العديد من الأولياء
والصلحاء سمع بالشيخ ابن عبد الله المرشدي وهو من كبار
الاولياء المكاشفين (ص 46)، فخرج غير بعيد عن الإسكندرية
يطلب زاوية الشيخ :

- في لقائه الأول أراد الراوي النوم، فأمره الشيخ المرشدي
بالصعود إلى سطح الزاوية، وهو توجبه سيرى، عبره، خلال نومه
حلماً يركب فيه طائراً وينزل أرضاً مظلمة وخضراء.

- يكشفه الشيخ المرشدي ويختم له تأويله قائلاً : هو مستلقي
بها دلشاد الهندي ويخلصك من شدة تقع فيها (ص 48).

تواصل بعد ذلك أحداث الرحلة ويتحقق كل ما كاشفه فيه
الشيخ إلى حين وصوله الهند، حيث سيلقى محنة رواها بأسلوب
حكائي ممتع، مصوراً عذاب الأسر والخلاص والهروب، ثم
إشرافه على الموت خلال ثمانية أيام من الاختبارات المتنوعة
والقاسية، حتى اللحظة التي سيحضر فيها الجزء الثاني من حلمه
الأول، وتفسير المرشدي له ؛ وسيظهر له شخص يتكلم
الفارسية، اسمه القلب الفارح، يقدم له الأكل والشرب، ويصليا
معا ويحمله فوق كتفه (ص 544-549).

لكن، هل يتكرر الحلم مرة ثانية ويستعيد الراوي - أمام ضغط
وقساوة الأيام الثمانية- الحلم السابق وتفسيره، فيستهيّم ؟ :
فوغلبتني عيني فلم أفق إلا لسقوطي على الأرض، فاستيقظت
ولم أر للرجل أثراً، وإذا أنا في قرية عامرة (ص 548).

وأثناء عبودة وعيه ، وبعد خروجه من تلك الشدة عاد يفسر تلك الأحداث ويربطها بالحلم : «فكرت في الرجل الذي حملني على عنقه ، فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي ، حسبما ذكرناه في السفر الأول إذ قال لي : ستدخل أرض الهند وتلقى بها أخي ويخلصك من شدة تقع فيها ، وتذكرت قوله ، لما سأله عن اسمه فقال : القلب الفارح وتفسيره بالفارسية دلشاد ، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلفاقته وأنه من الأولياء» (ص 549) .

إن الراوي - الرحالة يرى حلما في بداية الرحلة ، وسيتمدد على كل مسار ومراحل رحلته ، وأثناء تحقيقه يحتلظ الاستيهام بالحلم وبالواقع ، بحثا عن الخروج من الأزمة في بلاد الهند . إنه حلم ورحم لكافة العناصر الحكائية الأخرى ، يدخل في دائرة بين الحلم الأول وتفسيره ، وبين تحقيقاته التي تنتهي بلفاقه موعود ينحول إلى حلم واستيهام ، نتيجة إغماءات ورعب وقهر وجوع وعطش لأيام متتالية ، وأن يحتمي بتفسير غير ذلك الذي كاشفه به المرشدي في بداية الرحلة .

والحلم بهذه الصيغة في كل النص الرحلي هو رحلة بين الشعور واللاشعور ، بين نعومة الحلم وحنف الواقع ، عبر الوهمي والإستيهامي والمجاشي ... وكلها عناصر تتداخل وتطعم مكونات أخرى في الرحلة .

VII- نصية الحلم الرحلي

نص الحلم هو بنية لغوية ظلت بفضل التراث الديني والأدب

الشعبي تعبيراً حياً متصلاً⁽⁷⁷⁾، يستلهم في خلقه وتكوين نصية الرحلة وأديتها حيث يندمج الحلم نصياً بنيات أخرى مجاورة، حافظة ومحفزة، تؤسس لتفاعل كلي، يسمح بتحقيق شروط النصية والأدبية، وبالتالي المثقة التي يحفل بها النص الرحلي من خلال تقليمة لأوعية مختلفة وأماكن أحلام أيضاً، متباينة ومتعددة، وفي أثناء الحلم تكون الرحلة قد أتاحت للراوي والقارئ الضمني والفعلي معاً، تكسير الإيهام الواقعي باستيهامات واحتمالات وحلوس، وأيضاً تكسير الانساق باللحظة الراهنة.

وإذا كانت الرحلة بناء مفتوحاً على "الخارج" بمرآة انعكس من حين لآخر الجانب الباطني، فإن تجسيد الباطن يكمن في تضمين الحلم الذي يتوسع ويبنى عوالمه المشتركة مع العوالم الخارجية فيخلق التكامل حيناً، والتعديل حيناً آخر، ذلك أن بنية الحلم في اعتمادها على الترميز والعجائي تحقق التوازن المفروض بين سرود تعتمد المشاهدات المرئية والمسموعة والمفروءة، من ثمة، يدخل النص الحلمى ضمن المتخيل الكلي للرحلة والمرتبطة بالماضي وتراثه، والمستمر في الحاضر وشذائده للوصول إلى أفق المجهول في المستقبل، لهذا جاء هذا المتخيل متجذراً في التاريخي والديني والفني، بحيث الغيب في الأحلام الرحلية مغاير لفوق الطبيعي، لأنه مرتبط بالمعيش وانبعاث لليومي وللصراع الداخلي وللشعوري؛ إنه إفضاء ونتيجة للجدل الدائم بين الرغائب والطموحات والواقع.

وتعتمد بنية نص الحلم على مقومات تتفاوت درجات حضور مكوناتها من حلم لآخر، وإن كان الراجح أن الأحلام الواردة في الرحلات الحسية والزيارية تبني على شاكلة متقاربة. ولا يمكن لهذه المقومات أن تحدد دقة الفاصل بين الحلم والاستيهام⁽⁷⁸⁾ وتشكل الأوهام، فلك أن يراد جزء من الأحلام وجزء آخر عن آخرين، سمعه منهم شخصيا أو عبر غيرهم متواترا، يجعل هذه البنية مفتوحة وثرية تلتقط غرابة الصور وتعتمد إلى الغرق وتعطيل القوانين الطبيعية واللجوء إلى الخلط بين الأزمنة واختزالها، واتخاذ الاستحضار وسيلة للكشف عن الحاضر والمستقبل، وتأكيد قيم وقناعات وعلامات وترسيم فكرة الإصلاح والإمتداد، من خلال حضور العجائبي والكرامة والمكاشفة، وأيضا خطاب الأمر والنهي والتوجيه لتحقيق رغبة معينة.

إحالات

- 15- ابن شامون الظاهري : الإشارات في علم العبارات [بهاشم الجزء الثاني من كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي : تعطير الأنام في تعبير المنام (في مجلدين)، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت] ص3.
- 16- ابن سبيرين : منتخب الكلام في تفسير الأحلام [بهاشم المجلد الأول من كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي : تعطير الأنام في تعبير المنام (في مجلدين) بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت] ص35.
- 17- ابن شامون، ص3.

18- عبد الغني النابلسي : تطهير الأتنام في تعبهر المنام (نسي مجلدن)، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، ص2، 3.

19- الكسندر بورياني : أسرار النوم، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، رقم 163، يوليو 1992، ص 89 [ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة].

20- نفس المرجع السابق، ص 83.

21- الشيخ عبد الغني النابلسي، تطهير الأتنام ص 5.

22- الشيخ النابلسي، ص 5.

23- ابن شاهين، ص 5، ابن سيرين ص 19.

24- ابن سيرين ص 11، الشيخ النابلسي ص 6-7.

25- الشيخ النابلسي ص 6.

26- الشيخ النابلسي، ص 6.

إن شروط المعبر بعدها ابن سيرين (صفحات 3، 4، 6) بقوله أن المسؤول، في علم الرؤيا لابد من استناد على ثلاثة أصناف : حفظ الأصول - تأليف الأصول - شدة الفحص والتثبت، ص : 12-13.

27- ابن سيرين ص 10، ونسحدث أيضا عن ضرورة تثقيب وجوه العلم والستر.

28- ابن سيرين، ص 2. يناقش توفيق فهد في دراسته عن الكهانة عند العرب مسألة العلم والرؤيا، انظر :

• Toufic Fahd, La divination Arabe, Leiden, E.J.Brill 1966 (pp269-273) P22.

29- ابن سيرين، ص 5.

30- ابن سيرين، ص 6.

31- ابن سيرين، ص 14.

32- ابن سيرين ص 14، ابن شاهين، ص 5، الشيخ النابلسي ص 3.

33- الشيخ النابلسي، ص 4.

34- الشيخ النابلسي، ص 4.

35- فريدش فون دير لاين : الحكاية الجغرافية. بيروت، دار العلم، لبنان ط 1، 1973 ص ص 97-98. [ترجمة نيلة إبراهيم، مراجعة عز الدين إسماعيل]. ونسحدث دير لاين عن أهمية الأحلام في الحكاية

الخرافية (ص 100-101)، ونحولات الحلم إلى حكاية خرافية (ص 106).

- Michel Grimaud . la Rhétorique du Rêve, in Poétique N°33, -36 1978, ed Seuil, P90.

-37- أسرار النوم، مرجع سابق، ص 72.

- Jean Charles Huchet . Littérature Médiévale et Psychanalyse pour une clinique littéraire, Edition, P.U.F écriture 1990, P475.

-39- سليمان الطيار : الخيال عند ابن عربي (النظرية والمجالات)، القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1991، ص 40.

M Grimaud, Idem, P90

Grimaud, P96

-42- ابن أبي محلي الفقيه الشاعر ورحلته الإصليّة الخروية، الرباط، منشورات عكاظ، ط 1 1991 ص 108 [تحقيق عبد المجيد قدوري]

-43- أبو حامد الغزالي : تحفة الأكياب ونخبة الأهجاء، الدار البيضاء، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط 1، 1993 ص 58. [تحقيق اسماعيل العربي].

-44- عبد الغني النابلسي، ج 1، ص 288، 289.

-45- نفس المرجع السابق، ج II، ابن شامين الظاهري، ص 40.

-46- النابلسي، ج II، ص 17.

-47- ابن بطوطة : تحفة النظار، ص 48.

-48- ابن بطوطة، ص 48

- Jean Charles Huchet, P483

- Idem, P480

-51- ابن سيرين، ص 31.

-52- ابن شامين الظاهري، مج II، ص 33، 34.

-53- الشيخ عبد الغني النابلسي، ج I، ص 279.

-54- الشيخ النابلسي، ص 455

-55- أسرار النوم، مرجع سابق، ص 72.

- 56- ابن سيرين، ص 9.
- 57- أبو حامد الغرناطي، ص 58.
- 58- In : Revue des sciences humaines, R.S.H, N°211/1988-3 Tome L-XXXII, France, P27, 28.
- 59- ابن بطوطة، ص 134.
- 60- شيدقار: حول نشوء وأسلوب الصورة الشعبية العربية، ضمن كتاب جماهي: بحوث سوفيتية جديدة في الأدب العربي، موسكو، دار رادوغا، ص 72 [ترجمة محمد الطيار].
- 61- انظر: ابن سيرين ج I، بهامش النابلسي: ص 40 و 174، وأيضا ابن شاهين الظاهري، ج II بهامش النابلسي ص: 153، 146، 163، 166، وعند النابلسي بإمكان متفرقة.
- 62- الشيخ النابلسي ص 102.
- 63- الشيخ النابلسي، ص 82، 83.
- 64- أسرار النوم، مرجع سابق، ص 71.
- 65- حول رؤيا الموت والأموات، انظر - ابن سيرين بهامش النابلسي، ج I، ص 45، الفصل 16.
- ابن شاهين بهامش النابلسي، ج II، ص 140، باب 30.
- 66- عبد الغني النابلسي، الرحلة، ص 455.
- 67- أبو حامد الغرناطي، ص 163، 164.
- 68- النابلسي، الرحلة، ص 170، 171.
- 69- النابلسي، تعطير الأنام، ص 215 (ج II) كما يقدم تأويلات أخرى، انظر صفحات: 216، 217، 218، وهي تقريرا نفس التأويلات عند ابن سيرين، ج I، ص 22-25، وعند ابن شاهين الظاهري، ج II، ص 24.
- 70- انظر، ابن بطوطة: صفحات: 42، 134، 163.
- 71- فهدوى ماضي دوجلاس: بناء النص التراثي، دراسات في الأدب والتراجم. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة دراسات أدبية، 1985، ص 149.
- 72- أسرار النوم، مرجع سابق، ص 92.

- 73- انظر : الغرناطي، ص 155، 156.
- 74- أسرار النوم، ص 86.
- 75- نفس المرجع، ص 86.
- 76- ابن بطوطة، ص 559.
- 77- فدوى ماطي دوجلاس : العناصر التراثية في الأدب العربي المعاصر. مجلة فصول، مرجع سابق، ص 22.
- 78- كلمة امتيهام *Phantasma* في التقاليد اللاتينية تعني التمثيل اللعني للشيء، وأفلاطون يقارن الفانطازيا بالرسم الذي يرسم صورا وأشياء من الروح تسمى *Phantasmas* أيقونات، ص 46.
- ومع فرويد S.Freud سيرتبط الامتيهام بالرغبات والكبت، ذلك أن «الامتيهام الأدبي يشكل نصا حائرا -غائبا في النص» ص 62.
- Jean Charles Huchet *Littérature Médiévale : L'écriture et l'analyse. Pour une clinique littéraire*, éd, P.U.P écriture, 1990.

الفصل الثاني

العجائبي

I - حدود العجائبي

1 - مقدمة أولى : اتخذت مفردة «عجيب» أشكالا في مسارات كثيرة ذات شحنات مرجعية تستقطب تكثيفا وتشرب معان متقاطعة فيما بينها ، ذلك أن المفردة ترعرعت وتلاقحت لغزرات طويلة وسط حقول متعددة وداخل سياقات ثقافية وتحولات مشهودة ، فابن منظور يعرفه انطلاقا من الركام السابق : «العجَبُ والعَجَبُ ما يرد عليك لقلّة اعتياده» ، وأن أصل العجيب في اللغة إن الإنسان إذ رأى ما ينكره ويقل مثله قال قد عجبت من كذا...» .

«العجيب : النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد ...

«والتعجب أن ترى الشيء يعجبك تظن أنك لم تر مثله»⁽¹⁾ .

ولا تستجيب تعريفات ابن منظور التي استقتتها المعاجم العربية الأخرى للدلالات الموسعة التي تقدمها مفردة العجيب والعجيب والعجائبي، نظراً لأن أفقها صار ضمن بناء الأثر الأدبي المرتبط بالفعل الإبداعي وفعل التلقي، إذ أن «هناك غنى واسعاً للمعجم الخاص بالعجائبي في العالم الإسلامي»⁽²⁾، وأيضاً في الثقافات الأولى؛ فالقزويني يعرف العجيب بأنه «حيرة تعرض للإنسان لفصوره عن معرفة سبب الشيء أو عن معرفة كيفية تأثيره فيه»⁽³⁾، وهو تعريف قريب من تعريف الجرجاني الذي يؤكد أن «العجيب تغير النفس بما خفي سببه وخرج عن العادة مثله»⁽⁴⁾.

يجيء هذا الغنى من اتفتاح العجائبي على السجلات الشعبية والمتخيل بكافة مراجعه التاريخية والدينية والثقافية، مما أعطى له أنوية وقنوات تنهض بتشغيل الحكي وتفعيل المتخيل، حيث لارتباطات العجائبي كثيرة إضافة إلى أنه يتغير بتغير العصور والثقافات، وتوجهات الرؤى والتحويلات الممكنة في النسق والمرجع، فما يُعتبر في عصر ما من باب العجيب قد تُزال عنه هذه الصفة فيفقد ما في عصر موال⁽⁵⁾، كما يتخذ تلوينات مغايرة مع كل مؤلف جديد، حيث العجيب كذلك «حسب المسافة التي تفصل بينه وبين تصور مألوف للواقع، أقره المنظور الثقافي السائد في العصر»⁽⁶⁾، حتى أن النقاد الذين تناولوا البحث حول مفهوم العجائبي في الثقافة العربية القديمة، نظروا إليه من منظورات مختلفة أمنت الحقل المفاهيمي وأبانت عن جذر مشترك في كل

التعاريف ؛ فالعجائب من وجهة نظر مكسيم رودسون⁽⁷⁾ أشياء تثير الدهشة والانبهار ، بينما يرى أندريه ميكيل أن العجيب هو تشكيل تصاعدي أو تنازلي لمعطيات طبيعية⁽⁸⁾ ، وينظر الباحث الشاذلي بويحي إلى العجيب أنه لا يكون قابلاً للتفسير⁽⁹⁾ ، فيما يخلص توفيق فهد إلى أن العجيب أساساً هو الغريب⁽¹⁰⁾ .

أما تودوروف⁽¹¹⁾ الذي حاول تقديم خلاصات دقيقة ، فيعرف العجائبي بحدوث أحداث طبيعية وبروز ظواهر غير طبيعية خارقة (مثل نوم أهل الكهف ، تكليم الحيوانات ، الطيران في السماء ، والمشي فوق الماء) تنتهي بتفسير فوق طبيعي ، وقد أسس تودوروف تصورات انطلاقة من متون الثقافة الغربية ؛ وفي سياق آخر يسمي محمد أركون العجائبي أنه ليس سوى امتياز مؤقت لاستحضارات خيالية ، مشكلاً لذلك وعاء لفكرة الخلق ، مثلما هو وعاء ضروري لكل تجربة هي انفتاح على الذات⁽¹²⁾ ، وهذه مسألة أساسية حيث ينهض العجائبي من الإنفعال والإثارة والدهشة بوجود معطيات خارقة تتطلب تفسيراً موازياً بحضور الراوي ، ووجود التعجب والتركيب اللغوي ، وعلاقة كل ذلك بالإعتقاد والذات والمتلقي الضمني أو الصريح .

إن كل التعاريف تُعمق ثراء المفهوم واتساعه ، الناتج عن ثراء النصوص الزاخرة بالعجائبي في كل أشكاله ، انطلاقة من النصوص الدينية : الانجيل والتوراة والقرآن الكريم ؛ وأيضاً في السيرة كما في المؤلفات النثرية ، وبشكل كبير في كتب الرحلة ومؤلفات التاريخ ، وفي الشعر أيضاً .

وتكمن أهمية العجائبي في ارتباطاته المتعددة وفي مفاهيم أخرى ترتد، وترسم أفقه وتشكلاته الدلالية، من أهمها وأشدها التصاقا به مفهوم الغريب والغرائبي، حتى أن استعمال العجيب يجيء، عادة، مفترنا بالغريب بشكل طبيعي، وكأنهما شكلان للإفعال الذي يولده موقف أو مشهد ما.

ومفهوم "الغريب" هو أيضا أحد المفاهيم المرأة التي وقف عندها الباحثون بشكل كبير، فالفروني يعرفه في المقدمة الثالثة، بأنه «كل أمر عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة، وذلك إما من تأثير نفوس قوية أو تأثير أمور فلكية أو أجرام عنصرية، كل ذلك بقدره الله تعالى وإرادته (فمن) ذلك معجزات الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين»⁽¹³⁾، هذا التحديد هو من أجل استيضاح الفرق بين الغريب والعجيب وإقامة فواصل مضبوطة، وسيخصص تودوروف جزءا كبيرا من حديثه عنهما معا للتمييز، فالغرائبي هو حدوث أحداث فوق طبيعية تنتهي بتفسير طبيعي. في حين أن العجائبي هو حدوث أحداث طبيعية تنتهي بتفسير فوق طبيعي⁽¹⁴⁾.

ويحدد تودوروف أن الإنسان حينما يختار أحد التفسيرين يدخل أحد الشكليين: الشكل الأول الذي يقرر فيه القارئ أن قوانين الواقع تظل سليمة وتسمح بتفسير الظواهر الموصوفة؛ أما الشكل الثاني فهو حين يقرر القارئ أنه يتبني قبول قوانين تمكته من تفسير الظواهر، لأن الاتجاه فوق الطبيعي المفسر

يصب في الغريب في حين بقود الاتجاه فوق الطبيعي المقبول إلى العجيب⁽¹⁵⁾.

ولا يكفي تودوروف بهذه التحديثات المعتمدة على الغيبي والتفسير، وإنما يلجأ إلى توليد الانفعال، فيحقق الغريب الخوف لأنه «مرتبط فقط بأحاسيس الشخصيات وليس بواقعة مادية تتحدى العقل، على عكس العجائبي الذي يتميز بوجود أحداث فوق طبيعية، دون افتراض رد الفعل الذي تسببه لدى الشخصيات»⁽¹⁶⁾.

ويتضح أن هذا التوسيع في تحليل الغريب عبر مقابله بالعجيب، هو توسيع في ملاسة النصوص التي تفرز دلالات كل شكل، إذ سيلاحظ نفس الباحث أن إحدى منابع الغرائبي أنه يتشكل من المصادفات⁽¹⁷⁾، والعناصر الأخرى التي تؤسسه.

وفي مناقشته للتمييز بين العجيب والغريب، يعتبرهما أندري ميكيل قطبين متقاطعين، فالغريب يجسده البطل بسلوكاته اليومية وتجاريه، إنه الإنسان الذي يسير إلى مابعد الصفات العادية للكائن الإنساني، في حين يقتحم الإنسان في العجيب حدود المحرم⁽¹⁸⁾. ويقارب جاك لاكوف المسألة من زاوية اعتبار الفرق بين العجيب والغريب يكمن في كون الغريب يمكن تفسيره بينما لا نصل مع العجائبي إلى تفسير غير التفسير فوق الطبيعي.

كل هذه الخلاصات، هل تقدم تقابلاً أم تكاملاً بين شكلين متجاورين يتكاملان ويغنيان بعضهما البعض؟ فما يميز الواحد عن

الأخر النهاية التي ينتهي إليها الحكمي العجائبي أو الغرائبي باختيار تفسير معين ومحدد لأحد الشككين .

لكن المسألة ، رغم الاختلافات والاجتهادات المفتوحة تسجل في المحصلة ، أن كل عجيب يتضمن غرائبية ، وكل غريب يتضمن عجائية . وهو ما يقود المحكمي الرحلي لأن يصبح عنصرا لركيولوجيا⁽¹⁹⁾ ؛ كل هذه النقاشات والردود التحديدية أفرزت بالضرورة أنواعا وأشكالات تؤكد ثراء العجائبي في كل الآداب الكونية ، وقد تعددت الأنواع بتعدد النصوص واختلاف الحقول والعصور والمؤلفات أيضا ، فتودروف يقسم العجائبي الى أربع خانات تجمع بين القديم والحديث⁽²⁰⁾ :

أ- العجائبي المبالغ فيه ، ويوجد في الحكايات الشعبية والملاحم .

ب- العجائبي المثير ، المدهش وبهم الرحلة ، حيث يصف الرحالة شيئا للفقاري يجهله ولا يملك ما يطعن فيه .

ج- العجائبي الأداتي ، وفيه تبار أدوات عجيبة .

د- العجائبي العلمي ، وفيه يكون فوق الطبيعي مفسرا بطريقة عقلانية .

ويعتمد تقسيم تودروف على الجانب التيماتى ، أساسا ، بينما يحصر جاك لأكوف تقسيمه في الحديث عن العجائبي اليومي والعجائبي السياسي⁽²¹⁾ ، بحيث تستحوذ على العجائبي ثلاثة أطراف :

- الاستحواذ المسيحي : والذي قاد العجائبي نحو المعجزة ثم الرمز.

- الاستحواذ العلمي : حيث ربط العجائبي بالعالم الطبيعي .

- الاستحواذ التاريخي : وهو الرغبة في وصل العجائبي بالأحداث والتواريخ⁽²²⁾.

يفترن هذا التقسيم ، وما يستتبعه ، بالنصوص القديمة ، إذ يخترق العجائبي مجالات وحقولاً دينية ورمزية ويومية وسياسية على مستوى الجذور الأسطورية والعلمية أيضاً ، وهذا الاختراق هو ما أفرز أنواعاً لم يتبّه إليها تودوروف الذي حاول النقاط المظاهر الكبرى التي تفرزها التيمات ؛ فالنصوص السردية العربية القديمة ، على اختلاف خطاباتها ، تضمنت عجائباً رسمياً وأخر غير رسمي ؛ بمعنى عجائبي عالم وآخر شعبي⁽²³⁾ ، وهو ما يمكن فحصه بوضوح في رحلتي ابن بطوطة وأبي حامد الغرناطي .

رؤية أخرى تستعير تقسيماً أولياً للقرويني وتنظر إلى العجائبي من خلال ما هو قابل للتصغير ، وما هو متعلّق بتبسيطه ، ذلك أن العجائبي العادي يسقط في دائرة المصغر ، في حين أن حقل التصورات التي تضم العجائبي الخارق والمتضمن لما هو تيولوجي وكونسملوجي يسقط في دائرة العجائبي المتعلّق بتبسيطه⁽²⁴⁾ ، ومن زاوية أخرى هناك عجائبي ذاتي مرتبط بأفعال الراوي وشخصياته في إطار تلوين الكتابة ، مقابل عجائبي

موضوعي متشكل من أفعال وظواهر موجودة في الطبيعة مما يخلق الإعجاب في مخيلتنا⁽²⁵⁾.

إن رصد هذه الأنواع ليس من أجل البحث عن ترسيمة موسعة، بقدر ما هو سبيل للانخراط في مسار العجائبي ورحلته، عبر السرود الشفوية والمقيدة، وتنوعها بتنوع الأوعاء والحقول المعرفية والأنساق الثقافية، فالنص الرحلي، تحديدا، يتضمن أكثر من عجائبي في النصوص المعجبة وحدها، فبالأحرى الانتقال إلى خصوصيات الرحلات الزيارية أو الثقافية أو السفرية من جهة أولى، أو الرحلات المتخيلة من جهة ثانية.

وتمثل التحديدات التي سيقدمها الفزويني في مؤلفه «عجائب المخلوقات وخرائب الموجودات» دائرة لتطرح قضايا أساسية، واستنتاج خلاصات مهمة توظف الفهم العام للعجائبي بحيث أنه ميز بين نوعين من العجائبي: العادي والخارق-الغريب؛ فالأول العادي هو ما يعبر عن يقين الإنسان تجاه كل الظواهر الطبيعية أو الأحداث فوق الطبيعية، فيما أن العجائبي الخارق-الغريب هو ما يجعلنا نشعر بأفعال غير متوقعة وغير مفسرة.

وتموضع العجيب عند الفزويني بين العادي المتصل بالطبيعة والتاريخ، وبين الخارق الغنبي المرتبط بالكرامات والمعجزات، وفي كل الحالات يفرز حيرة تعرض للإنسان، ولكنه في النهاية يخلص إلى جعل الغريب هو كل شيء عجيب قليل الوقوع مخالف للعادات المعهودة والمشاهدات المألوفة⁽²⁶⁾؛ وهو بهذه

التعاريف يفسعنا في المسار الصحيح، نسبيا، والذي نرى من خلاله النصيحات المعجائية في النص الرحلي العربي، لأنه ينطلق من بعض النصوص الواردة مثل معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وأخبار الكهنة والكهانة والوقائع الغريبة في الطبيعة والإنسان، وهي لديه حقائق استثنائية وليست بناءً تخيليا، وبذلك يؤسس لعجائبي لا يناقض الطبيعي، وإنما ينجز طبيعة ثانية، تنطلق عناصره من الغيب وفوق الطبيعي واللامرئي، أو من عناصر الطبيعة الموجودة -بتعبير أندري ميكيل- مثل الشجرة الحاملة لأوراق مكتوب فيها الغيب، وعجائبي الحيوان والنبات والمعادن والإنسان -كما عند الغرناطي في رحلته- إضافة إلى عناصر الأحلام والرؤى والامتساخات والحر.

وإذا كان تودوروف قد قدم خلاصات مركزة من نصوص عجائية غربية تعود إلى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، حيث العجائبي يعني غير مفسر ويحتمل وجود فوق الطبيعي، فإن هذا التعريف غير مطابق للعجائبي القرمسطوي⁽²⁷⁾، فتودوروف يقول بوجود قارئ ضمنى يبحث عن أحد التفسيرين. في حين، وكما يقرر بول زيمتور⁽²⁸⁾ ذلك فإن العجائبي القرمسطوي يقضي القارئ الضمنى بتغيبه البحث عن تفسيرات، وهي نفس المسألة التي يناقشها أندري ميكيل بخصوص النصوص المسيحية⁽²⁹⁾.

قضايا كثيرة تشكل للعجائبي مسارا معرفيا، يصير معها في النص سمة نصية مشبعة، وعنصرا ديناميا يوظف الصور الفنية، وكلنا المرجع لإنتاج معرفة تصب في المتخيل الخاص والعام.

كل الأسئلة السابقة، من تحديدات وتقاطعات وأنواع العجائبي يمكن اختبارها في الرحلة، وفي نفس السياق : كيف يفهم الرحالة العجيب وبأي استعمال ينهض في نصه؟

2- مقدمة ثانية، لا تخلو الرحلات العربية، في الغالب، من التعبير بمفردات التعجب، إلى اللقاء مع العجائبي والتصادم معه، ويمكن الجزم بخصوص الرحلة أنها تجمع لعجائب وغرائب الآخر، إنسانا وعمرانا وتاريخا، لاعتبارات يلتقطها الراوي-الرحالة أو ينسجها؛ فهي شيء غير مألوف يوضع دائما في المقارنة مع المألوف؛ والرحلة هي خروج من دائرة ما هو مألوف إلى انفتاح على اللامألوف وتجلياته.

وقد حفلت "حفلة النظر" لابن بطوطة بالجمع بين العجيب والغريب شأن ابن جزّي الذي عبّر عن ذلك بقوله: «فأملى ذلك ما فيه نزهة الخواطر، وبهجة المسامع والنواظر، من كل غريبة، أفاد باجتماعها وعجبية أطرف بانتحائها»⁽⁹⁰⁾.

يربط ابن جزّي العجائبي والغرائبي بأشياء يتم البحث عنها لما تنتج من نزهة الخواطر واجتهاد المسامع والنواظر، وكأنه يهيء القارئ للاستمتاع برحلة تتشكل كل مفاصلها من العجيب والغريب، لهذا لم يفتأ الرحالة، من حين لآخر، التعبير عن انبهاره انطلاقا من العنوان، إذ قرّن ما رآه في الأمصار عند الآخر بالغريب وربط العجائب بوقائع السفر والمشاهدات المترتبة، وكأن الثابت هو الغريب، أما المتغير هو العجيب.

عند ابن بطوطة ، وفي أزيد من ثلاثين موضعا ترد مفردتا العجيب والغريب ، معبرا من خلالهما ، عن اندهاشه وانبهاره أكثر من حيرته ، مركزا انفعالاته تجاه بعض الأمكنة والمعالم :

- «ورأيت من العجائب عند باب الجامع فيما بينه وبين السوق رأس سمكة كأنه راية وعينه كأنهما بابان» ص 281.

- «وعلى باب ابراهيم قبة عظيمة مفرطة السمو قد صنع في داخلها من غرائب صنع الجص ما يعجز عنه الوصف» ص 153 .

هذا فضلا عن استعمالات أخرى متنوعة ، وفي سياق الدهشة التي تولدها المشاهدات ؛ يكثر وشكل كبير ورود التعجب وتوابعاته عند ابن جبير وهو يربط استعجابه بالمعالم العمرانية والآثار والأمكنة والطبيعة :

- «ومن أعجب ما اخترناه من فواكهها البطيخ والسفرجل وكل فواكهها عجب . لكن للبطيخ فيها خاصية من الفضل عجيبة» (31) .

- «وشأن هذا الجبل عجيب فمن العجب ومن الغريب أن تكون فيه المتفجرة ما تقدم ذكره» ص 428 .

بينما يوظف النابلسي العجيب ضمن الكرامة والمعجزة والخوارق والأحلام المرتبطة بالإنسان ، مثل قوله : «ويحكون عنه عجائب وغرائب وكرامات شهيرة» (32) . وفي تعجبه تشييع كبير بالإعقاد والإيمان بالخوارق والعجائبي .

إن سياق استدهاء مفردات التعبير عن الأفعال يختلف من

ترجمة رغبة وإشباعها باللامألوف والقدرة التي ولدتها ، إلى ترجمة الإيمان والإعتقاد الراسخ بهذا اللامألوف .

وهكذا تبلور العجائبي في الرحلة العربية وسط متاح ثقافي عام وضمن متخيل متنوع يرتكز على طبيعة إدراك مزدوج للامألوف واللامألوف ، أو للطبيعي وفوق الطبيعي ، وبين المرئي والغيبى ، وهي عناصر مشتركة تكمل بعضها البعض لتجسير المجهول بالمعلوم .. ويتغذى العجائبي في الرحلة من قنوات متعددة فيخلق ظلالا تنعكس وتؤثر في باقي مفاصل النص الرحلي ، لأن الرؤية التي يَشيدُها الراوي تنطلق من معرفة محكومة بتوجهات معينة ومشبعة بشقافة وأحكام تتعالق في مسار الرحلة معرفة بالذات وبالعالم ، فتولد فعلا تجسيريا يتضمن لغة تواصلية بين الوحي واللاوعي ، بين الواقع والغيب ، المعلوم والمجهول ، بين المكان الأم والأمكنة الأخرى داخل فضاء المتخيل الذي هو «مساحة واسعة تغطي واقعا متعددا ، حيث العجائبي ليس إلا هدبا منه»⁽³³⁾ ، فيصير بذلك مرآة وعيارا في أن يستدعي ما قد «يرفضه» العقل والمنطق ومعيار الصدق ، ويكسر النمطية التي يمكن إدراج نص رحلي ضمنها ، وتحرير متخيله مما يجعله في دائرة المتخيل مع عجائبي التاريخ والحكايات الشعبية والسير ... قاسمهما المشترك هو فوق الطبيعي والخارق والغيبى ، مما يعطي القناعة بأن العجيب متجذر في الشرع العربي القديم تجذرا يجعل منه سمة بارزة وشكلا يحضر مرة بهذه الصفة ، ومرة أخرى يحضر باعتباره عنصرا

تحفيزيا وفاعلا يوسع الدلالات، ويقوم بوظيفة التشخيص والتحويل. لكن خصوصية العجائبي في النص الرحلي تكمن في كونه ينطلق من اليومي، والاجتماعي، مرتبطا بالمتخيل الكلي والمعتقد العام، في اتجاه تعزيز الإدراك وخلق التوازن، وأيضا التطهير عبر التكسير والمسخ والتحول. مثلما يحضر الوعظ والتقويم والانتقاد والسخرية فضلا عن المعرفة والمتعة ضمن طبيعتين: مألوفة ولا مألوفة لا تتناقضان؛ وتبقى التفاعلات التي يمكن استنتاجها من جراء حضور العجائبي، نسبية وملتبسة، وأحيانا ناقصة وغير صائبة، لأن درجة التفاعل في الوعي واللغة والمكتوب، قوة ذات أثر يخلق نسيجاً صوتياً «يتغذى من مشاعر الغرابة»⁽³⁴⁾، في إطار لعبة تبادلية، فالراوي يتقل من الداخل إلى الخارج، ومن الأنا إلى الآخر، فتكون المشاهدات والاستبهامات والأحلام في حركة متبادلة بين الأزمنة وبشكل خاص بين الحفيفي والوهمي أو بين الطبيعي وفوق الطبيعي. والعجائبي هنا، مثل الفانتاستيك «لا يضعنا في الواقع اليومي إلا من أجل إقحامنا في البغيبي»⁽³⁵⁾، لأن العلاقة بينهما (اليومي والبغيبي) حميمية، تلاقحية ومرجعية. وأيضا، فنظرة الراوي للأشياء المحيطة به -في الواقع- هي المسؤولة والمنطلق لتأسيس العجائبي؛ إضافة إلى طبيعة الفهم والاستيعاب والتفسير في إطار نسق ثقافي عام، ولا يمكن بأي حال إقصاء العجائبي من اليومي ومن المألوف والطبيعي، وكما يعبر عن ذلك توفيق نهدي: «في

الفكر الديني الشرقي القرسطوي ليس الإسلام فقط وإنما المسيحي واليهودي أيضا، كل شيء في الإبداع هو عجائبي⁽³⁶⁾ متجذر بصفته جزءا أساسيا، يعكس تأملات الإنسان والاعتمالات المتناقضة بداخله من هواجس وأحلام وحلوس، خصوصا في كتب الرحلات والتاريخ العام⁽³⁷⁾، حيث تتميز تعظّمات العجائبي بقوة في الأشياء التي أثارت إعجاب الرحالة العرب ودهشتهم، باعتبارها اختلافا عن وعيهم وعن ثقافتهم أو تكميلا لها. وصيغ رصد العجائبي وتخليه متعددة في صيغ حكائية يمكن النظر إليها أوليا، من ثلاث زوايا متواترة في النصوص الرحلية :

أ- **المروئي المشاهد** : وفيه يكون الراوي-الرحالة حاضرا وقاصلا شأن النابلسي الذي يؤكد أنه «اتفق أن دخولنا إلى هذه القرية كان قبيل غروب الشمس، فدعونا الله تعالى أن يمكّن لنا الشمس حتى نصلي العصر فكان كذلك بركة يوشع عليه السلام الذي ردت له الشمس» (ص198)، فالعجائبي هنا يرتبط بذات الراوي الذي يفتوّبُ أنه في أنوار الرحالة الآخرين، كما يشهد بكراماتهم في إيقاف غروب الشمس مؤقتا لإنجاز فعل ديني مقابلة مع فعل معجزة نبي الله يوشع الذي أوقف الغروب لإنجاز فعل ديني موكول إليه.

إن العجائبي المروئي-المشاهد يوظفه الغيبي والكرامة والتقابل مع المعجزة، حيث «تشكل المعرفة بالعجائبي من طرف نصوص الرحالة»⁽³⁸⁾ بهذه الطريقة وبغيرها أيضا. وفي مواقع

أخرى يكون الراوي الرحالة شاهدا منفصلا شأن النابلسي الذي دخل مغارة الشيخ زايد المعجذوب وهو يسقي الناس القهوة فعرف اسم الخادم الذي يمسك الفرس دون رؤيته أو السماع به (ص 302).

والحكاية هذه تنصب في خانة مجموعة من النصوص المعجانية التي أوردها النابلسي، وهو شاهد عليها، متشابهة، مثل نسيان أحد أصدقاء الرحالة لدواة له من النحاس، وهم في زيارة الشيخ علي بن سليم، وفي مصر وجد رجلا أعطاه دواته (ص 416). فمكاشفة الغيب هي سبيل للكرامة وللمعجاني. والراوي يشبث تقييداته التي رآها وعاشها، وكلما كان المعجاني مرثيا بشكل شخصي جاء قريبا إلى الحكيم والبوح.

ب - المسموع - المروي : وتعلق بالمعجاني الذي يصادفه الراوي الرحالة ويسمعه من أناس لقيهم أثناء رحلته، فيسجل على لسانهم ما أخبروه به من عجائب مستعملا في ذلك صيغ : أخبرني، ذكر لي، حدثني، روى لي ... وغيرها، حتى إن البناء للمجهول يحل محل هذه الصيغ حينما لا يراد تحديد هل الخبر مسموع أم مقروء ؟ :

أولقد حدثني بعض التجار أنهم خرجت إليهم مئة من السنين سمكة عظيمة فثقبوا أذننها وجعلوا فيها الحبال وجروها فافتحت أذننها وخرج من داخلها جارية حسناء جميلة بيضاء سوداء الشعر، حمراء الخدين عجزاء، من أحسن ما يكون النساء ومن سُرّنها إلى

نصف ساقها جلد أبيض كالثوب خلفه يتصل بجسدها يستر حياها وحسدها كالإزار دائر عليها . فأخذها الرجال إلى البر وهي تلطم وجهها وتنتف شعرها وتعض ذراعها وتديها، وتصيح وتفعل كل ما تفعل النساء في الدنيا حتى ماتت في أيديهم، فتبارك الله، ما أكثر عجائبه وخلقه ومالم نشاهد أكثر ومالم نسمع به أكثر» (39).

وتواتر هذه الصيغة إلى جانب الصيغة الأولى حيث تقتربان من بعضهما، فالراوي حاضر في الصيغة الأولى بالفعل أو بالانفعال ؛ أما في الثانية، فإنه حاضر بالامتناع من المعنى بالأمر الذي رأى العجائبي فعلاً أو انفعالاً أو بدوره سماعاً.

ج- المقروء - المستفاد، ويلجأ خلاله الراوي - الرحالة إلى هذا النمط التالي من النصوص العجائبية البعيدة عن الرؤية ولكنها مستندة بالقراءة والذاكرة والتخيل نتيجة رؤية قريبة أو حافظ جزئي، وفي هذا الجانب يكون العجائبي أقرب إلى التاريخ منه إلى البوح وهو ما يميز رحلة الشيخ النابلسي الذي كان كثير الرجوع إلى المقروء لربط أحداث نصه بعجائب التاريخ، فهو يرجع إلى مؤلف «الزيارات» للهروي، بقصد استرجاع عجيبة متعلقة بنبي الله يوشع الذي أمره الله بقتل الجبابرة فذهب وهزمهم يوم الجمعة وكانت الشمس تغرب فقال اللهم أردد الشمس علي، وسأل الشمس أن تقف، والقمر أن يقيم حتى يتقم الله من أعدائه قبل دخول السبت، فوفقت الشمس وزيد في النهار ساعة حتى قتلهم أجمعين» (40).

إنه العجائبي المتعلق بالمعجزة والتي رويت بالسند ، في حين يستدعي النابلسي أيضا ، العجائبي الكراماتي عن قراءاته المتنوعة ، فينقل عن الحافظ الذهبي في " التذهيب " ما رواه القشيري عن أحد الأولياء ، إبراهيم بن الأدهم في سياق ترجمته وإيراد كراماته : « كان من أبناء الملوك فخرج متصيلا ، وأثار أربابا وهو في طلبه ، فهضب به هاتف : ألهذا خلقت أم بهذا أمرت ؟ ثم هتب به من قريوس سرجه : والله ما لهذا خلقت » (41) .

يرسم كل رحالة للعجائبي مساراته بصيغة معينة ، مثل النابلسي والغرناطي وقد اهتما بالمقروء والمستذكر بشكل أكبر ، واهتم ابن بطوطة بالصيغة الأولى والثانية ، كما لجأ أفوقاي إلى الصيغة الأولى ، واختار ابن فضلان وابن جبير التنوع بين الصيغ الثلاث .

يتضمن كل نص رحلي الصيغ كلها ، إذ يبقى المهيم هو الشكل الموجه ، وقد تركزت هذه الاستدعاءات حول تبشير الإنسان وقدراته ، وأيضاً حول العادات والتقاليد والعمران ، انطلاقاً من حضور التنوع على الخارق والغيبى والمسح والتحول والإختفاء والتضخيم ، وهو ما يعطي للعجائب صورتين متكاملتين في ارتباطه بالديني ثم بالاجتماعي .

II- مسارات العجيب

يصبح العجائبي في النص الرحلي مؤلفاً مرتبطاً مع الذات والمرجع وطاقة للتكثيف والإنتاج والاستقطاب ونسج أثر خاص

يصبح بُعدا ومسارا لن يحيد عن قطبين ، يصب وينطلق منهما العجيب وهما المجال الديني والاجتماعي وتفاعلهما وتداخلهما تداخلا يرفد الواحد الآخر ، لكن حضور العجائبي المرتبط بالديني يظل مهيمنا لاعتبارات شتى منها هيمنة النصوص الرحلية الحجية والزيارية وتأثير الوعي الديني والمعجزات وارتباط الرحالة بهذا الغضاء واعتمالاته سواء كان الرحالة فقيها أو متصوفا أو متاثرا ، فضلا عن تقاطب التيارات التصوفية وارتباط المجتمع العربي الإسلامي بكثرة الأولياء والصلحاء في سياق اجتماعي وتحولات سياسية مستمرة دعت إلى سيادة نمط من التفكير والسلوك والتأمل ... وغير ذلك من العوامل الاجتماعية الهجينة التي تخلق عجائبا اجتماعيا يرسم التوازن مع العجائبي الديني .

ويمكن رصد هذا العجائبي في الرحلة العربية من منظور تيماتي مفتوح ، لادراك طبيعة حضوره وتغلغله ، والخطاب الذي يلور معالمة ويعكسه ، حيث تجلياته في أربع تيمات كبرى هي : الغيبي ، الخارق ، المسخ والتحول ، الاختفاء .

1- الغيبي : يتجسد الغيبي في العجائبي داخل النصوص الرحلية في حضور فوق الطبيعي ، وهو تدخل قدرات وعناصر غيبية أخرى في الطبيعي المألوف والمتعارف عليه ، مثل الهاتف اللامرئي ، والجن عبر الحوار أو التدخل أو المكاشفة .

1-أ تلقى الغيب والتواصل : يشكل النص العجائبي مجالا لخلق تواصل بين طبيعتين حبلوان- متناقضتين من أجل

إثبات سلطة وقدرة معينة، في شكل كرامة، مع حضور الجن، الذي هو قوي في الثقافة الدينية والاجتماعية حيث حضوره في أشكال السرود العربية باعتباره عنصرا لخلق تحويلات في البنية الحكائية بفعل فوق الطبيعي ومفاجاته ١ ولعل وقوف الفرناطي في رحلته على مسألة خلق الجن والطبع المجتلي الذي يتخذ (ص 47)، هو دليل على أن الاستمدادات في هذا الجانب، تعتمد على الديني والمختيل الشمسي، حتى أن ابن بطوطة يورد حكاية عجائبية في مجابهة الغيب المتجلي في الجن اللامرئي، ذلك أن جزيرة هندية وكان سكانها كفارا، كل شهر يظهر لهم عفريت من الجن يأخذ جارية بكرا يتركونها له في بيت الأصنام، وفي الصباح يجدونها ميتة ومفتضة، فقدم إليهم أبو البركات الذي حارب الجن بالقرآن، فأنقذ سكان تلك الجزيرة الذين أسلموا على يده (ص 589-590). فلإن بطوطة يروي هذا الخبر بأسلوب حكايات قريب جدا من الحكايات العجائبية الواردة في ألف ليلة وليلة، وعنصر الصراع حاضر في عجائبي الغيب مثل الصراع بين أبي البركات والجن الكافر، على عكس أفوقاي في علاقته بالجن المؤمن وهو يرويها بأسلوب تشويقي :

«ومما اتفق لي ببلاد الفرنج بعد أن جازت علينا السنين، ونحن فيها، أنني كنت أسمع حسا في البيت الذي أكون فيه وحدي في البقعة، بضرب في الحائط شيئا أو قريبا مني في لوح أو غير ذلك، وبين الضربة والأخرى قدر ما يعد الإنسان ثلاثة من واحد

إلى أربعة، ودخل في قلبي الخوف والرعب من ذلك حتى خفت من الجن أن يصرعني، واشتغلت بذكر الله تعالى بلا فترة، لعلني تنقوئ بذلك وتنجوا من الجن، وكان ذلك كل يوم، ويضرب في البيت وغيره وإذا أكون وحدي، ونفضب عليه ونضرب جهته، يزيد في الضرب. ورأيت أن الصبر أولى بي، ولا كنت أدري ماذا كان مراده، ثم فهمت أنه كان يريد أن أخرج من بلاد الكفار» (ص 129).

العلاقة مع الجن هي علاقة مع الغيب ومواجهته، تنجيء في شكل صراع أو استسلام، وفي المثاليين السابقين يشكل الغيب انقلبا في الأول للكافرين، وفي الثاني من الكافرين مما يعطي الإنطباع أن حضور الديني في هذا القطب هو القاعدة، فلا يختلف عن العجائبي الغيبي في السرود العربية.

ومن جهة أخرى، يحضر الغيب بصيغة الهاتف في شكل صوت لا متعين، يخبر ويشر، أو ينذر، أو يقدم معلومة، وهو في كل هذه التسجيلات يؤكد كرامة الشخص الذي يتلقى الهاتف الغيبي، شأن أحد الصالحاء الذي كان يسمع صوتا يقول شعر (42)، أو النص الذي يورده ابن بطوطة عن أحد الشيوخ الصالحين. «أبو عبد الله الفاسي من كبار أولياء الله تعالى، يذكر أنه سمع رد السلام عليه إذا سلم في صلاته» (420).

1 - ب تدخل الغيب : وخليفة أخرى للغيبي في العجائبي وهي حينما يتدخل ويصبح عنصرا فاعلا ومحركا للعناصر

الأخرى، من أجل إثبات كرامة الشخص المروي عنه، ففي رحلة ناصر الدين على القوم الكافرين» يحضر المعجائي مرتبطاً بذات الراوي الرحالة لتأكيد قوة إيمانه وإسلامه، من خلال تدخل الغيب ومساعدته في أشياء لا يقدر عليها بشكل طبيعي :

- «وإذا فرغت من القراءة في الليل قبل النوم، فنضع الجدول تحت رأسي، ويأتي في النوم من يُخبرني بالجواب» (ص104).

وهذه إشارة إلى ارتباط الراوي بالغيب من أجل إيجاد حلول وأجوبة لأشباع المجهول الذي يملأ الواقع، وعلى هذا الفرار يتحدث نفس الرحالة عن الورقة التي كتبها وضاعت منه ثم عادت وتزلت في كفه فجأة (ص126-127)، شأن الكتاب الذي ضاع منه وبعد قراءته لسور من القرآن الكريم عاد فوجده في الدار، ثم يخاطب القارئ : «ولا يتوهم قارئ هذا الكتاب أنني تركته في الدار» (ص135).

إن أفوقائي في المعجائي الذي صاغه انطلاقاً من خطفية دينية وثقافية يخدم الرحلة وهي نص مكتوب باعتبار أن الواقع المعجائبي التي حفلت بتدخل الغيب تخص الراوي وحده، وبالتالي، فليرانها ضمن تفسيد الرحلة هو تسجيل لبعض ملامح السيرة الروحية والوعى الذي يقوم على ثنائية الواقع- الغيب وخدمة هذا الأخير للراوي بقصد تملك الواقع والحقيقة والمجهول.

أما الشيخ النابلسي فيعمد إلى تسجيل تدخل الغيب في حياة الآخرين لإثبات كراماتهم، حتى أن حضور الغيبي يصبح شيئا متجاوزا للكرامة، قريبا من المعجزة أو شيئا بها ؛ ففي حديثه عن كرامات «الأوزاعي» يصف موته في الحمام بعد تدخل الغيب وإقفال الباب عليه، ثم اتفنتاحه بعد ذلك وهزميت، وحين حضروا لتفسيه، وجدوه مغسلا مكفنا، ولما وضعوه في النعش طار في السماء ودفته الملائكة (ص 247-248).

الغيب هنا واضح المعالم والجنور أيضا، فالملائكة هي هذا الغيب المتدخل في العجائبي، وبذلك تقترب «القصة» من المعجزة، انطلاقا من ثلاثة مؤثرات مرتبة بالتتابع : الغيب يتدخل في طريقة الموت، ثم في الغسل والكفن، وأخيرا طيراته ودفنه في السماء. لاشك أن التأثير الديني في أرواح الناس عامة والفقهاء خاصة، قد جعل الكرامات المجانبية بديلا عن المعجزة التي تخص الأنبياء، فكانت الاستيهامات المصدقة، تقيس عليها وتجعل من الغيبي وتدخلاته جزءا من امثلاك هذا الغيب، وبالتالي، القدرة على تحويل جزئي في الواقع.

وتدخل الغيب في الواقع هو تأسيس ليفين جديد وتفسير لثبات المعلوم والمجهول، فالنابلسي يروي، في سياق آخر، حكاية قبر حسن الأغبر الذي طلب منهم دفنه قرب البحر، ولما مات وأرادوا دفنه بالجبانة، امتنع النعش ثم حملوه إلى المكان الذي قال لهم عنه (ص 444). فالرغبة بعد الموت عند الأوزاعي

غير صريحة وتحقق، وفي تحقق الرغبتين يتأكد المعجاني باقترام عنصر الغيبي للطبيعي وتنفيذ الرغبة الضمنية والصريحة.

1-ج المكاشفة : تتضمن الرحلات بأنواعها، مكاشفات تتعلق بالراوي الرحالة وتخص رحلته أو حياته كلها، وهي مكاشفات تمزق حجاب المستقبل في شكل إخباري من طرف شخص آخر أو النفس التي يخطر لها. وفي الحالات تكون المكاشفة متعلقة بالمستقبل وبشيء محدد ومعلوم وبدرجات ؛ أما كشف الماضي فهو قليل لأنه مرتبط بال لحظة الراهنة، ولأن المكاشفة في المحصلة هي إنباء بغيوب ووقائع وقعت أو ستقع، يقوم بهذا الإنباء «الأخر» الحامل للكرامة، ففي "تحفة النظائر...¹ يروي ابن بطوطة حكاية الشيخ باقوت عن شيخه أبي العباس المرسي أن الحسن سيعرف لحظة موته والتي تحققت بالفعل (ص43). المكاشفة هنا ذاتية شأن حديث النفس الذي صادف ابن بطوطة أكثر من مرة :

- حينما رأى ابن بطوطة جبة بيضاء مبطن فاعجبته وتحديث مع نفسه ولما دخل الشيخ كساء التوب الذي تمنى (ص21)، ثم بعد ذلك سيقوم من يكاشفه بأن سلطانا كافرا سيأخذ الجبة منه ويعطيها، بعد ذلك لأخ الشيخ برهان الدين (ص626).

وتتمتد المكاشفة، في الرحلة، شأن الحلم عند ابن بطوطة، متراوحة بين الذاتي والغيري.

- كان ببعض المساجد بشيراز فخطر بخاطر له لو كان عنده

مصحف، ثم فجأة دخل عليه غلام قوي، وألقى في حجره، مصحفاً (ص 227). إنها أمنيات تتحقق بفعل تدخل الغيب؛ وفي سياق آخر يروي صاحب التحفة "كرامة" المكاشفة عند الغير:

- كل من يجيء عند أبي عبد الله المرشدي يجد من الأكل ما ينوي دون تكلم حتى وإن كان في غير إيمانه (ص 46).

- حكاية الراوي الذي زار الشيخ جلال الدين، فلقبه أربعة من أصحابه لاستقباله، لأن الشيخ كوشف بمجيئه (ص 625).

نوع ثالث من هذه المكاشفات، بعد النوعين السابقين المتعلقين بالمكاشفة الذاتية ومكاشفة الآخر، وتعلق بالجمع بين الإثنين، وهي مكاشفة الآخر للراوي، كما وقع لابن بطوطة بجدلة، إذ وقف على بابهِ مسائل أعمنى، يطلب الماء، ثم يكاشفه في خانم له (ص 252). فالأمر، هنا، يبدو أن الراوي لا يصدقهُ وهو يفتح خيره بجملة: "ومن غريب ما اتفق لي"، ثم يورد النص كما لو أنه حكاية من حكايات "ألف ليلة وليلة"؛ ويقع أن يتكرر هذا النوع لابن بطوطة مرتين مع اختلاف الزمان والمكان، حينما ينذر المكاشف الراوي بأن الغلام الذي اشتراه لا يصلح له، وفعلاً يسمع بعد ذلك بأن الغلام قد قُتل سيده (43).

أما المكاشفات الخاصة بالإخبار عن سير الرحلة فهي كثيرة، إذ أن أحد المسجانيين بنى النابلسي أنه سيجتاز إلى الحج (ص 202)، بينما سيخبر أحد الشيوخ الأولياء ابن بطوطة بمسار رحلته وماسيلقاء خلالها (ص 43)، كما سيُعلمه آخر بطريق رحلته

الصائبة والحقيقية (ص70). وكل مكاشفة، في بدايتها، استجابة لرغبة وتحقيق لها بقدرة غيبية، تصبح علامة مرجعية تبحث عن الانتشار والتأثير في كل العلامات النصية إلى جانب الأحلام؛ فالعجائبي، هنا، ينتج مرجعه ومراجعته السردية في علاقتها الطبيعية بما هو فوق طبيعي، والانفتاح على الديني والاجتماعي والنسق الثقافي وسجلات أخرى.

2- **الخارق**، يلجأ العجائبي إلى عنصر الخارق المنجاوز للحدود والمواصفات المعروفة، وذلك من أجل بناء عجائبيته وإضفاء طابع المبالغة عليها. ويتحقق بدرجات وتلويحات فيها ما هو خاص وما هو عام مثل الوقوف عند بلوغ الإنسان لعمر خارق⁽⁴⁴⁾، ترافقه أفعال خارقة تتجلى في الامتناع عن فعل أشياء محددة، كما يرى، أيضا، من زاوية الضخامة والقدرة على الإدهاش، مثل الشخص الذي يذكره ابن فضلان معتبرا إياه من شعب يأجوج ومأجوج، في حكاية تشويقية طويلة (ص136-140)، كذلك الفرناطي وهو يورد حكاية رجل ضخيم وأخته، وهما من نسل «عاده» (ص152-153) أو أحد عبيد السلطان الذي يصفه ابن بطوطة، طويلا، ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة ويشرب نحو رطل ونصف من السمن (ص352-353)، أو القوم الذين ألفوا أكل لحم الإنسان⁽⁴⁵⁾، أو الخارق الذي يطال الإنسان وهو قريب من الامتساخ كما في المرأة ذات الثدي الواحد -عند ابن بطوطة- (ص603)، وذكر القروذ التي لها لحم كالأدميين وتتصرف مثل تصرفهم (ص609).

والمكان الخارق كما أورد ذلك أبو دلف : «ومن أعاجيب هذا البيت أيضا أن كائونه يوقد منذ سبعمائة سنة فلا يوجد فيه رماد البتة ولا ينقطع الوقود عنه ساعة من الزمن» (46).

وأيضا القدرة الخارقة المتجلية في إيقاف عتصر من الطبيعة ، شأن تأخير غروب الشمس بوقت محدد عبر تمديد النهار ، وقد أورد التابلسي ذلك بخصوص نبي الله يوشع ، وبخصوصه هو أيضا (ص196-198) ؛ أو تقليص الزمن ، والطيران في السماء دون وسيلة (ص202) ، أو الخوارق المتعلقة بالموت من خلال ما يورده الفرناطلي في رحلته من غار به رجال موتى ، بعضهم قيام وبعضهم ركوع وبعضهم سجد وعليهم ثياب لا تبلى (ص154) ، وكذلك الرجل الميت - منذ عهد عمر - حيث الدم يسيل منه رغم مرور كل تلك الفترة على موته (ص154).

تحضر هذه الخوارق وتنوعها لتدعيم المعجاني ، ويمكن النظر إليها في أربعة تجليات :

2-أ الخوارق في السلوك والطباع : ويتعلق الأمر هنا بسلوك وطباع المجاذيب والأولياء والزهاد الذين تصدر عنهم الخوارق باعتبارها جزءا من طبيعتهم وقدرتهم على الصبر والتحمل (47) ، كما أفتراد أو طوائف مثل تلك التي سردها ابن بطرطة :

- الطائفة الأحمدية ترقص داخل النار وتأكلها بنفسها (ص195).

- الطائفة الحيدرية والرقص على النار (ص 196).
 - طائفة تعرف بالرابطة ، تابعة للخضر والياس ، منهم "عابد" يخرج مرة واحدة في الشهر للبحر كي يصطاد (ص 201-202).
 - أهل الهند الذين يحرقون أنفسهم بالنار (ص 422-423).
- لكن حضور خوارق الأفراد هي المتواترة بكثرة وتحضر بقدرتها على الإشفاء من بعض الأمراض المستعصية. ويتماهى أفوقاي مع ذاته وإيمانه ، الذي هو سلاحه الوحيد في البلاد المسيحية ، فيعتقد في نفسه الخوارق عبر نفس السلاح ، وذلك حين يتحدث عن شفائه للمرأة السودانية (مباركة) من البرص ، وامرأة أخرى بحرز ضمته سورة قرآنية ؛ والرجل الذي جاءه من الأندلس مريضا بالإمساك ، والآخر الذي قرأ بعضا من القرآن على يده التي كانت تبطل أثناء الوضوء فشفاه الله (ص 128 ، 129) ؛ كما يورد ابن بطوطة ، بدوره ، حكاية أحد المساكين الذي مسح على بطون دواب شريت من ماء أصابها بالوجع ، لكن يده جعلتها تريق ما كان في أجوافها من ذلك الماء ويرث (ص 167).
- ويحضر عنصر التطويع ضمن الخوارق ويتجلى في الكرامة وطاعة حيوان مفترس لشخص معين ؛ فالكلاب الضخام المعدّة لأكل بني آدم ، كما يصفها ابن بطوطة ، بصيبت لقاضي شيراز وحركت أذنانها بين يديه بعدما رموه إليها لتفترسه (ص 216).
- والفيلة التي حاصرت كل من أكل الفيل الصغير وقتلتهم جميعا إلا الشيخ الذي لم يأكله معهم (ص 224).

2- تكليم الميت والجماد والحيوان : ويدخل هذا

العجائبي في خاتمة الخارق المعجز حيث تتجاوز القدرة الإنسانية الطبيعة المألوفة إلى المعجزة التي لم تكتب إلا لبعض الأنبياء ، وتحولها بصيغ أخرى إلى الصلحاء والأولياء والزهاد والمجاذيب ، وهو استيهام عميق يرسم للعجائبي مساراً يكشف عن مدى تجذر الدين في وأيضاً الغيبي في الوعي ، وانعكاس ذلك في النصوص ، في شكل يقين وحقائق ، أو لحظة تحول في حياة الشخص ؛ فالقصة التي يوردها النابلسي عن الصائد الذي كلمه صوت من القريوس (ص175) ، كانت فضلاً عن هاتف قبلي ، لحظة تحول من حياة البلخ إلى الزهد ، وكان العجائبي الخارق ، هو جسر التحول والتطهر من زمن محدد ، للدخول في زمن آخر ، كما أن البهيمه التي كانت تتكلم مع الشيخ واختفت حين موتها هي علامة على كرامة ذلك الشيخ (ص455) ، في حين يستحضر ابن جبير في رحلته تكلم الجماد وهو من حجر ، مع الرسول ﷺ ، حينما قدم دار أبي بكر فنأدى به ، ولم يكن حاضراً فأنطق الله عز وجل بالحجر المذكور قائلاً : «يا رسول الله . ليس بحاضر ، (ص133) ثم يتحدث أيضاً ، عن الجبل الذي نادى النبي [فقال : إني يا محمداً فقد آويت قبلك سبعين نبياً » (48) ؛ وفي المواقفين يكون تكليم الجماد جزءاً من بنية المعجزة . وبالتالي فهو عنصر أساسي في بناء الكرامة ؛ ولأن ابن جبير يمر من مكان به قبر يسمى قبر الناطق ، يورد الحكاية التي تقول إنه سمع عند وضعه في لحد

يقول : «اللهم انزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين» (ص44).

فالعجائبي الخارق حتى الآن، خصوصا، فيما يتعلق بكرامات تسماس والمعجزات، يرد سماعا أو قراءة من كتب تاريخية وليس رؤية ومشاهدة.

2- **سج السحر** : يرد السحر باعتباره جزءاً من بناء لعبي يومهم بوقائع خارقة، ولكنها حيل ولعب يتأطر في قناعات وأنظمة ثقافية تتدرج ضمن ثقافات بعض الطوائف، كما يورد ذلك ابن بطوطة في خمس حكايات تتعلق بالجوكية وأعمالهم السحرية، والتي حوكلها ابن بطوطة إلى نصوص عجائبية من ضمن مشاهداته ومروياته المسموعة :

- الجوكي الذي يتصور في صورة سَجٍ لانه من السحرة، يدخل من الأبواب المغلقة، يفترس الناس وقيل أنه يشرب الدم ولا يأكل اللحم (ص354).

- قومهم من ينظر الى الإنسان فيقع ميتا من نظراته، ويقول العامة إنه إذا قتل بالنظر وشق من صدر الميت وجد دون قلب، ويقولون أكل قلبه وأكثر ما يكون من النساء» (ص354).

- حكاية حضرها ابن بطوطة عند السلطان وتعلق بالجوكية الذين يتحلفون بالملاحف ويغطون رؤوسهم لأنهم يتتفونها بالرماد فطار أحدهم في الهواء حتى أدرك ابن بطوطة الوهم وخاطبه السلطان بأنه لولا خوفه على عقله لأمرهم الإتيان بأعظم مما رأى (ص353-356).

- مداواتهم للعاهات مثل البرص، الجذام، وصنعهم لحبوب التقوية (ص 536).

- جوكتي في جزيرة صاح صبيحة فسقطت بين يديه جوزة من جوز النارجيل (ص 556).

- «وفي تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان . فقال له الأمير : أرونا من عجائبك ، فأخذ كرة من خشب لها ثقب فيها سيور طوال، فرمى بها الى الهواء فارتفعت حتى غابت عن الأبصار...[ثم] أمر متعلما فتعلق به وصعد به في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا ودعاه [...] وصعد متابعاً إياه كما فعل ويده سكين فقطعه ورماه ثم أخذ أعضائه وألصق بعضها ببعض» (ص 653-654).

إن ما يجعل هذا العجائبي ضمن السحري هو قناعة الراوي الرحالة في كل ما يرويه عن الجوكية، كونه ليس إلا شعوذة وسحرا، على عكس الشيخ النابلسي الذي يورد العجائبي السحري دون إبداء موقف محدد في حكايتين :

- حول خراب قرية الصالحة : «فأخبرنا رجل كان معنا، ان سبب خرابها أنه مر بها رجل من المغاربة، فاستطعم أهلها فلم يطعموه شيئا فكتب ورقة فألقاها في الماء فغار الماء ولم يعد بعد ذلك، فخربت القرية ونفر أهلها منها» (ص 101).

- سبب تسمية نهر الكلب : «وانما سُمي بنهر الكلب لأن الفرنج في الزمان الأول صوروا هناك صورة كلب كبير من الحجر

وجعلوا فيه رسدا، إذا جاء العدو ينبح عليه فيسمعون ذلك النباح
فيأهبون لحرب العدو (ص227).

إن السحر لعبة وجزء من ثقافة تعتمد الغيبي وتؤسس لعجائبي
منفتح تتقاطع فيه عناصر متحولة ضمنها السحري في أشكاله
المرتبطة بالطوائف أو بالديانة أو بالشعبي السائد.

2-د عجائبي الطبيعة : يطل استحضار العجائبي في
الطبيعة وتُرصّد الوجوه التي تدهش وتوقظ حيرة الرحالة، ويمكن
النظر إليه من منظور علاقته بالإنسان، فهناك عناصر من الطبيعة ترد
للتعجب فقط دون الإفادة أو الضرر مثل المناديل التي تُرمى إلى
النار ولا تحترق⁽⁴⁸⁾، أو الحجر الذي نزل من السماء⁽⁴⁹⁾. فيما
هناك عجائبي يخدم الإنسان وهو مرتبط بالدين نموذج قصة
الشجرة الخضراء بأوراق تُشبه أوراق التين، ورقها مكتوب عليه لا
إله إلا الله محمد رسول الله، وهي تلاوي الأمراض (ص574).

ويكثر إيراد عجائبي الطبيعة الفاعل لفعل خارق مثلما هو العاء
الذي تدخله النساء فيحبلن والجميع لا ذكور فيهن⁽⁵¹⁾، أو
الأرض في بلاد التبت التي تدخل السرور إلى قلوب الناس، حتى
إذا مات عندهم ميت لا يحزنون (ص73).

وهناك عجائبي يبرز عنف الطبيعة مثل البركة التي بها سمك،
كل من اصطاده وأكله يمرض⁽⁵²⁾، أو ماء النهر المسموم الذي يمر
على خشخاش مسموم⁽⁵³⁾؛ كما احتلت الريح إلى جانب العاء
موقعا في سرد عجائبيها، فابن بطوطة، يذكر الرجل الذي إذا قتلته

الريح وأراد أصحابه غسله يتفصل كل عضو منه عن سائر الأعضاء (ص 283)، أو ريح السموم القاتلة التي تعفن الجسوم حتى أن الرجل إذا مات تنفس أعضاء كلها (ص 399).

3- **المسخ والتحول** : إحدى دعائم العجائبي وجود عنصر المسخ الذي يطال الإنسان أو الطبيعة بقصد تبيان التغير الذي يدهش ويحير من حالة لأخرى ، وذلك من أجل هدف معين هو استدعاء مسوخ وقعت في الماضي ، وما زالت رؤيتها واستحضارها يؤيدان نفس الهدف - العبرة الذي وجدت له أول مرة ، فابن بطوطة سيرى مجموعة من الحجارة على صورة الأدميين والبهايم في ذلك المكان الذي كان مدينة عظيمة ، أكثر أهلها من الفساد فمسحوا حجارة (ص 413) . ويحيى هذا المسخ عقاباً بتحويل بعض الصفات الأدمية إلى جماد أو كلها هو الأكثر ، فالغرناطي يأتي بخبر مسخ إنسان في صنعاء - نصفه إنسان والنصف الآخر نسان (ص 42) ؛ ويصف الناس في السودان بدون رؤوس (ص 43) ، ويطال هذا الإمتساخ أيضا الحيوان مثلما يروي ذلك ابن فضلان عن حيوان مختلط بين الجمل والثور والبغل (ص 141) ، وهو تحول مركب بدون تفسير للسبب .

وإذا كانت هذه الإمتساخات بسبب غيبي وما هو فوق طبيعي ، فإن هناك حكايات عجائبية تُبشر قلرة الإنسان على مسخ الآخر لتأكيد كرامته شأن المتصرف الهندي الذي تحول الحجر ذهباً (ص 54) . أو الشيخ شهاب الدين الذي عقد التوبة فتحول الخمر ، بين يديه ،

ماء حلوا⁽⁵⁵⁾ أو قصة جمال الدين ، بعد جدال مع ابن العميد ، تحول بلحية يضاء ثم سوداء ، ثم بدون لحية أثناء زعفة ، فعجب القاضي ابن العميد وقيل يده وصار تلميذا له⁽⁵⁶⁾ .

تستخدم الكرامة المسخ الجزئي في ذات الفاعل لبيان القدرة وتأكيد كرامته مثلما فعل الشيخ أحمد بن العجيل الذي جمد أرجل بعض الفقهاء لما أراد بعضهم القيام - كما يروي ذلك ابن بطوطة- (ص 393) ، في حين يرد عجائبي آخر يكون فيه المسخ جزئيا ومفسرا بشكل طبيعي ولكنه يحقق الإدهاش الذي يولده فوق الطبيعي مثل حكاية الذين أكلوا لحم الرخ فاسودت لحى المشايخ ولم يشيبوا أبدا ، ويفسر الراوي مرد هذا إلى العود للذي حركوا به القدر وهو من شجرة الشباب⁽⁵⁷⁾ .

تنوع المسوخ كما وردت في النصوص الرحلية غدت العجائبي بدم جديد ، وملأت شجرة الغيب وفوق الطبيعي بعناصر خفية تحير وتطلق أحيانا .

4- الاختفاء : بتحقيق الاختفاء بصفته عنصرا يوجج العجائبي ويعمق مساريه خالفا نطقا آخر في جسم النص الرحلي للارتباط بالشرابين الأخرى التي تبقى غير بعيدة عن أفق النسق الثقافي الذي أنتج السرود العربية .

والاختفاء بدوره ، يؤسس لعوالمه انطلاقا من استحضاره لتأكيد كرامة المختفي الملتبس في وجوده على الرؤية بقدرة مسخرة من الغيب ، وهو شكل يرد في بعض السرود العربية

(السيرة والشعبية) بمبرور مادي سحري يكون خاتما أو طاقية ، لكنه في المتخيل الرحلي المؤسس ، في هذا الجانب على الكرامة والإتصال الروحي مع عالم الغيب ، تنسفي الأدوات ويصبح الاختفاء بدون وسيط «بلوث» كرافته .

تختلف وظائف الاختفاء أيضا ، فالفقير الذي نبه الناس الى حمار وحشي بعدما أفسدهم الجوع وكاد أن يهلكهم ولما عادوا بالحمار لم يجدوا الرجل لاختفائه⁽⁵⁸⁾ . والرجل الذي جاء إلى الراوي بسمكة ثم اختفى (ص 201-202) ؛ وفي الحالتين ، ألم يكن الحضور نفسه استيهاما وهو جس داخلية مهياة لإقراز المجاني قصد التخفيف من ضغظها ؟

وفي هذه الحالة ، فإن الاختفاء يجيء بعد تقديم مساعدة في حالة الشدة- للآخر . في حين ، هناك حالات اختفاء لخروج المختفي ذاته من المأزق ، فالشيخ خليل الرفاعي الذي ذهبوا إليه ليمسكوه اختفى ولم يجدوه⁽⁵⁹⁾ ؛ أو الاختفاء للدلالة على تحقيق كرامة أو شبه معجزة ، كما جاء في نص "تحفة النظر" على لسان الراوي : «وجدت في كتاب المعلم في شرح صحيح مسلم للقرطبي أن جماعة من الصحابة صحبهم أويس القرني من المدينة إلى الشام فتوفي في أثناء الطريق في بركة لا عمارة فيها ولا ماء فتحيروا في أمره ، فترلوا فوجدوا حنوطا وكفنا وماء فمجبوا من ذلك وغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه ، ثم ركبوا ، فقال بعضهم ، كيف ترك قبره بغير علامة ، فعادوا للموضع فلم يجدوا للقبر أثر» (ص 114) .

الاختفاء هنا يتحقق نتيجة تحصيل حاصل لعجائب وقعت في مكان ففر بوسائل مستحيلة حتى تكتمل الكرامة للميت، والاختفاء هو تأكيد لها ولحضور الغيب.

يحضر العجائبي بهذه الأشكال متنوعة ومركبا باعتباره نواة تستقطب عناصر أخرى لتفعيله، منها الغيبي والخارق والمسخ والاختفاء، وكل عنصر من هذه المكونات المتحركة غير الثابتة يخلق قوائمه داخل قانون العجائبي الذي يخضع لمبدأ الرحلة.

فاعتماد العجائبي، مثلا، على السند التاريخي والديني، أساسي لبناء مساره وترسيم خطابه، والاختفاء هو عنصر يولد عناصر أخرى يحركها، كما في قصة المدينة-الجنة- التي رآها عبد الله بن قلابة ثم اختفت بعد ذلك⁽⁶⁰⁾.

يمثل عنصر الاختفاء تقاطعا مع عنصر الخارق، نفس الشيء في الحديث عن مدينة النحاس التي يصفها الغرناطي وصفًا بشخصيات واقعية وأحداث عجائبية لحضور الجن والاختفاء وخوارق الأرض وكلام السكان الذي يشبه كلام الطير⁽⁶¹⁾، فالعجائبي بهذا الحضور هو مسار استراتيجي في النص الرحلي متجذر في الثقافة العربية ومرتبطة بعناصر لمحفزات تستمد قوتها من التاريخ والدين لتدعيم الرقوة والخطاب. وتتموقع الكرامة عبر تجليات شتى ضمن العجائبي وهي إحدى أهم المحاور التي تقوم عليها باقي العناصر من أجل تأكيدها وتجليتها.

وإذا كان العجائبي عنصرا ديناميا في المتخيل الرحلي فإن كل نص رحلي يحاول أن يكون متخيلا بما يتناسب مع الرؤية الموجهة للراوي-الرحالة.

بمعد ابن جببر إلى الاختزال في إيراد العجائبي والاكتفاء بالصيغ المعبرة العامة والتلميحية غير المفصلة، في شكل مشاهد مثل قوله حول مشهد الرجل الصالح الزاهد والمعروف بصاحب الإبريق وقصته عجيبة في الكرامة (ص44)، ويتوقف الراوي، هنا، دون سرد مضمون الحكاية، فالمعجب عنه يرتبط بالعمران والتاريخ وبعض الصلحاء ومحن السفر.

أما تمظهر العجائبي عند ابن بطوطة فهو متنوع في العمران والعادات والسلوك، يتراوح في تلويناته بين الوهمي والمحتمل لأحداث عاشها أو سمع بها، يرويها شاهدا وفاعلا ووسيطا لإبراز عنصر الكرامة والولاية، وفي هذا السياق يدرج ابن بطوطة رؤيته لما يورده، وهو يسوغ العجائبي للقارئ كما سوغته ظروفه ومعطياته لنفسه: «وسنذكر من أخباره من عجائب لم يسمع بمثلها عما تقدمه. وأنا أشهد بالله وملائكته ورسوله أن جميع ما أنقله عنه من الكرم الخارق للعادة حق يقين بالله شهيدا، وأعلم أن بعض ماثره من ذلك لا يسوغ في عقل كثير من الناس، ويعلمونه من قبيل المستحيل عادة، ولكنه شيء عاينته وعرفت صحته وأخذت بحظ واغفر منه، لا يسعني إلا قول الحق فيه» (ص453).

ويتجدد العجائبي عند ابن فضلان ويتبار في الآخر والعادات،

خصوصاً، في رصده للامألوف من خلال بعض سلوكيات وتقاليده الآخر مر كزا على الجنس والامتساخات.

أما ابن أبي محلي فصورة الرحالة بداخله ظلت، بدورها، أسيرة الفقيه الذي يؤمن أن له كرامة بتجلياتها، لهذا فهو يلتفت للعجائبي، الذي في ذاته، خصوصاً، التحول، المسيح والاختفاء. أبو حامد الغرناطي وهو مؤسس مدرسة للعجائب⁽⁶²⁾، يتمثل العجائبي، في العمران والإنسان والحيوان والطبيعة، معتمداً التنوع عبر التضخيم والمسخ والتحول والقدرات الخارقة.

مرجعيات الغرناطي في هذا الاتجاه دينية وتاريخية، من تم جاء متنوعاً بين الاجتماعي والديني والفني والتاريخي، إذ يتم التأكيد على المسوخ والخوارق والغيبات باعتبارها أشياء وأفعال ملهشة ومحيبة، وذلك لتأثر الراوي بالتواريخ والغيب، فكان العجائبي في نصه مُشاهداً وآخر مستدعي من مؤلفات متنوعة.

ولا يختلف أفوقاي في نصه "ناصر الدين على القوم الكافرين" كثيراً عن ابن أبي محلي، فهو بدوره يؤمن بالعجائبي الديني المرتبط بالفني المتعلق من ذاته المولدة للكرامة، باعتبار ما يفعله خارقاً مدعوماً من الغيب من خلال منوالاته للأمراض المستعصية بدون أدوية، وإيجاده للضائع من الأشياء والأجوية.

إن التخييل عند أفوقاي، وضمنه العجائبي، له صبغة دينية، يبنى حكاياته في شكل قصص ملغزة تتطلب بطلاً وعقدة وحلاً⁽⁶³⁾ يدخل فيها فوق الطبيعي والتاريخي والخارق.

وفي بناء مغاير للمعجيب، يستبعد النابلسي في نصه الرحلي كل عجيبة عن ذاته، ويكتفي بسرد عجائب رأها أو استدعتها مشاهداته، فهو وحالة يقدس الأمكنة بآثارها أو قرائن منها، وأيضا الأولياء من المعجزيين والمشايخ وكراماتهم التي مثلت المعجائبي المقترن بعناصر من قبيل السحر، الاختفاء، الامتساخ، الغيب وتدخلاته وتكليم الحيوان والجماد.

حضور المعجائبي في النص الرحلي العربي ليس حضورا استثنائيا، وإنما هو عنصر عضوي في النسيج السردي، فهو في الرحلة جزء من العتخيل الرحلي، خصوصا، في تعميقه للارتباط بين الديني والاجتماعي، وجنوحه إلى المبالغة والحلمي والاستيهامي بقصد تجليد الكرامة ضمن صورة الأنا والآخر.

وقد تعددت صيغ تقديم هذه العجائب بشكل يوازي غناها وإن كان الراوي هو المسحور والرؤية التي نرى أو نتقل، ذلك أن المعجائبي يرد من طرف الراوي بصفته مشاركا فاعلا أو وسيطا، وفاعلا أو بصفته شاهدا مستمعا.

إحالات

- 1- ابن منظور، ج 11، ص 69-70.
- 2- جاك لاكوف في : *L'étrange et le merveilleux dans l'islam Médieval* (colloque), éd jeune Afrique, 1978, P 62.
- 3- زكريا القزويني (ق7هـ) : *عجائب المسغلوقات وغرائب*

- الموجودات. مصر، مكتبة الباي الحلبي وأولاده، ط5، 1980، ص5.
- 4- الجرجاني : كتاب التعريفات. بيروت، مكتبة لبنان، 1978، ص152.
- 5- حمادي المسعودي : العجيب في التصوُّص الدينية [مقال] مجلة العرب والفكر العالمي، بيروت، العدد 13-14 ربيع 1991 ص88.
- 6- حسيني زينة : جغرافية الوهم. لندن، رياض الريس، ط1، 1989، ص197.
- 7- حمادي المسعودي، ص87.
- 8- نفس المرجع، ص82.
- 9- L'Étrange et le Merveilleux, (Colloque) Idem, P142 -
 شأن لوي فاكنس الذي يبي تصويره للمجائبي على التفسير وأنماطه،
 - Louis Pax : La adécotion de l'étrange ; Paris, ed P.U.P. : انظر .
 quardiga, 2ème ed, 1987.
- 10 - Colloque l'étrange et le merveilleux, P134 -
 - T.Todorov : Introduction à la littérature fantastique, - 11
 ed Seuil (Poésie) 1970 (chap3).
- 12 - L'Étrange et le merveilleux, Idem, P 6, 23, 24 -
 13 - ذكرى القزويني، مرجع سابق، ص9.
- 14 - T.Todorov, Idem, P 47, 61 (chap 3) -
 15 - T.Todorov, Introduction, Idem, P 65 -
 16 - Ibidem, P 52 -
 17 - Ibidem, P 53 -
 18 - L'Étrange et le Merveilleux dans l'Islam Médiéval, Idem, P 138 -
 19 - Hervé Richard : Interprétation archéologique de récits de voyage en tourmine, P241 (in Raymond chevalier (édité par) influence de la Grèce et de Rome sur l'occident Moderne, (Actes de colloque 1975) Paris E.N.S, Touss, ed les Belles Lettres 1977.
- 20 - T.Todorov, Idem, P : 60, 61, 62 -
 21 - L'Étrange et le Merveilleux, Idem, P 71 -

- Ibidem, P 73 -22
- Ibidem, Lakoff, P 97, 98 -23
- Ibidem, T Fahd, P 141 -24
- Ibidem, T.Fahd, P 149 -25
- 26 زكريا القزويني، ص38.
- Paul Zumthor . Essai de Poétique Médiévale, Seuil, Paris -27
1972
- 28 نفس المرجع ص 137 ، انظر أيضا لأكوف ص 74 .
- L'étrange et le Merveilleux, Idem, P : 92, 93, 94 -29
- 30 ابن بطوطة ، التحفة ، ص 32 من التقديم .
- 31 ابن جبير : ص140 .
- 32 عبد الغني النابلسي : ص78 .
- L'étrange et le Merveilleux, Idem, P 150 -33
- Louis Paz La séduction de l'étrange, ed P.U.F, 1987, P8. -34
- Ibidem, P 103 -35
- L'étrange et le Merveilleux, P 117 -36
- Idem, P142 -37
- L'étrange et le Merveilleux (W - Yeichi), P 146 -38
- 39 الفرناطي ، ص 139 .
- 40 الشيخ النابلسي ، ص 196-197 .
- 41 الشيخ النابلسي ، ص 175 .
- 42 ابن بطوطة ، ص 51 .
- 43 ابن بطوطة ، ص 395 ، وأيضاً ص432 .
- 44 يرد عند ابن بطوطة أن أبا الأولياء عمره 350 سنة (ص397) ، كما أن القطب حيدر الفرناطي عمره ينيف عن مائة وخمسين سنة ، بصوم الدهر ويكثر الاعتكاف وربما أقام في خلوته أربعين يوماً يقتات فيها أربعين تمرّة (ص551) ، وفي موقع آخر يذكر الرجل الذي أناف عن مائتي سنة لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يناشر النساء مع قوته الثامنة (ص647) .
- 45 يورد ابن بطوطة قصة السلطان منسي الذي قدمت عنده جماعة من

- السودان أعطاهم خادمة لتخدمهم فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجروههم
بعيها (ص706).
- 46- أبو دلف : الرسالة الثانية . القاهرة ، عالم النشر ، 1970 ،
ص37 ، نشر وتحقيق بطرس بولغا كوف ، أنس غالدوف ، ترجمة
وتعليق محمد منير موسى .
- 47- ابن بطوطة ، صفحات : 314-324-329 .
- 48- ابن جبير ، ص 134 .
- 49- أبو حامد الغرناطي ، ص 73 .
- 50- ابن بطوطة ، ص 309 .
- 51- أبو حامد الغرناطي ، ص 43 .
- 52- الشيخ النابلسي ، ص 201 .
- 53- ابن بطوطة ، ص 536-537 .
- 54- ابن أبي محلي ، ص 106 .
- 55- ابن بطوطة ، ص 393 .
- 56- ابن بطوطة ، ص 53 .
- 57- أبو حامد الغرناطي ، ص 131 ، 132 .
- 58- ابن بطوطة ، ص 99 ، ويورد أيضا حكاية الرجل الذي دخل النار
والعصى ، ص 647-648 .
- 59- الشيخ عبد الغني النابلسي ، ص 100 .
- 60- أبو حامد الغرناطي ، ص 58 ، 59 .
- 61- أبو حامد الغرناطي ، ص 65 .
- انظر أيضا حكاية ابن بطوطة عن حسن المغربي المجنون وطيراته من
مكة الى أسفي ، والعقاب الذي طاله لما لقى السر المريب (ص171-
172) ؛ ويقابلها أيضا ما يورده الشيخ النابلسي في رحلته عن الشيخ
عمر صاحب الكرامات ، وطيراته ثم رجوعه ، (ص202) .
- 62- الغرناطي ، من تقديم المحقق ، ص 14 .
- 63- انظر أفوقاي ، م ص : حكاية هدم الصومعة القديمة بفرناطة ، ووجود
الصندوق وما فيه من أشياء ملفزة تتطلب تفسيراً .. (ص23-24)
لكن ، من أجل ما يورد عند أفوقاي حكاية المرأة الفاسدة والتي تحولت
لتصبح قباة Pope (ص60-61) .

١- شكلت النصوص الرحلية في الأدب العربي مسارا مزدوجا داخل النسق الثقافي العام، حيث حضرت نصا مكتوبا يروي وقائع وسير منقولة عن تجربة فعلية أو متخيلة، وقرعت إلى أنواع ظلت مفتوحة على الامتصاص من باقي الأشكال الأدبية والاجتماعية، مما أكسبها ذلك التمدد الذي هيمنت عليه الرحلات الحجاجية والسفارية والأدبية، والتي تلتقي في علامات مشتركة وخصائص جامعة لها .

المسار الآخر هو حضور الرحلة باعتبارها عنصرا محركا في الأشكال السردية، وبعض الأشكال الأخرى الاجتماعية، وهي أداة لخلق الفعل والحدث، ولإثراء للبعد الخيالي والتشويقي . . .
وقد خضع النص الرحلي، من هذا المنظور لتحويلات تابعة

للنسق الشقائي الذي كانت تتلعب بداخله وتتفاعل مع أشكاله
 القريبة والبعيدة، ذلك أن نظرنا لهذه النصوص متغيرة، نقرأها
 بعيون مختلفة⁽¹⁾ ونعيد تقسيم وتأويل الدلالات والمفاهيم
 المتحركة في نبيات، لأن النصوص الرحلية التي لم يُكرّر فيها
 في النقد القديم، عادت إلى واجهة النقد الحديث والتحليل من
 منظورات مختلفة وبأسئلة تريد فهم كل هذا التراث المتغلغل في
 صق الأدب وعلى امتداده، وهو ما شفع لأحد الباحثين أن يتساءل
 عن الشيء الذي ليس برحلة؟⁽²⁾ فهي نص ممتد في كل الكتابات
 وفي الشفوي أيضاً، تحضر من أجل وظيفة ودلالة، وتؤسس
 لرؤية ترتبط بالذات والتاريخ، إذ هي من الأشكال والأساليب
 الأولى المصاحبة للتعبير الإنساني منذ أقدم العصور؛ وكان الرحلة
 هي نقطة الالتقاء بين الواقعي والحلمي، الثقافي والرؤيوي، وهي
 مثل كل كتابة تنحو دائماً نحو تحويل العابر إلى ضروري، وتغيير
 القلبي إلى شيء مكشوف⁽³⁾، بحيث تحتضن ما هو مألوف
 ومنسي، عادي ومفاجئ، وكل ذلك ينطلق من ذات الرحالة الذي
 -وهو يحول مشاهداته عبر قناة المخيلة المستتدة إلى التذكر،
 بالإضافة والتعديلات- يتحول، بدوره، من فاعل ومحرك إلى
 شخصية وراوي حكاء يصوغ ويعرض لأفعاله وردود الأفعال
 واكتشافاته المصحوبة باللملة والإمتاع، مما يتيح لهذا العرض
 الاستعانة بالتقييمات والانطباعات وبناء المقارنات.
 إن النص الرحلي بمساراته الأنواعية وتعدد خطباته وفق

نمطية السفر والحس الواقعي والتجربة والأوصاف الخاصة
بالأمكنة والوقائع يجعل منه تعبيراً أصيقاً بالإنسان، ومتجذراً في
التاريخ، وفي الثقافة الشفوية التي تنمو بين أحضان العامة
والخاصة، ووسط تعبيرات سائدة ومهيمنة: الحكايات الشعبية،
السير، التراجم، أدب المناقب، أدب القيامة، والمسالك
والتاريخ والجغرافية الوصفية... تكسب باعتبارها تجارب
شخصية في إطار جمعي - قدرة الشفوي وانصهاره، ثم التحويل
وآلياته إلى المكتوب.

وقد خضع انبناء النص الرحلي لمسيرة طويلة من أجل
التشكل والتجنس، وتحولت الرحلة من فعل إلى نص وإبداع
يستقطب تعدداً وتنوعاً ب مكونات وخصوصيات تكررت بحسب
النوع ودرجات الاهتمام والوعي بالكتابة، والرحلة العربية وهي
فعل ومتخيل قلبيهم ارتبط بالإنسان وأحلامه، وبمجازاته في
سبيل البحث عن الذات، وعن مرآة للاكتشاف والتعلم والارتقاء
نحو مطاردة الرحلة المفتقدة⁽⁴⁾، والحفر عن المعرفة المادية
والروحية.

إن كل رحلة هي بحث صريح عن يقين معين، لذلك فقد
شكل الدين في الرحلة - كما في كل الأدب العربي - مهيمناً قوياً،
وأساساً استراتيجياً يحرك خلفيات الرحلة، غافياً في خطابها، إذ
فمن الدين يقبض الرحالة على حلم العالم الكوني⁽⁵⁾، وتصبح
المرجعية الدينية حافزاً قوياً يطر المرجعيات الأخرى، ويسوغها

أحيانا (الرحلات السفارية) ؛ مرجعيات فرضها قانون الجنس فضلا عن فنية الصوغ للتجارب والخبرات الإنسانية وكيفيات تقديمها داخل بنيات لغوية منهما بيتان أساسيتان⁽⁶⁾ : بنية التقرير ، حيث اللغة وظيفية ورسم سريع للصورة واختصار كمي للملفوظ . ثم بنية المذكرات ؛ وما يتفرع من بينات غيرهما ضمن أبعاد تقاطع الأشكال والتعبيرات ووجودها في النص الأدبي بأنواعه ، وفي النص التاريخي والهاجيوغرافي - المناقبي . فتوسع هذه الأشكال وانفتاحها هو ما سمح للرحلة بقدرتها على التحول والحضور باعتبارها شكلا أو عنصرا في حقول أخرى .

2- من أهم الاستنتاجات التي توصلنا إليها في هذا المؤلف ، فضلا عما سبق ، أن التراث العربي يحفل بتصوص رحلية ثرية وتأسيسية ، راكمت إرثا متنوعا استطاع أن يجنسها ويميزها ، فجاءت بعض النصوص تحمل سمات عالية من الخطاب والمضحكي ، وأخرى جافة وتفسيرية أو تكرارية تندرج ، كلها ، ضمن المتخيل العربي ، الأدبي والفني . والملفت للنظر أن الرحلة في الأدب العربي قد أهملت نقديا شأن الحكايات الشعبية ، وألصقت بها صفة المعجالي حتى اعتبرت نوعا من الإختلاق والمشاهدات .

وقد هيمنت الرحلات الدينية ، إلى الحجاز وبيت المقدس ، أو إلى مزارات أخرى مرتبطة بما هو ديني ، باعتبار أن الدين كان أداة فاعلة في التظيم والمقارنة ، خصوصا بين صورتَي الذات والغير .

ورغم الالتباس الذي يقع من خلال تجنيس الرحلات وتحديد انتسابها إلى التاريخ، أو الجغرافيا، أو إلى الأدب، فإن تاريخ الرحلة العربية المكتوبة، يميل إلى الأدبي، بصفته حكيما يروي عن الذات في سفرها، والذي يقترب مما هو شخصي، سيرى ويؤثر في وتراجعي، اعتمادا على تنوعات وصفية بأسلوب المؤرخ الهاوي والجغرافي والأتوغرافي.

وتصبح الرحلة نصا وعلامة لعدة تقاطعات، وشكلا دائريا مفتوحا، للوصف فيه قدرة على مزج الوعي التاريخي، بالجغرافي وبالخيالي-الإنسيهامي من داخل دائرة الذات، والغير، والعمران ... للوقوف عند رصيد القيم وأشكالها.

وتفتح الرحلة كذلك على سردية خطية-تقليدية ذات سمات كلاسيكية مرتبطة بالموروث الحكائي، حيث سلطة المتكلم، راويا وشخصية بؤرية، لأن قيم التلويث والتمثل تبرز عبر وعي الكتابة الرحلية في البناء المقدماتي والخاتمة، ثم السرود الوصفية والتأملات والتعليقات والمقارنة والتشخيصات المتنوعة والحوارات وأنساب التقديم اللاتني والفيوري سردا ووصفا، والمبدأ الواقعي والسجلات والمرجع وبنيات التذكر والتقرير والأبعاد المعجائية والحلمية وغيرها من التنوعات التي تستحضر المكونات تبعا للحضور التيماتي واستدعاءاته لمهيمانات دون أخرى.

وتشكل نصية الرحلة من هذه العناصر فيصبح المبدأ الواقعي

جزءاً منصهرها داخل بناء نصي تحضر فيه تشكيلات المجازي والعلمي لصياغة عالم متخيل من هيكل واقع ونسائج واقع ثان محلول به أو مفتقد، وهو منحى يتعلق على الرحلات «الفعالية-الحقيقية» أو الرحلات الخيالية القرية من الايطوسيا وأدب القيامة-الأخروي.

كما ساهم النص الرحلي في إفادة مباحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية والسياسية، لأنه خلق تراكما اتضحت منه بعض معالم ثلاثة أشكال كبرى والمؤطرة لعدد كبير من الأنواع ذات البنيات المشتركة والخصوصيات المميزة وأيضاً الخطاب والمتخيل، وعنصر التحول والتحويل، وآثار المتخيل والواقعي والشفوي والمكتوب، بالإضافة إلى الرحلة شكلاً وعنصراً، الأمر الذي جعل النص الرحلي في الأدب العربي يملك أسئلة ويلورها ضمن السؤال الجوهرى العام للثقافة، حيث البحث عن هوية مشتركة أو متفردة، ومعرفة ذاتية في الذات والآخر والمعطيات الثابتة والمتغيرة

3- إن الأفكار التي سعى هذا الكتاب إلى تجليتها مستظل مشرعة على أسئلة أخرى وعلى مقارنة نصوص رحلية إضافية، ذلك أن خصوصيات الرحلة وتنوعها دافع رئيسي للمزيد من البحث. فقد تم الوقوف عند أهم الأسئلة المطروحة في كل ثنائيا الفصول، في ما يخص إبراز هذه الخصوصية، سواء على مستوى البنيات والمكونات النصية أو الخطاب ومقرله، وتجنس الرحلة

وأنواعها التي تم حصرها في رحلات متخيلة وأخرى فعلية، والأنواع الثلاثة المترتبة، والأليات التي تشتغل بها في إطار أن هذه الأنواع تنفتح على أشكال تعبيرية متعددة، وتمتص من صياغات أسلوبية غير موحدة، لذلك فإن إطار التلفظ والمفوظ والمتلقي وبناءات أخرى مثل الوصف والصورة والمكان، قد أغضى إلى درجة تالية من التحليل تتعلق بخطاب المتخيل الذي يولد من رحم الواقعي إذ يعمل الحلم والمجاني على تخيله وتصنيف الأحلام والعجائب وورودهما، بعد تشكيلها في صياغات متنوعة.

وقد جاء كل هذا تأسيسا على تحليل نصوص رحلية مختلفة، فمن السفارية إلى الحجية والزيارية والأدبية، بقصد الوقوف على عمومية الخصوصية، وخصوصية الأنواع.

وفي هذا السياق، كان نص «تحفة النظار في عجائب الأمصار» وغرائب الأسفار لابن بطوطة حاضرا منذ البداية للإحتمار والإستنتاج لتمييزه، ثم لكونه في المتناول باعتباره نصا يحتوي على مادة خصبة للتحليل، حيث إنه نص يكتب بعد قراءة ثلاثة عقود من الزمن الفعلي الإرتعالي، ويحيي ذلك الغنى مستجيبا لنسج جمالي يحتوي على تماسك فني يتجلى في كون حلم واحد يتحكم في كل بنيات النص بما فيها جسور المجاني والواقعي.

إن هذه المزوجة بين التحليل واستخلاص النتائج، بناء على الخلفية النظرية والأسئلة المطروحة قاد إلى استيلاد أسئلة موازية أخرى أشد إغراما وأبعد مجازفة، نطلق من احتبار النص الرحلي

شكلا مفتوحا تصهر بداخله عدة أشكال يتفاوت حضورها ودرجات هيمنتها بحسب النوع الرحلي وطبيعة الانتساب الثقافي للرحلة .

ورغم ذلك ، فإن هذا السؤال مرتبط باستفهام آخر حول لماذا تلاحظ جنس الرحلة مثل غيره من الأشكال السردية التراثية ؟ هل لأن الأشكال التي كانت الرحلة تستلهمها وتستدعيها قد تلاشت وتقهقرت مع ظهور جنس فني وأدبي سيمتص الرحلة ، بدورها ، لتصبح جزءا من مكوناته ، وهو جنس الرواية ؟ ذلك أن الفترة ما بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين وُسمت بخدشين خاصين بالرحلة ، الأول هو تحويل اتجاه أغلب الرحلات نحو المغرب والبلدان الأجنبية وظهور رحلات المشاقفة بشكل كبير ، كانت في ظاهرها تماهى مع الشكل الرحلي القديم ، وفي طموحها تحاكي شكل الروايات المترجمة أو الأساليب الصحفية التي شاعت مع ظهور الصحافة في بلاد الشام ومصر ثم المغرب العربي .

المحدث الثاني هو المحاولات السردية الأولى في العقود الستة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والتي سعت إلى كتابة رحلات «روائية» على غرار ما كُتب من مقامات ، لكن هذه الكتابات «أخفقت» فلم تستمر لأن التحولات العامة في الوضع العربي ، ثقافيا وسياسيا واجتماعيا أصبحت في حاجة إلى شكل أدبي أشد مرونة وأكثر انفتاحا على المتخيل والواقعي .

وإذا كانت الرواية جنسا أدبيا مفتوحا كما أكدت ذلك كل

التنظيرات التي قارنتها منذ هيجل ولوكاتش إلى باختين وكريزنسكي وغيرهم ، فإن استثمارها لعنصر الرحلة بداخلها مازال قائما ، وفي حاجة إلى قراءة ضمن المكونات الأخرى ، وضمن تشكل وتطور الرحلة في أدبنا العربي .

إحالات

- T.Todorov : Les Morales de l'histoire, ed Grasset, 1991, P- [104,

- T.Todorov, Idem, P 95 -2

- D.H Pagaux, Idem, P 36 -3

- Norman Doiron : L'art de voyager, in Poétique, N°73 fev -4 1988, ed Seuil, P 89,

- Ibidem, P 89 -5

-6 انظر : عبد الرحيم مردن : أدبية الرحلة , الغار البيضاء دار الثقافة ، ط1 ، 1996 ، ص 57.

قائمة بأسماء المراجع والمصادر

1-1- باللغة العربية ،

- إبراهيم ، عبد الله ' السردية العربية ، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي . بيروت ، الدار البيضاء ، المركز الثقافي العربي ، ط 1 ، 1992 .

- إنخال ، ليون : فن السيرة الأدبية . بيروت ، دار العودة ، 1988 [ترجمة صدقي خطاب] .

- ابن خلدون ، بيروت ، دار البيان (د.ت) .

- ابن سيرين ' منتخب الكلام في تفسير الأحلام (بهاشم الجزء الأول من كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي : تعطير الأنام في تعبير المنام) بيروت ، دار الكتب العلمي ، (د.ت) .

- ابن شاهين الظاهري : الإشارات في علم العبارات (بهاشم الجزء الثاني من كتاب الشيخ عبد الغني النابلسي : تعطير الأنام في تعبير المنام) بيروت ، دار الكتب العلمية (د.ت) .

- ابن عبد ربه : العقد الفريد . بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1983 .

- ابن منبه ، وهب : كتاب التيجان (سلسلة ذخائر العرب 10) أكتوبر 1996 ، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر . ط 3 (وضمنه أيضا أخبار عبيد بن شربة الجرهمي في أخبار اليمن) .

- أبو بكر، أسماء محمد : ابن بطوطة، الرجل والرحلة، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992.
- أبو عبيدة، معمر بن مني : كتاب أيام العرب قبل الإسلام. عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط1، 1987 [جمع وتحقيق ودراسة : عادل البياتي].
- أبوليوس، لوكيوس : تحولات الجحش الذهبي، طرابلس ليبيا، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان، ط2، 1984 [ترجمة : علي فهمي غنيم].
- أحمد محمود، عبد الحميد : الهجرات العربية القديمة. دمشق. دار طلاس، ط1، 1988.
- أولمان، ستيغان : الصورة في الرواية، طنجة، منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، 1995 [ترجمة وضوان العيلادي ومحمد مشبال].
- أولمان، ستيغان : دور الكلمة في اللغة، القاهرة، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، ط12، 1997 [ترجمة وتقديم وتعليق، كمال بشر].
- باختين، ميخائيل : شعرية دوستوفسكي، الدار البيضاء، دار توفيق، ط1، 1986.
- البعدادي، الخطيب : تاريخ بغداد (4 مج). المدينة المنورة، المكتبة السلفية (د.ت).
- البعدادي، الخطيب : الرحلة في طلب الحديث. بيروت، دار الكتب العلمية. [تحقيق نور الدين عتتر].
- البلاغري : فتوح البلدان. بيروت، دار الكتب العلمية 1978 [راجعته وضوان محمد وضوان].
- بوريلي، الكسندر : أسرار النوم، الكويت، سلسلة عالم المعرفة، عدد 163، يوليو 1992. [ترجمة عبد العزيز سلامة].

- ترحيني ، محمد أحمد : المؤرخون والتأريخ عند العرب : بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط 1 ، 1991 .
- التوحيدى ، أبو حيان : كتاب الإمتاع والمؤانسة (المجموعة الكاملة) : بيروت ، دار مكتبة الحياة ، (د.ت) [صححه وضبطه وشرحه غريبه : أحمد أمين وأحمد الزين] .
- تودوروف ، تزفتان : الشعرية ، الدار البيضاء ، دار توبقال : ط 2 ، 1990 . [ترجمة شكري المبخوت ورجاء بن سلامة] .
- جاد المولى ، محمد أحمد وآخرون : أيام العرب في الجاهلية . بيروت ، دار إحياء التراث العربي . (د.ت) .
- الجزار ، محمد فكري : العنوان وسميوطيقا الاتصال الأدبي ، القاهرة ، سلسلة دراسات أدبية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1998 .
- الحسين ، أحمد : أدب الكندي في العصر العباسي ، سوريا ، دار الحوار ، ط 1 ، 1986 .
- خصباك ، شاكز : في الجغرافية العربية ، بيروت . دار الحديث ، ط 1 ، 1988 .
- دوجلاس ، سدوى مسالطي : بناء النص التراثي ، دراسات في الأدب والتراجم . القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة دراسات أدبية . 1985 .
- ديرلأين ، فريد ريش فون : الحكاية والخرافة . بيروت ، دار القلم ، ط 1 ، 1973 . [ترجمة نبيلة إبراهيم ، مراجعة عمر النين اسماعيل] .
- الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . (4 أجزاء) ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ط 1 ، 1988 . [حققه وضبطه ، بشار عواد معروف الشيخ شعيب الارنؤوط ، صالح مهدي عباس] . *
- رومية ، وهب : الرحلة في القصيدة الجاهلية . بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ط 3 ، 1982 .

- الزركشي، بدر الدين : الغرر السوافر عما يحتاج إليه المسافرين . الأردن، نشر المكتب الإسلامي، دار عمار، ط1، 1989.
- زكي أحمد كمال : الأساطير : دراسة حضارية مقارنة . بيروت، دار العودة، ط2، 1979.
- زهران، محمود : قصص من القرآن، مصر، دار الكتاب العربي، ط1، 1956.
- زيانة، نيقولا : الجغرافية والرحلات عند العرب، بيروت، الشركة العلمية للكتاب، 1987.
- زينة، حسني : جغرافيا الرقيم . لندن، رياض الريس، ط1، 1989.
- سركيس، إحسان : الأدب القديمة وعلاقتها بتطور المجتمعات، بيروت، دار الطليعة، ط1، 1988.
- السحافين، إبراهيم : أصول المقامات . بيروت، دار المناعل، ط1، 1987.
- سعد الله، أبو القاسم : تجارب في الأدب والرحلة . الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983.
- السكاكي، أبو يعقوب : مفتاح العلوم . بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1983 (ضبطه وشرحه نعيم زرزور).
- السمعاني، أبو منصور : الأنساب (5 أجزاء)، بيروت، دار الخيران، ط1، 1988 [تقديم وتعليق : عبد الله عمر البارودي].
- السهرودي، شهاب الدين : حوارات المعارف، مصر، دار الكتب الحديثة، 1971 (ج1) [تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف].
- السواح، فراس : كنوز الأعماق، قراءة في ملحمة جلجامش . دمشق، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1987.
- الشحات، أحمد محمد : الملامح السياسية في حكايات ألف ليلة وليلة . بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ط2، 1986.

- الشرباصي، أحمد : من أدب القرآن، مصر، دار المعارف، ط2، (د.ت).
- الشكعة، مصطفى : مناهج التأليف عند العلماء العرب، بيروت، دار العلم للملايين، ط3، 1979.
- الشبخاني، يوسف : أصحاب الكلية الساسانيون، دمشق، دار البصائر، ط1، 1984.
- سايبارد، نازك : الرحالة العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة، بيروت، مؤسسة نوفل، ط1، 1979.
- الطبري، أبو جعفر : تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، القاهرة، دار المعارف، ط4. (د.ت) سلسلة ذخائر العرب، 30، [تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم].
- ضيف، شوقي : الرحلات، القاهرة، مصر. دار المعارف (د.ت).
- شوقي ضيف : الفن وملعبه في الشعر العربي، القاهرة، دار المعارف بمصر، سلسلة مكتبة التراثات الأدبية.
- عبد الحميد، علي عبد المنعم : النموذج الإنساني في أدب المقامة، بيروت، مكتبة لبنان، لونجمان، ط1، 1994.
- عبد الدايم، يحيى إبراهيم : الترجمة اللغوية في الأدب العربي الحديث. بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1978.
- عبد ربه، عبد الحافظ : بحوث في قصص القرآن. بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1972.
- عساف، الشيخ أحمد : قصص من التنزيل، بيروت، دار لبنان للطباعة والنشر، ط1، 1981.
- الصفا، ابن حجر : إنباء الغمر بأبناء العمر في التاريخ. بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 1986 [نعت مراقبة محمد عبد المفيد خان].
- عصفور، جابر : الصورة الفنية في التراث الفصيح والبلاغي عند العرب، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط3، 1992.

- العطار، فريد الدين : منطق الطير . بيروت، دار الأندلس، 1996 [دراسة وترجمة، يفتح محمد جمعة].
- العطار سلمان : الخيال عند ابن عربي (المنظرة والمجالات) القاهرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1991 .
- عطوان، حسين : مقدمة القصيدة العربية في العصر المباسي الثاني، بيروت، دار الجيل، ط1، 1982 .
- عوسس محمد : العنوان في الأدب العربي : النشأة والتطور، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية . ط1، 1988 .
- الغزالي، أبو حامد : [حياء العلوم .
- فاوئر، روجر : اللسانيات والرواية، الدار البيضاء، دار الثقافة ط1، 1997 [ترجمة لحسن أحمامة].
- فرجيل الاتيادة، بيروت، دار العلم للملايين، ط3، 1980 [ترجمة هنيرة سلام الخالدي].
- فهم، حسين محمد : أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، عدد 138، الكويت يونيو 1989 .
- القاشاني، كمال الدين (ق 8هـ) : اصطلاحات الصوفية، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1981 .
- قباني، ونا : أساطير أوروبا عن الشرق . سوريا، دار طلاس، ط1، 1988 [ترجمة صباح قباني].
- القزويني، زكريا : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات . مصر، مكتبة بابي الحلبي وأولاده، ط5، 1980 .
- كراتشوفسكي، أغناطيوس : تاريخ الأدب الجغرافي العربي، بيروت دار الغرب الإسلامي، ط2، 1987 [نقله إلى العربية عن الروسية : صلاح الدين عثمان هاشم].
- كليطو، عبد الفتاح : المقامات، السرد والأنساق الثقافية . الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط1، 1983 [ترجمة عبد الكبير الشرفاوي].

- كليطو، عبد الفتاح : الحكاية والتأويل، دراسات في السرد العربي. الدار البيضاء، دار توبقال للنشر، ط1، 1988.
- الكتّاب، ابن وهب : البرهان في وصف البلدان. القاهرة، مكتبة الشباب، 1969 [تقديم وتحقيق حنفي محمد شرف].
- المبخوت، شكري : سيرة الفاتح، سيرة الأتقي. تونس، دار الجيوب للنشر، 1992.
- المحاسبي، الحارث : كتاب التوهم. حلب، دار الوحي، (د.ت).
- محمددين، محمد محمود (تصنيف) : التراث الجغرافي الإسلامي. الرياض، السعودية، دار العلوم للطباعة والنشر. ط2، 1984.
- المسمودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر (4 أجزاء)، بيروت، دار الأندلس، ط6، 1984 [تحقيق يوسف أسعد داغر].
- المقدمي، أنيس : تطور الأساليب الثرية في الأدب العربي بيروت : دار العلم للملايين، ط8، 1989.
- المقرئ، أحمد بن محمد : نفع الطبيب في غصن الأندلس للطبيب. بيروت، دار الفكر، ط1، 1986 [تحقيق يوسف الشيخ البقاعي].
- المقرئ (زكريا) (ت 845هـ) : كتاب المواعظ والإخبات يذكر الخطط والآثار (الخطط المقرئية). القاهرة، مؤسسة الثقافة الدينية. (د.ت).
- الملاح، عبد الغني : رحلة في ألف ليلة وليلة. بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1981.
- مودن، عبد الرحيم : أحياء الرحلة، الدار البيضاء، دار الثقافة، ط1، 1996.
- مورو، فرانسوا : البلاغة، مدخل للدراسة الصور اليلانية، الدار البيضاء، منشورات المحوار الأكاديمي، ط1 1989 [ترجمة : محمد الولي وحرير عائشة].
- مؤنس، حسين : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، مدريد، إسبانيا، المنظمة العربية للثقافة والعلوم، ط2-1986.

- النابلسي، عبد الغني : تعطير الأنام في تعبير الحنام (في مجلدين) بيروت، دار الكتب العلمية، (د.ت).
- الساج، سيد حامد : رحلة التراث العربي، القاهرة، دائرة المعارف، ط5، 1994.
- نصار، حسين : أدب الرحلة، بيروت، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، ط1، 1991.
- نصر، عاطف عودة : الخيال، مفهوماته ووظائفه. مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984.
- هاملتون، إديث : المينولوجيا. دمشق، منشورات إتحاد كتاب العرب، ط1، 1990. [ترجمة حنا حور].
- الهمناتي، بديع الزمان : شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط2. (د.ت) [محمد محي الدين عبد الحميد].
- هورفيتش، يوسف : المغنازي الأولى ومؤلفوها. القاهرة، مكتبة مصطفى الحلبي، 1949. [ترجمة حسين نصار].
- هومبروس : الأوديسة. بيروت، دار العلم للملايين ط3، 1977 [ترجمة : خيرة سلام الخالدي].
- هومبروس : الإلياذة. القاهرة، دار الفكر العربي. ط2، 1981 [ترجمة أمين سلامة].
- إليازجي، كمال : الأساليب الأدبية في النثر العربي القديم. لبنان، دار الجيل، ط1، 1986.

2-1- مراجع باللغة الأجنبية :

- Bakhtine, Mikhaïl : Esthétique de la création verbale, Paris, Gallimard, 1984.
- Benac, Henri : Guide des idées littéraires, France, ed Hachette, 1988.
- Boileau, Laurent Daron : Produire le fictif, France, ed Klincksieck, 1982.
- Dolron Normand : l'art de voyager. Le déplacement à l'âge classique, quebec. Les presses de l'université Laval. Paris Klincksieck 1995.

- Farcy, Gérard-Denis : Logique de la critique, Paris, ed. P.U.F. 1991.
- Fax, Louis : La séduction de l'étrange, Paris, ed. P.U.F. (quadrige) 2^{ed}, 1987.
- Peullier, Jack : Introduction à l'analyse morpho-syntaxique, Paris, ed. P.U.F., 1988.
- Genette, Gérard : Seuil, ed Seuil 1987
- Grivel, Charles : Production de l'inscrut Romanesque, ed Mouton, 1973
- Hoek, Loes, H. : La Marque du titre, ed Mouton, 1982
- Howvel, VanDen : Parole, Moi, silence : Pour une Poétique de l'énonciation, Lib. José Corti 1983.
- Huet, Jean Charles : Littérature Médiévale et Psychanalyse. Pour une clinique littéraire, éd. P.U.F. (écriture) 1990.
- Iser, W. : Actes de lecture ; théorie de l'effet Esthétique, ed. Pierre Marada, 1985.
- Krynski, Wladimir : Carrefours de signes, essai sur le Roman Moderne, lahaye, Mouton éditeur, 1981.
- Lintvelt Jaap : Essai de typologie narrative, le point de vue, théorie et Analyse, Librairie José corti, Paris 1981.
- Lohjono , AbdelJalil : L'image du Maroc dans la Littérature Française, Alger, ed SHED, 1973.
- Mitterand, Henri : Le Discours du Roman, France, ed P.U.F. (Écriture). 2^{ed}, 1986
- Mitterand, Henri : L'illusion réaliste, de Balzac à Aragon, France, ed P.U.F. (écriture), 1994.
- Nkasham, Prus Ngandu : Écriture et discours littéraires (Etudes sur le Roman Africain) ed l'Harmattan, Paris 1989.
- Oréochoni, : L'énonciation de la subjectivité dans le langage. Iib Armand Colin, Paris 1980.
- Pagbaux, Daniel Henri : La littérature Générale et Comparée, Paris. Armand Colin, 1994.
- Pratt, Mary Louise : Impérial eyes, travel writing and transculturation, London, ed Routledge, 1992.
- Quère, Henri : Intermittences de sons, France ed - P.U.F., 1992.
- Sanbilot Claudette : Citation and Modernity Derrida, Joyce, and

- Brecht, Norman. University of Oklahoma, Press 1993.
- Todorov, T. Théorie de la littérature, France ed seuil, 1965.
 - Todorov, T : Introduction à la littérature Fantastique ed seuil (Paris), 1970.
 - Todorov, T - Les morales de l'histoire, Franco, ed Grasset, 1991
 - Vigneux, Georges - Le discours acteur du Monde, ed Orphys, 1988.
 - Zumthor, Paul - Essai de Poétique Médiévale, ed Seuil, Paris 1972.

2- قائمة بأسماء المؤلفات الجماعية

2-1- باللغة العربية ،

- أبحاث في اللسانيات العربية ، الدار البيضاء ، منشورات كلية الآداب والعلوم بنمسيك ، مطبعة النجاح الجديدة، 1965 .
- ابن بطوطة . منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة ، ط 1 ، 1996 .
- أدب الرحلة والتواصل الحضاري . مكناس ، جامعة المولى إسماعيل ، سلسلة الندوات 5 ، 1993 .
- الأدب العربي : تعبيره عن الوحدة والتنوع . بحوث تمهيدية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، جامعة الأمم المتحدة بيروت ، ط 1 مارس 1987 .
- الأدب والواقع : مراكش ، نشر تانسيفت ، ط 1 ، 1992 [ترجمة : عبد الجليل الأزدي ، محمد معتصم] .
- الآداب والأنواع الأدبية ، سوريا ، دار طلاس ، ط 1 ، 1985 [ترجمة طاهر حجار] .
- بحوث سوفيتية جديدة في الأدب العربي . موسكو ، دار رادوغا ، 1986 [ترجمة : محمد الطيار] .
- بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول (المجلد الثالث) ، الرياض ،

تحت إشراف إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1984.

- مجموعة من الباحثين السوفييت . نظرية الأدب، بغداد، منشورات وزارة الثقافة والإعلام (مسلسلة 92)، 1980 [فصل خاص]: ف. ف. كوزنوف : الرواية ملحمة العصر الحديث (ترجمة . نصيف جميل التكريتي).

- دراسات طرائق تحليل السرد الأدبي، الرباط منشورات اتحاد كتاب المغرب، ط 1-1992.

- قضايا التلقي والتأويل، الرباط . منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط.

- اللغة والخطاب الأدبي (اختيار وترجمة : سعيد الغانمي) بيروت، البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1993.

- نصوص الشكلايين الروس : نظرية المنهج الشكلي (ترجمة إبراهيم الخطيب) بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية، ط 1، 1982.

- نظرية التلقي : اشكاليات وتطبيقات. الرباط منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط.

2-2- باللغة الفرنسية :

- Angeot, M. Bessière, J. Fokkema, D : Théorie Générale (colloque), ed P.U.P. Fondamental 1989.

- Bessière, Jean (Reunies par) : L'ordre du descriptif, France, Université de Picardie, P.U.F 1988.

- Chevalier, Raymond. (Edités par) . influence de la Grèce et de Rome sur l'Occident Moderne. (Actes de colloque, déc, 1975). Paris, BNS, Tours, ed, les Belles lettres 1977

- L'École de Paris (En collaboration), Paris, ed Hachette 1981.

- L'Étrange et le Merveilleux dans l'Islam Médiéval (colloque) France, ed Jeune Afrique, 1978.

- Poétique de Récit, ed Seuil 1977

- Position et opposition sur le Roman contemporain, Actes et colloques N°8, Strasbourg, ed Klincksieck 1979

3 - المعاجم والموسوعات

1.3- باللغة العربية ،

- ابن حديد، أبو بكر الحسين : جمهرة اللغة العربية . بيروت، دار المعلم للملايين، ط1، 1987 [تحقيق وتقديم رمزي يعليك].
- ابن منظور : لسان العرب، بيروت، دار صادر (د.ت).
- الأبياري، إبراهيم . (جمع وتصنيف) : الموسوعة الفقهية، مؤسسة سجل العرب (د.ت).
- بزرك، أنبا الطهراني : معجم الدررمة، بيروت، دار الأضواء (د.ت).
- البستاني، بطرس : دائرة المعارف، بيروت، دار المعرفة (د.ت).
- الجرجاني : كتاب الترميمات، بيروت، مكتبة لبنان، 1988 .
- خليفة، حاجي : كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت، دار الفكر 1982 .
- دائرة المعارف الإسلامية، بيروت، دار الفكر (د.ت).
- رضا، الشيخ أحمد : معجم متن اللغة، بيروت، دار مكتبة الحياة، 1958
- العسكري، أبو هلال : الفروق اللغوية، بيروت، دار الكتب العلمية، 1981 (حققه وضبطه حسام الدين القدسي).
- معجم اللغة العربية : معجم ألفاظ القرآن الكريم . القاهرة، دار الشروق. (د.ت).
- الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف الإسلامية . الكويت ط1 . 1983 .
- وهبة، مجدي والمهندس، كامل : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، بيروت، مكتبة لبنان، ط2، 1984 .

3-2- باللغة الفرنسية ،

- Dictionnaire Quillet, de la langue Française, Paris France, ed Quillet 1975
- Dictionnaire des littératures de la langue Française, Paris, ed Bordas 1984.,
- Dictionnaire des lettres (sous la direction de Jacques Demongin) Paris, ed Larousse, 1986.
- Dictionnaire universel des littératures, Paris, P U.F 16d, 1994
- Encyclopédie universalis, France, éditeur à Paris 1980.
- Littre, Paris, France, éd Hachette (Tome 7), 1958.

4 - المجلات والدوريات

4-1- باللغة العربية ،

- الثقافة الأجنبية، (محمور - أدب الرحلة) بغداد، العراق، السنة التاسعة، العدد الثالث، 1989 .
- دراسات سمائية، أدبية، لسانية، (ملف حول جمالية التلقي) العدد 6. خريف، شتاء 1992، فاس، المغرب ..
- دراسات سمائية، أدبية، لسانية، العدد 7، 1992، المغرب .
- عالم الفكر، الكويت، عدد4، يناير، فبراير، مارس 1983 [عدد خاص حول "أدب الرحلات"] .
- فصول القاهرة. المجلد الثاني، العدد الثاني 1982 .
- فصول، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد الثاني عشر، العدد 4، محور ألف ليلة وليلة، الجزء 1 .
- الفكر العربي : بيروت معهد الإنماء العربي، عدد 9، يونيو 1988 (عدد خاص حول : الرحلات العربية والرحلات : الأنواع والأغراض والتأثيرات).
- الكرمل، قبرص، عدد 35، 1990 .

- المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد الثاني عشر، المجلد الثالث، خريف 1983.
- مواقف، بيروت، خريف 1981، عدد 43.

2-4- باللغة الفرنسية :

- Critique. France, ed Minuit. N°82 Nov 1995.
- Diogene. N°415, 1981, ed Gallimard.
- Poétique. N°33, 1978 ed Seuil.
- Poétique. N°73, 1988 ed Seuil.
- Poétique. N°94. Avril 1993 ed Seuil.
- Poétique. N°104, Nov 1995 ed Seuil.
- Revue d'esthétique. Nouvelle série, N°7, 1987, ed Privat.
- Revue des Sciences Humaines. Tome LXXII, N°201, Jan. Mars 1986.
- Revue des Sciences Humaines n°245. Jan-Mars. 1997.

5 - ملحق ببيلوغرافي

هذا الملحق البيلوغرافي، الذي يهدف، أساساً تسليب الرؤية، وفتح أفق أخرى للفراسة والتحليل، يتضمن جرماً بأهم النصوص الرحلية العربية القديمة في الفترة ما بين القرنين ... ونصوص رحلية كتبت خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ثم نصوص أجنبية مترجمة إلى العربية.

وقد تم الاعتماد في تجميعها على المراجع التالية :

- سابيارد، نازك : الرحالون العرب وحضارة الغرب في النهضة العربية الحديثة. بيروت، لبنان، مؤسسة نوفل، ط1، 1979.
- فهم، حسين محمد : أدب الرحلات الكويت، سلسلة عالم المعرفة، رقم 138، عدد يونيو 1989.
- نصار، حسين : أدب الرحلة، القاهرة، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ط1، 1991.

- مجلة الفكر العربي. بيروت، معهد الانماء العربي، يونيو، العدد 51،
السنة التاسعة، محاور (الرحلات العربية والرحلات : الأنواع
والاغراض والتأثيرات).
- مجلة الثقافة الأجنبية - بغداد. العراق، السنة التاسعة، العدد الثالث، سنة
1982 (محور أدب الرحلات).
- الحياة الدولية (جريدة يومية) لندن، الاثنين 3 غشت 1992، العدد
10768 (محمود السيد الدخيم : كشف أولي بالكتب المطبوعة
المتضمنة لرحلات قام بها عرب مسلمون الى أصقاع العالم
المختلفة).

1-5- ملحق بأهم الرحلات القديمة،

- ابن أبي محلي : الأصلية المغربية، الرباط، منشورات عكاظ، ط 1،
1991 [تحقيق عبد المجيد قدوري]
- ابن بطوطة (1304-1377) : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب
الأسفار، أو رحلة ابن بطوطة. بيروت، دار إحياء العلوم، ط2، 1992
[قدم له وحققه الشيخ محمد عبد المتعم العربيان]
- ابن جبير (1145-1217). تذكرة بالإخبار عن اتفاقات الأسفار، أو
رحلة ابن جبير، القاهرة، مكتبة مصر 1992 [تحقيق حسين نصار]
- ابن الجيحيان (ق15م) : القول المستطرف في سفر مولانا الملك
الأشرف، أو رحلة قايتباي إلى بلاد الشام 1477. تحقيق عبد السلام
تدمري، منشورات جروس-هرس، ليبيا، ط1، 1984.
- ابن الحاج المسمري (ق14م) : فيض العباب وإفاضة قباح الأدب في
الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب. دراسة وأعداد محمد ابن شقرون
(دون معلومات مرجعية) الإيداع القانوني رقم 85-1984.
- ابن حمادوش، عبد الرزاق (ق15م) : رحلة ابن حمادوش الجزائري
أو لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال تقديم وتحقيق

وتعليق أبو القاسم سعد الله، إصدارات المكتبة الوطنية، الجزائر
1983.

- ابن خلدون (1332-1406) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا،
بيروت، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، 1979.

- ابن رشيد الفهري (1229-1321) : ملء الغيبة، فيما جمع بطول
الغيبة، في الوجهة الواجبة إلى الحرمين : مكة وطيبة. تحقيق ابن
الخوجة، تونس 1981.

- ابن شاهين الظاهري (1410-1468) . زبدة كشف الممالك، وبيان
الطرق والممالك، باريس، المطبعة الجمهورية 1894.

- ابن فضلان، أحمد (922م) : رسالة ابن فضلان. بيروت، مكتبة الثقافة
العالمية، ط2، 1987. [تحقيق سامي الدعنان].

- ابن قنفذ (ق15م) : أسن الفقير وعر الحقيير. اعتنى بنشره وتصحيحه،
محمد العاسي وأدولف فور. منشورات المركز الجاسمي للبحث العلمي،
سلسلة الرحلات 2، زيارة 1، الرباط 1965.

- ابن محاسن، يحيى (1643م) : المنازل المحاسبية في الرحلة
الطرابلسية، بيروت، دار الأفاق الجديدة، 1981.

- أبو دلف، الينسي (1000م) : الرسالة الشافية، نشر وتحقيق بطرس
بولعاكوف، أسن خالديوف، ترجمة وتعليق محمد منير مرسي، الناشر
عالم الكتب، القاهرة 1970،

- أفوقاي : ناصر الدين على القوم الكافرين. الدار البيضاء، منشورات كلية
الأدب 1، الدار البيضاء ط1، 1987.

- البخلندي، عبد اللطيف (1162-1239) : الإفادة والإعتبار في الأمور
المشاهدة والحوادث المعينة بأرض مصر، القاهرة، مطبعة وادي النيل
1869.

- البيروني، أبو الريحان (440هـ) : تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في
العقل أو مردودة. عالم الكتب، بيروت ط2، 1983

- التيجاني، عبد الله (1276-1321م) : رحلة التيجاني . قدم لها حسن حسني عبد الوهاب ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا- تونس 1981 .
- التيجاني السني ، القاسم (1271-1329م) : مسفاد الرحلة والإغتراب ، تونس ، الدار العربية للكتاب ، 1975 .
- التلمساني ، أحمد بن هطال : رحلة محمد الكبير (باي الغرب الجزائري) إلى الجنوب الصحراوي الجزائري . تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم ، الناشر عالم الكتب ، القاهرة ط1 ، 1969 .
- الجزيري الأنصاري ، عبد القادر (1506-1570م) : درد الغرالد المنظمة في أخيلار الحاج وطريق مكة المعظمة ، القاهرة ، المطبعة السلفية ، 1384هـ .
- الحسني ، يوسف (ق16م) : ملقط الرحلة من المغرب إلى حضر موت . تحقيق وتقديم وتعليق أمين توفيق الطيبي ، شركة النشر والتوزيع ، الدار البيضاء 1988 .
- الحسيني الموسوي ، العباس (1699-1766م) : نزهة الجليس ، ومنية الأديب الأنيس النجف ، المطبعة الحيدرية . 1967 .
- الحلبي ، فتح الله : رحلة فتح الله الحلبي . تحقيق يوسف شلحد ، دار طلاس ، ط1 ، سوريا 1991 .
- الحيمي الكركباني ، الحسن (1660م) : سيرة الحبشة ، أو حديقة النظر وبهجة الفكر في عجائب السفر . القاهرة ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، 1958 .
- الخشاري المصلي ، ابراهيم (1628-1672م) : تحفة الأدياء وسلوة الغرياء . بغداد ، طبع مديرية الثقافة العامة بوزارة الثقافة والإعلام (د.ت) .
- الدروحي ، أحمد (1647-1717م) : الرحلة الناصرية . فاس ، 1902 (2 مج) .

- زين العابدين، الشيخ محمد ابن علي : رحلة السودان، تونس. بيت المحكمة، قرطاج، ط 1، 1993 [نقلها إلى العربية عبد الله معاوية].
- عبد الله، أبو العباس (1560-1613) : في بلاد الحجاز وجزيرة العرب. القاهرة، 1919.
- العبدري، محمد (1300م) : رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية. الرباط، جامعة محمد الخامس، سلسلة الرحلات 4، حجازية 1، 1968.
- المعطفي، رمضان (1610-1684م) : رحلة من دمشق الشام إلى طرابلس، بيروت، 1979.
- العياشي، أبو سالم (1627-1679م) : ماء الموائد، أو الرحلة العياشية. (في جزأين) مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر (سلسلة الرحلات 1) ط 2، مصورة بالأوفسيت، فهرسها محمد حجي، الرباط 1977.
- المزال الحميري، أحمد (1777م) : نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد. بيروت، دار الغرب الإسلامي 1980.
- القلصادي، علي (1412-1486) : تمهيد الطالب؛ أو رحلة القلصادي، تونس، الشركة التونسية، 1978.
- القيسي، أبو عبد الله محمد (ق 17م) : أسن الساري والسارب من أنظار المغارب إلى منتهى الآمال والمارب سيد الأحاجم والأعارب (1630-1633م). حققه وقدم له محمد القاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي. سلسلة الرحلات 5، حجازية 2، فاس 1968.
- المدني، ابن معصوم (ق 1 هـ) : رحلة ابن معصوم المدني أو سلوة الغريب وسلوة الأريب. تحقيق شاكرون هادي، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، بيروت 1988.

- المعري، أبو العلاء : رسالة الغفران، بيروت الشركة اللبنانية للكتاب .
(ذ.ت) [تحقيق وتقديم فوزي عطوي].
- المقدسي، شمس الدين : أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم [تحقيق دي جوجي . مطبعة بريل، ليدن، ط2، 1909] الناشر مكتبة مديولي، القاهرة، ط3، 1991 .
- الماسي، عبد الغني : الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام ومصر والحجاز . دمشق، سوريا، دار المعرفة، ط1، 1989 [تحقيق رياض عبد الحميد مراد].
- الهرودي، علي (1215م) : الإشارات إلى معرفة الزيارات، دمشق، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية 1953 . (عنيت بنشره : جاتين سورنيل طومين).
- الوردثي، الحسين (1713-1779) . نزعة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، أو الرحلة الوردثية، بيروت، ط2-1974 .
- 5-2- ملحق بأهم الرحلات العربية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين :
- إبراهيم رفعت (1857-1935م) : مكة المكرمة . مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة (1344هـ) .
- إبراهيم، عبده . السندباد العربي في الكويت، مؤسسة سجل العرب القاهرة، (1965م)
- أبو بكر، سعيد التونسي (ت1948م) : دليل الأندلس، أو الأندلس كأنك تراها (في رحلته إلى إشبيلية وقرطبة عام 1929) تونس 1933 .
- أبو الجمال، القاضي : الرحلة الإبريزية إلى الديار الإنجليزية، مطبعة جامعة محمد الخامس، فاس، 1967 .
- ابن عثمان، محمد التونسي : الاستطلاعات الجاوسية، تونس، 1891 .

- أبو الفتوح، علي (ت 1913م) : الباهية، سياحة مصري في أوروبا سنة 1900، القاهرة 1900.
- بن محمد، محمد المياريك : بهجة الراح والفادي في أحاسن محاسن الوادي. بيروت 1895.
- أبو الفتوح، أحمد : شهر في نيويورك، مطابع جريدة المصري، القاهرة 1952.
- أبي فاضل، وديع : دليل لبنان، بيروت 1909.
- أبو نظارة، يعقوب صناع (1839-1912) : معاهد الفرنسي ووصف باريس، 1890.
- * رحلة أبي نظارة إلى القسطنطينية سنة 1891.
- * كتاب الكواكب السيارة في ترجمة حال السائح أبو نظارة (في رحلته إلى باريس والقسطنطينية ولندن وبروكسيل وأمستردام وسويسرا، القاهرة 1896).
- * البديع المعرّضة بباريس البهية 1899.
- أحمد، حسين : مشاهداتي في جزيرة العرب، مطبعة مصر، القاهرة 1950.
- * من وحي الجنوب، دار المعارف، القاهرة 1958.
- أحمد، حسين شرف الدين . رحلة إلى المغرب العربي، دار الثقافة، القاهرة، 1977.
- أحمد زكي : الدنيا في باريس أو أيامي الثلاثة في أوروبا، القاهرة 1900.
- * السفر إلى المؤتمر، المطبعة الكبرى القاهرة، 1894.
- أحمد شفيق : مذكرات عن زيارة إلى دير طورميناء، وطواف بالسيارة في صحراء شبه جزيرة سيناء، المطبعة الأميرية، القاهرة 1927.
- * مذكرات عن واحات مصر والصحراء الغربية . المطبعة الأميرية، القاهرة 1929.

- أحمد، الصاوي محمد : مارس، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة 1933م
- أحمد، عبد المجيد : سنجاد ديولوجيا، دار المعارف، سلسلة اقرأ، عدد 376، القاهرة 1973.
- أحمد عطية الله . برلين . مطبعة الباني المحلي، القاهرة . 1936 .
* على النانوب . مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1939 .
* لندن . مطبعة عيسى باني المحلي، القاهرة 1934 .
* يوم في أوروبا مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1937 .
- أحمد فريد رفاعي : رحلتني إلى اليمن السعيدة، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة 1950 .
- أحمد مبروك - رحلة إلى بلاد العرب، طبع قسم تربية الحيوانات بالجمعية الزراعية، القاهرة 1938 .
- أحمد محمد حسنين : في صحراء ليبيا، القاهرة 1924-1926 (2ج)
- أحمد، معوض أحمد : لبنان، القاهرة 1952 .
- أرسلان، شكيب : المحلل السندسية في الرحلة الأندلسية .
* الإرسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف : أو الرحلة الحجازية، مطبعة المنار، القاهرة 1350هـ
- الأكرسي، شهاب الدين (1217-1270) : رحلة الشمول في الذهاب إلى إسلامبول (1262هـ) بغداد 1291هـ .
- * غرائب الإغتراب ونزهة الألباب في الذهاب والإقامة والإياب، بغداد، مطبعة الشاعين 1317هـ .
- * نشوة المدام في العود إلى مدينة دار السلام، بغداد، مطبعة الولاية، 1923 .
- إلياس إدوار (ت 1948) : مشاهد أوروبا وأمريكا، مطبعة المقتطف 1900 .

- * مشاهد الممالك، مطبعة المقطم، القاهرة: 1910.
- أسماء، حليم : 8 أيام في الصعيد، مطبعة الاعتماد، القاهرة: 1944.
- إسماعيل، سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار، بولاق، القاهرة: 1923.
- إسماعيل، صديقي : رسالة البحر، القاهرة: 1938.
- الأعسم، النجفي : الرحلة الأعسمية في الديار الهندية، أو الزهور في راسور، المطبعة الحجازية، بومبي، الهند، 1346هـ.
- الأعظمي، الأزهرى : الكهف والرقيم في ملخص رحلة المصلح العظيم، المطبع الأحمدى، حلبكة، الهند، 1912.
- الأسود، إبراهيم : الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، عبدا، 1898.
- إلياس، العضبان : الرحلة المفتحة، دار المعارف، القاهرة: 1949.
- أماني، فريد : مصرية في رجوع الشام، مطبعة العلوم، القاهرة: 1948.
- * رحلات أخرى.
- الأمين، حسن . من بلد إلى بلد، رحلات في الشرق والغرب، دار التراث الإسلامي، بيروت 1974.
- أمينة السعيد : مشاهدات في الهند، دار المعارف، القاهرة: 1946 (سلسلة المراء عدد 45).
- أمين محمد : رحلة سياسية، مطبعة المدارس، 1923.
- الأندونيسي، أنور عبد القادر : جولاتي في أرض الكنانة، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1951.
- إلياس، ابن صفى الموصلي : رحلة أول شرقي إلى أمريكا، بيروت 1906.
- أنطاكي، عبد المسيح (ت 1917) : رحلة عظيمة السلطان حسين في رياض البحرين. مطبعة توفيق، القاهرة: 1916.
- * رحلة عظيمة السلطان حسين كامل في وادي النيل، مطبعة توفيق، القاهرة: 1917.

- * الرياض المزهرة بين الكويت والمحمرة، مطبعة العرب، القاهرة 1325.
- أنيس، منصور : حول العالم في 200 يوم، دار المعارف، ط9، القاهرة 1974.
- الهاجوري، محمد عمر (ت. 1905) : الديار البهية في الرحلة الأوروبية (1889) القاهرة مطبعة مصطفى محمد 1891م
- باخس، يوسف حبيب (ت. 1882) : عشرون يوما في روما.
- باشري، هبة الرحمن : مذكرات رحالة ورحلة بالأرضياء، مطبعة عباس، القاهرة 1936.
- البيلاري، محمود علي محمد : الرحلة الحجازية، القاهرة 1328 هـ.
- * رحلة الصيف إلى أوروبا، مطبعة اللواء، القاهرة 1901.
- البتوني، محمد ليب (ت 1938) : رحلة الصيف إلى أوروبا (1900)، القاهرة 1901.
- * الرحلة الحجازية لولي النعم عباس حلمي باشا غليوي مصر (1910) القاهرة 1911.
- * رحلة الأندلس (1926) القاهرة 1927.
- * الرحلة إلى أمريكا، مكتبة الخانجي، القاهرة 1930
- البيلري، أبو البقاء عبد الله : نزهة الأنام في محاسن الشام، دار الراشد العربي، بيروت ط1، 1951.
- بدوي، مصطفى بهجت . رحلات جادة مريحة، مطابع شركة الإعلانات الشرقية، بيروت 1972.
- بركات، داود : رحلاته إلى سورية ولبنان، الأهرام 1932، 1933 و 1934.
- البركاتي، شرف عبد المحسن : الرحلة اليمنية، مطبعة السعادة، مصر 1912.

- البرنوصي، محمد علي باشا . رسائل مصرية فرنسية، القاهرة: 1910 .
- * الرحلة اليابانية، القاهرة: 1910 .
- البستاني، نجيب بن بطرس (1862-1919) . ذكري وملاحظات في
الأحداث (1903) القاهرة: 1904 .
- باشا، علي محمد : الرحلة الأمريكية، القاهرة: 1913 .
- البستاني، يوسف توما : الرحلة السورية في الحرب العمومية .
- بسترس، سليم موسى (ت:1883) : التزعة الشهية في الرحلة السليمانية
بيروت 1856 .
- بقطر، أمير : الدنيا في أمريكا، المطبعة المصرية، القاهرة: 1926 .
- البكري، محمد توفيق (ت:1933) . صهاريج اللؤلؤ (في رحلته عام
1906 إلى القسطنطينية ولبينا وباريس) القاهرة: 1907 الطبعة الثانية
1927 .
- بنت بطوطه . المغامرات البحرية، مطبعة الإعتدال، القاهرة: 1951 .
- بنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) : رحلاتها إلى إسبانيا وأوروبا
(نشرت في الأهرام) .
- بهاء الدين، أحمد : شهر في روسيا، القاهرة، دار التديم . 1955 .
- باي، فريد محمد : من مصر إلى مصر، القاهرة: 1902 (رحلة إلى
إيطاليا) .
- * محكي رحلة عربي (بالفرنسية) سان بتر وسبوروغ 1902 (رحلة إلى
روسيا) .
- توفيق، ميخائيل : غرائب الأخبار عن شرق إفريقيا وزنجبار، مطبعة
التمدن، القاهرة: 1910 .
- التونسي، أبو بكر سعيد : دليل الأنطلس، تونس: 1932 .
- التونسي، خير الدين : أقنوم المسالك في معرفة الممالك . تونس،
1867

- التونسي، علي الورداني : الرحلة الأنطلسية، نشرت في "الحاضرة" التونسية، أعداد مفرقة من 3 إلى 103
- * رحلته إلى تركيا وإسبانيا وفرنسا سنة 1887
- التونسي، محمد بن عمر (1857) : تشييد الأدهان في سيرة بلاد العرب والسودان، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة 1965 .
- التونسي، محمد بيرم : السيد ومراة في باريس، المطبعة المصرية الحديثة، القاهرة .
- التونسي، نور الدين بن عبد الكريم : الرحلة الحديثة في سبيل إحياء الجامعة الإسلامية (تتضمن رحلة الأمير سعيد الجرايري إلى المدينة المنورة سنة 1332 هـ) دمشق 1332 هـ .
- تيمور، محمد (ت 1921 م) : مآثره العيون (مذكراته في ليون 1918) القاهرة، ط2، 1927 .
- ثابت، محمد : جولة في ربوع العالم الإسلامي (1926) مكتبة النهضة المصرية القاهرة 1939 .
- * رحلاتي في مشارق الأرض ومغاربها، دار الفكر العربي، القاهرة 1946 .
- * جولة في ربوع آسيا (بين مصر واليابان) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1936 .
- * جولة في ربوع إفريقيا بين مصر ورأس الرجاء الصالح، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 2- 1936 .
- * جولة في ربوع الشرق الأدنى بين مصر وأفغانستان، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1936 .
- * جولة في ربوع أوروبا بين مصر وإسكتلدا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط2، 1936 .
- * جولة في ربوع الشرق الأدنى، العالم كما رأيته، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط2، 1952 .
- ثيودري، قسطنطين : بين مصر وفلسطين، مطبعة بيت المقدس 1928 .

- جاماتي، حبيب : الحروب مارأيت، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1962.
- الجرجاوي، أحمد : الرحلة اليابانية. القاهرة، مطبعة جريدة الشورى، 1315هـ.
- جريديني، سامي : أحسن ما كتبت، فصل : من وحي شاموي.
- * خمسة في سيارة، مطبعة المقنطف والمقطم، القاهرة 1930.
- الجمال، علي حمدي . العملاق الأصغر، المطبعة العالمية، القاهرة 1956.
- جميل، خلنكي : مشاهدات سائح في دول الشمال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة 1938، (إسبانيا).
- جلال، عثمان المصري (1822-1898) : السياحة الخديوية في الأقاليم البحرية، المطبعة الأميرية، يولاق 1880م
- الجندي، نجيب حسين (ولد 1300هـ) : منظر أوروبا العجيب وملخص رحلة نجيب، مطبعة الهداية، القاهرة 1911.
- جورج، عزيز : أمريكا بيت جحا - دار المعارف، القاهرة 1955.
- جوزيف، رعد : العالم بين يديك، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1974
- جوليان، الأب ميخائيل اليسوعي : سياحة حديثة في بلاد الصعيد السفلي، بيروت 1884
- جيد، رياضي : دليل الأسفلر، أو مرشد الشرقي في دول أوروبا. المطبعة المصرية، ط2، القاهرة 1928.
- حافظ، محمد (ت 1916) : فترة من الزمان في السياحة ببلاد اليونان، القاهرة 1906.
- الحايك، إسكندر يوسف : رحلة في البادية، الطبعة الأولى 1936.
- حبيب، توفيق (الصمصامي المجور) (ت 1941) : رحلة صيف الى تركيا واليونان ويوغوسلافيا وإيطاليا، مطبعة الهلال، القاهرة 1933.

- * رحلة الصحفي المعجوز ، صيف 1935 ، القاهرة 1935 .
- * شهران في لبنان وبلاد اليونان وطرابلس الغرب ، مطبعة الأمانة ، القاهرة 1938 .
- * رحلة إكسبريس بين الإسكندرية وإستانبول مع المستر أتول .
- الحجي ، يوسف : رحلة العزيز ، طبع في إسبانيا 1984
- الحرثري ، سليمان (ت 1870) : ألوح البضائع العام (زيارته لباريس عام 1867) ، باريس 1867 .
- حسن ، فريد : سحر أمريكا ، المطبعة المصرية ، القاهرة 1945 .
- حسن ، محمد جوهري : حياة الناس في البلاد الأخرى ، مطبعة الشعب ، القاهرة (د.ت.) .
- * في ربوع السودان وفي ربوع أخرى ، مكتبة نهضة مصر ، القاهرة 1950 .
- حسني ، عبد الحميد : الرحيم في الصعيد ، مطبعة النهضة ، القاهرة 1935 .
- حسني ، عطا باشا : النهضة الشرقية (في رحلته إلى القسطنطينية عام 1906) القاهرة 1906 .
- الحسيني ، عبد الرزاق : رحلة في العراق أو مخاطرات الحسيني ، المطبعة المصرية ، بغداد 1343 هـ .
- حسين ، أحمد (ت 1946) في صحراء ليبيا (سنة 1923) مطبعة مصر 1926
- حسين ، القبطاني : حول العالم على كرسي متحرك ، عكاظ للنشر والتوزيع ، الرياض 1981 .
- حسين ، اليماني . رحلة سمو الأمير سيف الإسلام ولي عهد اليمن أحمد بن أمير المؤمنين في أنحاء اليمن ، مطبعة أنصار السنة المحمدية ، القاهرة 1358 هـ .
- حسين ، فوزي : رحلة الباخرة المصرية مباحث إلى المحيط الهندي ، دار الطباعة المصرية القاهرة 1939 .

- * سنباد إلى الغرب، دار المعارف، القاهرة 1950.
- * سنباد في سيارة، دار الهلال، القاهرة 1972
- حسين، مؤنس : رحلة الأندلس، حديث المردوس المفقود، مطابع كوستانتوماس، القاهرة 1963.
- حسونة، محمد أمين : وراء البحار، مطبعة الشمس، القاهرة 1936.
- الحقل، عبد الله بن حمد : رحلات وذكريات، مطبوعات تهامة، جدة، 1983.
- الحكيم، عبد المؤمن كامل (ت 1925) : رحلة مصري إلى فلسطين ولبنان وسورية (سنة 1933) المطبعة السلفية، القاهرة 1934.
- الحلبي، محمود غير الدين : عشر سنوات حول العالم، مطبعة ابن زيدون، دمشق 1937.
- حلمي، مراد : رأيت وسمعت لك في أوروبا، دار النشر للجامعات، القاهرة 1955.
- * رأيت وسمعت لك في فلورنسا، دار النشر للجامعات، القاهرة 1955.
- * رأيت وسمعت لك في النمسا، دار النشر للجامعات، القاهرة 1955.
- حلمي، عبد الحليم بن اسماعيل : الرحلة السلطانية (تجمع)، مصر 1921.
- حمد، الجاسر : رحلات، دار اليمامة، الرياض 1980.
- * في سراة حامد وذهران، مطبعة المشي، بيروت 1971.
- * في شمال غرب الجزيرة، مطبعة المشي، بيروت 1970
- حمادة، عباس متولي : مشاهدي في الحجاز، مطبعة الاستقلال، القاهرة، 1936.
- حمزة، غزاد (ت 1951) : البلاد العربية السعودية، مطبعة أم القرى، مكة 1933.

- * قلب جزيرة العرب، القاهرة 1933.
- * في بلاد عسير. مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ط2، 1968.
- حنا، خباز (ت 1955) : حول الكرة الأرضية، سانتياغو 1922.
- * لطائف أخباري في متاحف أسفاري، حمص 1923.
- * البرج القديم أو خبائها أخباري في زوايا أسفاري. حمص، 1923.
- حورية، جلال : السندباد العربي في البحرين، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1974.
- المخلندي، محمد روهي (ت 1913) : رحلة إلى الأندلس (مخطوطة).
- خلاط، ديمتري (ت 1934) : سفر السفر إلى معرض الحضر (1889) القاهرة مطبعة المقتطف، 1891.
- خلاط، نسيم (ت 1901) سياحة في غربي أوروبا (1900) القاهرة، مطبعة المقتطف 1901
- خليل، نخلة : الرحلة الميثاقية في الديار الشامية (1901) مطبعة الوطن، القاهرة، 1902.
- الخوجة، محمد بن (ت 1862) الرحلة الناصرية (رحلة باي تونس الناصر إلى فرنسا عام 1895) تونس 1895
- * الرحلة الفيلانية في الديار التونسية، المطبعة الرسمية العربية، تونس 1912.
- شعيري، بطرس : الرحلة السورية في الحرب العمومية (1916)، مكتبة العرب، القاهرة 1921.
- الخيار، محمد : رحلة باي تونس إلى فرنسا، تونس 1895.
- دوة، شفيق : رحلتي دول العالم. دار بنت النيل، القاهرة 1956
- الدسوقي، محمد : رياض المدينة في الحضارة الإسلامية. المطبعة اليوسفية، طنطا 1934.
- الدمرداش، محمد : من سِير الرحلات. المطبعة الأميرية، القاهرة 1944.
- الدمان، سامي (ت 1971) : درب الشوك، دار صاخر، بيروت 1969.

- الديواني، مصطفى : رحلات العمر . دار النهضة العربية، القاهرة 1969 .
- رشاد، محمد : سياحة في روسيا (1915)، القاهرة 1915 .
- * رسائل مصري من أوروبا، الأهرام، فبراير 1932 .
- رضا، محمد رشيد (ت 1935) جمعها يوسف أيمن تحت عنوان : رحلات الإمام رشيد رضا وهي ست رحلات ما بين 1909 و 1922 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1971 .
- رضا، محيي الدين : رحلتي إلى الحجاز في عام 1935 . مطبعة المنار، القاهرة 1936 .
- * صور ومشاهدات من الحجاز ، المطبعة التجارية الحديثة ، القاهرة 1953 .
- * في موطن جبران خليل جبران ، صور ومشاهدات من ماضي لبنان وحاضر . المطبعة التجارية ، القاهرة 1951
- رفعت، الجوهري : أسرار من الصحراء الغربية : نواح مجهولة من البلاد المصرية ، دار المعارف ، القاهرة 1947 .
- * جنة الصحراء : سيوه أو واحة أمون ، دار المعارف ، القاهرة 1946
- الرويشد، عبد الله : أيام في تونس ، طبع رابطة الأدب الحديث القاهرة (د.ت) .
- الريحاني، أمين (ت 1940) : المغرب الأقصى ، دار المعارف ، القاهرة 1952 .
- * قلب لبنان ، رحلات صغيرة في جبالنا ، القاهرة 1948 .
- * ملوك العرب ، أو رحلة في البلاد العربية ، بيروت 1934 .
- الزركاني، اعتقاد أمين : السليمان العربي في المغرب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة 1974 .
- الزركلي، خير الدين - مارايت وسمعت (1923)، المطبعة العربية ، القاهرة 1948 .

- * عمان في عمان (1925) يوسف توما البستاني 1925.
- زكريا، أحمد وصفي : جولة أثرية في بعض البلاد الشامية، المطبعة الحديثة، دمشق، 1934
- الزعيم، محمد سعيد : رحلة إلى الشمال الإفريقي ووقفه على أطلال الأندلس، حلب 1938.
- الزياتي، أبو القاسم (ت 1833) الترجمة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، مطبعة فضالة، المحمدية 1967.
- سامي، عبد الرحمن (ت 1309 هـ) - سفر السلام في بلاد الشام (1890) مطبعة المقتطف، القاهرة 1892.
- سامي، الكيالي : سائح في أوروبا، القاهرة 1935.
- سرركيس، خليل (1842-1915) : رحلة مدير اللسان إلى الأستانة وأوروبا وأمريكا (1892) القاهرة 1893.
- * رحلة الإمبراطور غليوم الثاني . إلى فلسطين وسورية (1898) بيروت، المطبعة الأدبية.
- سرركيس، يوسف (1856-1932) : الدليل الأمين للسياحة البهية في الأقطار المقدمة الشامية، بولاق 1291 هـ.
- * الكنز المغني للسياحة في أوروبا. القاهرة 1876.
- * أنفس الآثار في أشهر الأمصار (1902)، المطبعة الشرقية، بيروت 1904
- سحادة، سحمان : الدليل المفيد على العالم الجديد، لس برود السفر إليه. لبنان 1896.
- سمودي، محمد : ملخص من رحلة محمد سمودي إلى بلاد الحجاز وجزيرة العرب (1916) القاهرة 1919.
- سعيد، أمين محمد : رحلات إلى العراق، مجلة البلاغ، نوفمبر 1933.
- سيكسك، حنا (ت 1895) : رحلة إلى دمشق، 1851.

- السلاوي، أبو عبد الله (ت 1860) والشرقي أبو عبد الله : يحكيان إقامتهما كسفيريْن عند نابليون الثالث 1865 في كتاب «الإستضاء...» للناصري، القاهرة 1894 .
- سليم، محمد شريف (ت 1925) رحلة إلى أوروبا (من 1898 إلى 1890)، نظارة المعارف، القاهرة 1890 .
- سليم، موسى : التزعة الشامية في الرحلة السلافية، بيروت 1856 .
- سليمان، الحكيم : مشاهرتي في الخارج . شيبان الكوم، مطبعة مؤسسة تربية البنين - 1950 .
- سليمان، محمد (ت 1936) : رسائل مسافر من بلاد العرب إلى بلاد اليونان، المطبعة السلفية، القاهرة 1933 .
- سليمان، محمد بن (ت 1899) : الرحلة الحجازية، الإسكندرية 1317هـ .
- السمعاني، بولس عيد : السياحة المتصورة في الأمصار الغربية، مطبعة الآباء الفرنسيين، أورشلين 1907 .
- السنوسي، أبو عبد الله : رحلة سفارة إلى نابليون، القاهرة 1894 .
- السنوسي، محمد (ت 1900) : الاستطلاعات الباريسية، تونس 1812 .
- سمر، عبد الرحمن : الرحلة الباريسية (1932). تونس 1933 .
- سيام، سليمان بن : كتاب الرحلة إلى بلاد فرنسا (1852) الجزائر 1852 .
- السيد، فرج : في ربوع السودان، مطبعة مخيم، القاهرة . 1969
- * في شمال إفريقيا، مطبعة المعارف، القاهرة 1944 .
- شاكز، فؤاد : رحلة الربيع، دار إحياء الكتب العربية، مصر 1946 .
- الشهابي، أحمد فارس (ت 1887) : كشف المخبأ عن فنون أوروبا، مطبعة الجوائب، الأستانة، 1299هـ .

- * الواسطة في أحوال مالطة ، مطبعة الخرواتب ، الأستانة ، 1299هـ .
- شرف ، عبد المحسن : الرحلة اليمنية ، مصر ، مطبعة السعادة ، 1912 .
- الشرماني ، أحمد محمد : الجناح المخلق في سماء الشرق (ج 1) الطاعة المنيرة ، القاهرة 1950 ، (ج 2) مطبعة السعادة ، القاهرة 1951 .
- شفيق ، صبري : بين البحر والصحراء ، دار المعارف ، القاهرة 1946 .
- * أمير سوري في إيطاليا ، مطبعة الإستقامة ، القاهرة 1934 .
- شكيب ، الأموي : قصة رحلة إلى الشرق الأقصى ، الدار السعودية 1967 .
- * مفتان ، الصحراء ، دار الفكر العربي ، القاهرة 1955 .
- شكري ، ناعمة : دليل الإستانة . الإسكندرية 1909 .
- الشنيطي ، ابن التلاميذ (ت 1906) : الحماسة السنية الكاملة ، المزية في الرحلة العلمية الشنيطية التركزية ، القاهرة 1901 .
- الشنيطي ، محمد الأمين (ت 1973) : رحلة الحج إلى بيت الله الحرام ، دار الشروق ، جدة 1973 .
- الشهابي ، المخزومي محمد سليم : الرحلة الحجازية ، المطبعة التجارية ، الإسكندرية ، 1317هـ .
- شوقي ، أحمد (ت 1932) : أعماله في المؤتمر (1894-1895) بولاق . 1895 .
- * الرحلة الأندلسية (1915-1919) في الشوقيات 2 : 52 - 60 الطبعة الثالثة ، القاهرة 1929 .
- صابنجي ، لويس (ت 1931) . الرحلة النحلية (رحلته حول العالم سنة 1871 دامت ثلاث سنوات) اسطنبول (د . ت) .
- صادق ، محمد باشا (ت 1902) : مشعل المحمل ، مطبعة وادي النيل القاهرة ، 1881 .
- * كوكب الحج في سفر المحمل بحرا ومسيره برا (1885) بولاق 1886 .
- * دليل الحج للوارد إلى مكة من كل فج ، بولاق 1885 .

- * نبذة سياحية إلى الأكشادة العلمية، القاهرة 1309هـ.
- * نبذة استكشاف طريق الأرض الحجازية من الوجه وينوع البحر إلى
المدينة النبوية، القاهرة 1877.
- صالح، نخلة (ت 1899) : الدليل الأمين للسياحة البهية في الأقطار
المقدمة الشامية (1874) بولاق 1291هـ.
- صباغ، فيصير : رحلة فيصير أفندي صباغ وفريت نجلة مطران صباغ إلى
الولايات المتحدة الأمريكية وسورية ولبنان، بيروت 1911.
- صبري، حسني : يانفس لاتراحي، دار الكتاب العربي، القاهرة
1968.
- صدقي، اسماعيل (ت 1950) : رسالة البحر. القاهرة 1938.
- صروف، فؤاد (ت 1927) : الرواد، مطبعة المقستطف، ط 3، القاهرة
1931.
- * مشاهد العالم الجديد، المطبعة العربية. القاهرة، 1925.
- صلاح، البكري : في جنوب الجزيرة العربية، مكتبة مصطفى الباي
الحلبي، القاهرة 1949.
- صلاح، فحني : صور من أوروبا، مكتبة الآداب، القاهرة 1949.
- صلاح، عزام : 8 أيام في المملكة العربية السعودية، دار التراث العربي،
القاهرة (د.ت).
- الطنطاوي، محمد عياد (ت 1861) : تحفة الأذكاء بأخبار بلاد روسيا
(1850)، مخطوطة في القسطنطينية 1850.
- طيار، الدكتور : لبنان، أمس واليوم (رحلته سنة 1930)، المطبعة
الفنية، القاهرة 1930.
- طاهر، الزمخشري : المهرجان أو ذكرى الرحلة الفيصلية الأولى
للدنيا الجديدة، مطبعة عيسى الباي الحلبي، القاهرة 1945.
- طلعت، محمد : السير والنظر، مطبعة التقدم. 1907.

- طه، حسين : رحلة الربيع والصيف، دار المعارف، سلسلة (اقرأ 69)، القاهرة 1948.
- الطهطاوي، رفاعة رافع (ت 1873) : تلخيص الإبريز في تلخيص باريز، أو الديوان النفيس بإيوان باريس. مطبعة التقدم، القاهرة 1905.
- عباس، متولي حمادة : مشاهدتي في الحجاز، مطبعة المستقبل، القاهرة، 1937.
- عبد الرحمن، حمدي : ذكريات دبلوماسي غير مدونة، دار المعارف، القاهرة، 1977.
- عبد الرحمان، سامي : القول الحق في بيروت ودمشق، دار الراية العربي، بيروت، 1981.
- عبد السلام، محمد : دليل الحيران، مصر، مطبعة الامام، 1903.
- عبد السلام، المجبلي : دعوة إلى السفر، دار عريقات، بيروت 1963.
- عبد القادر، حمزة : ليلتان في اليمن، دار البلاغ، القاهرة. 1948.
- عبد الكريم، الجهيمان : دورة مع الشمس، مطابع الفرزدق، الرياض (د.ت).
- عبد اللطيف، اسماعيل (ت 1921) : رحلة إسماعيل في جميع المحافظات وعواصم المديرية، مطبعة هندية في القاهرة 1346هـ.
- عبد اللطيف، واكد : مريوط جنة الصحاري الإفريقية، مطبعة المنقطف، القاهرة 1947.
- عبد الله، عبيد : سوداتي في الصين الشعبية، دار الفكر، القاهرة، 1956.
- عبد المسيح، ابراهيم : دليل وادي النيل (رحلته ما بين 1891-1892) القاهرة 1892.
- عبد المسيح، الأنطاكي : رحلة السلطان حسن في رياض البحرين، مطبعة التوفيق، القاهرة 1916.

- * الرياض المزهرة بين الكويت والمحمرة، مطبعة العرب، ط2، القاهرة. 1325هـ.
- عبد المنصف، محمود . على ضفاف بحيرة البرلس، القاهرة 1948 .
- * على ضفاف بحيرة المنزلة، القاهرة 1947 .
- * على ضفاف بحيرة قارون، القاهرة 1947 .
- * على ضفاف بحيرة مريوط، القاهرة 1947 .
- عبد المنعم، حسين : مغامراتي في أوروبا المحتلة، دار الكتب الأهلية، ط2، القاهرة 1944 .
- عبد المنعم، رياض : من فوق السحاب، مطبعة أبو فاضل، القاهرة 1951 .
- عبد المنعم، الصاوي : في الصين، دار الجمهورية، القاهرة 1956 .
- عبد الوهاب، أبو الميoun : مشاهدت سائح في الممالك الأوروبية، المطبعة الحديثة، القاهرة (د.ت).
- عبد الوهاب، حفيز : مشاهداتي في بلاد الحجاز : 1930 .
- عبد الوهاب، عزام : رحلات . مطبعة الرسالة، القاهرة 1939 .
- عبده، إبراهيم : في السودان . مطبعة مجلتي، القاهرة 1938 .
- عبده، الشيخ محمد (ت 1905) : رحلة إلى أوروبا وجزيرة صقلية وتونس والجزائر سنة 1902، لم ينشر منها إلا ما كتبه عن رحلته إلى صقلية في تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد رشيد رضا، 2 : 473-504. القاهرة 1925 .
- عبده، الشامي : رحلة الصيف في ربيع أوروبا، مطبعة جريدة الصباح، القاهرة، 1955 .
- العبدوي، محمد بن ناصر : رحلة إلى جزر مالديف، دار العلوم، القاهرة، 1981 .
- العدل، حسن توفيق (ت 1904) . الرحلة البرلينية، القاهرة (1887-1889).

* وسائل البشرى في السياحة بألمانيا وسويسرا سنة 1889، بولاق
1891.

* محاسن العصر، القاهرة 1327هـ.

- صليان، حسني ثلثو : حول العالم على دراجة نارية، مطبعة الاتحاد،
دمشق (ط7) (د.ت).

- عرفى، محمد بن عثمان : الانصار عن فوائد الأسفار (رحلة إلى أوروبا
سنة 1893)، مطبعة الرأي العام، القاهرة 1311هـ.

- عزمى، سنية . الرحلة العلمية لناظرات المدرس العلمية إلى أوروبا في
صيف 1928، المطبعة الحديثة في القاهرة 1927.

- عزمى، محمود (ت 1954) : رحلات إلى سورية ولبنان. السياحة
الأسبوعية 1933، رحلات إلى العراق.

- عطية، الله أحمد : لندن عام 1934. القاهرة 1934

* برلين. القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي 1936.

* على اللدانوب . القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1939.

* يوم في أوروبا. القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية 1937.

- المظلم، نزيه سليم : رحلة في البلاد العربية المسيحية من مصر إلى
صنعاء، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1930.

- علي، الأمير محمد (ت 1955) : رحلة الصيف إلى البستك والهرمسك،
القاهرة 1907.

* الرحلة الأمريكية لحفصة صاحب السمو الأمير محمد علي باشا،
تلقاها عثمان باشا مرتضى . المطبعة الأميرية ، بولاق 1913.

* رحلة حفصة صاحب السمو الأمير محمد علي إلى جنوب أمريكا،
مطبعة شركة مصر . القاهرة 1927.

- علي، الطنطاوي : حلم في نجد، دار الأحياء، الرياض 1983.

- علي، يوسف : أيام الجنب الخشوي عباس الثاني في دار السعادة.
مطبعة الأدب، القاهرة 1311هـ.

- عمر، عبد الرحمن : الرحلة الباريزية، تونس 1932.
- العمروسى، أحمد فهمي : رحلته إلى مراكش (1922) مجلة الرابطة الشرقية 1930
- المواصرى، محمد حفي : الرحلة الأسطنبولية في وصف الأسمانة العالية (1912) الإسكندرية 1912 (زجل).
- عيسى، الساهوري : في ربيع الأندلس، الدار العربية للكتاب، تونس 1978.
- حسان، محمد - رحلة إلى إسبانيا. طنجة 1940.
- الغزال، بن المهدي : رحلة إلى إسبانيا، العراقى 1941
- العال، أبو علي : رحلة لائكلتر، المغزاة العامة، الرباط 1324.
- غريال، شفيق . أمير سوري في إيطاليا، مطبعة الإستقامة، القاهرة. 1934.
- الغساني، محمد : رحلة الوزير في التكاك الأسير، المغرب 1940.
- حصن، فؤاد : الرحلة العلمية إلى المواسم الشرقية والعربية، بيروت 1929.
- فارس، بشر . كيف صنعتني باريس (1934) الهلال 42 (1934) (462-460).
- فاروق، جريدة : بلاد السحر والخيال. مكتبة غريب، القاهرة 1981
- الفتال، خليل (ت 1772) : الرحلة الهندية في محروسة القسطنطينية. (مخطوطة).
- فتح الله، أنطاكى : الهند كما رأيتها، مطبعة أبو فاخيل، القاهرة 1933.
- فتح الله، حمزة (ت 1918) : المواعب الفتحة في علوم اللغة العربية (في رحلته إلى فيسا 1886 وإلى استوكهولم 1889) القاهرة 1894-1908.
- فرح، جبران : تعال معي إلى أمريكا، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة 1952.

* نعال معي إلى أمريكا اللاتينية، المطبعة التجارية الحديثة، القاهرة
1954.

* رحلات أخرى.

- فرانسيس، مراثي الحلبي (ت 1873) : رحلة إلى باريس، مطبعة
الشرقية، بيروت 1867.

- فروخ، مصطفى : رحلة إلى بلاد المجد المفقود (عام 1930) بيروت
1933.

- فريد، محمد (ت 1919) . رحلة محمد فريد بك سنة 1901 إلى بلاد
الأندلس والجزائر ومراكش ؛ وأخرى سنة 1902 إلى إيطاليا وتونس
والجزائر وطرابلس الغرب ومالطة ؛ والثالثة سنة 1903 إلى ترينيداد،
والرابعة سنة 1904 إلى بلاد التروبيج. الإسكندرية، مطبعة الموسوعات
بمصر (د.ت).

- فهمي، منصور : خطرات النفس (1930) مطبعة المعارف 1930.

- فهمي، عطا الله : أيامي. ج 1، مطبعة المكرة، القاهرة 1947.

- فؤاد، حمزة : في بلاد هجير، مكتبة النصر الحديثة، الرياض 1968.

- فؤاد، شاكِر : رحلاتي في ميادين العمل والجهاد، دار الكتاب العربي،
القاهرة، 1945.

* رحلة الربيع، دار احياء الكتب العربية، القاهرة 1946.

- فوزي، عبد الرحيم : دليل لندرة (لندن)، مصر مطبعة الجمالية 1911.

- فحيسي، سليمان بن الحاج : النخلة الإفريقية في الرحلة الحجازية،
البصرة 1331هـ.

- قاسم، رؤوف : مشاهدات وصورت، مطبعة البصرة، البصرة
1970.

- قاسم، محمد : الطالع السعيد في رحلة المغنيطوي توفيق إلى أنشليم
الصعيد المطابع الأميرية بولاق 1927هـ.

- * الكوكب النوري في رحلة الخديوي توفيق إلى أقاليم الوجه البحري المطبعة الأميرية، بولاق 1297 هـ.
- القفاصي، أحمد : الرحلة القاضية في مدح فرنسا وتبصير أهل البادية (1878) الجزائر 1878.
- القفاصي، محمد عبد الجواد : فحة الشام في رحلة الشام، مطبعة جريدة الإسلام، القاهرة، 1319 هـ.
- قعين، سليم : سياحة في روسيا (1901) القاهرة (د.ت).
- القنوجي، الحسيني (ت 1889) رحلة الصديق إلى البيت العتيق (1285 هـ) طبع بالهند 1289 هـ.
- كامل، زهيري : العالم من ثقب الباب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 1973.
- كامل، مصطفى (ت 1908) : رسائل مصرية فرنسية (تولوز 1891- ثم باريس وانجلترا، وألمانيا 1904-1905) القاهرة 1909.
- * دليل السلام القاهرة 1909.
- كامل، عبد المجيد : في بلاد الناس أو رحلة الصيف والشتاء، بيروت 1913.
- كحيل، نجيب : رحلة إلى معاهد العميان في أوروبا (1912) مطبعة الأهرام، القاهرة 1912.
- كرد، علي محمد (1876-1953) : غرائب الغرب (فرنسا) مطبعة المطيس، دمشق 1910.
- * الرحلة الأنوارية إلى الأصفاح الحجرية والشامية بيروت، المطبعة العلمية 1916.
- الكرودوي، أبو العباس (ت 1900) : التحفة السنية للمحفرة الشريفة الحسينية بالمملكة الإصنيولية (1885).
- كركوكي محمد : رحلة مصر والسودان، مطبعة الهلال، القاهرة 1914.

- كمال، يوسف بن أحمد : سياحتي في بلاد الهند الإنكليزية وكشمير .
مصر ، مطبعة المعارف 1925 .
- الكيالي، سامي . شهر في أوروبا (1935) المطبعة العصرية ، القاهرة
1935
- * في الربيع الأندلسية ، مكتبة الشرق ، حلب 1963 .
- الكوراني، علي سيدو : من عمان إلى العمادة ، أوجولة في كردستان
الجنوبية . مطبعة السعادة ، القاهرة 1939 .
- ليب ، سالم . صور ، مطبعة نهضة مصر ، القاهرة 1957 .
- المصري، أمين فكري : إرشاد الخليفة إلى محاسن أوروبا ، القاهرة
1892 .
- المازني، هبة القادر (ت 1949) : رحلة الحجاز (1930) مطبعة فؤاد
القاهرة 1929 .
- مبارك، زكي (ت 1952) : ذكريات باريس (من 1927 إلى 1931)
القاهرة 1931 .
- * وحي بغداد ، القاهرة ، 1938 .
- * ملامح المجتمع العراقي ، القاهرة (د.ت) .
- المبارك، محمد (ت 1945) : بهجة الراح والمغادي في أحاسن محاسن
الرازي (رحلة إلى دمشق عام 1308هـ) بيروت 1313هـ .
- ميروك ، أحمد : رحلة إلى بلاد العرب ، القاهرة 1938 .
- مجدي ، محمد (ت 1920) : ثمانية عشر يوما بصعيد مصر (1310هـ)
مطبعة الموسوعات 1319هـ .
- (مجهول المؤلف) : السير السليم في يافا والرملة وأورشليم . القدس
1890 .
- محمد ، الخضر حسين : الرحلات ، المطبعة التعاونية ، بيروت ،
1976 .
- محمد ، أمين حسونة * وراء البحار ، مطبعة الشمس ، القاهرة 1936 .

- محمد، أمين فكري : ارشاد الألبا إلى محاسن أوروبا، مطبعة المقتطف، القاهرة، 1892.
- محمد، بيرم التونسي (ت 1889) : صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، المطبعة الإعلامية، القاهرة 1302-1311 هـ.
- محمد، حسين هيكل : عشرة أيام في السودان، المطبعة المصرية، القاهرة 1927.
- * في منزل الوحي، دار الكتب الحضرية، القاهرة 1937
- محمد، رفعت : 50 يوماً في باريس، دار الكتاب العربي، القاهرة 1952.
- محمود، تيمور : الأيام الحانة ومشاهد أخرى (أربع رحلات) المكتبة المصرية، بيروت (د.ت).
- العلوي، جميل نخلة : حصار الإسلام في دار السلام، وزارة المعرفة العمومية، القاهرة 1937.
- مراد، كامل : في بلاد النجاشي : دلو المعارف (سلسلة اقرأ 81) القاهرة 1949.
- مرزوق، إبراهيم : رحلة السلامة ونحلة الكرامة، مصر، 1869.
- مرغني : رحلة إلى حرب إفريقيا وإنجلترا، القاهرة 1927.
- مروه، محمد نجيب (ت 1957) : ثمرات الأسفار، 1935.
- مسعد، نزيه : حول العالم، أمريكا بلاد العجائب، إيطاليا الفاشستية، لجنة الإغاثة، القاهرة 1936.
- * ليالي باريس، مذكرات صحفي عن أسرار باريس وخفاياها، مطبعة الإغاثة، القاهرة 1934.
- ميشيل، سليم يعين : سحر لبنان، دلو المعارف، القاهرة 1955.
- مصطفى، محمد شفيق : في قلب نجد والحجاز، مطبعة المنار 1927.

- المتصوري، عبد الرحمن . رحلة الشتاء والصيف، بغداد، مطبعة الآداب 1329هـ.
- مهدي، محمد : رحلة مصر والسودان، مطبعة الهلال، القاهرة 1914.
- العزقوت، محمد : الرحلة المراكشية أو امرأة المساوي الوقفية، الباهي، القاهرة 1341هـ.
- المولىحي، إبراهيم (ت 1906) : ما هنالك، القاهرة 1896.
- مينا، موسى : ارشاد لطيف لزاكري القندس الشريف (1902) المطبعة المتوسطة، القاهرة 1902.
- الناظر، السيد أحمد : مشاهداتي ثلاث سنوات في روسيا السوفيتية، شركة فن الطباعة، القاهرة 1953.
- الناقص، أحمد : آسيا، المطبعة المستقلة، القاهرة 1927.
- * إفريقيا، المطبعة المستقلة، القاهرة 1928.
- النجار، إبراهيم - مصباح الشاري ونزهة الفلاري (رحلة إلى أوروبا سنة 1849) بيروت 1273هـ.
- نجيب، أحمد (ت 1958) : الأثر الجليل لقدماء وادي النيل، المطبعة الأميرية، بولاق 1312هـ.
- نجيب، فرج : جولة بين آثار الأقصر، المطبعة التوفيقية، القاهرة 1933.
- التندوي، علي : مذكرات سائح في الشرق العربي، مطبعة الرسالة، القاهرة 1954.
- * من نهر كابل إلى نهر اليرموك، دار الهلال، القاهرة 1974.
- نصر الله، جيزير : الرحلة العراقية (1926) مطبعة التقدم، القاهرة 1927.
- الهاشمي، الشيخ فريد بن عجيب (ت 1892)، سياحتي إلى الحجاز سنة 1309هـ، القاهرة 1915م.

- هيام ، سليمان : كتاب الرحلة إلى بلاد فرنسا، الجزائر 1852 .
- واصف ، عوض : سياحة في القطر المصري، مطبعة مصر، القاهرة 1906 .
- الورثاني ، محمد مفداز : البرنس في باريس (وهي رحلة من القيروان إلى فرنسا وسويسرا عام 1913)، تونس 1914 .
- الوليلي . ابراهيم : ماراء حزان أصوان، أو بلاد النوبة ، مطبعة الصباح ، القاهرة 1924 .
- يوسف ، بسي : الرحلة الملكية ، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض 1313هـ .

3- رحلات أجنبية مترجمة إلى العربية

- أبو طالب، خان : رحلة أبي طالب إلى العراق وأروية، ترجمة مصطفى جواد، بغداد، مطبعة الإيمان، 1389هـ / 1969م .
- أبو نتي ، سفانور : مملكة الإمام يحيى ، رحلة في بلاد المصرية السمودية، تعريب طه فوزي . القاهرة، مطبعة السعادة، 1399هـ / 1947م .
- إرنست ، واشنطن : قصص الحمراء، ترجمة إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار المعارف (د.ت).
- إسحاق الأقدم أو اليهودي المتجول : رحلاته ، عربها بتصرف عليه الشامي، القاهرة، مطبعة الشباب (د.ت).
- إيشا، هوبك : سنوات في اليمن وحضر موت، ترجمة خيرى حماد . بيروت، دار الطليعة، 1382هـ / 1962م .
- بكنمهام ، جيمس : رحلتي إلى العراق، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، دار البصري، 1969 .
- بلاروين ، روجيه : في بلاد العراء، ترجمة مختار الجوهري . القاهرة، دار الجوهري للنشر، د.ت (المكتبة الصحفية).

- بلنت، أن : رحلة إلى بلاد نجد، ترجمة محمد أنعم غالب. الرياض، دار اليمامة، 1389هـ/ 1967م.
- بوركهولت، جون لويس . رحلاته في بلاد النوبة والسودان، ترجمة فؤاد أندراوس. القاهرة، مطبعة المعرفة، د. ت.
- * رحلاته في بلاد سورية الجنوبية، ترجمة أنور عرفات. المطبعة الأردنية، 1969.
- بولو، ماركس : رحلاته، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد. القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977
- بيرد، ريتشارد . قاهر القطب الجنوبي، ترجمة محمد مصطفى حلاوة. القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1960.
- تسينجر، ولغريد : فوق الرمال العربية، عربي بتصريف محمد محمد عبد القادر . القاهرة، القومية.
- ثرولد، اويبر : سياحة الهد، ترجمة إبراهيم أفندي مصطفى. بولاق 1265هـ
- تيودري، قسطنطين : بين مصر وفلسطين، مطبعة بيت المقدس 1928.
- جوليان، الأب ميخائيل اليسوعي (كان حياً قبل 1884) : سياحة حديثة في بلاد الصعيد السفلي، بيروت 1884.
- الحاج بابا الأصهباني : اللطاف الأصهبانية واليمن التوفيقية في رحلة الحاج بابا الأصهباني داخل الممالك الفارسية، ترجمة محمد لطفي القاهرة، المطبعة الخيرية بمصر، 1309هـ/ 1892ك.
- دوماس، الكسندر : الرحة الكاليفورنية، تعريب صفينة العنصرية، الاسكندرية 1892.
- ذي نرفال، جبرار : رحلة إلى الشرق، ترجمة كونر عبد السلام البحيري. القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة (د. ت).
- دين، تيموثو وإليزابيث مادوكس : سفارة العمر، ترجمة طاهر

عبد الرحيم . القاهرة ، دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع ،
د ت .

- ديولافوا : رحلة ميدام ديولافوا إلى كلفة - العراق سنة 1299/1881هـ ،
عربها علي البصري . بغداد ، مطبعة أسعد ، 1377هـ/ 1958م .

- الربيع بن خياث بن يونس البجلي النجاشي (561-569هـ/ 1165-
1173م) : رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حننا . بغداد ، المطبعة الشرقية ،
1364هـ/ 1945م .

- ربيع ، كلوديفوس جيمس : رحلة ربيع في العراق عام 1820 ، ترجمة بهاء
الدين نوري . بغداد ، مطبعة السكك الحثلية ، 1956 .

- رشيد ، سنيشان : ماجلان قاهر البحار ، القاهرة ، دار الهلال ،
1951 .

- سلامش بن كندغي : البستان في عجائب الأرض والبلدان . روما
1585 .

- سميت ، ولتر بيدل : ثلاث سنوات في موسكو ، ترجمة محمد المعلم .
القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، 1954 .

- شريف ، حكمت : الفوائد الكبرى في السياحات الصغرى ، ترجمة عن
التركية العثمانية ، بيروت ، المطبعة الأردنية 1325هـ .

- طافور : رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي ، ترجمة
حسن حبشي . القاهرة ، دار المعارف ، 1968 .

- العراقي ، محمود حسني . 89 شهرا في المنفى ، ترجمة جمال العراقي .
القاهرة ، دار المستقبل ، ط2 ، 1941 .

- العظيم ، صادق المزيدي : رحلة الحيشة ، تعريب رفيق بك العظيم وحقي
بك العظيم . القاهرة ، مطبعة الجريدة ، 1326هـ/ 1908م .

- غاسبارولي ، الكس : نهاية الأوطار في عجائب الأقطار ، ترجمة وهبي
بك . القاهرة ، مطبعة التاليف 1893 .

- الفيرن، حول : حول العالم في ثمانين يوما، ترجمة فازوق أبو شرا
بيروت، مطابع منشوق إخوان، (د.ت).
- فيرن جون . الرحلة الشتوية في الجهات الثلجية . عربها توفيق دويريه .
مطبعة الجامعة بالموسكي 1894 .
- فرن، يوليوس : الطواف حول الأرض في ثمانين يوما . عربها يوسف بن
هيام (ولد 1859) . لبنان ، المطبعة العمومية 1898
- فرن، يوليوس : الرحلة الجوية في المركبة الهوائية . عربيه يوسف
مركيس الدمشقي (1856-1932) بيروت . مطبعة اليسوعيين 1875 .
- كلون، جون : رحلة لبنان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر ،
نعميه رليف نخوري ، بيروت ، دار المكشوف ، 1948 .
- كاسون، ليونيل : رواد البحار، ترجمة جلال مظهر . القاهرة، دار نهضة
مصر، 1966 .
- لامنس، الأب هنري : الرحلة السورية في أمريكا الوسطى والجنوبية
عربها رشيد الشرتوني، بيروت، مطبعة الآباء اليسوعيين 1903
(2مجلد).
- * المذكرات الجغرافية في الأقطار السورية . بيروت . مطبعة الآباء
اليسوعيين (د.ت) .
- المنشئ البغدادي . رحلة المنشئ البغدادي السيد محمد بن السيد أحمد
الحسيني، ترجمة عباس الحزاري . بغداد، طبع شركة التجارة والطباعة،
1367هـ/ 1948م .
- ناصر خسرو حلوي : سفر نامه، ترجمة يحيى الخشاب . القاهرة، لجنة
التأليف والترجمة والنشر، 1945 .
- نيبور : رحلته إلى العراق في القرن الثامن عشر، ترجمة محمود حسين
الأمين . بغداد، دار الجمهورية للنشر والطبع، 1385هـ/ 1965م .
- هلو، سونيائي : في طلب التوابل، ترجمة محمد عزيز رفعت . القاهرة،
نهضة مصر 1957 .

- هابردل، ثور : رحلات روح، تلخيص ميشيل تكللا. القاهرة، دار المعارف، 1973. (قرأ 362).
- هيننج، إيلين : مغامرات في إفريقيا، ترجمة فاروق غورشييد. القاهرة، مكتبة مصر، 1956.
- هيرونوت : هيرونوت في مصر، ترجمة وهيب كامل. القاهرة، دار المعارف، 1946.
- وطن، إليزابيث ج : قصص الرحالة والكشافين، ترجمة أحمد سخاكي وإدوارد رياض. القاهرة، مطبعة شركة الإعلانات الشرقية، 1953.
- ولسن، أندرو : في قلب أفغانستان، تعريب عمر النجاروي. بيروت، دار الشمالي (د.ت).
- وليامس، أ.د : أميركي في البلاد العربية، تعريب عمر أبو النصر. بيروت، مكتبة المعارف (د.ت).

المفهرس

5	مقدمة
15	مدخل
35	القسم الأول : تجنيس الرحلة
37	الفصل الأول : الرحلة، المفهوم والأسس
81	الفصل الثاني : من المنصر الى البنية
119	الفصل الثالث : الأنواع ومرجع العين والذاكرة
120	الرحلة الفعلية
120	الرحلة التخيلية
157	القسم الثاني : آليات الكتابة في النص الرحلي ..
159	الفصل الأول : عتبات النص الرحلي
161	العنوان العلامة السردية
172	خطاب التقديم وتأطير النص
192	البداية والمشهد الجذري
213	الفصل الثاني : السرد وبنية الجملة
261	الفصل الثالث : البناء والخصوصية
263	الصورة

284	الراوي وتلويت الكتابة
296	الأعر
315	الفصل الرابع : المبدأ الواقعي
317	بنية الفضاء والزمن
332	آليات تلقي الأعيلة
351	الفصل الخامس : شعرية النص الرحلي
369	القسم الثالث : خطاب المتخيل
379	الفصل الأول : الحلم
421	الفصل الثاني : العجائبي
463	تركيب
473	1- قائمة بأسماء المراجع والمصادر
482	2- قائمة بأسماء المؤلفات الجماعية
484	3- المعاجم والموسوعات
485	4- المجلات والنوثرات
486	5- ملحق بيلوغرافي

صدر في السلسلة

- ١ - الحلقة المفقودة في القصة المصرية د. سيد حامد الساج
- ٢ - مسرح الثقافة الجماهيرية..... د. فؤاد دوارنة
- ٣ بناء لغة الشعر د. تاليف جون كوين
ترجمة : د. أحمد درويش
- ٤ معنى الفن د. تاليف هريت ريد
ترجمة : سامي خشبة
- ٥ - روايات عربية معاصرة د. كمال نشأت
- ٦ - البطل في المسرح الشعري المعاصر د. حسين علي محمد
- ٧ في نقد الشعر د. كمال نشأت
- ٨ سرادقات من ورق د. صبري حنا
- ٩ - ثقافتنا بين نعم ولا د. غالي شكرى
- ١٠ - إشكاليات القراءة وآليات التأويل د. نصر حامد أبو زيد
- ١١ - مقدمة في نظرية الأدب د. تاليف تيسرى إيجلسون
ترجمة أحمد حسان
- ١٢ - التوتر والعاطفون د. حلمي سالم
- ١٣ - الإنسان بين الغربة والمطاردة د. محمد محمود عبدالرازق
- ١٤ - ملاحظات نقدية د. نعيم عطية
- ١٥ - في القصة العربية د. يوسف حسن نوفل
- ١٦ - نجيب محفوظ - صداقة جيلين د. محمد جبريل
- ١٧ - النقد المسرحي في مصر د. أحمد شمس الدين الحجاجي
- ١٨ - قضايا المسرح المصري المعاصر د. أحمد مخوض
- ١٩ - رؤية فرنسية للأدب العربي د. أحمد درويش
- ٢٠ - الأدب والجنون د. شاكر عبدالحفيد

- ٢١- المرقى واللامرلى د. رمضان بطاويى
- ٢٢- المعنى المرفوع د. رشيد العنانى
- ٢٣- إنتاج الدلالة الأدبية د. صلاح فضل
- ٢٤- كلاسيكيات السينما على أبو شاذى
- ٢٥- من الصمت إلى التمرد إدوار الخراط
- ٢٦- مدخل إلى ما بعد الحداثة أحمد حسان
- ٢٧- مراجعات فى القصة والرواية عبد الرحمن أبو عوف
- ٢٨- الخطاب المسرحى أحمد عبد الرازق أبو العلا
- ٢٩- قراءات فى ابتداعات معاصرة محمود عبد الوهاب
- ٣٠- نقد الشعر العربى من منظور يهودى د. محمد نجيب التلاوى
- ٣١- تقابلات الحداثة د. محمد عبد المطلب
- ٣٢- دعوة يوسف إدريس المسرحية د. ابراهيم حمادة
- ٣٣- أبحاث مؤثر أدباء مصر فى الأقاليم مجموعة من الكتاب
- ٣٤- مدخل إلى علم القراءة الأدبية مجدى أحمد توفيق
- ٣٥- أغنية للاكتمال دراسات فى أدب الفيلوم
- ٣٦- أساليب التمرد فى الرواية العربية د. صلاح فضل
- ٣٧- ألقى النص الروائى عبد العزيز موالى
- ٣٨- القصة تطوراً وغمراً يوسف الشاروى
- ٣٩- الحقول الخضراء محمد محمود عبد الرازق
- ٤٠- السينما المصرية ١٩٩٤ على أبو شاذى
- ٤١- أحزان الشعراء محمود حنفى كساب
- ٤٢- لسانيات الاختلاف د. محمد فكرى الجزار
- ٤٣- دراسات فى المسرح المعاصر محمد السيد عيد
- ٤٤- تقابلات الحداثة د. محمد عبد المطلب
- ٤٦- دراسات مؤثر الأقاليم (الجزء الأول)
- ٤٧- دراسات مؤثر الأقاليم (الجزء الثانى)

- ٤٨ - الخلفاء والضيعة محمود نسيم
- ٤٩ - العرض المسرحي حمادة ابراهيم
- ٥٠ - من الصوت الى النص د. مراد عبد الرحمن مبروك
- ٥١ - الأفلام المصرية كمال رمزي
- ٥٢ - أزمة الشعر مجموعة مؤلفين
- ٥٣ - من أساليب السرد العربي المعاصر د. مديحت الجيار
- ٥٤ - أساليب الشعرية د. صلاح فضل
- ٥٥ - ثقافة المقاومة مجموعة من المؤلفين
- ٥٦ - دراسات في الدراما والفن حمادة ابراهيم
- ٥٧ - الحراك الأدبي أسجد زيان
- ٥٨ - ثورة الأدب محمد حسين هيكل
- ٥٩ - تيار الوعي في الرواية المصرية د. محمود الحسيني
- ٦٠ - ألوان من الفن الفرنسي المعاصر محمد علي الكردي
- ٦١ - قراءة الأدب عبر الثقافات د. ماري فريز عبد المسبح
- ٦٢ - الأفلام المصرية لعام ٩٦ كمال رمزي
- ٦٣ - تحطيم الشكل - خلق الشكل د. صلاح السروي
- ٦٤ - البحث عن طريق جديد عبد الرحمن أبو عوف
- ٦٥ - الثقافة والإعلام مجموعة مؤلفين
- ٦٦ - رحلة الموت في أدب نجيب محفوظ حسين عبد
- ٦٧ - مقدمة في نظرية الأدب د. عبد المنعم تليمة
- ٦٨ - ما وراء الواقع إدوار خراط
- ٦٩ - بسر العسل حاتم الصكر
- ٧٠ - الأفلام المصرية ٩٨ كمال رمزي
- ٧١ - مصر المكاف محمد جبريل
- ٧٢ - بين الفلسفة والأدب علي أنعم
- ٧٣ - هوامش من الأدب والنقد علي أنعم

- ٧٤ - المسرح المصري الحديث حمدي عبد العزيز
- ٧٥ - الاستهلال ياسين النصير
- ٧٦ - ظلال مطبقة محمد ابراهيم أبو سنة
- ٧٧ - التراث النقدي د. أحمد درويش
- ٧٨ - الخطاب الثقافي للإبداع د. رمضان بيطاوي
- ٧٩ - استراتيجية المكان د. مصطفى الطبع
- ٨٠ - علم الجمال الأدبي سامي اسماعيل
- ٨١ - مرادفات من ورق د. صبري حافظ
- ٨٢ - المأزق العربي ومواجهة التطبيق مجموعة من المؤلفين
- ٨٣ - أدب الدقهلية مجموعة من المؤلفين
- ٨٤ - بوابة جبر الخواطر محمد مستجاب
- ٨٥ - شفرات النص د. صلاح فضل
- ٨٦ - التناهي في شعر السبعينيات فاطمة قنديل
- ٨٧ - فقه الاختلاف د. محمد فكري الجزاز
- ٨٨ - الأفلام المصرية ٩٨ كمال رمزي
- ٨٩ - بلاغة الكذب د. محمد بدوي
- ٩٠ - التراث والقراءة ابن الوليد يحيى
- ٩١ - مسيرة الرواية في مصر د. حامد أبو أحمد
- ٩٢ - النص للشكل د. محمد عبد المطلب
- ٩٣ - الصورة الفنية في شعر علي الجارم .. د. محمد حسن عبد الله
- ٩٤ - دراسات عربية في الأدب والفكر د. محمد علي الكردي
- ٩٥ - مقاربة البحث عبد العزيز الدسوقي
- ٩٦ - تحولات النظرة وبلاغة الانفصال عبد العزيز موالى
- ٩٧ - شعر الجدلثة في مصر إدوارد الخراط
- ٩٨ - سايكولوجية الشعر نازك الملايكة
- ٩٩ - رواية التحولات الاجتماعية أمجد ريان

- ١٠٠- آليات السرد في الرواية العربية المعاصرة د. مراد مبروك
- ١٠١- تأويل العابر البهاء حسين
- ١٠٢- الفلسطينيون والأدب المقارن عز الدين المناصرة
- ١٠٣- أنساق القيم طلعت رضوان
- ١٠٤- الرجدان في فلسفة سوزان لانجر د. السيدة جابر خلاف
- ١٠٥- التجريب في القصة هشام الحاج علي
- ١٠٦- لغة الشعر الحديث د. مصطفى رجب
- ١٠٧- الوعي الحضاري وأساطير التصور ناجي رضوان
- ١٠٨- كبرياء الرواية محمود حنفي كساب
- ١٠٩- الرواية والمدينة د. حسين حمودة
- ١١٠- الحضور والحضور المضاد د. عبد الناصر هلال
- ١١١- الراوي في روايات محمد البساطي شحات محمد عبد المجيد
- ١١٢- بلاغة التوصل وناسي النوع د. ألفت الروبي
- ١١٣- روايات من بحري حسنى سيد لبيب
- ١١٤- بلاغة السرد د. محمد عبد المطلب
- ١١٥- مسرح صلاح عبد الصبور - ج ١ د. أحمد مجاهد
- ١١٦- مسرح صلاح عبد الصبور - ج ٢ د. أحمد مجاهد
- ١١٧- وجهة النظر في روايات الأصوات العربية د. محمد نجيب التلاوي
- ١١٨- القصيدة الحديثة عبد المنعم عواد يوسف
- ١١٩- الإبداع والحرية رمضان بستانويس
- ١٢٠- نورات ومساحات حسن الجوخ
- ١٢١- الرحلة إلى الأدب العربي د. شعيب حليلى

المؤلف

د. شعيب حليفي من المغرب
أستاذ محاضر بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
بنمسيك، الدار البيضاء.

صدرت له :

■ مساء الشوق (رواية) ط. 1، المغرب، 1992
(نقلت)

■ زمن الشاوية (رواية)، ط. 1، المغرب،
1994، ط. 2، القاهرة، 1999

■ رائحة الجنة (رواية)، ط. 1، المغرب،
1996

■ شعرية الرواية الفانتازيكية (كتاب نقدي)،
ط. 1، القاهرة، 1997

■ الرحلة في الأدب العربي (كتاب نقدي)، ط.
1، القاهرة، 2000

رقم الإيداع : ٢٠٠٢/٩٧٧٠

